رواية

جوزيف كونراد

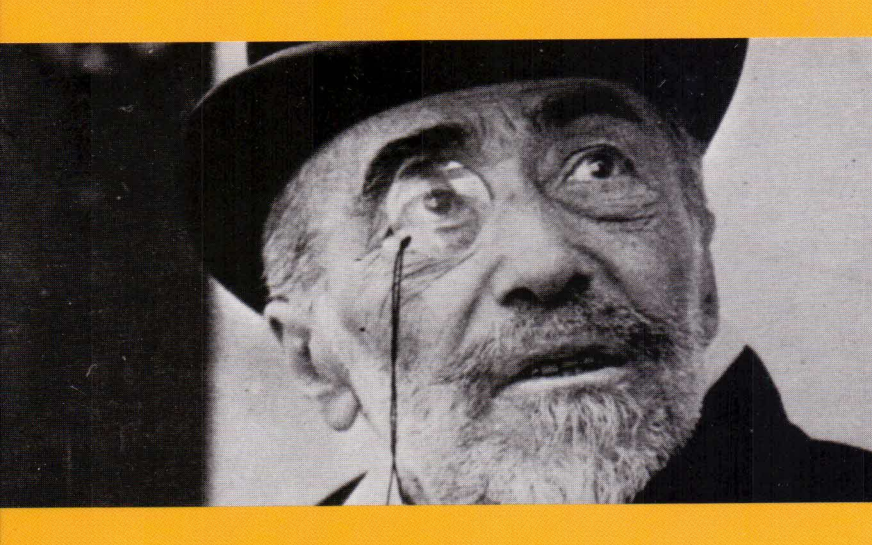
العميل السري

ترجمتها عن الإنكليزية: **ميادة خليل**



ضحكة قوية من الرفيق أوسيبون اختصرت الخطبة العنيفة المسهبة الميتة إلى تلعثم مفاجئ في اللسان، وتقلّب مرتبك لعينيّ المبشّر اللطيفتين المهيبتين. أغلقهما ببطء للحظة كما لو أنه يستجمع أفكاره المهزومة. ساد الصمت المكان، لكنْ مع إنارة شعلتي الغاز على المائدة ووهج الموقد أصبحت غرفة الجلوس الصغيرة خلف دكّان السيد ڤيرلوك مكاناً ساخناً بشكل مروّع. السيد ڤيرلوك ترجّل من الأريكة مع عدم رغبة وتثاقل، وفتح الباب الذي يؤدّي إلى المطبخ للحصول على المزيد من الهواء، وهكذا ظهر البريء ستيڤي، يجلس بشكل معتدل وبهدوء إلى طاولة خشبية، ويرسم دوائر، دوائر، دوائر، عدداً لا يُحصى من الدوائر متّحدة المركّز، غير متراكزة، دوّامة لامعة من الدوائر التي من خلال كثرتها المعقّدة من المنحنيات المتكرّرة وتماثلها من حيث الشكل وفوضى خطوطها المتقاطعة أوحت بتصوير لفوضى كونية، رمزية فنّ مجنون يسعى إلى المستحيل. الفنان لم يحرّك رأسه أبداً، وبكل مثابرة لأداء هذه المهمّة كان ظهره يرتعش، ورقبته النحيلة الغارقة في تجويف عميق عند قاعدة الجمجمة، كما لو أنها متهيّئة للكسر.

المتوسط

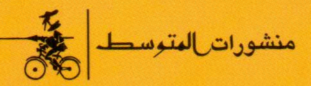


جوزيف كونراد: أديب إنكليزي بولندي الأصل ولد فيما كان يعرف بأوكرانيا البولندية عام ١٨٥٧.

كونراد هو واحد من أكبر الكتّاب المحدثين. استكشفَ في أعماله أغوار الضعف والاضطراب الأخلاقي الكامنين في النفس البشرية، وصوَّر الخطر الكامن في مظاهر الطبيعة من بحار وعواصف وأدغال، وكفاح الإنسان في مواجهتها، فضلاً عن اهتمامه بقضايا التفرقة العنصرية والاستعمار.

توفى عام ١٩٢٤ بنوبة قلبية، وفي إرثه الأدبي ١٣ رواية و٢٨ قصة قصيرة.

(تفاصيل أكثر عن المؤلف داخل الكتاب)



منشورات المتوسط

«واحدة من روائع كونراد، وهي من كلاسيكيات الدرجة الأولى بلا منازع التي أضافت إلى الأدب الروائي».

الناقد الإنكليزي إف. آر. ليفس

يُعدّ كونراد من أعظم الروائيين باللغة الإنكليزية، وهو أحد رواد الحداثة، رغم أن أعماله تحتوي عناصر واقعية القرن التاسع عشر. أثّر أسلوبه السردي وشخصياته غير البطولية في عديد من المؤلفين، بمن فيهم سكوت فيتزجيرالد، ووليام فولكنر، وإرنست همنغواي، وجورج أورويل، وغابرييل غارسيا ماركيز، وسلمان رشدي.

يعتبر العديد من النقاد والدارسين هذه الرواية من بين أفضل روايات كونراد. هي واحدة من الأعمال الأولى في الأدب الإنكليزي التي تستكشف بشكل جاد موضوع الإرهاب. كما أنها -أيضاً- تُعتبر من قبل العديد من المختصين العلميين واحدة من روايات التجسس الأولى من القرن العشرين.

جُسدت هذه الرواية في أعمال فنية عدة، فعرضت في المسرح عشرات المرات، واقتُبست في أفلام سينمائية، وعدة مسلسلات على قنوات تلفزيونية أخرها كانت على قناة الـ بي بي سي.


ISBN 978-88-99687-78-6
9 788899 687786

المتوسط

العميل
السري

المؤلف: جوزيف كونراد / المترجم: ميادة خليل / عنوان الكتاب: العميل السري
مراجعة وتدقيق: منصور العمري
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-78-6



منشورات المتوسط
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

جوزيف كونراد

العميل السري

ترجمتها عن الإنكليزية: ميادة خليل



المتوسط

الأدب هو التاريخ، تاريخ البشرية، ولا شيء آخر. بل هو أكثر من ذلك، الأدب يقف على أرضية صلبة، يعتمد وجوده على واقعية الظواهر، ورصد الأحداث الاجتماعية، بينما التاريخ يعتمد على الوثائق، وقراءة المطبوع والمكتوب - يعتمد على انطباع مستعمل. لهذا، الأدب أقرب إلى الحقيقة. لكنْ بغضّ النظر عن هذا. المؤرّخ فنّان أيضاً، والروائي هو المؤرّخ، الحامي، الحارس، والمفسّر للتجربة الإنسانية.

جوزيف كونراد

مقدّمة الكاتب

بداية العميل السّرّيّ: الموضوع، المعالجة، الغرض الفنّي، وكل دافع آخر قد يُحفّز الكاتب على الإمساك بقلمه، يُعزَى كما أظنّ إلى مرحلة ردّ فعل عقلي وعاطفي.

الحقائق الفعلية هي أني بدأتُ هذا الكتاب باندفاع، وكتبتُه دون توقّف. وعندما حان الوقت المحدّد لإرساله وعرضه على القرّاء، وجدتُ نفسي أُوبَّخ على إصداره. بعض التوبيخ كان شديداً، والآخر كان ملاحظة محزنة. لم أحصل عليها نصّيّاً، لكني أتذكّر تماماً الاستنتاج العامّ الذي كان بسيطاً جداً، وكذلك دهشتي من طبيعته. هذا كلّه يبدو قصّة قديمة جداً الآن! رغم أنه لم يمرّ وقت طويل على ذلك. يجب أن أقول إني حافظتُ على كثير من براءتي الفطرية عام ١٩٠٧. يبدو لي الأمر الآن أنه حتّى أيّ شخص ساذج قد يتوقّع أن بعض الانتقادات قد استندت إلى أساس البيئة البائسة والفساد الأخلاقي في الحكاية.

ذلك اعتراض جادّ بالتأكيد، إلا أنه لم يكن عالمياً. في الحقيقة، يبدو من المبتذل تذكّر الاستنكار القليل جداً من بين كثير جداً من الإعجاب المنطقي والمتعاطف، وأثق بأن قرّاء هذه المقدّمة لن يبادروا إلى اعتبارها نتيجة لغرور مجروح أو نزعة طبيعية إلى الجحود. أفترض أن القلب الخيّر يمكن أن يعزو خياري ببساطة إلى تواضع طبيعي. رغم أنه ليس التواضع بالضبط ما جعلني أنتقي التأنيب لتصوير حالتي. لا، على الإطلاق، ليس

التواضع. لستُ متأكداً تماماً من تواضعي، لكن أولئك الذين قرؤوا أعمالي - حتّى الآن - سيمنحونني ما يكفي من الحشمة والبراعة واللباقة، أو سمِّها ما شئتَ، لمنعي من تأليف أغنية لمجدي من كلمات أناس آخرين، لا! الدافع الحقيقي لاختياري يكمن في ميزة مختلفة تماماً. وهو أنه لديّ ميل لتبرير تصرّفي دائماً.

ليس للدفاع، أو للتبرير. ليس الإصرار على أني كنتُ على حقّ، لكنْ ببساطة، لتوضيح أنْه ليس هناك نيّة سيّئة أو سخرية مستترة في حقيقة دوافعي فيما يتعلّق بحساسيات البشر الطبيعية.

هذا النوع من الضعف خطير - فقط - حين يُعرّض المرء إلى خطر أن يصبح مملاً، لأن العالم عموماً، ليس مهتماً بدوافع أيّ تصرّف عَلَني، لكنْ بتبعاته. ربمّا يبتسم المرء، ويبتسم، لكنه ليس حيواناً مولعاً بالبحث. هو يحبّ الوضوح. ينفر من التفسيرات. حتّى أنا، سوف أمضي قُدُماً مع ما لديّ. من الواضح أني لا أحتاج إلى كتابة هذا الكتاب. لم أكن مضطراً للتعامل مع هذا الموضوع، استخدام كلمة موضوع، سواء بمعنى القصّة نفسها، وفي أكبر وحدة من مظهر خاصّ في حياة البشر. أعترف بهذا تماماً. لكن فكرة الإسهاب في الموضوع مجرّد قبح، من أجل صدمة، أو حتّى مفاجأة قرّائي - ببساطة - من خلال تغيير الواجهة، لم يدخل في رأسي أبداً. في صياغة هذه العبارة، أفترض أني مُصدَّق ليس بناء على أدلّة شخصيّتي العامّة فحسب، ولكنْ من أجل المنطق الذي يمكن لأيّ أحد أن يدركه، بأن المعالجة الكاملة للقصة، غضبها المُلهم، الشفقة والاحتقار المضمر، أثبتت انفصالي عن القذارة والخسّة الكامنة - ببساطة - في الظروف الظاهرية للقصّة.

أتت رواية العميل السّرّيّ مباشرة بعد سنتين من الانهماك الشديد

في مهمّة كتابة نوسترومو، تلك الرواية النائية بأجوائها اللاتينية - الأمريكية القَصيّة، و مرآة البحر بذاتيتها العميقة. الأولى، كانت جهداً إبداعياً مكثّفاً، افترضتُ أنه سيبقى دائماً أكبر شراع لي، والثانية كانت محاولة صريحة للكشف للحظة عن الحميميات الأعمق للبحر والتأثيرات الشكلية لنصف حياتي تقريباً. أيضاً هي مرحلة كان فيها حسّي بحقيقة الأشياء زاخراً بخيال قوي جداً، واستعداد عاطفي، كان حقيقياً ومخلصاً للحقائق كما كانت، وجعلني أشعر (عند انتهاء المهمّة)، كما لو أني قد تُركت وحيداً، بلا هدف بين قشور الأحاسيس وُضِعت في عالم من قِيَم دنيا أخرى.

لا أعلم ما إذا كنتُ قد شعرتُ حقاً أني بحاجة إلى تغيير، تغيير في مخيّلتي، في رؤيتي، وفي سلوكي العقلي. في الواقع، أظنّ أن تغييراً في مزاجي الأساسي قد سُرق من وعيي على حين غفلة. لا أتذكّر أيّ حادثة محدّدة. مع الانتهاء من مرآة البحر بوعي كامل تقاسمتُه بعدل مع نفسي وقرّائي في كل سطر من ذلك الكتاب، لم أستسلم لفترة استراحة بائسة. وبعد ذلك، وبينما كنتُ لا أزال مستقرّاً - إذا جاز التعبير، ومن المؤكّد دون التفكير في الخروج عن أسلوبي في البحث عن أيّ شيء قبيح، جاءني موضوع العميل السّرّي، أعني الحكاية، على شكل بضع كلمات، قالها صديق في حديث عفوي عن الفوضويين، أو بالأحرى النشاطات الفوضوية، كيف استُحضر الموضوع؟ لا أذكر الآن.

أتذكّر مع ذلك ملاحظة عن العَبَث الإجرامي للموضوع برمّته، عن العقيدة والأحداث والعقلية، وعن الجانب الوضيع للادّعاء شبه المجنون، باعتباره خداعاً وقحاً يستغلّ مآسي مؤثّرة وسذاجة عاطفية لجنس بشري حريص دائماً وبشكل مأساوي على تدمير ذاته. هذا ما جعل ذرائعها الفلسفية لا تُغتفَر بالنسبة لي. في الوقت الحاضر، ومروراً بحالات معيّنة،

استذكرنا القصة القديمة لمحاولة نسف مرصد غرينتش(*)، تفاهة ملطّخة بالدماء لحماقة من المستحيل فَهْم منشئها بأيّ طريقة تفكير عقلانية، أو حتّى غير عقلانية. لكن هذا الغضب لا يمكن أن تسيطر عليه ذهنياً بأيّ طريقة كانت، لذا ظلّ المرء يواجه حقيقة أن تَفَجُّر رجل إلى أشلاء من أجل لا شيء، أبعد ما تكون عن فكرة مشابهة، فوضوية أو غيرها. كما أن الجدار الخارجي للمرصد لم يُظهر أكثر من تصدُّع طفيف.

وضّحتُ هذا كلّه لصديقي الذي ظلّ صامتاً لبعض الوقت، وبعد ذلك أبدى رأيه بطريقته غير الرسمية المميّزة وأسلوب العالِم بكل شيء: «أوه، ذلك الرجل كان شبه أحمق. انتحرتْ أخته فيما بعد». كانت هذه بالطبع الكلمات الوحيدة التي تبادلناها معاً، مفاجأة عظيمة في هذا النموذج غير المتوقّع من المعلومات أبقتْني محبطاً للحظة، وبدأ صديقي فجأة الحديث عن شيء آخر. لم يخطر لي سؤاله فيما بعد عن كيفية توصُّله إلى هذه المعرفة. أنا متأكّد من أنه لو رأى مرّة واحدة في حياته الحياة السالفة لرجل فوضوي، لأصبح ذلك مجال علاقته كله مع عالم الجريمة. كان - على أيّ حال - رجلاً، يحبّ الحديث مع كل أصناف البشر، وربّما جمع تلك الحقائق المضيئة من مصادر غير مباشرة، من الكنّاس، من ضابط شرطة متقاعد، من رجل غامض بعض الشيء في النادي الذي يرتاده، أو حتّى من رئيس وزراء، التقاه في حفلة استقبال عامّة أو خاصّة.

فيما يتعلّق بالخاصّيّة التنويرية، لا يمكن أن يكون هناك شكّ على أيّ حال. يشعر المرء كما لو أنه خرج من غابة إلى سهل، ليس هناك كثير ليراه، لكنه سيحصل على كثير من الضوء. لا، لن ترى الكثير، وبصراحة، لفترة طويلة لم أحاول حتّى أن أفهم أيّ شيء. ما بقيَ كان الانطباع التنويري

*) في ١٥ فبراير، ١٨٩٤ - بالتحديد - تعرّض المرصد لمحاولة اعتداء إرهابية.

وحسب، ظل مُرضياً بالنسبة لي، لكنْ بطريقة سلبية. وبعد ذلك بحوالي أسبوع تقريباً، عثرتُ على كتاب لم يحقّق أيّ شهرة على حدّ علمي، كان بالأحرى ملخّصاً لذكريات المفوّض المساعد في الشرطة: رجل مقتدر بشكل واضح مع نزعة دينية قوية في شخصيّته، وعُيّن بمنصبه في وقت الاعتداءات بالديناميت في لندن في ذلك الوقت، نهاية عقد الثمانينيات. الكتاب كان مشوّقاً إلى حدّ ما، ومتحفّظ جداً بكل تأكيد. نسيتُ الآن الجزء الأكبر من محتواه. لم يتضمّن الكتاب الكشف عن الحقائق، كان مراجعة سريعة بشكل مقبول، وهذا كل شيء. لم أحاول حتّى شرح لماذا أسرني مقطع صغير من حوالي سبعة سطور، ينسخ فيه الكاتب (أظنّ أن اسمه أنديرسون) حواراً قصيراً، عُقد في رواق مجلس العموم بعد عدّة أعمال عنف فوضوية غير متوقّعة مع وزير الداخلية. أظنّ أنه كان السيد ويليام هاركورت في ذلك الوقت. كان متوتّراً جداً، وكان الموظّف يعتذر له بشدّة. العبارة التي تداولها هؤلاء الثلاثة، والتي لفتت انتباهي، هي ملاحظة السيد هاركورت الغاضبة: «هذا كله جيّد جداً. لكنْ يبدو أن فكرتكَ عن السّرّيّة تنحصر في إخفاء المعلومات عن وزير الداخلية». وهذا ما يميز مزاج السيد ويليام هاركورت، لكنْ هذه الملاحظة ليست ذات أهمّيّة بحدّ ذاتها. يجب أن يكون هناك على أيّ حال نوع من الشعور العامّ للحادث ككل، لأني شعرتُ بالحماس بغتةً. وأعقب ذلك في عقلي ما يفهمه طالب الكيمياء بشكل أفضل ممّا يشبه إضافة قطرة صغيرة جداً من العنصر الصحيح تعجّل عملية التبلور في أنبوب اختبار، يحتوي على قليل من محلول عديم اللون.

ما تداوله هؤلاء الثلاثة، ولفتت انتباهي كانت ملاحظة السيد هاركورت الغاضبة: «هذا كلّه جيد جداً. لكن فكرتكَ عن السّرّيّة يبدو أنها تنحصر في إخفاء المعلومات عن وزير الداخلية» خصوصية مميّزة لمزاج السيد

دبليو. هاركورت، لكن الملاحظة ليست ذات أهمّيّة بحدّ ذاتها. يجب أن يكون هناك على أيّ حال نوع من الجوّ العام للحادث ككل، لأني شعرتُ بالحماس بغتةً. وأعقب ذلك في عقلي ما يفهمه طالب الكيمياء بشكل أفضل عن التجانس لإضافة قطرة صغيرة جداً من العنصر الصحيح، تعجّل عملية التبلور في أنبوب اختبار، يحتوي على قليل من محلول عديم اللون.

في البداية، كان الأمر - بالنسبة لي - مجرّد تغيير فكري، إزعاج مخيّلة هدأتْ، فيها أشكال غريبة، حادّة في خطوطها العريضة، لكنها غير مفهومة، تظهر وتجذب الانتباه مثلما تجذبنا البلورات في أشكالها الغريبة وغير المتوقّعة. يتوجّب على المرء تأمُّل ما قبل الحادثة الماضي، جنوب أمريكا، قارّة أشعّة الشمس الجافّة والثورات الوحشية، البحر، المساحة الشاسعة من المياه المالحة، مرآة تجهّم، وابتسامة السماء، القارّة العاكسة لضوء العالم. وبعد ذلك مشهد بلدة هائلة تُقدّم نفسها، بلدة غريبة، سكّانها أكثر من سكّان بعض القارّات، وكما لو أن قوّتها الصناعية غير متأثّرة بتجهّم السماء وابتسامتها. وحش مفترس من نور العالم. كان هناك مجال كافٍ لوضع أيّ قصّة، عمق كافٍ لأيّ عاطفة، تنوّع كافٍ لأيّ بُنية، وغموض كافٍ لدفن خمسة ملايين كائن حيّ.

وبشكل لا يُقاوَم، أصبحت البلدة هي الخلفية لفترة لاحقة من التأمّلات العميقة والمؤقّتة. صور ذهنية لا نهاية لها، كُشفت أمامي في اتّجاهات مختلفة. سوف يستغرق الأمر عدّة سنوات حتّى أجد الطريق الصحيح! كان يبدو كما لو أنه استغرق سنوات! ... تنامت ببطء عاطفة الأمومة للسيدة ڤيرلوك حتّى تحوّلت إلى شعور ملتهب بيني وبين تلك الخلفية، تلوّن بحماستها المتكتمة، وتلقّيتُ منه في المقابل بعض صبغته الكئيبة. أخيراً، برزت قصّة ويني ڤيرلوك كاملة من أيّام طفولتها وحتّى النهاية، لا تزال غير

متناسقة، مع كل شيء، ظلّت كما كانت في المستوى الأوّل، لكنها جاهزة للتعامل معها الآن. تطلّب مني الأمر ثلاثة أيّام تقريباً.

هذا الكتاب هو تلك القصّة، اختُصرت إلى مقدار، يسهل التحكّم به، مسارها بأكمله كان يشير ويتمحور حول الوحشية اللامعقولة لانفجار غرينتش بارك. كان لديّ مهمّة هناك، لن أقول شاقّة، بل كانت من أكثر الصعوبات متعة. وكان لابدّ من القيام بها. كانت حاجة ملحّة. الشخصيات التي اجتمعت حول السيدة ڤيرلوك، وارتبطت - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - بشعورها المأساوي من أن «ليس من المستحسن البحث في باطن الأمور»، هي نتيجة هذه الحاجة الملّحة جداً. شخصياً، ليس لديّ أيّ شكّ بواقعية قصّة السيدة ڤيرلوك، لكنْ كان يجب التخلّص من غموضها في هذه البلدة الهائلة، كان لابدّ من خلق مصداقية، لا أعني مصداقية، تشبه روحها، لكنْ تشبه ظروفها، ليس كمثل عقليّتها، لكنْ كمثل إنسانيّتها، لأن آثار البيئة لم تكن معدومة، كان عليّ أن أقاتل بقوّة، كي أحافظ على مسافة بيني وبين ذكريات عزلتي والمشي ليلاً في أرجاء لندن في شبابي، خشية أن تندفع وتطغى على كل صفحة من القصّة، كتلك الذكريات التي تظهر الواحدة تلو الأخرى حسب مزاج جادّ في الشعور والتفكير في كل مرّة كتبتُ فيها سطراً في حياتي. في هذا الصدد، أظنّ حقاً أن «العميل السّرّيّ» عملٌ حقيقي تماماً. حتّى الغرض الفنّيّ المجرّد، الناتج من تطبيق طريقة ساذجة على موضوع من هذا النوع، صيغت بتأنّ وباعتقاد جادّ من أن المعالجة الساذجة وحدها سوف تسمح لي بقول كل ما شعرتُ ورغبتُ في قوله بسخرية، وكذلك بلطف. إنها إحدى قناعاتي القليلة بخصوص كتاباتي، وهي أن اتّخاذ هذا الحلّ الذي ألفتُهُ يعني بالنسبة لي تنفيذه بشكل صحيح حتّى النهاية. كما هو الحال مع الشخصيات التي كانت ضرورة ملحّة للحالة - حالة السيدة ڤيرلوك - برزت أمام خلفية لندن،

ومن الشخصيات أيضاً حصلت على تلك القناعات الصغيرة التي يعوّل عليها بدرجة كبيرة أمام مجموعة من الشكوك المُرهقة التي تطارد بإصرار كل محاولة للعمل الإبداعي. على سبيل المثال، السيد ڤلاديمير نفسه (الذي كان عرضة للنقد بسبب عرض كاريكاتوري). شعرتُ بالامتنان عندما سمعتُ أن رجلاً من ذوي الخبرة في العالم قال إن: «كونراد يجب أن يكون على اتّصال مع هذه الأجواء، وإلا فإنه يمتلك حدساً رائعاً بالأشياء» لأن السيد ڤلاديمير كان «ليس معقولاً في التفاصيل فقط، لكنه محقّ تماماً في المبادئ». أبلغني زائر من أمريكا بعد ذلك أن كل أنواع اللاجئين الثوريين في نيويورك سيظنّون أن مَن كَتَبَ الكتاب هو شخص عرف الكثير عنهم. يبدو لي هذا الكلام ثناء رائعاً جداً، إذا أخذنا بنظر الاعتبار، كما هو الحال مع الحقائق القاسية، أني رأيتُ هذا الثناء أقلّ أهمّيّة من أول اقتراح للرواية، قدّمه لي صديق ذا معرفة غير محدودة. رغم ذلك، ليس لديّ شكّ بأن هناك لحظات مرّت بي في أثناء كتابة الكتاب، كنتُ فيها ثائراً متطرّفاً. لا أريد القول أكثر اقتناعاً منهم، لكني بالتأكيد استعدتُ هدفاً أكثر تركيزاً من أيّ هدف حقّقه أيّ أحد منهم طوال حياته بأكملها. لا أقول هذا للتباهي. أنا ببساطة أهتمّ بعملي. فيما يتعلّق بكُتُبي كلها، كنتُ دائماً أهتمّ بعملي. أهتمّ بعملي مع استسلام ذاتي. وهذه العبارة أيضاً ليست تباهياً. لا يمكن أن أعمل بطريقة أخرى مختلفة. التظاهر يُشعرني بالملل.

اقتراحات بعض شخصيات القصّة، المحترمة للقانون والخارجة عليه على حدّ سواء، جاءت من مصادر مختلفة، ربمّا من هنا وهناك، بعض القرّاء قد يتعرّفون عليها. الشخصيات ليست غامضة جداً. لكني لستُ مَعنياً هنا بإضفاء الشرعية على أفعال أيّ أحد من هؤلاء الناس، وحتّى بالنسبة لوجهة نظري عموماً حول ردود الأفعال الأخلاقية كما هو الحال بين المجرم والشرطة، كلّ ما أجرؤ على قوله هو أن الأمر يبدو بالنسبة لي قابلاً للجدل على الأقلّ.

انقضت اثنا عشر عاماً منذ إصدار الكتاب، ولم تُغيّر موقفي. لم أندم على كتابته. في الآونة الأخيرة، أجبرتْني الظروف - التي لا علاقة لها بالمضمون العام لهذه المقدّمة - على تجريد هذه الحكاية من الرداء الأدبي للازدراء الساخط، الذي كلّفني كثيراً لتعديله بشكل لائق منذ سنوات. كنتُ مُكرَهاً إذا جاز التعبير على معاينة عظامها العارية. أعترف أن هذا قد صنع هيكلاً عظمياً مروّعاً. لكنْ مع ذلك، أودّ توضيح أن رواية قصّةويني ڤيرلوك حتّى نهايتها الفوضوية من التحطيم والجنون واليأس التامّ، وروايتها كما رويتُها هنا، لم أقصد اقتراف إساءة، لا مبرّر لها لمشاعر البشر.

ج. ك. ١٩٢٠ (*)

*) صدرت رواية «العميل السّرّيّ» لأوّل مرّة في عام ١٩٠٧، لم يكتب كونراد هذه المقدّمة حينها حتّى عام ١٩٢٠، عندما نُشرت الرواية كجزء من طبعة، ضمّت أعماله.


العميل
السري

١

خرج السيد ڤيرلوك صباحاً، وترك مسؤولية متجره شكلياً لصهره. كان هذا ممكناً لأن هناك قليلاً جداً من العمل طوال اليوم، وعملياً لا عمل على الإطلاق قبل المساء. لا يهتمّ السيد ڤيرلوك كثيراً بتجارته المزعومة. وبالإضافة إلى ذلك، زوجته كانت هي المسؤولة عن شقيقها.

المتجر كان صغيراً، وكذلك المنزل. كان واحداً من المنازل ذات الطابوق القذر الموجودة بأعداد كبيرة قبل بزوغ عصر إعادة الإعمار في لندن. كان المتجر مساحة مربّعةً من المنزل، بواجهة من ألواح زجاجية صغيرة. في النهار، يظلّ الباب مغلقاً، وفي المساء يُترك موارباً بتحفّظ، لكنْ بشكل مريب.

ضمّت الواجهة صور فتيات يرقصنَ شبه عاريات، وحُزماً غامضة مغلّفة، تشبه الأدوية العامّة التي تُباع بلا وصفة، ومظاريف صفراء مغلقة ورقيقة جداً، كُتب عليها اثنان ونصف شلن بأرقام سوداء عريضة. كان هناك أيضاً بعض المطبوعات الفرنسية المصوّرة القديمة معلّقة على خيط كأنها تُجفّف، ووعاء صيني أزرق باهت وصندوق من الخشب الأسود وزجاجات حبر التحديد، وأختام مطّاطية، بالإضافة إلى عدد من الكُتُب بعناوين تُوحي بالبذاءة، وبعض النسخ القديمة على ما يبدو من صحف مغمورة سيّئة الطباعة، ولها عناوين مثيرة، من قبيل "الشعلة" و"الجرس". كان مصباحا الغاز في الألواح الزجاجية خافتين دوماً، للتوفير أو لراحة الزبائن.

كان الزبائن إما شباباً يتسكّعون قرب الواجهة لبعض الوقت قبل أن يتسلّلوا إلى الداخل فجأة، أو رجالاً في سنّ النضج، لكنْ يبدو عليهم عموماً، كما لو أنهم لا يملكون المال. كان البعض من النوع الأخير يقلبون ياقات معاطفهم لتصل إلى شواربهم، ولديهم آثار طين على الجزء السفلي من ملابسهم الداخلية التي بدت مهترأة جداً، وليس لها قيمة. لم تبدُ السيقان داخلها ، كقاعدة عامّة، ذات قيمة أيضاً. غُرست أيديهم بعمق في الجيوب الجانبية لمعاطفهم، يتسلّلون جانبياً، بكتف واحد أولاً، كما لو أنهم خائفون أن يتسبّبوا في رنّ الجرس.

الجرس المعلّق على الباب بواسطة شريط منحنٍ من الفولاذ، كان من الصعب تفاديه. متصدّع بشكل ميؤوس منه، لكنْ في المساء، عند أقلّ حركة يُصلصل الجرس خلف الزبون بخبثٍ ماجن.

صلصل الجرس، وعند تلك الإشارة، من خلال الباب الزجاجي المغبرّ خلف منضدة المتجر الملونة، يظهر السيد ڤيرلوك على عجل من غرفة الجلوس في الخلف. عيناه ثقيلتان بطبيعتهما، مظهره يبدو كما لو أنه تمرّغ بكامل ملابسه طوال اليوم على سرير غير مرتّب. شخص آخر قد يشعر مع مثل هذا المظهر بنقص واضح. المعاملات التجارية للبيع بالتجزئة تعتمد بشكل كبير على المظهر اللطيف والجذّاب للبائع. لكن السيد ڤيرلوك عارف بعمله، وظلّ غير منزعج من أيّ نوع من الشك الجمالي حول مظهره. مع وقاحة عينين حازمتين ثابتتين، كما لو أنهما تكبحان تهديد شخص مزعج، يشرع ببيع بعض الأشياء التي تبدو - بوضوح، وبشكل فاضح - أشياء لا تستحقّ المال الذي أُنفق في صفقة شرائها: صندوق من الورق المقوّى، ولا شيء كما يظهر في داخله، على سبيل المثال، أو واحدة من تلك المظاريف الصفراء الرقيقة المغلقة بعناية، أو مجلّد متّسخ في غلاف

ورقي مع عنوان مثير. بين الحين والآخر، يحدث أن واحدة من الصور الصفراء الباهتة للفتيات الراقصات تُباع لهاوٍ، كما لو أنها شابّة، وعلى قيد الحياة.

أحياناً كانت السيدة ڤيرلوك هي مَن تظهر استجابة لصوت الجرس المتصدّع. ويني ڤيرلوك، امرأة شابّة مع صدر ممتلئ، في صُدرة ضيّقة، ووركين واسعين. شعرها مرتّب جداً. عيناها حازمتان مثل زوجها، تحافظ على مظهر من لا مبالاة، لا يُسبرَ غورها خلف حاجز المنضدة. وبعد ذلك، الزبون المعتاد لسنوات من العطاء نسبياً سوف يرتبك على نحو مفاجئ من التعامل مع امرأة، ومع غضب في صدره، سوف يقدّم عرضاً لشراء قنّينة من الحبر الأسود بقيمة نصف شلن (السعر في دكّان ڤيرلوك شلن ونصف)، وما إن يخرج، يرميها خلسة في الشارع.

زوّار المساء؛ الرجال بالياقات المقلوبة إلى أعلى والقبّعات الناعمة المائلة إلى أسفل، يومئون بطريقة حميمة إلى السيدة ڤيرلوك، وبتذمّر تردّ التحية، وترفع مصراع المنضدة عند نهايتها، من أجل مرورهم إلى غرفة الجلوس الخلفية التي تؤدّي إلى ردهة، ثمّ إلى عدد من الدرجات شديدة الانحدار. باب المتجر هو الوسيلة الوحيدة لدخول المنزل الذي يدير فيه السيد ڤيرلوك أعماله في بيع السلع المشبوهة، يمارس موهبته في حماية المجتمع، ويُصقل فضائله المنزلية. وهذا الأخير كان واضحاً. كان أليفاً جداً. لم تكن احتياجاته الروحية ولا العقلية ولا الجسمانية من النوع التي تأخذه أبعد من حدود مكانه. يجد في المنزل الراحة لجسده والسلام لضميره، مع اهتمام السيدة ڤيرلوك كزوجة وتقدير واحترام أمّ السيدة ڤيرلوك.

كانت والدة ويني امرأة بدينة، تصفّر في أثناء التنفّس، ولها وجه أسمر كبير. ترتدي باروكة سوداء تحت قبّعة بيضاء. ساقاها المتورّمتان تعوقان نشاطها. كانت تعدّ نفسها فرنسية الأصل، وربّما كانت على حقّ، وبعد

سنوات زواج طويلة من صاحب حانة من نوع شائع جداً، أعانت نفسها في السنوات الأولى من الترمّل بتأجير الغرف المؤثّثة لرجال نبلاء، بالقرب من فوكسهول بريدج رود في مساحة ذات فخامة فيما مضى، ولاتزال موجودة في منطقة بيلغريڤيا. هذه الحقيقة الطبوغرافية كانت إحدى مميّزات الإعلان عن غرفها، لكن زبائن الأرملة الفاضلة لم يكونوا من النوع المألوف تماماً. مثلاً، عند تواجدهم، كانت ابنتها ويني تساعد في مراقبتهم. بقايا من الأصل الفرنسي الذي تفتخر الأرملة بأنه كان ظاهراً بوضوح على ويني أيضاً. اتّضح هذا في الأناقة المفرطة والترتيب الفنّيّ لشعرها الداكن اللامع. تمتلك ويني مفاتن أخرى: شبابها، جسدها الممتلئ، بشرتها الصافية، إثارة تحفّظها الذي لا يُسبر غوره، والذي لا يتجاوز أبداً حدّ قَطْع محادثة، تديرها بحيوية حول جزء مستأجر، أو أجرتها بودٍ رصين. يجب أن يكون السيد ڤيرلوك قد تأثّر بهذه المفاتن. السيد ڤيرلوك كان زبوناً غير منتظم. يأتي ويذهب بدون أيّ سبب واضح. وصل إلى لندن عموماً (مثل الإنفلونزا) من أوروبا، الفرق الوحيد أنه قد وصل بشكل لم تعلن عنه الصحافة، وزياراته تتمّ بحرص كبير. يتناول فطوره على السرير، يظلّ يتقلّب على سريره مع مظهر من المتعة التامة حتّى وقت الظهيرة من كل يوم - وأحياناً حتّى ساعة متأخّرة. لكنْ عندما يخرج يبدو أنه يواجه صعوبة كبيرة في العثور على طريق العودة إلى منزله المؤقّت في ساحة بيلغريڤيا. غادره متأخّراً، وعاد إليه في وقت مبكّر، عند الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً، وعند الاستيقاظ في العاشرة يتحدّث إلى ويني، التي تَحضر مع صينية الإفطار، مع ملاطفة مرحة ومُرهقة ونبرة غليظة مضطربة لرجل، تحدّث بعنف لعدّة ساعات. عيناه البارزتان، مع جفنيه الثقيلين، تنحرفان صوبها بغرام وفتور، الأغطية مسحوبة إلى ذقنه، وشاربه الناعم الداكن يغطّي شفتيه السميكتين البارعتين في قول الكثير من المداعبة المعسولة.

بالنسبة لوالدةويني، السيد ڤيرلوك كان سيّداً لطيفاً جداً. وحسب تجربتها في الحياة في مختلف "المساكن المستأجرة" المرأة الصالحة تأخذ معها إلى عزلتها رجلاً نبيلاً، مثالاً على النبل، من مثل الذين يقدّمهم الراعون لحانات الصالونات الخاصّة. السيد ڤيرلوك اقترب من هذه الصورة المثالية، أو حقّقها بالأحرى.

"بالطبع، سوف نتولّى أمر أثاثكَ، أمّي" أبدتْ ويني رأيها.

كان لابدّ من التخلي عن النُّزل. يبدو أنه لم تكن هناك استجابة لاستمراره. قد يسبّب الكثير من المتاعب للسيد ڤيرلوك، ولن يكون ملائماً لعمله الآخر. لم يُخبر أحداً عن عمله الآخر، لكنْ بعد خطبته، ويني تولّى عناء الاستيقاظ قبل الظهر، ونزول سلّم الطابق الأرضي، يتصرّف بلطف مع والدة ويني في غرفة الطعام في الطابق الأرضي حيث تجلس هناك بدون حراك. يداعب القطّة، يُشعل النار، ويتناول غداءه المُعَدّ له هناك. ترك راحته الخانقة إلى حدّ ما بنفور واضح، لكنْ رغم ذلك، يبقى في الخارج حتّى ساعة متأخّرة من الليل. لم يعرض على ويني الذهاب إلى المسرح مثلما يجب أن يفعل أيّ سيد مهذّب. أمسيّاته كانت مشغولة. عمله كان سياسياً بطريقة ما، قال هذا لـ ويني ذات مرّة. يجب أن تكون - كما حذّرها - لطيفة جداً مع أصدقائه السياسيين. ومع نظرتها المباشرة، المبهمة، أجابتْه بأنها سوف تفعل ذلك بكل تأكيد.

كلّما تحدّث لها عن مهنته أكثر، استحال على والدة ويني كشفها. تولّى الزوجان أمرها مع الأثاث. المظهر الحقير للدكّان فاجأها. الانتقال من الحي البيلغريفي إلى شارع ضيّق في سوهو أثّر سلباً على ساقيها. أصبح حجمهما هائلاً. من جانب آخر، جرّبت الراحة الكاملة من الرعاية المادّية. الطبيعة الحسنة الرصينة لزوج ابنتها منحتها شعوراً بالأمان المطلق.

مستقبل ابنتها مؤكّد بشكل واضح، وكذلك ابنها ستيڤي، لم تكن بحاجة إلى القلق بشأنه. لم تستطع أن تخفي عن نفسها أنه كان عائقاً رهيباً، ذلك الـ ستيڤي المسكين. لكنْ نظراً لولع ويني بأخيها الحسّاس، ولطيبة السيد ڤيرلوك وكرمه، شعرتْ أن الولد المسكين في أمان تامّ في هذا العالم القاسي. ولكنْ في أعماق قلبها لم تكن ربمّا مستاءة من أن ابنتها وزوجها ليس لديهما أطفال. كما أن الظروف تبدو محايدة تماماً للسيد ڤيرلوك، كذلك ويني وجدتْ شيئاً يشبه عاطفة الأمومة مع أخيها، ربمّا كان هذا بالضبط ما شعر به ستيڤي المسكين أيضاً.

بالنسبة له، من الصعب التخلّص من ذلك الصبي. كان حسّاساً، سهل الانقياد، وحسن المظهر أيضاً، باستثناء التدلّي الأحمق لشفته السفلى. في ظلّ نظامنا الممتاز للتعليم الإلزامي تعلّم القراءة والكتابة، رغم المظهر السلبي لشفته السفلى. لكنْ كساعٍ لم يحقّق نجاحاً عظيماً. كان ينسى رسائله، ينحرف بسهولة عن طريقه المفترض لأداء عمله بانجذابه لقطط أو كلاب ضالّة حيث يتبعها في الأزقة الضيّقة إلى ساحات حقيرة، أو لتأمّله كوميدية الشوارع بدهشة على حساب مصلحة صاحب عمله، أو بسبب دراما انفلات زمام الخيول وسقوطها، ومن الشفقة والأذى الذي تتعرّض له يصرخ بمرارة أحياناً في حشد يكرهون إزعاجهم بأصوات استغاثة في متعتهم التامّة لمشاهدة عرض محلي. عندما يرشده رجل الشرطة الحارس والجادّ، غالباً ما يتّضح أن ستيڤي المسكين قد نسي عنوانه، على الأقلّ لبعض الوقت. سؤال فظّ يجعله يتلعثم إلى درجة الاختناق. عندما يُدهشه أيّ شيء محيّر، اعتاد أن ينظر شزراً بشكل مخيف. على أيّ حال، لم يسبق له أن أُصيب بأيّ نوبات (والتي كانت مشجّعة) وقبل ثورة الغضب الطبيعية عند نفاد صبر والده، يمكنه دائماً في طفولته الهرب ليحتمي خلف التنّورة القصيرة لأخته ويني. من جانب آخر، ربمّا كان يشتبه بأنه يخفي مخزوناً

من التهوّر الطائش. عندما وصل إلى سنّ الرابعة عشرة، منحه صديق والده الراحل وكيل شركة أجنبية للألبان المحفوظة فرصة العمل كعامل في المكتب، عُثر عليه في وقت بعد الظهر من يوم غائم في غياب رئيسه منشغلاً بإطلاق الألعاب النارية على الدرج. فجّر في تتابع سريع مجموعة من الصواريخ العنيفة، عجلات كاثرين(*) الغاضبة، فرقعة شديدة للألعاب النارية - وأصبح الأمر خطيراً جداً.

انتشر ذعر هائل في البناية كلها. بفزع، فرّ الموظّفون المختنقون خلال الممرّات المليئة بالدخان، قبّعات طويلة ورجال أعمال مُسنّون، يمكن رؤيتهم ينزلون الدرج متفرّقين تباعاً. لا يبدو أن ستيڤي قد استمدّ أيّ متعة شخصية ممّا فعله. من الصعب اكتشاف دوافعه لهذا الضرب من الإبداع. وفي وقت لاحق، حصلتْ ويني منه على اعتراف مشوّش وغامض. ظهر أن ساعيَّيْن آخرَيْن يعملان في البناية أثارا مشاعره بحكايات عن الظلم حتّى طوّعا شفقته إلى هذه الدرجة من الجنون. لكن صديق والده بالطبع أقاله على الفور، لأنه قد يدمّر عمله. بعد هذه المأثرة الغيرّية أُحيل ستيڤي إلى المساعدة بغسل الصحون في المطبخ في الطابق الأرضي وصبغ جزمات السادة نزلاء النُزل البيلغريڤي. كان من الواضح أن ليس هناك مستقبل لمثل هذه الأعمال. السادة يكرّمونه بشلن بين الحين والآخر. السيد ڤيرلوك قدّم نفسه على أنه أكثر المستأجرين سخاءً. لكن هذا كله لا قيمة له سوى أحد الأمرين، إما الربح، أو التوقّعات، لهذا عندما أعلنتْ ويني خطبتها من السيد ڤيرلوك لم تتساءل أمّها بتأوّه ونظرة خاطفة نحو غرفة غسيل الأطباق، ماذا سيحصل للمسكين ستيڤي الآن!

بدا أن السيد ڤيرلوك كان مستعدّاً لأخذه مع أمّ زوجته ومع الأثاث

---

*) عجلة كاثرين: نوع من الألعاب النارية، عندما تشتعل تدور بسرعة، وتعرض شرراً، ولهباً ملوّناً.

الذي كان كل ما تملكه العائلة. جمع السيد ڤيرلوك كل شيء إلى صدره الرحب الطيّب. رُتّب الأثاث في جميع أرجاء المنزل على أحسن وجه، لكن والدة السيدة ڤيرلوك كانت حبيسة غرفتين خلفيتين في الطابق الأول، ينام ستيڤي سيئ الحظّ في إحداهما. في ذلك الوقت، نما شعر رقيق واهن يخفي مثل ضباب ذهبي الخطّ الحاد لفكّه السفلي الصغير. يساعد أخته بكل حبّ وطاعة في واجباتها المنزلية. فكّر السيد ڤيرلوك في أن بعض العمل سيكون مناسباً له. كان يمضي وقت فراغه في رسم الدوائر بالفرجار وقلم الرصاص على ورقة. استهلك نفسه في تلك الهواية بمثابرة كبيرة، وهو يمدّ مرفقيه، وينحني على طاولة المطبخ. من خلال الباب المفتوح لغرفة الجلوس خلف المتجر، تُلقي أختهويني نظرة عليه، من وقت إلى آخر، بحذر الأمّ.

٢

ترك السيد ڤيرلوك البيت، الواجبات المنزلية، والعمل على حاله في طريقه باتّجاه الغرب في الساعة العاشرة والنصف صباحاً. مبكّراً على غير عادته، كان جسده بأكمله يشعّ سحر العذوبة الندية. ارتدى معطفه الأزرق مفتوح الأزرار، جزمته كانت تلمع، حلق ذقنه منذ لحظات، وكان يلمع بعض الشيء، حتّى جفنَي عينيه الثقيلين اللتين انتعشتا بفضل ليلة من النوم الهادئ تُرسلان نظرات حَذَر نسبي. من خلال أسوار الحديقة العامة، رصدت تلك النظرات المارّين من الرجال والنساء في الشارع، زوجان يتبختران بوئام، آخرون يمشون برصانة، مجموعات يتسكّعون من ثلاثة أو أربعة أشخاص، الفرسان فرادى يراقبون بشكل غير ودّي، نساء يمشينَ فرادى، يتبعهنّ من على مسافة طويلة السائس مع شريط معقود على قبّعته وحزام من الجلد حول معطفه الضيّق. العربات تمشي بخفّة، غالباً عربة بروم(*) بحصانين، عربة فيكتورية هنا وهناك مع جلد بعض الحيوانات البرّيّة في الجزء الداخلي منها، ووجه امرأة وقبّعة تبرز فوق غطاء العربة المطوي. وشمس لندن الاستثنائية، لا يمكن قول أيّ شيء عنها، ما عدا أنها كانت تبدو محتقنة بالدم، بَجّلَت هذا كله بوهجها. معلّقة بعلوّ معتدل فوق زاوية هايد بارك مع جوّ من الحذر الواضح والمعتدل. حتّى

---

*) بروم (brougham): عربة مغلقة بأربع عجلات، نوافذ زجاجية وبابان، مع مقعد أمامي لسائق العربة، تجرّها الخيول، ظهرت في القرن التاسع عشر كوسيلة للنقل، سُمّيت نسبة إلى مصمّم العربة القاضي الأسكتلندي اللورد هنري بيتر بروم.

إن الرصيف تحت قدَمَي السيد ڤيرلوك كان له مسحة من اللون الأصفر الغامق في تلك الإضاءة الوافرة حيث لا السور، ولا الشجرة، ولا البهيمة، ولا الرجل يُلقي ظلّه. ذهب السيد ڤيرلوك غرباً عبر حديقة بلا ظلال، في أجواء من غبار ذهب عتيق. كان هناك ومضات نحاسية حمراء فوق سطوح المنازل، على زوايا الأسوار، على العربات، على أغطية الخيول كلها، على الظهر الواسع لمعطف السيد ڤيرلوك حيث نتج عن هذا انطباع مضجر بالصدأ. لكن السيد ڤيرلوك على الأقلّ لم يكن مدركاً للصدأ. كان يعاين من خلال أسوار الحديقة العامة كل ما يشهد على بذخ البلدة وترفها بعين الرضا. لابدّ من حماية هؤلاء الناس كلهم. الحماية هي الضرورة الأولى للرخاء والترف. لابدّ من حمايتهم، وحماية خيولهم، وعرباتهم، وبيوتهم، وخَدَمهم، ولابدّ من حماية مصدر ثروتهم في قلب المدينة وقلب البلد، يجب حماية كل النظام الاجتماعي المناسب لكسلهم الصّحّيّ من الحَسَد السطحي لعمالهم غير الصّحّيّ. كان يجب ذلك، ويمكن للسيد ڤيرلوك أن يفرك يديه بارتياح، إن لم يكن نافراً من وجهة نظر الدستور من أيّ مجهود غير ضروري. لم يكن كسله صحّيّاً، لكنه مناسب جداً له. كان حريصاً عليه إلى حدّ ما مع نوع من التعصّب الكسول، أو ربمّا بالأحرى مع كسل متعصّب. وُلد لأبوين كادحين، ورغم حياة التعب، اعتنق الكسل بدافع عميق، متعذّر تفسيره، ومُستبدّ مثل الدافع الذي يوجّه خيار رجل لامرأة معيّنة من بين آلاف. كان كسولاً جداً حتّى لمجرّد أن يكون غوغائياً، واعظاً، أو رئيس عمل. وكانت هذه مشكلة كبيرة جداً. كان بحاجة إلى شكل أكثر مثالية للراحة، أو ربمّا كان هو ضحية شكّ فلسفي في فاعلية كل جهد بشري. مثل هذا الشكل من أشكال الكسل يتطلّب، ويقتضي - ضمناً - قدراً معيّناً من الذكاء. السيد ڤيرلوك لم يكن مجرّداً من الذكاء، وفي مفهوم نظام اجتماعي مهدّد ربمّا كان سيغمز لنفسه، إذا لم يكن هناك محاولة لحلّ علامة الشك تلك.

عيناه الكبيرتان البارزتان لم تكونا ملائمتين للغمز. بالأحرى، كانتا من النوع الذي يُغمض بجدّيّة في هجوع مع انطباع مهيب.

متحفّظ وقويّ البنية في مظهر خنزير سمين، مضى السيد ڤيرلوك في طريقه، دون أن يفرك يديه بارتياح، أو يغمز بتشكّك إلى أفكاره. مشى على الرصيف بتثاقل مع جزمته اللامعة، ويوحي مظهره العام بأنه ميكانيكي مقتدر، خرج في عملٍ لحسابه الشخصي. ربّما عمل في كل شيء من صناعة إطار الصور إلى صانع أقفال، وربّ عمل في مجال متواضع. لكنْ كان هناك أيضاً شيء لا يمكن وصفه في مظهره، مظهر لا يمكن أن يحصل عليه ميكانيكي في مزاولة حرفته اليدوية مهما غَشّ في ممارستها: المظهر العامّ لرجال يعيشون في الرذائل، الحماقات، أو المخاوف الدنيئة للبشر، مظهر من العَدَمية الأخلاقية الشائعة لحرّاس جحيم القمار والبيوت المخالفة للقانون، لعملاء المباحث الخاصّة والتحقيق، لباعة الشراب، ويجب أن أقول، مظهر باعة أربطة التنشيط الكهربائية، ومبتكري الأدوية غير المجازة. لكنْ بالنسبة لأولئك المبتكرين لستُ متأكداً، لم أجر تحقيقاً عميقاً حولهم حتّى الآن. كل ما أعرفه أن مظهر هؤلاء المبتكرين قد يكون شيطانياً تماماً. لا ينبغي أن أندهش. ما أريد أن أؤكّده هنا هو أن مظهر السيد ڤيرلوك لم يكن شيطانياً على الإطلاق.

قبل وصوله نايتسبريدج، انعطف السيد ڤيرلوك إلى اليسار للخروج من الطريق الرئيس المزدحم الذي يضجّ بحركة المركبات العمومية المتمايلة والعربات المسرعة إلى بعض الهدوء وتدفّق سريع لحركة العربات. تحت قبّعته التي يرتديها مع إمالة طفيفة إلى الوراء، شعره الناعم الممشّط بعناية إلى نعومة، تتّسم بالوقار، لأن موعده كان مع السفارة. السيد ڤيرلوك، ثابت مثل صخرة - نوع ناعم من الصخور - يسير الآن بمحاذاة شارع، يمكن

وصفه بكل لياقة على أنه شارع خاصّ. في عرضه، فراغه، وامتداده عظمة الطبيعة غير العضوية، المادّة التي لا تموت أبداً. التذكير الوحيد على الوفيات كان بروم الطبيب الواقف في وحشة أغسطس بالقرب من حجر الرصيف. مقارع الأبواب المصقولة كانت تلمع على مَدّ البصر، النوافذ النظيفة تسطع ببريق قاتم ومعتم. وكل شيء كان ساكناً. لكن عربة الحليب تهتزّ بصخب من على مسافة بعيدة، صبيّ الجزّار يقود عربته بالتهوّر النبيل لقائد عجلة في الألعاب الأولمبية، انعطف بقوّة عند الزاوية، وهو يجلس عالياً فوق زوج من العجلات الحمراء. قطّ مع نظرة المُذنب يخرج من تحت الحجارة راكضاً أمام السيد ڤيرلوك لبعض الوقت، ثمّ توجّه إلى قبو آخر، وشرطي غليظ، ينظر بغرابة إلى كل حركة، كما لو أنه أيضاً كان جزءاً من الطبيعة غير العضوية، يندفع كما يبدو بعيداً عن عمود الإنارة، ولا يولي أيّ اهتمام للسيد ڤيرلوك. مع انعطافه إلى اليسار، سلك السيد ڤيرلوك طريقه بمحاذاة شارع ضيّق إلى جانب جدار أصفر كُتب عليه، ولسبب غير معروف، بحروف سوداء رَقْم ١ تشيشم سكوير. كانت تشيشم سكوير على بُعد ستّين ياردة على الأقلّ، والسيد ڤيرلوك عالمي إلى الحدّ الذي يجعله لا ينخدع بأسرار طوبوغرافية لندن، واصل سيره بثبات دون أيّ دلالة على مفاجأة، أو سخط. أخيراً، ومع إصرار عملي، وصل إلى تشيشم سكوير، وانحرف بمساره إلى الرَّقْم ١٠. هذا ينتمي إلى بوّابة نقل فخمة في جدار عالٍ ونظيف بين بيتين حيث حمل أحدهما الرَّقْم ٩ والآخر ٣٧، لكن الحقيقة هي أن الأخير ينتمي إلى بورتهيل ستريت، شارع معروف في الحي، كان معروفاً بنقشٍ معيّن وُضع فوق نوافذ الطابق الأرضي من قِبَل سلطة، أياً كانت كفاءتها، كُلّفت بواجب العناية ببيوت لندن المهملة. لماذا لم تطلب السلطات من البرلمان فرض عودة تلك الصروح إلى حيث تنتمي؟ (لو كان عملاً صغيراً لقامت به) هذا واحد من أسرار البلدية الإدارية. السيد

ڤيرلوك لا يُشغل عقله بهذه الأمور، مهمّته في الحياة هي حماية آلية المجتمع، وليس تحسينه أو حتّى نقده.

كان من المبكّر جداً بحيث خرج بوّاب السفارة مسرعاً من منزل الحراسة، وهو ما يزال يتصارع مع الرُّدن الأيسر لمعطفه الوبري. كان صِدَارُ معطفه أحمر، وكان يرتدي بنطلوناً قصيراً، يصل إلى ركبتيه، لكن مظهره كان مرتبكاً. السيد ڤيرلوك كان مدركاً للهجمة على جانبه، أبعدها بمجرّد أن أظهر ظرفاً مدموغاً بختم السفارة، وسُمح له بالدخول. أخرج التميمة نفسها أيضاً للموظّف الذي فتح الباب، وعاد إلى الوراء ليُسمح له بالدخول إلى القاعة. كان هناك نار تحترق في موقد طويل، ورجل مسنّ يقف وظهره للموقد، يرتدي ملابس سهرة رسمية وسلسلة حول عنقه، رفع نظره عن الجريدة التي كان يمسكها مفتوحة بكلتَا يديه أمام وجهه الهادئ والصارم. لم يتحرّك، لكن خادماً آخر، يرتدي برّة خاصّة بالخَدَم، بنطلوناً بنياً وسترة الفراك(*) مع حاشية من شريط أصفر رفيع، اقترب من السيد ڤيرلوك الذي كان يُنصت إلى همس اسمه، استدار على كعبه بهدوء، مشى دون أن ينظر إلى الوراء، ولو لمرّة واحدة. بعد ذلك، قاد السيد ڤيرلوك على طول ممرّ الطابق الأرضي إلى يسار درج مفروش بسجّاد فخم، أشار له فجأة بالدخول إلى غرفة صغيرة جداً مؤثّثة بمكتب ضخم وعدد من الكراسي. أغلق الخادم الباب، وبقي السيد ڤيرلوك وحده. لم يجلس. كان يمسك قبّعته وعصاه بيد، وينظر حوله، يمرّر يده القصيرة البدينة الأخرى على رأسه المكشوف الناعم.

فُتح بابٌ آخر بهدوء تامّ، جمّد السيد ڤيرلوك نظرته في ذلك الاتّجاه، ورأى في البداية ملابس سوداء، رأساً أصلع، تتدلّى شعيرات لحيته الرمادية

---

*) الفراك (frock coat): معطف أو سترة رسمية، تصل إلى الركبتين، مشقوقة الذيل.

الغامقة على جانبي يديه المجعّدتين. كان الرجل الذي دخل يُمسك مجموعة من الأوراق قبالة عينيه، ومشى إلى المكتب بخطوات أنيقة نوعاً ما، وتصفّح الأوراق لبرهة. المستشار الخاصّ وُرمت، مستشار السفارة، كان قصير النظر إلى حدّ ما. هذا الموظّف محلّ الثقة، وضع الأوراق على المكتب، كشف عن وجه شاحب البشرة، وقبح يدعو إلى الكآبة، محاط بالكثير من الشعر الناعم الرمادي الداكن الطويل، وخُطَّ فيه بقوّة حاجبان عريضان وكثيفان. وضع نظّارة أنفية مؤطّرة بإطار أسود على أنفه المدوّر وغير المتناسق، بدا منزعجاً عند ظهور السيد ڤيرلوك. تحت حاجبيه العريضين تَطرفُ عيناه الضعيفتان بشكل مثير للشفقة، من خلال النظّارة.

لم يبدِ أيّ إيماءة للتحية، وكذلك السيد ڤيرلوك الذي عرف مكانه دون سؤال، لكن تغييراً بارعاً في شكل أكتافه وظهره، أوحى بانحناء طفيف للعمود الفقري تحت الظهر الواسع لمعطفه. كان هذا نتيجة تقدير غير ملحوظ.

"لديّ هنا بعض من تقاريرك" قال الموظّف بصوتٍ مُرهَق ولين، وبشكل غير متوقّع، وضغط طرف سبابته على الأوراق بقوّة. توقّف، والسيد ڤيرلوك الذي تعرّف على خطّه جيداً انتظر بصمتٍ حابساً أنفاسه. "لسنا راضين تماماً عن سلوك الشرطة هنا" أضاف الآخر، مع مظهر إجهاد ذهني.

أوحى كتفا السيد ڤيرلوك، بدون أيّ حركة فعلية، أنهما اهتزّا. ولأوّل مرّة منذ أن ترك بيته ذلك الصباح، فتح فمه.

"كل بلد لديه شرطة" قال متفلسفاً. لكن موظّف السفارة تابع النظر إليه بثبات، وشعر بأنه مكرَه ليضيف: "اسمح لي أن أوضح بأني لا أملك أيّ وسيلة للتأثير على الشرطة هنا".

"المطلوب" قال الرجل الذي لديه الأوراق، "هو حدوث شيء معيّن، يحفزَّ حذرهم. داخل مقاطعتكَ - أليس كذلك؟"

السيد ڤيرلوك لم يردّ إلا بتنهيدة، أفلتتْ بشكل لا إرادي، وحاول على الفور أن يمنح وجهه تعبيراً مرحاً. الموظّف نظر بارتياب، كما لو أنه تأثّر بضوء الغرفة الخافت. كرّر بشكل مبهم:

"حذر الشرطة وخطورة القضاة. التساهل السائد للإجراءات القضائية هنا، والغياب التامّ لكل الوسائل القمعية، هي فضائح لأوروبا. ما نتمنّاه الآن هو تصعيد الاضطرابات - الاضطرابات السياسية موجودة، بلا أدنى شك ...".

"بلا شك، بلا شك" تدخّل السيد ڤيرلوك بصوت جهير عميق وجاد ذي نبرة خطابية، تختلف تماماً عن النبرة التي تحدّث بها من قبل، أبقت محاوره متفاجئاً للغاية. "إنها موجودة بدرجة خطيرة. تقريري عن الاثني عشر شهراً الأخيرة، جعلتْها واضحة بما فيه الكفاية".

"تقريرك عن الاثني عشر شهراً الأخيرة" مستشار الدولة وُرمت بدأ بنبرته اللطيفة الهادئة، "لقد قرأتُه من قبل. وأخفقتُ في كشف السبب الذي جعلكَ تكتبه على أيّ حال".

ساد المكانَ صمتٌ حزين لبعض الوقت. كما لو أن السيد ڤيرلوك ابتلع لسانه، والآخر كان يحدّق بالورق على المكتب بثبات. وأخيراً دفعها دفعة طفيفة.

"حال الأمور التي كشفتَها من المفترض وجودها كشرط أساسي في عملكَ. ما هو المطلوب في الوقت الحاضر ليس الكتابة، لكنْ تسليط

الضوء على حقيقة واضحة وهامّة - ما أودّ قوله هو تسليط الضوء على حقيقة مرعبة".

"لا أحتاج أن أقول بأن جهودي كلها سوف تُوجَّه لهذه الغاية" قال السيد ڤيرلوك، مع تحويرات مقنعة في نبرته الحوارية الغليظة. لكنْ شعور أن تُراقَب خلسة خلف البريق الخدّاع لتلك النظّارة على الجانب الآخر من المكتب أربكه. توقّف قليلاً مع إيماءة إخلاص مطلق. النشيط النافع، ولو أن عضو السفارة الغامض بدا معجباً بفكرة، وُلدت حديثاً.

"أنت بدين جداً" قال الموظّف.

هذه الملاحظة في الحقيقة، ذات الطبيعة النفسية، وقيلت مع تردّد خجول لموظّف أكثر دراية بالحبر والأوراق من متطلّبات الحياة الفعلية، جرحت السيد ڤيرلوك مثل ملاحظة شخصية وقحة. تراجع خطوة إلى الوراء.

"ها؟ ماذا كنتَ تودّ أن تقول؟" صرخ باستياء، وصوت أجشّ.

مستشار السفارة، وُكّل بإدارة هذه المقابلة، يبدو أنه وجدها كثيرة جداً عليه.

"أظنّ" قال، "من الأفضل أن ترى السيد ڤلاديمير. نعم، أظنّ بلا تردّد أنكَ يجب أن ترى السيد ڤلاديمير. هلا تكرَّمتَ بالانتظار هنا" أضاف، وخرج بخطوات أنيقة.

مرّر السيد ڤيرلوك يده على رأسه مباشرة. تصبّب عَرَقٌ قليل على جبينه. سمح للهواء أن ينفذ من بين شفتيه المزمومتين مثل رجل نفخ على ملعقة من الحساء الساخن. لكنْ عندما ظهر الخادم الأسمر عند الباب بهدوء، لم يتحرّك السيد ڤيرلوك من مكانه الذي شغله طوال المقابلة إنشاً واحداً. ظلّ ساكناً كما لو أنه شعر بنفسه محاطاً بالشِّراك.

مشى في ممرّ مضاء بفانوس غاز واحد، وبعد ذلك، حلّق على درج لولبي، وفي رواق مزجّج ومضيء في الطابق الأوّل. فتح الخادم باباً، ووقف جانباً. لمستْ قَدَمَا السيد ڤيرلوك سجّادة سميكة. كانت الغرفة كبيرة، وفيها ثلاث نوافذ، ورجل شابّ بوجه حليق كبير يجلس على كرسي واسع أمام مكتب ماهوغاني، قال لمستشار السفارة باللغة الفرنسية، الذي خرج والأوراق في يديه:

"أنتَ محقّ تماماً، mon cher (عزيزي). إنه بدين - الحيوان".

السيد ڤلاديمير، السكرتير الأوّل، ذو سمعة ذائعة الصيت في حفلات الاستقبال الرسمية، كرجل لطيف ومُسلٍّ. كان شخصاً محبوباً في المجتمع. يعتمد ظرفهُ على اكتشاف التداخل المضحك بين الأفكار المتناقضة، وعندما كان الحديث بهذا التوتّر، كان يجلس إلى الأمام في مقعده، يرفع يده اليسرى، كما لو أنه يُعرض أدلّته المضحكة بين الإبهام والسبابة، بينما ظهر على وجهه المستدير والحليق تعبير حيرة مرح.

لكنْ لم يكن هناك أيّ أثر لمرح أو ارتباك في الطريقة التي كان ينظر بها إلى السيد ڤيرلوك. يستلقي على كرسيه، يوزّع مرفقيه بانسجام على ذراعي الكرسي، ويضع إحدى ساقيه على ركبته السميكة، لديه مع وجهه الناعم المتورّد مظهر طفل ينمو بقوّة خارقة، ولن يتحمّل أيّ هراء من أيّ شخص.

"أظنّ أنكَ تفهم الفرنسية؟" قال.

قال السيد ڤيرلوك بصوت أجشّ، إنه يفهم الفرنسية. جسده الضخم كله كان ينحني إلى الأمام. يقف على سجّادة في وسط الغرفة، يمسك قبّعته وعصاه في يد واحدة، والأخرى تتدلّى ميتة إلى جانبه. هدر بشكل غير مفهوم في مكان ما عميق جداً في حنجرته، شيء يتعلّق بخدمته

العسكرية في المدفعية الفرنسية. فجأة، وبعناد متهكّم، غيّر السيد ڤيرلوك اللغة، وبدأ يتحدّث بإنكليزية عاميّة دون أدنى أثر للهجة أجنبية.

"آه! نعم. بالطبع. دعنا نرى. كم كسبتَ من أجل الحصول على تصميم كتلة المغلاق المُحسّن لمدفعهم الميداني الجديد؟".

"خمس سنوات حبس قاسية في القلعة" أجاب السيد ڤيرلوك بشكل مفاجئ، لكنْ بدون إظهار أي مشاعر.

"هربتَ منه بسهولة" علّق السيد ڤلاديمير. "و، على أيّ حال، نفعتكَ تماماً في إشغال نفسكَ. ما الذي جعلكَ تستمرّ في شيء من هذا القبيل - ها؟"

صوت السيد ڤيرلوك الأجشّ كان مسموعاً وهو يتحدّث عن شباب، عن وَلَه قاتل، من أجل شيء تافه.

"آها! cherchez la femme (فتّش عن المرأة)" تفضّل السيد ڤلاديمير مقاطعاً بارتياح، لكنْ بلا ودّ، كان هناك على العكس ممّا هو متوقّع مسحة حزن في تفضّله. "منذ متى وأنت تعمل هنا للسفارة؟" سأل.

"منذ زمن البارون السابق ستوت - ورتنهايم" أجاب السيد ڤيرلوك بنبرة حزينة، برز شفتيه بحزن، في إيماءة أسف على الدبلوماسي المتوفىّ. راقب السكرتير الأول هذا التلاعب في ملامح الوجه بثبات.

"آه! منذ زمن ... حسناً! ماذا تريد أن تقول عن نفسكَ؟" سأل بحدّة.

أجاب السيد ڤيرلوك مع بعض المفاجأة بأنه لا يعلم إن كان لديه أيّ شيء خاصّ للحديث عنه. تمّ استدعاؤه برسالة - أدخل يده بهمّة في الجيب الجانبي لمعطفه، لكنْ أمام المراقبة الساخرة الهازئة للسيد ڤلاديمير، خَلصَ إلى تركها هناك.

"باه!" قال الأخير. "ماذا تعني بالخروج من مثل هذه الحالة؟ لم تحصل حتّى على البنية الجسدية الملائمة لمهنتكَ. أنت - عضو البروليتاريا الجائعة - على الإطلاق! أنت - اشتراكي يائس أم فوضوي - أيّ منهما؟".

"فوضوي" قال السيد ڤيرلوك بنبرة خافتة.

"هراء!" تابع السيد ڤلاديمير دون أن يرفع صوته. "لقد روّعتَ العجوز وُرمت نفسه. أنت لن تخدع أحمقاً. إنهم جميعاً مناسبون، لكنكَ تبدو لي ببساطة غير مناسب. وكذلك، بدأتَ اتّصالك بنا عن طريق سرقة تصاميم السلاح الفرنسي. وانشغلتَ بنفسكَ. يجب أن يكون هذا مزعجاً جداً لحكومتنا. لا يبدو أنك ذكي جداً".

حاول السيد ڤيرلوك تبرئة نفسه بصوت أجش.

"لو أُتيحتْ لي فرصة المراقبة من قبل، الوَلَه القاتل لشيء تافه ..."

رفع السيد ڤلاديمير يده الكبيرة البيضاء السمينة.

"آه، نعم. الحبّ البائس في شبابكَ. حصلتْ هي على المال، وباعتكَ بعد ذلك إلى الشرطة - أليس كذلك؟".

التغيّر المحزن في ملامح السيد ڤيرلوك، التذلّل الذي أظهره جسده بالكامل، بيّن أن هذه الحالة كانت مؤسفة بالنسبة له. قبضت يد السيد ڤلاديمير على الكاحل المستند على ركبته. الجورب كان من الحرير الأزرق الغامق.

"كما رأيتَ، لم يكن هذا ذكاءً منك. ربمّا أنت حسّاس جداً".

لَمّح السيد ڤيرلوك بصوت مبحوح، غير واضح بأنه لم يعد شابّاً بعد الآن.

"أوه! هذا الإخفاق لا يعالجه السّنّ" علّق السيد ڤلاديمير بألفة خبيثة. "لكنْ لا! أنت سمين جداً. لا يمكن أن تصل إلى هذا الشكل لو كنتَ حسّاساً. سأقول لك ما أظنّ أنه مهمّ: أنت رجل كسول. منذ متى وأنت تستلم راتباً من هذه السفارة؟".

"إحدى عشرة سنة" كان الجواب بعد برهة من التردّد الشديد. "لقد كُلّفتُ بعدّة مهامّ في لندن، بينما كان سعادة البارون ستوت – ورتنهايم لا يزال سفيراً في باريس. وبعد ذلك، سكنتُ في لندن حسب تعليمات سعادته. أنا إنكليزي".

"أنت! مَن أنت؟ ها؟".

"أنا شخص بريطاني بالفطرة" قال السيد ڤيرلوك بلا مبالاة. "لكن أبي فرنسي، ولهذا ... ".

"توضيح غير مهمّ" قاطع الآخر. "أحسب أنك تستطيع أن تكون مارشالاً في فرنسا قانونياً وعضو برلمان في إنكلترا - ويمكن بعد ذلك أن تكون ذا فائدة لسفارتنا، بالتأكيد".

حرّضت هذه الفكرة الخيالية شيئاً ما يشبه ابتسامة باهتة ظهرت على وجه السيد ڤيرلوك. السيد ڤلاديمير حافظ على وقاره ورباطة جأشه.

"لكنْ كما قلتُ، أنت رجل كسول، لم تستثمر فرصكَ. في عهد البارون ستوت – ورتنهايم كان لدينا الكثير من المغفّلين يديرون هذه السفارة. تسبّبوا في وجود رجال من أمثالكَ، شكّلوا مفهوماً خاطئاً عن طبيعة تمويل الخدمة السّرّيّة. عملي هو تصحيح الفَهْم الخاطئ بأن أقول لكَ إن الخدمة السّرّيّة ليست كذلك. هي ليست مؤسّسة خيرية. لقد دعوتُك عمداً لأقول لك هذا".

لاحظ السيد ڤلاديمير التعبير المصطنع للحيرة على وجه السيد ڤيرلوك، وابتسم ساخراً.

"أرى أنك قد فهمتَني تماماً. أحسب أنكَ ذكي إلى حدّ كافٍ بالنسبة لعملكَ. ما نريده الآن هو النشاط - النشاط".

بتكرار تلك الكلمة الأخيرة، وضع السيد ڤلاديمير سبابته البيضاء الطويلة على حافة المكتب. اختفى أيّ أثر للبحة من صوت السيد ڤيرلوك. مؤخّرة عنقه السمين أصبح لونها قرمزياً فوق الياقة المخملية لمعطفه. ارتجفت شفتاه قبل أن يُفتحا على سعتهما.

"لو كنتَ جيداً بما يكفي للبحث في سجلّي" صرخ بصوته العميق، الواضح، القوي، الخطابي، "سوف ترى أني حذّرتُ منذ ثلاثة أشهر فقط من الاحتفال بزيارة الدوق الكبير روموالد إلى باريس، وأرسلتُ برقية من هنا إلى شرطة فرنسا، و ..."

"تاتـ.، تاتـ..!" قاطع السيد ڤلاديمير مع تكشيرة تجهّم على وجهه. "الشرطة الفرنسية لم تستخدم تحذيركَ. لا تصرخ بهذه الطريقة. ماذا تعني بحقّ الجحيم؟".

بنبرة تواضع أبيّ، اعتذر السيد ڤيرلوك لأنه نسي نفسه. صوته مشهور لسنوات في الاجتماعات في الهواء الطلق، وفي مجالس العمّال في القاعات الكبيرة، ساهم، كما قال، في شهرته كرفيق صالح وجدير بالثقة. لهذا، كان صوته جزءاً من فائدته. صوته يوحي بالثقة في مبادئه. "دائماً ما كان يرشّحني القادة للحديث في اللحظة الحرجة" صرّح السيد ڤيرلوك مع قناعة واضحة. لا يوجد هناك ضجّة تعلو على صوته بحيث لا يكون مسموعاً، أضاف، وفجأة بدأ بالتوضيح:

"اسمح لي" قال. أخفض جبهته دون أن ينظر حوله، بسرعة وضجر قطع الغرفة إلى أحد النوافذ الفرنسية. كما لو أنه فسح الطريق لشعور لا يمكن السيطرة عليه، فتح النافذة قليلاً. قفز السيد ڤلاديمير مندهشاً من جوف الكرسي ذي الذراعين، ونظر من فوق أكتافه، كمَن يراقب خطراً، أو تهديداً، وفي الدور الأسفل، في فناء السفارة، خلف البوّابة المفتوحة تماماً، يمكن رؤية الظهر العريض لشرطي كسول يرصد عربة أطفال رائعة لطفل ثري، كان يُدفَع بأبّهة عبر الساحة.

"شرطي!" قال السيد ڤيرلوك بلا جهد كما لو أنه يهمس، والسيد ڤلاديمير انفجر ضاحكا عند رؤية الشرطي وهو يدور بسرعة، كما لو أنه وُخز بأداة حادّة. أغلق السيد ڤيرلوك النافذة بهدوء، وعاد إلى وسط الغرفة.

"مع صوت مثل هذا" قال، وضغط على دوّاسة التخاطب القوي، "أكون واثقاً بالطبع. أعرف ما أقول أيضاً". عَدّلَ السيد ڤلاديمير ربطة عنقه، راقبه في المرآة فوق رفّ الموقد. "أحسب أنكَ حفظتَ المصطلحات الاجتماعية الثورية عن ظهر قلب" قال بسخرية. " Vox et (مجرّد صوت، ولا شيء أكثر من ذلك)(*) ... لم تدرس في حياتكَ اللاتينية - هل درستَها؟".

"لا" تذمّر السيد ڤيرلوك. "أنت لم تتوقّع مني أن أعرفها. أنا أنتمي إلى الملايين. مَن يعرف اللاتينية؟ بضعة مئات فقط من المعتوهين الذين لا يصلحون لرعاية أنفسهم".

لحوالي ثلاثين ثانية، عاين السيد ڤلاديمير في المرآة المظهر الجانبي السمين، الحجم الإجمالي، للرجل خلفه. وفي الوقت نفسه كان لديه فرصة رؤية وجهه الحليق والمدوّر، الوردي حول الذقن والرقبة، وشفتاه

---

*) العبارة اللاتينية: vox et praeterea nihil وتعني: مجرّد صوت، ولا شيء أكثر من ذلك، كلمات جميلة بلا مضمون. ڤلاديمير لم يُكمل العبارة لجهل ڤيرلوك باللاتينية.

الرفيعتان والرقيقتان اللتان تناسبان تماماً الكلام عن تلك النكات الظريفة التي جعلتْ منه شخصاً مفضّلاً لدى الطبقات الراقية في المجتمع. واستدار بعد ذلك، وسار في الغرفة مع ذلك الحزم الذي جعل نهاية ربطة عنقه المعقودة الطريفة قديمة الطراز تبدو كما لو أنها قد ارتفعت مع تهديدات لا يصحّ ذِكْرها. الحركة كانت سريعة وعنيفة بحيث إن السيد ڤيرلوك نظر بطرف عينه، وجَبُنَ في داخله.

"آها! تجرؤ على أن تكون وقحاً" بدأ السيد ڤلاديمير مع تنغيم حلقي مذهل غير إنكليزي تماماً، وغير أوروبي بكل تأكيد، وفاجأت حتّى خبرة السيد ڤيرلوك في الأحياء العالمية الفقيرة. "تجرؤ؟! حسناً، سأتحدّث معك باللغة الإنكليزية. الصوت لن يفعل ذلك. نحن لم ننتفع من صوتكَ. نحن لا نريد صوتاً. نحن نريد حقائق - حقائق مروّعة - اللعنة عليكَ!" أضاف مباشرة في وجه السيد ڤيرلوك مع شيء من الحذر الشديد جداً.

"لا تحاول التأثير عليَّ بأخلاقكَ الشمالية" دافع السيد ڤيرلوك عن نفسه بصوت أجشّ وهو ينظر إلى السجّادة. عندها ابتسم محاوره ساخراً من فوق العقدة المرتفعة لربطة عنقه، وحوّل الحوار إلى اللغة الفرنسية.

"لقد قدّمتَ نفسكَ للعمل كعميل مُحرّض. المهمّة الحقيقية للعميل المحرّض هي التحريض. على قدر ما يمكنني الحكم من خلال سجلّكَ المحفوظ هنا، أنت لم تفعل شيئاً لتستحق الراتب الذي تتقاضاه طوال الثلاث سنوات الأخيرة".

"لا شيء!" صرخ ڤيرلوك، لم يحرّك ساكناً، ولم يرفع عينيه، لكنه قال ذلك مع إشارة توحي بمشاعر صادقة في نبرته. "لقد مَنعتُ عدّة مرّات ما قد يكون ..."

"هناك قول مأثور في هذا البلد يقول إن الوقاية خير من العلاج" قاطعه السيد ڤلاديمير وهو يلقي بنفسه على الكرسي. "إنه غباء بشكل عامّ. ليس هناك حاجة للوقاية. لكنها سجية. إنهم يكرهون الغائيّة في هذا البلد. لا تكن إنكليزياً جداً. وفي هذه الحالة بالذات، لا تكن سخيفاً. الشيطان يكمن هنا بالفعل. نحن لا نريد الوقاية - نحن نريد العلاج".

توقّف قليلاً، تحوّل إلى المكتب، وتصفّح بعض الأوراق الموضوعة هناك، تحدّث بنبرة متغيّرة، عملية، دون أن ينظر إلى السيد ڤيرلوك.

"سمعتَ، بالطبع، عن المؤتمر الدولي الذي عُقد في ميلانو؟"

لَمّح السيد ڤيرلوك بصوت أجش بأن من عادته قراءة الصحف يومياً. وفي ردّ على سؤال آخر كانت إجابته، بالطبع، إنه فهم ما قرأه. عندها ابتسم السيد ڤلاديمير قليلاً على الوثائق التي ما يزال يتصفّحها الواحدة تلو الأخرى، تذمّر قائلاً: "طالما إنها لم تُكتَب باللاتينية، كما أرى".

"أو الصينية" أضاف السيد ڤيرلوك ببلادة.

"امم. بعض من أصدقائكَ الثوريين يكتبون بلغة غامضة، كل شيء مبهم فيها مثل اللغة الصينية .." أشار السيد ڤلاديمير إلى ورقة رمادية من المطبوعات باستخفاف. "ما كلّ هذه المنشورات المعنونة بال أف. بي، مع شارة مطرقة، قلم وشعلة؟ ماذا تعني هذه الرموز، هذه ال أف. بي.؟" اقترب السيد ڤيرلوك من المكتب الفخم.

"مستقبل البروليتاريا (The Future of the Proletariat). إنها جمعية" وضّح السيد ڤيرلوك، وهو يقف ضاجراً إلى جانب الكرسيّ، "ليست فوضوية من حيث المبدأ، لكنها منفتحة على جميع أطياف الآراء الثورية".

"هل أنتَ عضو فيها؟"

"واحد من نوّاب الرئيس" لفظ السيد ڤيرلوك بصعوبة، والسكرتير الأوّل للسفارة، رفع رأسه لينظر له.

"إذنْ يجب عليكَ أن تخجلَ من نفسكَ" قال بوضوح. " أليست جمعيّتكَ هذه قادرة على عمل أيّ شيء آخر ما عدا طباعة هذا الكلام التنبّؤي الفارغ بحروف طباعية مهترئة على هذا الورق القذر - ها؟ لم تفعل شيئاً؟ انظر هنا. أصبحت القضية بيدي الآن، أقول لك بصراحة بأنك سوف تستحقّ راتبكَ. انتهى زمن العجوز الطّيّب ستوت – ورتنهايم. لا عمل. لا أجر".

شعر السيد ڤيرلوك بإحساس غريب من الضعف في ساقيه البدينتين. عاد إلى الوراء خطوة، وتمخّط بصوتٍ عالٍ.

كان في الحقيقة مندهشاً وقلقاً. دخل ضوء خفيف من أشعّة شمس لندن الواهنة التي تكافح ضباب لندن، إلى غرفة السكرتير الأوّل الخاصّة: وفي هذا الصمت، سمع السيد ڤيرلوك عند زجاج النافذة أزيزاً خافتاً لذبابة - ذبابتها الأولى لهذه السنة ... بشّرت بشكل أفضل من أيّ عدد من السنونوات بقدوم الربيع. القلق العقيم لهذا الكائن النشط الصغير تسبّب في إزعاج هذا الرجل الضخم المهدّد في كسله.

في فترة الصمت، صاغ السيد ڤلاديمير في رأسه سلسلة من الملاحظات المهينة لوجه السيد ڤيرلوك ومظهره. كان الرجل مبتذلاً، بطيئاً، وغبياً بشكل مخجل. يشبه على نحو غريب سبّاكاً، جاء ليقدّم كشف حسابه. السكرتير الأوّل للسفارة، من جولاته العابرة في مجال الفكاهة الأمريكية، كوّن رأياً خاصّاً عن تلك الفئة من الميكانيكيين، باعتبارهم تجسيداً لكسل وعجز احتياليين.

هذا هو إذنْ العمِيل السّرّيّ الشهير وموضع الثقة، سرّيّ إلى درجة أنه لم يُشر إليه أبداً بطريقة أخرى إلا عن طريق الرمز Δ (دلتا) في أيّ أمر رسمي أو شبه رسمي من قِبَل البارون السابق ستوت – ورتنهايم، وفي المراسلات السّرّيّة. العميل Δ المعروف، والذي كانت تحذيراته لها القدرة على تغيير المخطّطات والمواعيد المَلَكية، الإمبراطورية، أو رحلات الدوقية الكبرى، وأحياناً تدفعهم إلى تأجيلها تماماً! هذا هو الرجل! والسيد ڤلاديمير انغمس ذهنياً في نوبة شنيعة وساخرة من المرح، من دهشته إلى حدّ ما، والتي حكم عليها بالسذاجة، لكنْ غالباً من إنفاق البارون ستوت – ورتنهايم المؤسف عموماً. صاحب السعادة السابق الذي فرض نفسه لتأييده المهيب لسيده الإمبراطور كسفير بعد عدّة وزراء معارضين في الشؤون الخارجية، تمتّع بشهرة شبيه البوم طوال حياته، لسذاجته التشاؤميّة. صاحب السعادة السابق كان لديه ثورة اجتماعية في عقله. تخيّل نفسه دبلوماسياً عُزل بإعفاء خاصّ ليرى نهاية الدبلوماسية، أو نهاية العالم تقريباً في انقلاب ديمقراطي فظيع. برقيّاته التنبّؤية الحزينة ظلّت لسنوات نكتة وزارات الخارجية. قال وهو يصرخ على فراش الموت (عند زيارة صديقه وسيّده الإمبراطور): "أوروبا التعيسة! أنت سوف تهلك من الجنون الأخلاقي لأولادكَ!" قُدِّرَ له أن يكون ضحية احتيال أوّل وغد جاء إليه، فكّر السيد ڤلاديمير وهو يبتسم على نحو مبهم للسيد ڤيرلوك.

"يجب عليكَ تبجيل ذكرى البارون ستوت – ورتنهايم" صرخ فجأة.

ملامح وجه السيد ڤيرلوك المنخفض عبّرت عن انزعاج وضجر وحزن.

"اسمح لي أن أبدي ملاحظة" قال، "لقد جئتُ إلى هنا لأني استُدعيت بأمر رسمي. لقد كنتُ هنا لمرّتين فقط طوال الإحدى عشرة سنة الماضية، وبالتأكيد ليس في الساعة الحادية عشرة صباحاً. ليس من الحكمة أن

تستدعوني بهذه الطريقة. هناك فرصة لأن يراني أحدهم. ولن يكون الأمر مزحة بالنسبة لي".

هزّ السيد ڤلاديمير كتفيه.

"هذا سوف يُدمّر فائدتي" واصل الآخر بحماس.

"هذا شأنكَ" تذمّر السيد ڤلاديمير بشراسة ناعمة.

"عندما تنتهي فائدتك يجب عليك أن تتوقّف عن العمل. نعم. توقّفْ حالاً. اختصرْ. يجب عليكَ ..." عبسَ السيد ڤلاديمير، توقّفْ على أيّ حال من أجل عبارة اصطلاحية مناسبة، وفوراً ظهرت مع ابتسامة أسنان بيضاء جميلة. "يجب عليكَ أن تستقيل" قالها بقوّة.

ومرّة أخرى، ردّ السيد ڤيرلوك بكل قوّة إرادته على ذلك الإحساس بالضعف الذي أرهق إحدى ساقيه التي ألهمت في يوم من الأيّام شيطاناً بائساً بتعبير مناسب: "أنا حزين جداً" السيد ڤيرلوك، وهو مدرك لشعوره، رفع رأسه بشجاعة.

كان مظهر السيد ڤلاديمير يوحي بالتساؤل الشديد وبرصانة مثالية.

"ما نريده هو إعداد قرار بخصوص مؤتمر ميلانو" قال بحيوية. "أفكار المؤتمر المتداولة عن إجراءات دولية بخصوص قمع الجرائم السياسية، لم تنجح في أيّ مكان. إنكلترا تتخلّف. هذا البلد سخيف باعتباراته العاطفية فيما يخص الحُرّيّة الفردية. شيء لا يُطاق أن تفكّر بأنكَ حصلتَ على أصدقائكَ كلهم فقط لتأتي إلى ...".

"بهذه الطريقة، يمكنني مراقبتهم بدقّة" قاطعه السيد ڤيرلوك بصوت مبحوح.

"ستصل إلى ذلك بطريقة أفضل لو وضعتَهم في السجن. على إنكلترا أن تتوازن. الطبقة البرجوازية البلهاء لهذه البلاد جعلوا أنفسهم متواطئين مع أناس يسعون إلى إخراجهم من بيوتهم للموت جوعاً في الخنادق. ولا يزال لديهم السلطة السياسية، لو كان لديهم فقط العقل لاستخدامها من أجل حمايتهم. أظنّ أنك توافق على أن الطبقات المتوسّطة غبية؟".

وافق السيد ڤيرلوك بصوت أجشّ.

"هم كذلك".

"ليس لديهم أيّ خيال. لقد أعماهم الغرور الأحمق. ما يحتاجونه الآن هو ذعرٌ جديد. هذه هي اللحظة النفسية التي تبدأ فيها أنت وأصدقاؤك العمل. لقد دعوتكَ إلى هنا لأكشف لكَ عن فكرتي".

وعرض السيد ڤلاديمير فكرته من موقع السلطة، بسخرية وترفّع، عرض في الوقت نفسه قدراً من الجهل فيما يتعلّق بأهداف وأفكار وأساليب العالم الثوري الحقيقية أتخمت صمت السيد ڤيرلوك بذعر عميق. خلط بين الأسباب والنتائج أكثر ممّا كان ممكناً غفرانه: بين أكثر الدعاة شهرة ورماة القنابل المتهوّرين، تحدّث عن منظّمات افتراضية، لا يمكن أن تكون موجودة في طبيعة الحال، وتحدّث عن الحزب الثوري الاجتماعي من جانب أنه جيش منضبط جداً حيث كلمة القادة هي العليا، ومن جانب آخر، باعتباره جماعة مفكّكة من قطّاع الطُّرُق اليائسين الذين كانوا يعسكرون دائماً في ممرّ جبل ضيّق. ما إن فتح السيد ڤيرلوك فمه ليعترض حتّى أوقفه رَفْعُ يد بيضاء كبيرة وجميلة. بعدها أصبح السيد ڤيرلوك خائفاً حتّى من محاولة الاحتجاج. كان يُنصت في سكون من الخوف، يشبه الجمود من أجل إصغاء شديد.

"سلسلة من الاعتداءات" واصل السيد ڤلاديمير بهدوء، "تُنجز هنا في هذا البلد، لا يُخطّط لها هنا فقط - لا أتمنّى ذلك - سوف لن ينتبهوا. يمكن لأصدقائكَ أن يُشعلوا نصف القارة دون التأثير على الرأي العامّ هنا خدمةً للتشريعات القمعية العالمية. إنهم لن يبحثوا خارج حدودهم هنا".

صفّى السيد ڤيرلوك حنجرته، لكن قلبه خذله، ولم يقل شيئاً.

" ليس من الضروري أن تكون هذه الاعتداءات دموية بصورة خاصّة" واصل السيد ڤلاديمير، كما لو أنه يُلقي محاضرة علمية، "لكنها يجب أن تكون مذهلة بدرجة كافية - فعّالة. دعها توجّه ضد المباني، على سبيل المثال. ما هو صنم العصر الذي يعرفه البرجوازيون كلهم - ها، سيد ڤيرلوك؟".

فتح السيد ڤيرلوك يديه، وهزّ كتفيه قليلاً.

"أنتم كسالى جداً حتّى في التفكير" كان تعليق السيد ڤلاديمير على هذه الإشارة. "انتبهْ لما أقول. صنم اليوم ليس المَلَكية ولا الدِّين. لذلك يجب أن تترك القلعة والكنيسة وشأنهما. هل فهمتَ ما أعني، سيد ڤيرلوك؟".

فزعُ ورفضُ السيد ڤيرلوك وجدا متنفّسهما في محاولة للهزل.

"رائع. لكنْ ماذا عن السفارات؟ سلسلة من الهجمات على سفارات مختلفة" قال، لكنه لم يقاوم البرود والتحديق اليقظ للسكرتير الأوّل.

"يمكنكَ أن تكون ظريفاً، أعرف" الملاحظة الأخيرة قالها بلا مبالاة. " هذا كله صحيح. قد يقوّي هذا فنّ الخطابة لديك في المؤتمرات الاشتراكية. لكن هذه الغرفة ليست مكاناً للخطابة. سيكون من الأآمن لكَ متابعة ما

أقوله بعناية. رغم أنك دُعيت لتقديم الحقائق بدلاً من كلام لا يُصدّق، من الأفضل لك أن تحاول إبعاد فائدتكَ عمّا كلّفتُ نفسي عناء شرحه لكَ. الصنم المقدّس لهذا العصر هو العلم. لماذا لا تأخذ بعضاً من أصدقائك للذهاب إلى تلك الشخصية المهمّة ذات الوجه المتبلّد - ها؟ أليس هو جزءاً من تلك المؤسّسات التي يجب أن تُجرَف بعيداً قبل أن تظهر الـ أف. بي.؟"

لم يقل السيد ڤيرلوك أيّ شيء. كان يخاف أن يفتح فمه لئلا يفلت منه تأوّه.

"هذا ما يجب أن تحاول من أجله. محاولة اعتداء على مَلك، أو على رئيس، مدهشة تماماً بطريقة ما، لكنْ ليس بالقدر المعتاد. إنها دخلتْ في المفهوم العامّ لوجود كل زعماء الدولة. إنها تقليدية على ما أظنّ - خاصّة بعد اغتيال الكثير من الرؤساء. الآن دعنا نأخذ الاعتداء على - لِنقُل كنيسة. فظيع تماماً لأوّل وهلة بلا شك، ولكنه ليس فعّالاً جداً كما قد يفكّر عقل شخص عاديّ. مهما كان ثورياً وفوضوياً في البداية، سيكون هناك حمقى يمنحون مثل هذا الاعتداء صفة الطابع الديني. وهذا سوف يقلّل من الدلالة التحذيرية الخاصّة التي نريد منحها للاعتداء. محاولة قتل في مطعم أو مسرح سوف تعاني بالطريقة نفسها من تلميح عاطفي غير سياسي، غضب رجل جائع، أعمال ثأر اجتماعية. هذا كله قد استُهلك، ولم يعد مفيداً كدرس موضوعي في الفوضوية الثورية. كل صحيفة لديها عبارات جاهزة لتفسير مثل هذه المظاهر. أنا على وشك أن أقدّم لكَ فلسفة رمي القنبلة من وجهة نظري، من وجهة النظر التي تزعم بأنك وفيّ لها طوال الإحدى عشرة سنة الأخيرة. سوف أحاول ألا أتحدّث فوق مستوى فَهْمكَ. وعي الطبقة التي تهاجمها ضعف سريعاً. الملكية تبدو بالنسبة لهم شيئاً

غير قابل للتدمير. لا يمكنكَ توقّع مشاعرهم إن كانت شفقة أو خوف لفترة طويلة جداً. حتّى يكون لتفجير قنبلة تأثير على الرأي العامّ الآن يجب تجاوز نيّة الانتقام أو الإرهاب. يجب أن يكون الاعتداء مدمّراً بكل معنى الكلمة. يجب أن يكون هكذا، وهكذا فقط، بعيداً عن أضعف شبهة لأيّ غاية أخرى. الفوضويون رفاقك يجب أن يبيّنوا أنهم عازمون تماماً على إزالة المكوّن الاجتماعي بأكمله. لكنْ كيف نُدخل هذه الفكرة السخيفة المروّعة في عقول الطبقة المتوسّطة بحيث لا يكون هناك أيّ خطأ؟ هذا هو السؤال. بتوجيه ضرباتكَ إلى شيء خارج العواطف الإنسانية العادية، هو الجواب. بالطبع، وهناك الفنّ. قنبلة في معرض وطني يمكن أن تسبّب بعض الضوضاء. لكنها لن تُحمَل على محمل الجدّ إلى حدّ كاف. الفنّ لن يكون صنمهم. هذا العمل يشبه كسر عدد من النوافذ الخلفية لمنزل رجل ما، في حين إذا أردتَ أن تُرهقه حقاً عليكَ أن تُحدث بعض الضجيج. سيكون هناك بعض الصراخ بالطبع، لكنْ مِن مَن؟ الفنانون - نقّاد الفن ومَن هم على شاكلتهم. ما يقوله هؤلاء غير مهمّ. لكنْ هناك تعلّم العلم. أيُّ أبله لديه دَخْل يؤمن بذلك. لا يعرف لماذا، لكنه يؤمن به، بطريقة أو بأخرى. العلم هو الصنم المقدّس. كل الأساتذة الملعونين راديكاليون في أعماقهم. دعهم يعرفوا أن على شخصيّاتهم العظيمة الرحيل أيضاً لتفسح المجال إلى مستقبل البروليتاريا. عواء كل هؤلاء المفكّرين الحمقى لابدّ منه لدعم مهامّ مؤتمر ميلانو. سوف يكتبون في الصحف. سوف يكون سخطهم فوق الشبهات، لا مصالح مادّية معلنة معرّضة للخطر، وسوف يُنذر سخطهم هذا كل أنانية الطبقة التي يجب أن تتأثّر به. هم يؤمنون بطريقة مبهمة أن العلم هو مصدر رفاهيّتهم المادّيّة. هم يؤمنون بهذا. والشراسة اللامعقولة لمثل هذه المظاهرة سوف تؤثّر عليهم بشكل أكثر عمقاً من تغيير اسم شارع أو مسرح مليء بأمثالهم. وعلى هذا الأخير يمكنهم القول دائماً: "أوه!

إنها مجرّد كراهية طبقية"، لكنّ ما يقوله المرء عن فعل وحشي مدمّر جداً سخيف لدرجة أنه يبدو غير مفهوم، ولا يمكن تفسيره، ولا يمكن تصوّره تماماً، في الواقع، هو فعل مجنون؟ الجنون مرعبٌ تماماً لأنكَ لا تستطيع تهدئته بالتهديدات أو الرشاوى. علاوة على ذلك، أنا رجل متحضّر. لا أحلم حتّى بتوجيهكَ لتنظيم مجزرة، حتّى لو توقّعت أفضل نتيجة منها. لكني أيضاً لا أتوقّع من المجزرة النتيجة التي أرغب بها. القتل دائماً معنا. يكاد يكون مؤسّسة. المظاهرة يجب أن تكون ضدّ تعلّم العلم. لكنْ ليس كل علم. الهجوم يجب أن يمتلك كل اللاعقلانية الصادمة لازدراء الدِّين غير المبرّر. بما أن القنابل هي أدواتكَ للتعبير، فإنها ستكون معبّرة حقاً، كما لو أن أحدهم تمكّن من رمي القنبلة في رياضيات خالصة. لكن هذا مستحيل. لقد حاولتُ تعليمكَ، بسَّطتُ لك الفلسفة العليا لفائدتكَ، واقترحتُ عليك بعض الحجج النافعة. التطبيق العملي لتعاليمي من مصلحتكَ غالباً. لكنْ من اللحظة التي حاورتُكَ فيها، أوليتَ أنت بعض الاهتمام بالجانب التطبيقي للسؤال. ما رأيكَ في أن نجرّب علم الفلك؟".

جمود السيد ڤيرلوك لبعض الوقت إلى جانب الكرسيّ ذي الذراعين يشبه بالفعل حالة من الانهيار، الغيبوبة - نوع من عدم إدراك سلبي أعاقه بدايات تشنّج طفيف، مثلما قد يكون ملاحظ في حالة كلب منزلي حلم بكابوس وهو نائم على بساط قرب المدفأة. وكان في حالة غير مستقرّة، تذمّر مثل كلب، وكرّر الكلمة: "علم الفلك".

لم يتعافَ تماماً حتّى الآن من حالة حيرة، تسبّب بها جهد متابعة كلام السيد ڤلاديمير السريع والحادّ. قهر قدرته على الاستيعاب، وجعله غاضباً. هذا الغضب تعقّد بسبب الارتياب. وفجأة اتّضح له أن هذا كله كان مزحة مدروسة. أظهر السيد ڤلاديمير أسنانه البيضاء بابتسامة، مع غمّازتين على

وجهه المستدير والممتلئ الذي مال برضا فوق العقدة المنفوشة لربطة عنقه. المفضّل لدى نساء المجتمع الذكيات تصنّع سلوكه في الصالونات في إلقاء نكات خفيفة. جلس باستقامة ويده البيضاء مرفوعة، كان يبدو كما لو أنه قد أمسك غموض اقتراحه بنعومة بين الإبهام والسبابة.

"لا يمكن أن يكون هناك شيء أفضل. مثل هذا الاعتداء يجمع أعظم اعتبار ممكن بالنسبة للبشرية مع أكثر العروض رعباً لحماقة شديدة جداً. أتحدّى براعة الصحفيين في إقناع جمهورهم بأن أيّ عضو مفترض من البروليتاريا يمكن أن يكون لديه شكوى شخصية ضدّ علم الفلك. الجوع بحدّ ذاته من الصعب إقحامه هناك - أيه؟ وهناك مزايا أخرى. العالم المتحضّر كله سمع عن غرينتش. ماسح الأحذية في الطابق السفلي لمحطّة تشارنغ كروس يعرف شيئاً عنها. أرأيتَ؟".

مميّزات السيد ڤلاديمير معروفة جيداً في المجتمع الراقي من خلال دماثته الظريفة، كان يبتسم مع رضا ذاتي ساخر، ما كان يُدهش النساء الذكيات خفّة دمه المسلّية بإجادة. "نعم" واصل مع ابتسامة محقرة، "تفجير المرصد الملكي(*) لا بد أن يزيد هذا من نباح اللعنات".

"عمل صعب" تذمّر السيد ڤيرلوك، شعر أن هذا هو الشيء الوحيد الآمن لقوله.

"ما الأمر؟ هل الجماعة كلها تحت سيطرتك؟ أفضل ما في السلّة؟ الإرهابي العجوز يونت هنا. أراه يمشي على مقربة من بيكاديللي مع معطفه الأخضر كل يوم تقريباً. وميكيلس، المبشّر والسجين السابق المفرَج عنه لحسن سلوكه - لا تقل لي إنكَ لا تعرف مكانه؟ لأنكَ إذا لم تعرف، يمكنني

---

*) أشار الكاتب للمرصد بـ- "the first meridian" (خطّ غرينتش أو خطّ الزوال الرئيس) وهو موقع المرصد في منطقة غرينتش.

أن أخبرك بمكانه" استمرّ السيد ڤلاديمير مهدّداً. "لو تخيّلتُم أنكم الوحيدون في القائمة السّرّيّة، فأنتم مخطئون".

هذا التلميح المثالي غير المبرّر دفع السيد ڤيرلوك إلى جَرّ قدميه بهدوء.

"وجماعة لوزان[*] بأكملها - ها؟ ألن يتدفّقوا إلى هنا مع أول إشارة لمؤتمر ميلانو؟! هذا بلد سخيف".

"سوف يكلّف هذا بعض المال" قال السيد ڤيرلوك بشيء من البديهة.

"لا فائدة من ذلك" ردّ السيد ڤلاديمير بحسم، بلهجة إنكليزية أصيلة بشكل مدهش. "سوف تحصل على راتبكَ كل شهر ولا أكثر حتّى يحدث شيء ما. وإذا لم يحدث أيّ شيء قريباً جداً لن تحصل حتّى على هذا. ما هي مهنتكَ المزعومة؟ كيف من المفترض أن تعيش؟".

"لديّ دكّان" أجاب السيد ڤيرلوك.

"دكّان! أي نوع من الدكاكين؟"

"أبيع القرطاسية، الصحف، زوجتي ..."

"مَن؟" قاطعه السيد ڤلاديمير بالنبرة الحلقية للهجة آسيا الوسطى.

"زوجتي" رفع السيد ڤيرلوك صوته الأجشّ قليلاً. "أنا متزوّج".

"يا لها من قصّة!" صرخ الآخر بذهول صريح. "متزوّج! وأنت فوضوي مزعوم، أيضاً! ما هذا الهراء الغريب؟! لكني أفترض أنها مجرّد طريقة في

---

*) لوزان (Lausanne) مدينة تقع في الجزء الناطق باللغة الفرنسية في سويسرا، على سواحل بحيرة جنيف. وكانت عاصمة في الدولة الفيدرالية الجديدة آنذاك عام ١٨٠٢. قصد الكاتب هنا تأثّر صناعة الساعات في سويسرا عند تفجير المصدر.

الكلام. الفوضويون لا يتزوّجون. هذا معروف. لا يمكنهم ذلك. ستكون هذه رِدّة".

«زوجتي ليست فوضوية» تذمّر السيد ڤيرلوك بصوت أجشّ. «علاوة على ذلك، هذا ليس من شأنكَ».

«آه، نعم، صحيح» قاطعه السيد ڤلاديمير بسرعة. «بدأتُ أقتنع بأنكَ لستَ الرجل المناسب للعمل الذي تشغله على الإطلاق. لماذا يجب أن تدمّر نفسكَ تماماً في عالمكَ الخاصّ بالزواج؟! ألا يمكنك النجاح بدونه؟! هذه هي علاقتكَ الفاضلة - أيه؟! أيّ مع نوع واحد من الارتباط والآخر يدمّر مصلحتكَ».

نفخ السيد ڤيرلوك وجنتيه، سمح للهواء أن ينفذ بعدوانية، وهذا كل شيء. سلّح نفسه بالصبر. لم يُحاكَم منذ فترة طويلة. السكرتير الأوّل أصبح فجأة فظاً ومُتجرّداً وحاسماً.

«يمكنكَ الانصراف الآن» قال. «الاعتداء بالديناميت يجب أن يكون مؤثّراً. سأمنحكَ شهراً. جلسات المؤتمر معلّقة، وقبل أن تُستأنَف مرّة أخرى يجب أن يحدث شيء هنا، أو تنقطع علاقتكَ معنا».

غيّر نبرته مرّة أخرى بتفنُّن مجرّد من الأخلاق.

«فكِّرْ بفلسفتي سيد - سيد - ڤيرلوك» قال بنوع من التلطّف والممازحة، وأشار بيده نحو الباب. «اذهبْ إلى المرصد الملكي، أنت لا تعرف الطبقات الوسطى، كما أعرفها أنا. وعيهم متعب. المرصد المَلَكي، لا شيء أفضل، ولا شيء أسهل، كما أظنّ».

نهض وشفتاه الرفيعتان الرقيقتان ترتعشان بشكل هزلي، راقب السيد

ڤيرلوك في المرآة فوق رفّ الموقد وهو يخرج من الغرفة بتثاقل، قبّعة وعصى في يده. وأُغلق الباب.

ظهر الخادم مرتدياً سرواله فجأة في الممرّ، أخرج السيد ڤيرلوك من طريق آخر وعبر باب صغير في زاوية الفناء. تجاهل الحارس الذي يقف عند البوّابة خروجه تماماً، وتتبّع السيد ڤيرلوك مرّة أخرى طريق رحلته الصباحية عائداً كما لو أنه كان في حلم - حلم غاضب. هذا الانفصال عن العالم المادّيّ كان تامّاً بحيث - رغم الظرف المميت للسيد ڤيرلوك لم يُسرع أكثر ممّا ينبغي في الشوارع، ذلك الجزء منه الراغب في أن يكون وقحاً بشكل لا يُمكن تبريره لرفض الحياة الأبدية - أنه وجد نفسه عند باب المتجر فجأة كما لو أنه حُمل من الغرب إلى الشرق على أجنحة ريح عاتية. سار مباشرة إلى خلف المنضدة، وجلس على كرسيّ خشبي قابع هناك. لم يظهر أحد لإزعاج عزلته. ستيڤي، دُسَّ في مئزر أخضر من قماش البيز، كان وقتها يكنس وينفض الأتربة في الطابق العلوي بعزم وضمير كما لو أنه يلعب، والسيدة ڤيرلوك، تنبّهت لقدومه وهي في المطبخ عن طريق صلصلة الجرس المتصدّع، وبمجرّد وصولها إلى الباب المزجّج لغرفة الجلوس أزاحت الستارة قليلاً، حدّقتْ في المتجر المظلم، ورأتْ زوجها يجلس هناك مظلّلاً وضخماً، وقبّعته على رأسه تميل إلى الخلف، ثمّ عادت فوراً إلى موقدها. بعد ساعة أو أكثر خلعت المئزر الأخضر عن أخيها ستيڤي، وأمرتْه بغسل يديه ووجهه بنبرة حاسمة، استخدمتْها لهذا الغرض لخمسة عشر عاماً تقريباً - في الواقع، منذ أن توقّفت في وقت ما عن الاعتناء بيدي ووجه الصبي. استغنت في الوقت الحاضر عن نظرة جانبية في أثناء تقديمها الطعام، ومراقبة هذا الوجه وهاتين اليدين اللتين يعرضهما ستيڤي لها، مقترباً من طاولة المطبخ، ليلاقي استحسانها مع ملامح تدلّ على ثقة بالنفس، تُخفي رواسب راسخة من القلق. سابقاً،

كان خوف الأب هو العقوبة الفعّالة جداً لهذه العادات، لكن هدوء السيد ڤيرلوك في الحياة العائلية جعل كل إشارة للغضب لا تُصدّق - حتّى لاضطراب ستيڤي المسكين. القضية كانت أن السيد ڤيرلوك سوف يتألم ويُصدَم بشكل لا يُوصَف من أيّ خلل في النظافة في أوقات الطعام. وجدت ويني بعد موت والدها عزاءً كبيراً في الشعور بأنها لم تعد بحاجة لترتجف من أجل المسكين ستيڤي. لا تتحمّل أن ترى الصبي يتألم. هذا يُغضبها. كطفلة صغيرة غالباً ما كانت تواجه بعينين متوقّدتين صاحب الحانة الغضوب في الدفاع عن أخيها. لا شيء في مظهر السيدة ڤيرلوك الآن يدعو لافتراض أنها كانت مؤهّلة لاستعراض عاطفي.

انتهت من تقديم الطعام. المائدة كانت مرتّبة في غرفة الجلوس. ذهبتْ إلى أسفل السلّم، وصرخت «أمّي!» وبعدها فتحت الباب المزجّج الذي يؤدّي إلى المتجر، قالت بهدوء: «أدولف!» السيد ڤيرلوك لم يغيّر مكانه، ولم يحرّك أطرافه لساعة ونصف كما يبدو. نهض بتثاقل، وجاء إلى عشائه وهو لا يزال يرتدي معطفه وقبّعته، ولم ينطق بكلمة. صمته بحدّ ذاته لم يكن شيئاً مذهلاً في هذا المنزل المخبوء في ظلال شارع بائس نادراً ما لامستْه أشعّة الشمس، خلف دكّان مظلم مع سلعه الرديئة سيّئة السمعة. ماعدا أن صمت السيد ڤيرلوك في ذلك اليوم كان عميقاً وواضحاً إلى درجة أثارت استغراب السيّدتين. جلسوا صامتين يراقبون ستيڤي المسكين خشية أن يندفع في نوبات من الثرثرة. جلس مواجهاً للسيد ڤيرلوك على الجانب الآخر من المائدة، وظلّ صامتاً، هادئاً، ويُحدّق ببلاهة. السعي لمنعه من جعل نفسه بغيضاً لسيّد المنزل بأيّ طريقة كانت، لم يفرض أيّ قلق ولو بسيط في حياة هاتين السيّدتين. «الصبي»، إذا لمّحوا بالكلام عنه بهدوء فيما بينهم، كان مصدراً لهذا النوع من القلق منذ الأيّام الأولى لولادته تقريباً. العار الذي لاحق صاحب الحانة السابق في أن يكون لديه

مثل هذا الصبي الغريب اتّضح من خلال مَيْله إلى معاملته بوحشية، لأنه كان شخصاً ذا حساسية شديدة، ومعاناته كرجل وأب كانت حقيقية جداً. بعد ذلك، كان على ستيڤي تجنُّب أن يكون مصدر إزعاج للسادة المستأجرين العزّاب، الذين هم أنفسهم غريبو الأطوار، ويغضبون بسهولة. وكان هناك دوماً قلقٌ من مجرّد وجوده في الواجهة. تخيّل مشهد ابنها في مشفى إصلاحي طارد المرأة العجوز في غرفة الفطور في قبو النّزل البيلغريڤيّ المتعفّن. «لو لم تجدي هذا الزوج الصالح، عزيزتي» اعتادتْ أن تقول هذا لابنتها، «لا أعرف ما الذي سيحدث لهذا الصبي المسكين!».

زاد تقدير السيد ڤيرلوك لستيڤي مثل رجل غير مولع بالحيوانات قد يُهدي زوجته الحبيبة قطّة، وهذا التقدير، الخيّر والروتيني، كان أساساً من الطبيعة نفسها. كلا السيّدتين اعترفتا أن لا شيء أكثر من ذلك يمكن توقّعه بعقلانية. كان هذا كافياً ليستحقّ السيد ڤيرلوك امتنان السيدة العجوز التبجيلي. في البداية، جعلها متشكّكة بسبب تجارب حياة الوحدة، واعتادت أن تسأل بقلق أحياناً: «ألا تعتقدين، عزيزتي، أن السيد ڤيرلوك قد تعب من رؤية ستيڤي حوله؟» تردّ ويني عادة بهزّ رأسها قليلاً. ذات مرّة، ردّت بوقاحة شديدة نوعاً ما: «عليه أن يتعب من رؤيتي أنا أولاً»، وأعقب ذلك صمت طويل. الأمّ مع قدميها المسنودتين على كرسي، بدت أنها تحاول الحصول على أصل هذا الجواب الذي أربكها للغاية بعمقه الأنثوي. لم تفهم على الإطلاق لماذا تزوّجت ويني من السيد ڤيرلوك. كان معقولاً جداً بالنسبة لها، ومن الواضح أنه قد أصبح هو الأفضل لها، لكنْ ربّما تمنّت ابنتها أن تجد رجلاً أكثر ملاءمة لسنّها. كان هناك صديق شابّ، الابن الوحيد لقصّاب في الشارع التالي، يساعد والده في عمله. تخرج معه ويني للتنزّه مع مَيْل واضح نحوه. كان خاضعاً لوالده، هذه هي الحقيقة، لكن العمل كان جيداً، وإمكانياته ممتازة. أخذ ابنتها إلى المسرح

في عدّة أمسيات. عندها فقط، عندما بدأت تخاف من سماع شيء عن خطوبتهما (ماذا عساها أن تفعل في هذا البيت الكبير وحدها، وستبقى بين يديها؟!)، انتهت هذه العلاقة الرومانسية نهاية مفاجئة، وذهبتْ وبني تبحث عن غبيّ جديد. لكن السيد ڤيرلوك ظهر بفضل العناية الإلهية ليسكن الغرفة الأمامية في الطابق الأرضي، لم يكن هناك المزيد من الأسئلة عن ابن القصّاب. إنها العناية الإلهية بكل تأكيد.

٣

«... إضفاء المثالية على كل شيء يجعل الحياة أكثر فقراً. تجميلها يعني إزالة طابعها المعقّد - يعني تحطيمها. اتركْ هذا للأخلاقيين، يا رجل. التاريخ صنعه الرجال، لكنهم لم يصنعوه في رؤوسهم. الأفكار التي وُلدت في وعيهم لعبت جزءاً تافهاً في مسيرة الأحداث. التاريخ حدّده وهيمن عليه الآلة والإنتاج - قوّة الظروف الاقتصادية. الرأسمالية صنعت الاشتراكية، والقوانين التي صنعتْها الرأسمالية من أجل حماية الملكيات هي المسؤولة عن الفوضوية. لا أحد يستطيع أن يخمّن أيّ شكل سيتّخذه التنظيم الاجتماعي في المستقبل. علاوة على ذلك، لماذا تنغمس في الأوهام الغيبية؟ في أحسن الأحوال، يمكنهم فقط تأويل فكر النبي، ولا يمكن أن يكون له قيمة موضوعية. اتركْ هذه اللعبة للأخلاقيين، يا رجل».

ميكيلس، المبشّر والسجين السابق المُفرَج عنه لحسن سلوكه، كان يتحدّث بصوت متّزن، صوتٌ يُصفّر كما لو أنه أُخمد وأُرهق تحت طبقة الشحم على صدره. خرج من سجن نظيف جداً وهو مستدير مثل حوض، مع معدة هائلة وخدود منتفخة وبشرة شاحبة شبه شفّافة، وكأن خَدَمَ مجتمع غاضب حرصوا على حَشْوه بأطعمة التسمين في قبو رطب ومظلم لمدّة خمسة عشر عاماً. ومنذ ذلك الحين، لم يتمكّن من إنزال وزنه ولو حتّى أونصة.

قيل إن سيّدة عجوزاً ثرية جداً أرسلتْه لثلاث مواسم متواصلة للعلاج في

ماريناباد[*] - حيث كان على وشك مشاركة الجماهير فضولها بالملك - لكن الشرطة في ذلك الاحتفال أمرتْه بالمغادرة خلال اثنتي عشرة ساعة. استمرّ عذابه بمنعه من الوصول إلى المياه الشافية. لكنه استسلم للأمر الواقع.

في مرفقه لا يوجد أيّ مظهر لمفصل، لكنْ ما يشبه انحناء في أطراف دمية، ملقى على ظهر الكرسي. انحنى إلى الأمام قليلاً على فخذيه الضخمين القصيرين ليبصق في الموقد.

"نعم! لديّ الوقت للتفكير إلى حدّ ما" أضاف دون توكيد. " مَنَحَنِي المجتمع الكثير من الوقت للتأمّل".

على الجانب الآخر من الموقد، على كرسيّ مصنوع من شعر الخيول حيث كانت والدة السيدة ڤيرلوك الأكثر حظّاً في الجلوس عليه عموماً، قهقه كارل يونت ساخراً مع تكشيرة سوداوية باهتة لفم بلا أسنان. الإرهابي - كما يسمّي نفسه - كان عجوزاً وأصلع مع خصل شعر ناصعة البياض هزيلة لعُثْنُون يتدلّى بشكل متعرّج من ذقنه. تعبير استثنائي لحقد دفين بقي حياً في عينيه المطفأتين. عندما نهض، وهو يتألم، امتدّت يد نحيلة مشوّهة بتورّمات دموية تتلمّس طريقها إلى الأمام، توحي بجهد قاتل يحتضر يستجمع كل قوّته المتبقّية لطعنة أخيرة. كان يتّكئ على عصا سميكة ترتجف تحت يده الأخرى.

"حلمتُ دائماً" تكلّم بشكل عنيف جداً، "بعصابة من الرجال المستبدّين في تصميمهم على رفض كل تردّد في اختيار الأداة، أقوياء إلى درجة منح أنفسهم صراحةً اسم مدمّرين، ومتحرّرين من عار ذلك التشاؤم المستكين

---

*) ماريناباد (بالألمانية: Marienbad): مدينة الحمّامات في إقليم كارلوفي فاري، جمهورية التشيك. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اشتهرت المنطقة بالخصائص العلاجية لينابيع غاز ثاني أوكسيد الكاربون.

الذي أفسد العالم. لا رحمة لأيّ شيء على الأرض، ولا حتّى لأنفسهم، والموت مجنَّد للخير وكل ما يخدم الإنسانية - هذا ما أودّ رؤيته".

رأسه الأصلع الصغير كان يرتجف، وينقل اهتزازاً مضحكاً لخصل شعر العُثْنُون البيضاء. لفظه قد يكون غير مفهوم تماماً لأجنبي. شغفه المنهك يشبه في ضراوته الضعيفة انفعال شهوانيّ خَرِف، قدمه على نحو سيّئ بحنجرة جافة ولثّة بلا أسنان، تبدو كما لو أنها تُمسك بطرف لسانه. السيد ڤيرلوك يجلس ثابتاً في زاوية من الأريكة في الطرف الآخر من الغرفة، نخر نخرتين موافقاً بحماسة.

الإرهابيّ العجوز أدار رأسه ببطء على رقبته الضامرة من جانب إلى جانب.

"ولا يمكنني الحصول أبداً على أكثر من ثلاثة من مثل هؤلاء الرجال معاً. كثير جداً بالنسبة لتشاؤمكم العفن" زمجر على ميكيلس الذي فصل ساقيه اللتين تشبهان دعامتين، وزلق رجليه على عجل تحت كرسيّه في إشارة على غضبه.

هو متشائم! أخرق! صرخ بأن هذا الاتّهام كان مهيناً. هو بعيد جداً عن التشاؤم إلى حدّ أنه يرى بالفعل أن نهاية كل الممتلكات الخاصّة بات وشيكاً بشكل منطقي، وبشكل لا يمكن تجنّبه، وذلك عن طريق تطوير بسيط في خبثها المتأصّل. أصحاب الأملاك لا يواجهون البروليتاريا الثائرة وحسب، ولكنهم يتصارعون أيضاً فيما بينهم. نعم، صراع، حرب، كان هذا هو حال الملكية الخاصّة. كان مدمّراً. آه! هو لم يعتمد على الإثارة العاطفية ليحافظ على إيمانه، لا خطابة، لا غضب، لا رؤى لأعلام حمراء قانية ترفرف، أو شموس متوهّجة ترمز إلى الانتقام تشرق فوق أفق مجتمع محكوم عليه

بالإخفاق. ليس هو! منطق بارد، تباهى ميكليس، كان هو أساس تفاؤله. نعم، التفاؤل .

توقّف صفير تنفُّسه المرهق، وعند ذلك، بعد أن لهث مرّة أو مرّتين، أضاف: "ألا تظنّ ذلك، لو لم أكن متفائلاً، ألم يكن بإمكاني إيجاد بعض الوسائل لقَطْع عنقي طوال خمسة عشر عاماً؟! وفي الحالة الأخيرة، كانت جدران سجني موجودة دائماً لأضرب رأسي بها بقوّة".

ضيق التنفّس سلب الحماس كله، الحيوية كلها من صوته، خدّاه الكبيران والشاحبان كانا يتدلّيان مثل كيسين ممتلئين بلا حركة ولا ارتعاش، لكنْ في عينيه الزرقاوين، المضيّقتين كما لو أنه يُنعم النظر، ذات النظرة الدالّة على ذكاء واثق، شيء من الجنون في ثبات نظرته، من المؤكد أن هذا كان نتيجة لتأمّل المتفائل الذي لا يُقهَر في سجنه ليلاً. ظلّ كارل يونت واقفاً أمامه، إحدى جناحي معطفه الهافلوك(*) الأخضر البالي رُميت فوق كتفه إلى الخلف بعجرفة. يجلس أمام الموقد الرفيق أوسيبون، طالب الطبّ السابق، الكاتب الرئيس لكتيّبات ال أف. بي. مدّ ساقيه القويتين، وأبقى باطن جزمته مقلوباً إلى وهج الموقد. خصل من الشعر الأصفر المتعرّج برزت فوق وجهه الأحمر المنمّش مع ملامح أنف مسطّح وفم بارز في قالب غير دقيق لملامح زنجي. عيناه اللوزيتان تنظران شزراً بفتور فوق عظمتَي وجنتيه البارزتين. يرتدي قميصاً فانيلياً رمادياً، ونهايتا ربطة عنقه السوداء الحريرية المفكوكة تتدلّيان أسفل أزرار الصدر لمعطفه السّيرجيّ(**) ورأسه يستريح على ظهر كرسيّه وعنقه مكشوفة بشكل كبير،

---

*) الهافلوك (havelock): معطف كان يرتديه العسكريون في القرن التاسع عشر، بلا أكمام، يُستعاض عنها بفتحتين، وتحت الياقة يُثبت دثار الكتفين بأزرار. سُمّي بهذا الاسم نسبة للشعار الذي يُوضَع على الملابس والأجهزة العسكرية، وهو للسير هنري هافلوك(١٧٩٥-١٨٥٧).

**) السّيرج (serge): نوع من النسيج الصوفي المتين، كان يُستخدم غالباً في صناعة الزي العسكري والمعاطف والبدلات الرسمية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

رفع إلى شفتيه سيجارة في أنبوب خشبي طويل، ونفخ على التوالي حلقات من الدخان نحو السقف.

تابع ميكيلس فكرته - فكرة عزلته الفردية - التفكير كان منحة أسره، وتطوّر إلى ما يشبه إيماناً ظهر في آرائه. كان يتحدّث إلى نفسه غير مبالٍ إلى تعاطف أو عدائية مستمعيه، غير مبالٍ لحضورهم في الواقع، جاء هذا من العادة التي اكتسبها في التفكير متفائلاً بصوتٍ عالٍ في عزلة الجدران الأربعة البيضاء لسجنه، في الصمت الموحش لركام مصمت عظيم من الطابوق بالقرب من أحد الأنهار المشؤومة والقبيحة مثل مستودع هائل لجثث الغرقى اجتماعياً.

لم يكن جيّداً في المناقشات، ليس لأن أيّ قدر من الحجج ممكن أن يهزّ إيمانه، ولكنْ الحقيقة أن سماع صوت آخر يُربكه بشكل مؤلم - يُربك أفكاره فوراً - تلك الأفكار التي ظلّت لسنوات طويلة في عزلة عقلية قاحلة أكثر من صحراء جدباء، ولم يقاومها، يُعلّق أو يوافق عليها أيّ صوت حيّ على الإطلاق.

لم يقاطعه أحد الآن، وقدّم مرّة أخرى الاعتراف بإيمانه الذي سيطر عليه بشكل طاغٍ وكامل كما لو أن له مفعول البركة: سرّ مصير اكتُشف في الجانب المادّي من الحياة، الوضع الاقتصادي للعالم مسؤول عن الماضي، ويشكّل المستقبل، مصدر الأفكار كلها التي تقود التنمية الفكرية للبشرية والدوافع الحقيقية لعاطفتهم ...

ضحكة قوية من الرفيق أوسيبون اختصرت الخطبة العنيفة المسهبة الميتة إلى تلعثم مفاجئ في اللسان، وتقلّب مرتبك لعينيّ المبشّر اللطيفتين المهيبتين. أغلقهما ببطء للحظة كما لو أنه يستجمع أفكاره

المهزومة. ساد الصمت المكان، لكنْ مع إنارة شعلتي الغاز على المائدة ووهج الموقد أصبحت غرفة الجلوس الصغيرة خلف دكّان السيد ڤيرلوك مكاناً ساخناً بشكل مروّع. السيد ڤيرلوك ترجّل من الأريكة مع عدم رغبة وتثاقل، وفتح الباب الذي يؤدّي إلى المطبخ للحصول على المزيد من الهواء، وهكذا ظهر البريء ستيڤي، يجلس بشكل معتدل وبهدوء إلى طاولة خشبية، ويرسم دوائر، دوائر، دوائر، عدداً لا يُحصى من الدوائر متّحدة المركّز، غير متراكزة، دوّامة لامعة من الدوائر التي من خلال كثرتها المعقّدة من المنحنيات المتكرّرة وتماثلها من حيث الشكل وفوضى خطوطها المتقاطعة أوحت بتصوير لفوضى كونية، رمزية فنّ مجنون يسعى إلى المستحيل. الفنان لم يحرّك رأسه أبداً، وبكل مثابرة لأداء هذه المهمّة كان ظهره يرتعش، ورقبته النحيلة الغارقة في تجويف عميق عند قاعدة الجمجمة، كما لو أنها متهيّئة للكسر.

السيد ڤيرلوك، بعد أن نخر من المفاجأة المُستنكرة عاد إلى الأريكة. نهض ألكسندر أوسيبون طويل القامة في بذلته الزرقاء الرثّة تحت سقف منخفض، أزال التصلُّب بعد جمود طويل، ومشى نحو المطبخ (نزل درجتين) ليلقي نظرة من فوق كتفي ستيڤي. عاد وقال بشكل نبوئي: "جيّد جداً. مميّز جداً، نموذجي تماماً".

"ما هو الجيّد جداً؟" تذمّر السيد ڤيرلوك بشكل مستفسر، واستقرّ مرّة أخرى على على زاوية من الأريكة. وضّح الآخر رأيه بلا مبالاة، مع شيء من التَلَطّف، وحرّك رأسه باتّجاه المطبخ:

"نموذجي لهذا الشكل من الانحلال - أقصد، تلك الرسومات".

"أنت تريد أن تقول بأن الفتى منحلّ، هل هذا قصدكَ؟" تذمّر السيد ڤيرلوك.

الرفيق ألكسندر أوسيبون - الملقّب بالدكتور، طالب الطبّ السابق الذي لم يكمل دراسته، تجوّل فيما بعد كمحاضر في الجمعيات العمّالية في موضوع الجوانب الاشتراكية للصحة، كاتب دراسة شبه طبّيّة معروفة (على شكل كُتيّب رخيص تمّت مصادرته من قِبَل الشرطة فور ظهوره) تحت عنوان: "مساوئ تآكل الطبقة الوسطى"، عُهد إليه بشكل خاصّ من قِبَل اللجنة الشيوعية السّرّيّة على الأغلب، جنباً إلى جنب مع كارل يونت وميكيلس، لعمل الدعاية الأدبية - التفت إلى الرفيق الغامض لدى سفارتين على الأقلّ، ونظر له نظرة اكتفاء شديد لا تُحتمل، وبائسة، حيث لا شيء سوى ارتياد العلم يمكن أن يمنح هذه النظرة لبلادة البشر عامةً.

"هذا هو ما قد يُطلق عليه علمياً. نوع جيّد جداً من ذلك النوع المنحرف، تماماً. يكفي النظر إلى شحمة أذنيه. لو قرأتَ لومبروزو(*)..."

واصل السيد ڤيرلوك، المتقلّب المزاج والمتمدّد على الأريكة، النظر إلى صفّ الأزرار لصِداره، لكن خدّيه تلوّنا باحمرار طفيف. في الآونة الأخيرة حتّى أقلّ مشتقّ لكلمة علم (مصطلح مسالم بحدّ ذاته، ولمعنى غير محدّد) له قوّة غريبة في استدعاء رؤية ذهنية كريهة بشكل محدّد للسيد ڤلاديمير في جسده كما لو عاشها للتوّ بوضوح خارق. وهذه الظاهرة تستحقّ أن تُصنّف بحقّ على أنها إحدى معجزات العلم، حرّكت لدى السيد ڤيرلوك حالة شعورية من الفزع والسخط، تميل إلى التعبير عن نفسها بشتْم عنيف. لكنه لم يقل شيئاً. كارل يونت هو مَن كان مسموعاً، عنيداً حتّى نَفَسه الأخير.

"لومبروزو حمار".

---

*) لومبروزو (Lombroso): تشيزري لومبروزو طبيب إيطالي شهير وعالم جريمة ومؤسّس المدارس التكوينية، أو المدرسة الوضعية في نظريات تفسير السلوك الإجرامي

الرفيق أوسيبون واجه صدمة هذا الكُفر بتحديق مروّع، خال من التعبير. والآخر، عيناه المطفأتان بلا بريق سوّدت الظلال العميقة تحت جبهته العظمية والكبيرة، تمتم وهو يجذب طرف لسانه بين شفتيه عند كل كلمة كما لو أنه يمضغها بغضب:

"هل رأيتَ في حياتكَ مثل هذا الأبله من قبل؟ بالنسبة له المجرم هو السجين. رجل أبله، أليس كذلك؟ ماذا عن أولئك الذين قمعوه هناك - دفعوه بالقوّة إلى هناك؟ حرفياً. دفعوه بالقوّة إلى هناك. وما هي الجريمة؟ هل يعرفها، هذا المعتوه الذي شقّ طريقه في عالم الحمقى المتخمين هذا عن طريق النظر إلى آذان وأسنان الكثير من الشياطين الفقراء وسيّئي الحظّ؟ الأسنان والآذان علامة المجرم؟! هل هي كذلك؟! وماذا عن القانون الذي لا يزال يعده الأفضل - أداة الوسم اختُرعت من قِبَل المتخمين لحماية أنفسهم من الجائعين؟ استخدامات مُتّقدة على جلودهم القذرة - أليس كذلك؟ ألا يمكنكم من هنا شَمّ وسماع جلد الناس السميك وهو يحترق ويئزّ؟! هكذا يُخلَق المجرمون من أجل لومبروزو خاصّتكَ ليكتب أشياء سخيفة عنهم".

اهتزّ مقبض عصاه وساقاه معاً بانفعال، في حين جذعه، الذي يغطّيه جناحا معطفه الهافلوك، حافظ على موقفه التاريخي في المواجهة. بدا أنه يتنشّق الهواء الملوّث للوحشية الاجتماعية، ويُجهد أذنه من أجل أن يصغي إلى أصواتها الفظيعة. كان هناك قوّة تلميح غير عادية في هذا الإيحاء. الجميع ما عدا المحارب القديم المحتضّر في حروب الديناميت كان ممثّلاً عظيماً في زمنه - ممثّلاً على المنابر، وفي الاجتماعات السّرّيّة، وفي المقابلات الخاصّة. لم يرفع الإرهابي الشهير بصفة شخصية حتّى بقدر أصبعه الصغير ضدّ الصرح الاجتماعي في حياته. لم يكن رجل أفعال، ولم

يكن حتّى خطيباً ذا بلاغة كبيرة، تجتاح الجماهير في ضوضاء صاخبة وفورة حماس عظيم. وبنيّة ماكرة إلى حدّ بعيد، لعب دور المحرّض الوقح والحقود لدوافع شرّيرة، تتخفّى في الحسد الأعمى والغرور الغاضب للجهل، وفي معاناة وبؤس الفقر، وفي كل التصوّرات المتفائلة والنبيلة للغضب والحزن والتمرّد. شبح موهبته الشرّيرة لا يزال ملتصقاً به، مثل رائحة عقار قاتل في قارورة سمّ قديمة، انسكبت الآن، وأصبحت عديمة الفائدة، وجاهزة لرَميها بعيداً فوق كومة قمامة من أشياء، كانت نافعة في وقتها.

ميكيلس، المبشّر والسجين السابق المفرَج عنه لحُسن سلوكه، ظهرت ابتسامة باهتة على شفتيه الملتصقتين، وخفض وجهه القمري الشاحب تحت وطأة موافقة حزينة. كان سجين نفسه. جلده كان يئزّ تحت وسم متّقد، وكان يُهمهم بهدوء. لكن الرفيق أوسيبون، الملقّب بالدكتور، تجاوز الصدمة في غضون ذلك.

«أنت لا تفهم» قال بشكل متكبّر، لكنه توقّف فجأة، أرعبه السواد الميت لعينين غائرتين في وجه، تحوّل ببطء نحوه مع نظرة أعمى، كما لو أنه انقاد للصوت فقط. تخلّى عن النقاش، ورفع كتفيه قليلاً.

اعتاد ستيفي أن يتجوّل متجاهلاً ما يحدث، نهض من كرسيّه عند طاولة المطبخ حاملاً معه رسوماته إلى فراشه. في الوقت الذي وصل فيه إلى باب غرفة الجلوس، سمع المجاز البليغ لكارل يونت بالكامل. الأوراق المليئة بالدوائر سقطت من بين أصابعه، وظل يحدّق بالإرهابي العجوز، كما لو أنه أصبح غير قادر على الحركة بغتة، بسبب خوفه المَرَضي وفزع الألم الجسدي. أدرك ستيفي جيداً أن وضع الحديد الساخن على جلد إنسان مؤلم جداً. اتّقدت عيناه الخائفتان من الغضب: هذا مؤلم بشكل رهيب. فغر ستيفي فمه.

استعاد ميكيلس شعور العُزلة الضروري لاستمرارية تفكيره من خلال التحديق بحذر إلى النار. بدأ تفاؤله يتدفّق من بين شفتيه. كان يرى أن الرأسمالية محكوم عليها بالإخفاق في مهدها، وُلدت مع سمّ مبدأ المنافسة في نظامها. الرأسماليون العظماء يفترسون الرأسماليين الصغار، تركيز السلطة وأدوات الإنتاج في جماهير غفيرة، إتقان العمليات الإنتاجية، وفي جنون تعظيم الذات من شأن الاستعداد والتنظيم والتمويل إعداد الإرث الشرعي لمعاناة البروليتاريا. لفظ ميكيلس الكلمة العظيمة «الصبر» ... وفي نظرة عيناه الزرقاوان الصافيان اللتان تنظران إلى السقف المنخفض لغرفة السيد ڤيرلوك مسحة من إخلاص السيرافيم(*). في المدخل، هدأ ستيقي، بدا غارقاً في البلادة. ارتعش وجه الرفيق أوسيبون من الغضب.

"إذنْ لا فائدة من القيام بأيّ شيء - لا فائدة البتّة".

"لم أقلْ هذا" اعترض ميكيلس بلطف. نضج تصوُّره للحقيقة بقوّة حتّى إن تردّد صوت غريب أخفق في هزيمته هذه المرّة. استمرّ في النظر إلى أسفل، إلى الفحم الأحمر. الاستعداد للمستقبل كان ضرورياً، وهو كان مستعدّاً للاعتراف بأن تغييراً عظيماً ربمّا سيأتي في غليان الثورة. لكنه جادل في أن الدعاية الثورية كانت عملاً دقيقاً من ضمير حيّ. إنها المعرفة لسادة العالم. يجب أن تكون بدقّة المعرفة المقدّمة للملوك. كان عليه تقديم معتقداته بحذر، وحتّى بخجل، في جهلنا للتأثير الذي قد ينتج عن أيّ تغيير اقتصادي مفترض يطرأ على السعادة، الأخلاق، الفكر، أو تاريخ البشرية، لأن التاريخ صُنع بالأدوات، وليس بالأفكار، وكل شيء تغيّر عن طريق الظروف الاقتصادية - الفنّ، الفلسفة، الحبّ، الفضيلة - وحتّى الحقيقة نفسها!

---

*) السيرافيم (Seraph): كلمة عبرية، وتعني "محرقة" أو"متّقدة بالنار"، ذُكرت في سفر أشعياء تسمية للأرواح التي تخدم عرش الربّ، وهي نوع من كائن سماوي أو مقدّس، له ثلاث أزواج من الأجنحة.

الفحم قابع في المدفأة مع صوت تهشّم طفيف، وميكيلس، الناسك للرؤى في صحراء السجن، نهض باندفاع. مستديراً مثل بالون منتفخ، فتح ذراعيه القصيرتين الغليظتين كما لو أنها محاولة يائسة ومثيرة للشفقة لعناق وحضن كون، يجدّد نفسه إلى صدره. كان يلهث بحماس.

"المستقبل مؤكّد تماماً مثل الماضي - العبودية، الإقطاعية، الفردية، الجماعية. هذه هي عبارات القانون، وليست نبوءة فارغة".

بروز شفتي الرفيق أوسيبون السميكتين بشكل يدلّ على الاستخفاف، أظهر السمة الزنجية لوجهه.

"كلام فارغ" قال بهدوء شديد. "ليس هناك قانون ولا يقين. الدعاية التعليمية معلّقة. ما يعرفه الناس لا يهمّ، كانت معرفتهم دوماً دقيقة جداً. الشيء الوحيد المهمّ بالنسبة لنا هو الحالة العاطفية للجماهير. لا تأثير دون عاطفة".

توقّف قليلاً، ثمّ أضاف بحزم خجول:

"أنا أتحدّث معكم الآن بشكل علمي - علمياً ... أيه؟ ماذا قلتَ، ڤيرلوك؟"

"لا شيء" هدر السيد ڤيرلوك من الأريكة، كان قد استفزّه الصوت البغيض، وهمهم ب- "اللعنة" ببساطة.

التفتفة الحاقدة للإرهابي العجوز بلا أسنان كانت مسموعة.

"هل تعرف ماذا أودّ أن أسمّي طبيعة الظروف الاقتصادية الحالية؟ أريد أن أسمّيها آكلة لحوم البشر. هكذا هي! لقد غذّوا جشعهم على ذوي اللحم المرتجف والدم الحارّ من الناس ... لا شيء آخر".

ستيڤي، ابتلع العبارة المرعبة بصوت مسموع، وفجأة، كما لو أن ما ابتلعه سمّ سريع، انهار جالساً على درجات عتبة باب المطبخ.

لم يُظهر ميكيلس مؤشّراً على سماعه أيّ شيء. بدت شفتاه ملتصقتين إلى الأبد، وخدّاه الثقيلان لم تعتريهما أيّ رعشة. بحث حوله بعينين قلقتين عن قبّعته الصلبة المدوّرة، ووضعها على رأسه المستدير. بدا جسده الضخم البدين هائماً بين الكراسي تحت كوع كارل يونت الحادّ. الإرهابي العجوز، رفع يداً متردّدة، وتشبه المخلب، قام بإمالة متبجّحة إلى قبّعة سومبريرو(*) لُبادية سوداء، ظلّلت تجاويف وأخاديد وجهه الهزيل. كان يتحرّك ببطء، يضرب الأرض بعصاه مع كل خطوة يخطوها. إخراجه من المنزل كان حَدَثاً في الواقع، لأنه يتوقّف بين الحين والآخر كما لو أنه يفكّر، ولا يُبدي استعداداً للحركة مرّة أخرى حتّى يدفعه ميكيلس إلى الأمام. المبشّر اللطيف يقبض على ذراعه بعناية أخوية، وخلفهما القوي أوسيبون، تثاءب قليلاً ويداه في جيبيه. قبّعة زرقاء مع ذروة جلدية لامعة وُضعت بشكل جيّد على شعره الكثيف الأصفر، منحتْه ملامح بحّار نرويجي ضجر من العالم بعد مرح صاخب. رافق السيد ڤيرلوك ضيوفه في طريقهم لمغادرة المبنى، حاسر الرأس، معطفه الثقيل كان مفتوحاً وعيناه تنظران إلى الأرض.

أغلق الباب خلف ظهورهم بعنف مكبوت، أدار المفتاح، وانزلق لسان القفل. لم يكن مقتنعاً بأصدقائه. أظهروا إخفاقاً ذريعاً في ضوء فلسفة السيد ڤلاديمير في رمي القنابل. دور السيد ڤيرلوك في السياسة الثورية تحت المراقبة، لا يمكنه فجأة، إن كان في بيته أو في اجتماعات كبيرة، أخذ زمام المبادرة. كان عليه أن يكون حذراً. تحرّك بغضب رجل فوق سنّ الأربعين، مهدّداً بأعزّ ما لديه - راحته وخصوصيّته - سأل نفسه باحتقار

---

*) سومبريرو: القبّعة المكسيكية.

ماذا يمكن أن أتوقّع من مثل هذه المجموعة، هذا الـ كارل يونت، هذا الـ ميكيلس، هذا الـ أوسيبون؟!

توقّف وفي نيّته أن يُطفئ مصباح الغاز في وسط المتجر، انحدر السيد ڤيرلوك إلى هاوية التفكير الأخلاقي. ومع بصيرة لحالة مزاجية ذات صلة بتفكيره، وأعلن بحكمه. كسول المجموعة - ذلك الـ كارل يونت، رعتْه امرأة عجوز ضعيفة البصر، امرأة صديقه، أغواها منذ سنوات، حاول التخلّص منها بعد ذلك أكثر من مرّة. من حسن حظّ يونت استمرّت في زيارته مرّة بعد أخرى، وإلا لم يساعده أحد في الخروج من الحافلة بالقرب من سياج غرين بارك حيث اعتاد ذلك الشبح على المشي ببطء لغرض صحّيّ كل صباح. عندما ماتت تلك الساحرة المتذمّرة العجوز التي لا تُقهَر، كان من الممكن أن يختفي ذلك الشبح المتعجرف أيضاً - وعندها ستكون نهاية ذلك المتحمّس كارل يونت. تفاؤل ميكيلس أيضاً أزعج فضيلة السيد ڤيرلوك، دعمتْه السيدة العجوز الثرية التي قرّرت إرساله إلى بيت تملكه في الريف. السجين السابق يمكنه تبديد الوقت في الطرق الظليلة لأيّام في كسل لذيذ وخيّر. كذلك بالنسبة لأوسيبون، ذلك المتسوّل كان متأكّداً من أنه لا يحتاج إلى أيّ شيء طالما هناك فتيات ساذجات، يمتلكن دفاتر التوفير في العالم. والسيد ڤيرلوك، يتشابه مزاجياً مع رفاقه، كان يجمع الفروقات الدقيقة في عقله وفقاً لاختلافات تافهة. يجمعها بقناعة أكيدة لأن غريزة الاحترام التقليدية كانت قوية في داخله، يتغلّب عليها فقط كراهيّته لكل أنواع العمل المعترف بها - نقيصة مزاجية يتقاسمها مع شريحة كبيرة من الإصلاحيين الثوريين من طبقة اجتماعية معيّنة. من الواضح أن المرء لا يثور ضدّ مصالح وفرص تلك الطبقة، لكنْ ضدّ الثمن الذي يجب أن يُدفَع من أجلها على هيئة فضيلة مقبولة، اعتدال، وفوضى. غالبية الثوّار هم أعداء الانضباط والتعب عموماً. هناك طبائع أيضاً للذين أحسّوا أن

الثمن الذي تطلبه العدالة اتّخذ شكلاً ضخماً، بغيضاً، ظالماً، مقلقاً، مذلاً، باهظاً، ولا يُحتمَل بشكل مهول. هؤلاء هم المتعصّبون. الجزء المتبقّي من التمرّد الاجتماعي، تسبّب فيه الغرور، مصدر كل الأوهام النبيلة والحقيرة، رفيق الشعراء والمُصلحين والدجّالين والأنبياء والمحرّضين.

ضاع دقيقة كاملة في هاوية التأمّل. لم يصل السيد ڤيرلوك إلى عمق تلك الأفكار المجرّدة. ربّما لم يكن قادراً على ذلك. ليس لديه الوقت على أيّ حال. توقّف بغتة على نحو مؤلم من ذكرى مفاجئة للسيد ڤلاديمير، رفيق آخر من رفاقه، مَن كان قادراً على الحكم بشكل صحيح بناءً على التشابهات الأخلاقية الدقيقة. كان يعدّه خطيراً. شيء من الحسد تسلّل إلى أفكاره. التسكّع كان مناسباً جداً لأولئك الرجال الذين لا يعرفون السيد ڤلاديمير، ولديهم نساء يلجؤون إليهنّ، أما هو؛ فلديه امرأة يعيلها -

عند هذه المرحلة، وبفضل مجموعة بسيطة من الأفكار، واجه السيد ڤيرلوك وجهاً لوجه ضرورة الذهاب إلى الفراش بين الحين والآخر في ذلك المساء. إذنْ لماذا لا تذهب الآن - فوراً؟ قال وهو يتنهّد. الضرورة لم تكن عادة ممتعة كما يجب أن تكون لرجل في مثل سنّه ومزاجه. كان يخشى من شيطان الأرق، الذي شعر أنه ملحوظ له وحده. رفع ذراعه، وأطفأ مصباح الغاز المشتعل فوق رأسه.

نفذت حزمة من الضوء الساطع عبر باب الغرفة إلى جانب من المتجر خلف المنضدة. مكّنت السيد ڤيرلوك من كشف عدد من العملات الفضّيّة عند لمعانها في درج المتجر. كانت قليلة، ولأول مرّة منذ افتتاحه هذا المتجر قام بمسح تجاري لقيمته. هذا المسح كان غير سارٍّ. لم يعمل في البيع والشراء لأسباب تجارية. وُجِّه لاختيار هذا الخطّ الغريب من التجارة لميل غريزي نحو الصفقات المشبوهة حيث يُلتقَط المال بسهولة.

علاوة على ذلك، لن تأخذه هذه التجارة بعيداً عن مجال نشاطه - المجال المُراقب من قِبَل الشرطة. بل على العكس، تمنحه مكانة معترفاً بها علانية في ذلك المجال، وبما أن السيد ڤيرلوك لديه علاقات غير معترف بها جعلته يألف إهمال الشرطة له، كان هناك فائدة واضحة في مثل هذه الحالة. لكنْ كوسيلة لكسب لقمة العيش غير كافية بحدّ ذاتها.

أخذ صندوق النقود من الدُّرج، واستدار ليغادر المتجر، كان على علم بأن ستيڤي لا يزال في الطابق الأسفل.

ماذا يفعل هناك، بحقّ السماء؟! سأل السيد ڤيرلوك نفسه. ما معنى هذه السلوكيات الغريبة؟! نظر إلى شقيق زوجته بريبة، لكنه لم يسأله عن شيء. علاقة السيد ڤيرلوك مع ستيڤي كانت تقتصر على تمتمة عَرَضية صباحاً، بعد الفطور، "جزمتي"، وحتّى هذه الكلمة عموماً كانت بمثابة تواصل من منطلق الحاجة أكثر منها أمراً مباشراً أو طلباً. نظر السيد ڤيرلوك ببعض الدهشة، لأنه في الواقع لم يكن يعرف ماذا يقول لستيڤي. كان يقف ساكناً في وسط الغرفة، وينظر باتّجاه المطبخ في صمت. ولا حتّى يعرف ماذا سيحدث إذا قال أيّ شيء. وهذا ظهر للسيد ڤيرلوك غريباً جداً في ضوء الحقيقة التي اتّضحت له بغتة: كان عليه إعالة هذا الرجل أيضاً. حتّى ذلك الحين لم يفكّر ولو للحظة في هذا الجانب لوجود ستيڤي.

لم يكن يعرف كيف يتحدّث إلى الصبي بطريقة إيجابية. راقبه وهو يُومئ ويُهمهم في المطبخ. ستيڤي كان يطوف حول الطاولة مثل حيوان هائج في قفص. شرع ڤيرلوك بسؤاله: "أليس من الأفضل أن تذهب إلى الفراش الآن؟" لم يُحدث هذا أيّ تأثير، وتخلّى السيد ڤيرلوك عن التأمّل القاسي لسلوك شقيق زوجته، قطع غرفة الجلوس بضجر وصندوق النقود في يده. سبب الإعياء الذي شعر به عندما صعد السلّم كان عقلياً محضاً، وأصبح

خائفاً بسبب طبيعته المعقّدة. تمنّى ألا يمرض لأيّ سبب. توقّف على بسطة الدرج المظلم ليختبر مشاعره. لكن صوتاً ضعيفاً ومستمراً لشخير تخلّل الظلام تداخل مع وضوحها. الصوت كان يخرج من غرفة أمّ زوجته. شخص آخر كان يعيله، قال لنفسه - ومع هذه الفكرة دخل إلى غرفة النوم.

السيدة ڤيرلوك كانت نائمة، والمصباح (لا يضعون غازاً في الطابق العلوي) المتّقد لأقصى حدّ على الطاولة إلى جانب السرير. الضوء المنبعث من خلال ظلّ المصباح تلامع على الوسادة البيضاء الغارقة بسبب ثقل رأسها مع عينين مغلقتين وشعر أسود مضفور في عدّة ضفائر من أجل الليل. استيقظتْ على صوت اسمها في أذنيها، ورأت زوجها يقف أمامها.

"ويني! ويني!"

في البداية، لم تتحرّك، مضطجعة في سكون شديد، وتنظر إلى صندوق النقود في يد السيد ڤيرلوك. لكنْ عندما فهمت أن أخاها كان "يطفر في كل مكان في الطابق الأرضي" نهضت تتأرجح في حركة مفاجئة على حافة السرير. قدماها الحافيتان، كما لو أنهما برزا من تحت كيس من قماش الكاليكو(*) ذي أكمام مزرّرة بإحكام عند الرقبة والمعصمين، تلمّستا النعال على البساط بينما كانت تنظر إلى وجه زوجها.

"لا أعرف كيف يمكن السيطرة عليه!" قال السيد ڤيرلوك بغضب. "لا تدعيه وحده مع المصابيح في الطابق الأسفل".

لم تقلْ شيئاً، خرجت من الغرفة بسرعة، وأغلقت الباب خلف مظهرها الأبيض.

---

*) كاليكو (calico): نسيج ذو تركيب بسيط غالباً، غير مقصور، ومن قطن غير معالج بشكل كامل. من لون واحد، ورخيص جداً.

وضع السيد ڤيرلوك الصندوق على الطاولة قرب السرير، وبدأ بعملية خلع ملابسه برمي معطفه على كرسي بعيد. وتبعه سترته والصِّدار. مشى في الغرفة، وهو يرتدي الجوارب، وجسمه الضخم، مع يدين تُجاهدان بعصبية مع عنقه، يخلع، ويخلع مرّة بعد أخرى ملابسه أمام مرآة في باب خزانة ثياب زوجته. وبعد أن انزلاق حمّالتي سرواله عن كتفيه، سحب الحاجبة الفينيسية بعنف إلى أعلى، وأسند جبينه على زجاج النافذة البارد - طبقة رقيقة من الزجاج امتدّت بينه وبين بشاعة البرد، الظلام، الرطوبة، الوحل، التراكم الوحشي للطابوق، الصخر الصفائحي، والأحجار، أشياء بغيضة بحدّ ذاتها، ومزعجة للإنسان.

شعر السيد ڤيرلوك بالبرودة الكامنة في كل شيء في الخارج مع قوّة تقترب إلى معاناة جسدية حقيقية. ليس هناك مهنة تُضعف الرجل أكثر من مهنة العميل السّرّيّ للشرطة. مثل أن يسقط حصانكَ ميتاً تحتكَ فجأة في وسط أرض ظمآنة، وغير مأهولة. خطرت هذه المقارنة للسيد ڤيرلوك لأنه جلس منفرج الساقين على العديد من خيول الجيش في وقته، والآن لديه إحساس بسقوط وشيك. هذا المشهد كان أسود مثل زجاج النافذة الذي أسند جبينه عليه. وفجأة، ظهر وجه السيد ڤلاديمير الحليق والظريف محاطاً بهالة من نور بشرته الوردية، كما لو أن ختماً وردياً طُبع على ظلام قاتل.

هذه الرؤيا المضيئة والمشوّهة كانت مروّعة جسدياً، إلى درجة أن السيد ڤيرلوك ابتعد عن النافذة، أسدل الحاجبة الفينيسية مع صخب كبير. منزعج ومذهول مع خشية ظهور المزيد من هذه الرؤى، لمحَ عودة زوجته إلى الغرفة، ودخلت الفراش بطريقة هادئة وعملية، جعلته يشعر بالوحدة على نحو يائس في هذا العالم. السيدة ڤيرلوك أعربت عن دهشتها عندما رأت أنه لا يزال مستيقظاً.

"لستُ بحالة جيدة" همهم، ومرّر يديه على جبينه الرطب.

"دوخة؟"

"نعم. ليس تماماً".

السيدة ڤيرلوك، وبكل رباطة جأش زوجة محنكة، شخّصت الحالة بشكل مؤكّد، واقترحت العلاجات العادية، لكن زوجها ثبت في وسط الغرفة، وهزّ رأسه المنخفض بحزن.

"سوف تُصاب بنزلة برد بوقوفك هناك " أبدتْ ملاحظتها.

السيد ڤيرلوك بذل جهداً أخيراً، وانتهى من خلع ملابسه، ودخل الفراش.

قاس وقع خطى أقدام تقترب من المنزل، في الأسفل عند الشارع الضيق الهادئ، ثمّ تلاشت بتأنٍّ وثبات، كما لو أن المارّة قد باشروا عدّ خطواتهم من مصباح غازي إلى مصباح غازي إلى الأبد في ليل لا نهاية له، والدقّات الناعسة للساعة القديمة على بسطة الدرج أصبحت مسموعة بوضوح في غرفة النوم.

السيدة ڤيرلوك مستلقية على ظهرها، تحدّق في السقف، وأبدتْ ملاحظتها.

"الدَّخْل قليل جداً اليوم".

السيد ڤيرلوك، وهو في الوضعية نفسها، سعل قليلاً، كما لو أنه سيقول شيئاً مهماً، لكنه كان مجرّد استفسار:

"هل أطفأتِ مصباح الغاز في الطابق الأسفل؟"

"نعم" أجابتْ السيدة ڤيرلوك، بشكل واعٍ. "ذلك الصبي المسكين في حالة مستثارة جداً الليلة" همهمتْ بعد وقفة استمرّت لثلاث تكّات من الساعة.

لم يهتمّ السيد ڤيرلوك لحالة ستيڤي، لكنه شعر بأرق وفزع فظيعين في مواجهة الظلام والصمت الذي سيتبع إطفاء المصباح. هذا الخوف دفعه إلى القول إن ستيڤي تجاهل اقتراحه في الذهاب إلى الفراش. السيدة ڤيرلوك وقعتْ في الفخّ، وبدأتْ توضح لزوجها بإسهاب أن هذا لم يكن "وقاحة" من أيّ نوع، لكنه ببساطة "انفعال". لا يوجد شابّ في مثل عمره في لندن أكثر وداعة وطاعة من ستيڤن، أكّدت له، لا أحد أكثر منه حناناً واستعداداً لإرضاء الآخرين، وحتّى إنه نافع، طالما أن الناس لا يُزعجون رأسه المسكين. السيّدة ڤيرلوك استدارتْ نحو زوجها الراقد، رفعتْ نفسها على مرفقها، وأقلقتْه بهمّها في وجوب أن يصدّق ستيڤي ليكون فرداً نافعاً في العائلة. هذا الحماس لشعور الحماية تعاظم بشكل مرضي في طفولتها من خلال بؤس وَلَد آخر، لوّن خدَّيْها الشاحبين بحمرة الخجل، جعل عينيها الكبيرتين تلمعان تحت جفنيها الداكنين. السيدة ڤيرلوك كانت تبدو حينها أكثر شباباً، كانت تبدو شابّة، كما اعتادت ويني أن تبدو، وأكثر حيوية من ويني في أيّام نُزل بيلغريڤيا التي سمحت لنفسها دائماً بالظهور للسادة المستأجرين. مخاوف السيد ڤيرلوك منعتْه من تحديد أي معنى لما قالتْه زوجته. كما لو أن صوتها كان يتحدّث على الجانب الآخر من جدار سميك جداً. إنها ملامحها التي أعادتْه لنفسه.

كان يُقدّر هذه المرأة، والشعور بهذا التقدير، الذي حرّكه إظهار شيء يشبه العاطفة، أضاف ألماً آخر إلى معاناته النفسية. عندما انقطع صوتها، تحرّك بانزعاج، وقال:

"لا أشعر أني على ما يرام خلال الأيّام القليلة الماضية".

ربمّا قصد أن يكون هذا مدخل إلى ثقة تامّة، لكن السيدة ڤيرلوك وضعتْ رأسها على الوسادة مرّة أخرى، وهي تحدّق إلى أعلى، وتابعتْ:

"هذا الولد يسمع الكثير ممّا يُقال هنا. لو كنتُ أعلم بمجيئهم الليلة، لحرصتُ على ذهابه إلى الفراش في نفس وقت ذهابي إلى الفراش. كان مشغولاً بشيء، وسمع بالصدفة عن آكل لحوم البشر وشرب الدم. ما جدوى الحديث بهذه الطريقة؟!"

كان هناك نبرة رفض غاضب في صوتها. السيد ڤيرلوك كان متجاوباً بالكامل في تلك اللحظة:

"اسألي كارل يونت" هدر غاضباً.

صرّحت السيدة ڤيرلوك، وبحزم شديد، أن كارل يونت "عجوز مقرف". أعلنتْ بصراحة عن تعاطفها مع ميكيلس. وعن القويّ أوسيبون، الذي تشعر دائماً في حضوره بعدم ارتياح، بسبب موقف متحفّظ قاس، لم تقل أيّ شيء. واستمرّت في الحديث عن ذلك الأخ الذي ظلّ لسنوات عديدة دافعاً للحذر والخوف:

"هو غير قادر على سماع ما يُقال هنا. يظنّ أن كل شيء حقيقي. لا يعرف الأفضل. ويتوغّل أكثر في أوهامه حول ما سمعه".

لم يُعلّق السيد ڤيرلوك.

"حملق بي، كما لو أنه لا يعرف مَن أنا عندما نزلتُ إلى الطابق الأرضي. كان قلبه يدقّ مثل المطرقة. لا يمكنه أن يفعل شيء إزاء انفعاله السريع.

أيقظتُ أمّي، وطلبتُ منها أن تجلس معه حتّى ينام. لم تكن غلطته. هو غير مزعج عندما يُترك وحده".

لم يعلّق السيد ڤيرلوك.

"أتمنّى أنه لم يذهب أبداً إلى المدرسة" بدأت السيدة ڤيرلوك من جديد بطريقة فظّة. "دائماً ما يأخذ تلك الصحف من النافذة ليقرأها. يحمرّ وجهه وهو مستغرق في قراءتها. نحن لا نتخلّص من عشرات الأعداد في شهر. مجرّد أنها تحتلّ مساحة في النافذة الأمامية. والسيّد أوسيبون يحمل كل أسبوع كومة من أوراق الدعاية السياسية أف. بي. تلك لبيعها مقابل نصف بنس للورقة. لا أرغب في دفع نصف بنس مقابل الكومة بأكملها. إنها قراءة سخيفة - إنها كذلك. ليس عليها طلب. في يوم آخر، كان ستيڤي يمسك بواحدة، وكان فيها قصّة عن ضابط ألماني مزّق أذن مجنّد، ولم يُعاقَب بسبب ذلك. المتوحّش! لم أستطع فعل أيّ شيء لـ ستيڤي ذلك المساء. القصّة أيضاً كانت كافية لتجعل دم المرء يغلي. لكنْ ما فائدة طباعة شيء مثل هذا؟ نحن لسنا عبيداً للألمان هنا، حمداً لله. هذا ليس من شأننا - أليس كذلك؟"

لم يردّ السيد ڤيرلوك.

"كان عليّ أخذ السكّين من الصبي" تابعت السيدة ڤيرلوك مع بعض النعاس الآن. "كان يصيح، يضرب الأرض بقَدَميه، ويبكي. لا يمكنه استيعاب أيّ فكرة وحشية. كان يرغب في ذَبْح ذلك الضابط مثل خنزير لو رآه عندها. إنها الحقيقة أيضاً! بعض الناس لا يستحقّون الكثير من الرحمة". توقّف صوت السيدة ڤيرلوك، وتعبير عينيها الساكنتين أصبح تأمّلياً ومتخفّياً

أكثر فأكثر خلال صمت طويل. "هل أنت مرتاح، عزيزي؟" سألتْ بصوت ضعيف، وبعيد جداً. "هل أُطفئ النور الآن؟"

القناعة المحزنة من أن لا نوم له، أبقت السيد ڤيرلوك صامتاً وعاجزاً بشكل يائس في خوفه من الظلام. لقد بذل جهداً كبيراً.

"نعم، أطفئيه" قال أخيراً بنبرة جوفاء.

٤

ثلاثون طاولة صغيرة أو نحو ذلك معظمها مغطّى بشراشف حمراء مع نقش أبيض، مرصوفة في مثلّث قائم الزوايا إلى الجدران الملبّسة بالألواح الخشبية البنّيّة الغامقة لقاعة تحت الأرض. ثريّات برونزيّة مع العديد من الكرات معلّقة في سقف منخفض مقوّس بعض الشيء، واللوحات الجصّيّة المسطّحة والرتيبة ممتدّة على جميع الجدران الخالية من النوافذ، تجسّد مشاهد لمطاردة واحتفالات في الهواء الطلق في أزياء القرون الوسطى. الفرسان الذين يرتدون جيركين(*) خضراء يلوّحون مهدّدين بسكاكين الصيد، ويرفعون إلى الأعلى أباريق من رغوة البيرة.

"ما عدا أني مخطئ جداً، أنت الرجل الذي من شأنه أن يعرف باطن هذه القضية المحيّرة" قال القوي أوسيبون، وهو يتكئ على مرفقيه المتباعدين على الطاولة، وقدمه مَثنية إلى الوراء بالكامل تحت كرسيّه. عيناه تحدّقان بحماس شديد.

بيانو عادي كبير قرب الباب، وُضع على كلا جانبيه نخلة في أصيص، عزف على نحو مفاجئ من تلقاء نفسه لحن فالس ببراعة فنّيّة عدوانية. ضجيجه كان يرتفع ويصمّ الآذان. عندما توقّف عن العزف، على نحو مفاجئ كما بدأ، أصدر الرجل الذي يرتدي النظّارات، الصغير القذر الذي يواجه أوسيبون خلف قدح زجاجي ثقيل مليء بالبيرة، بهدوء ما كان صوت قضية عامّة.

---

*) جيركين (jerkin): هي سترة قصيرة ضيّقة دون أكمام، يرتديها الفرسان في القرنين السادس والسابع عشر.

"مبدئياً، ما قد يعرفه أو لا يعرفه أحد منا بشأن أيّ حقيقة مفترضة، لا يمكن أن يكون قضية للبحث بالنسبة للآخرين".

"بالتأكيد، لا" وافق الرفيق أوسيبون بصوت خفيض هادئ. "مبدئياً".

استمرّ في تحديقه الحادّ وهو يُمسك وجهه الكبير المتورّد بين يديه، بينما الرجل الكئيب الصغير الذي يرتدي نظّارة، ارتشف ببرود جرعة من البيرة، وأعاد قدح البيرة الزجاجي على الطاولة. أذناه الكبيرتان المسطّحتان تبرزان بشكل عريض من جانبي رأسه، تبدوان واهنتين بما يكفي ليسحقهما أوسيبون بين إبهامه وسبّابته، قبّة جبينه تبدو كما لو أنها تستند على إطار النظّارة. جلد خدَّيْه المسطّحين، دهني، وغير صحّيّ، ملطّخ بشعيرات بائسة رقيقة داكنة. الضّعة المؤسفة لبنية الجسم بأكملها مثيرة للسخرية، إلى جانب سلوك الثقة بالنفس العالية للفرد. حديثه كان مقتضباً، ولديه طريقة مميّزة خاصّة في مواصلة الصمت. تمتم أوسيبون ثانية من بين يديه.

"هل كنتَ خارج المنزل لفترة طويلة اليوم؟"

"لا. بقيتُ في الفراش طوال الصباح" أجاب الآخر. "لماذا؟" "أوه! لا شيء" قال أوسيبون وهو يُحدّق بجدّيّة وعقله مضطرب مع الرغبة في معرفة شيء ما، لكنْ من الواضح أن مسحة اللامبالاة الشديدة للرجل الصغير قد أرعبتْه. الضخم أوسيبون عندما يتحدّث مع هذا الرفيق - وهذا نادراً ما يحدث - يعاني من شعور تفاهة أخلاقي وحتّى جسدي. ومع ذلك، طرح سؤالاً آخر. "هل جئتَ هنا إلى هنا ماشياً؟".

"لا، ركبتُ الحافلة" أجاب الرجل الصغير بسرعة كافية. يسكن بعيداً في إيزلينغتن، في بيت صغير في شارع قديم، يتناثر فيه القشّ والورق القذر حيث يخرج بعد دوام المدرسة مجموعة من الأطفال المختلفين يركضون

ويتشاجرون مع صخب شديد، بائس ومشاكس. غرفته الخلفية لشخص واحد غير عادية لوجود خزانة كبيرة جداً، استأجرها مؤنّثة من عانستين مسنّتين، خيّاطتين بطريقة متواضعة، وأغلب زبائنهما من الخادمات. لديه قفل ثقيل يضعه على الخزانة، لكنْ من ناحية أخرى كان مستأجراً نموذجياً، لا يسبّب المشاكل، ويطلب بطريقة عملية عدم دخول أيّ أحد إلى غرفته. سلوكيّاته الغريبة كانت في أنه يصرّ على الحضور عندما تُكنَس غرفته، وعندما يخرج، يُقفل باب غرفته، ويأخذ المفتاح معه.

أوسيبون تخيّل تلك النظارة المستديرة ذات الإطار الأسود تسير على طول الشوارع على قمّة الحافلة، بريق الثقة بالنفس الذي يشعّ منها يسقط هنا وهناك على جدران المنازل، أو ينزل على رؤوس التيار اللاواعي من الناس على الأرصفة. طيف ابتسامة شاحبة غيّر مظهر شفتي أوسيبون السميكتين عند فكرة إيماء الجدران، ركض الناس من أجل الحياة على مدى بصر تلك النظّارات. لو أنه عرف ما حدث! يا له من ذعر! همس بشكل استجوابي: "هل تجلس هنا منذ فترة طويلة؟".

"منذ ساعة أو أكثر" أجاب الآخر بلا مبالاة، وتناول جرعة من البيرة السوداء. كل تحرّكاته - الطريقة التي يُمسك بها القدح، الطريقة التي يتناول بها الشراب، الطريقة التي يضع بها الكأس الثقيل، ويطوي ذراعيه - فيها حزم، ودقّة ثابتة، جعلت أوسيبون الضخم ومفتول العضلات الذي يميل إلى الأمام مع عينين لامعتين وشفتين بارزتين، يراقب الصورة بحيرة وترقّب.

"ساعة" قال. "إذنْ يبدو أنكَ لم تسمع حتّى الآن بالأخبار التي سمعتُها للتوّ في الشارع. هل سمعتَها؟"

هزّ الرجل الصغير رأسه سلباً بحزم. لكنْ عندما لم يُبد أيّ فضول، تجرّأ

أوسيبون أن يضيف ما سمعه قبل قليل خارج هذا المكان. صبيّ الجرائد صاح بالخبر تحت أنفه تماماً، لم يكن مستعدّاً لأيّ شيء من هذا القبيل، كان مندهشاً ومضطرباً للغاية. كان فمه جافّاً عندما دخل إلى هذا المكان. "لم أفكّر أبداً في أن أجدك هنا" أضاف وهو يهمهم بثبات ومرفقاه مثبتان على الطاولة.

"آتي إلى هنا أحياناً" قال الآخر، محافظاً على رباطة الجأش المستفزّة في تصرّفه.

"من الرائع أنكَ من بين الناس كلهم لم تعرف أيّ شيء عنه" استمرّ أوسيبون الضخم. جفناه يطرفان بتوتّر فوق عنينه اللامعتين. "أنت من بين الناس كلهم" كرّر بتردّد. هذا التحفّظ الواضح ينمّ عن جُبن لا يُصدّق، ولا يمكن تفسيره للرفيق الضخم أمام الرجل الصغير الهادئ الذي رفع قدحه الزجاجي مرّة أخرى، شرب منه، ووضعه بحركات مقتضبة وواثقة. وكان هذا كل شيء.

أوسيبون، بعد انتظار شيء ما، كلمة أو إشارة، ولم يحدث، بذل جهداً في التظاهر بنوع من اللامبالاة.

"هل" قال وهو يخفّض صوته أكثر فأكثر، "تعطي أغراضك بسرعة لأيّ شخص يطلبها منكَ؟"

"قاعدتي الأساسية هي ألا أرفض أيّ شخص - طالما لديّ القليل منه" أجاب الرجل الصغير بحسم.

"هذا مبدأ؟" علّق أوسيبون. "إنه مبدأ".

"وتظنّ أنه صحيح؟"

النظّارة الكبيرة المستديرة التي أضفت مظهراً من تحديق بائع ذا ثقة عالية على الوجه الشاحب، واجهت أوسيبون مثل محجر عينين يقظتين، جامدتين، تعكسان ناراً باردة.

"تماماً. دائماً. تحت أيّ ظرف. ما الذي يمكنه إيقافي؟ لماذا يجب ألا أفعل؟ لماذا يجب أن أفكّر مرّتين بالأمر؟"

لهث أوسيبون بتروٍّ، إذا جاز التعبير.

"هل تريد القول بأنكَ ستسلّمها للبوليس السّرّيّ إذا جاءكَ أحدهم، وطلب منكَ بضاعتكَ؟"

ابتسم الآخر قليلاً.

"دعهم يأتون، ويجرّبوها، وسوف ترى" قال. "هم يعرفونني، لكني أعرف أيضاً كل واحد منهم. هم لا يريدون الاقتراب مني - لن يفعلوا هذا".

ضمّ شفتيه الرقيقتين إلى بعضهما بقوّة. وبدأ أوسيبون بالجدال.

"لكنْ يمكنهم إرسال شخص ما - عميل يحتال عليك. هل تلاحظ؟ يأخذ منكَ الموادّ بهذه الطريقة، وبعدها يُلقونَ القبض عليكَ مع الدليل في أيديهم".

"دليل على ماذا؟ ربّما التعامل بالمتفجّرات بدون رخصة".

كان المقصود من هذا ملاحظة ساخرة مُحتقِرة، رغم أن ملامح الوجه الهزيل الشاحب ظلّت دون تغيير، ونبرة كلامه متهاونة. "لا أظنّ أن أحداً منهم حريص على تلفيق هذا الاعتقال. لا أظنّ أن بإمكانهم اختيار واحد منهم للتقدّم بطلب الحصول على أمر التفتيش. أقصد واحداً من الأفضل. لا أحد".

"لماذا؟" سأل أوسيبون.

"لأنهم يعرفون جيداً أني حريص على ألا أتنازل - أبداً - عن آخر حفنة من بضاعتي. إنها دائماً معي" لمس صدر معطفه برفق. "في قارورة زجاجية سميكة" أضاف.

"إذنْ أنا قلتُ ما لديّ" قال أوسيبون، مع شيء من التعجّب في صوته. "لكني لا أعرف إذا ..."

"هم يعرفون" قاطعه الرجل الصغير بحدّة، واتّكأ على ظهر الكرسي المستقيم الذي كان يرتفع أعلى من رأسه الهشّ. "لن يُلقَى القبض عليَّ أبداً. اللعبة ليست مناسبة بما يكفي لأيّ شرطي منهم. التعامل مع رجل مثلي يتطلّب بطولة مطلقة، مجرّدة، وغير مشرّفة".

مرّة أخرى، ضمّ شفتيه مع إشارة ثقة بالنفس. أوسيبون كبح نزعة نفاد الصبر.

"أو تهوّر ، أو ببساطة جهل" ردّ بحسم. "ليس عليهم سوى الحصول على شخص ما لأداء المهمّة، شخص لا يعرف أنكَ تحمل موادّ كافية في جيبكَ لتنسف نفسك إلى أشلاء، وكل شيء ضمن حدود ستّين ياردة منكَ".

"لم أؤكّد - أبداً - أن من غير الممكن القضاء عليّ "ردّ الآخر. "لكن هذا لن يكون اعتقالاً. بالإضافة إلى ذلك الأمر ليس سهلاً كما يبدو".

"باه!" اعترض أوسيبون. " لا تكن متأكّداً جداً من ذلك. ما الذي يمنع نصف دزّينة منهم من القفز عليكَ من الخلف في الشارع؟! وذراعاك مثبتتان على جانبيكَ، لن تستطيع أن تفعل شيئاً، هل تستطيع؟!"

"نعم، أستطيع. نادراً ما أخرج إلى الشوارع بعد حلول الظلام" قال

الرجل الصغير بلا انفعال. "ولا أظلّ لساعة متأخّرة جداً على الإطلاق. أمشي دائماً وكفّي اليمنى تقبض على كرة من المطّاط الهندي، أضعها في جيب بنطلوني. الضغط على هذه الكرة يُشغلّ مفجّراً داخل القارورة التي أحملها في جيبي. هذا هو مبدأ المصراع اللحظي الهوائي لآلة التصوير. الأنبوب يؤدّي إلى ... "

بإيماءة سريعة كاشفة، سمح لأوسيبون بنظرة خاطفة على الأنبوب المطّاطي، يشبه دودة بنّيّة ضامرة، يخرج من فتحة ذراع صدّارته، ويدخل في جيب الصدر الداخلي لسترته. ملابسه رثّة وملوّثة بالبقع، خليط من بنّيّ رتيب، طيّاتها مغبرّة مع عراوي ممزّقة. "المُفجّر جزء منه ميكانيكي، والآخر كيميائي" وضّح بتلّطف غير مقصود.

"إنه فوري، بالتأكيد؟" همس أوسيبون مع رعشة خفيفة.

"بل على العكس" اعترف الآخر، مع نفور تسبّب في انحراف فمه بشكل مؤسف. "يجب أن تمرّ عشرون ثانية كاملة منذ اللحظة التي أضغط فيها على الكرة حتّى حدوث الانفجار".

"فيو!" صفّر أوسيبون وهو مذعور تماماً. "عشرون ثانية! يا للرعب! تقصد أنكَ تستطيع مواجهة ذلك؟ سوف أُجنّ ..."

"لا يهمّ إن فعلتُ. بالتأكيد، إنها النقطة الأضعف في هذا النظام الخاصّ، الذي هو لاستخدامي الخاصّ فقط. الأسوأ هو أن كيفية التفجير هي - دائماً - النقطة الأضعف معنا. أحاول اختراع مُفجّر ينظّم نفسه مع كل ظروف العمل، وحتّى مع التغييرات غير المتوقّعة للظروف. قابل للتغيير، ولكن الآلية دقيقة تماماً. مُفجّر ذكي حقيقي".

"عشرون ثانية" همهم أوسيبون ثانية. "أوه! وماذا بعد ذلك..." مع حركة

بسيطة للرأس بدا أن لمعان النظّارة يقيس حجم البار في الطابق الأسفل لمطعم سيلينوس الشهير.

"لا أحد في هذا المكان يمكن أن يأمل بالهروب" كان حكم ذلك المسح. "ولا حتّى هذا الزوج الذي يصعد الدرج الآن".

البيانو أسفل الدرج عزف خلال ذلك المازوركا(*) بتهوّر صارخ، كأن شبحاً مبتذلاً ووقحاً كان يتباهى بالعزف. مفاتيح البيانو كانت تغطس وترتفع بغموض. وبعد ذلك، ساد الصمت. تخيّل أوسيبون للحظة أن المكان المضيء قد تغيّر إلى ثقب أسود مخيف، يجشأ - بقوّة - أبخرة فظيعة، مخنوق بقمامة هائلة من الطوب المحطّم والجثث المشوّهة. كان لديه مثل فَهْم مختلف للخراب والموت، جعله يرتجف مرّة أخرى. الآخر كان يراقب مع شيء من الثقة والهدوء:

"في المثال الأخير الشخصية وحدها هي مَن تصنع الأمان للمرء. هناك أناس قليلون جداً في العالم تكوّنت شخصيّاتهم بصورة مماثلة لشخصيّتي".

"أتساءل، كيف تنجح في ذلك؟" تذمّر أوسيبون.

"قوّة الشخصية" قال الآخر دون أن يرفع صوته، هذا التأكيد الذي خرج من فم ذلك الكائن البائس بوضوح، دفع أوسيبون القوي لعضّ شفته السفلى. "قوّة الشخصية" كرّر بهدوء بالغ.

"أملك الوسائل التي تجعلني مميتاً، ولكن هذا في حدّ ذاته، كما تعرف، لا علاقة له بالحماية على الإطلاق. ما هو فعّال هو الإيمان بأن

---

*) المازوركا: رقصة فلكلورية بولندية.

هؤلاء الناس تحت إرادتي لاستخدام الوسائل. هذا هو انطباعهم. إنها الحقيقة. لهذا أنا مميت".

"هناك شخصيات مميّزة من بين هذه المجموعة أيضاً" تمتم أوسيبون بتشاؤم.

"ربمّا. لكنْ ليس هناك فرق واضح، بما أني لم أتأثّر بهم، على سبيل المثال. لهذا هم وضعاء. لا يمكنهم أن يكونوا خلاف ذلك. نشأتْ شخصيّاتهم على المبادئ الأخلاقية التقليدية. إنها تعتمد على النظام الاجتماعي. شخصيّتي متحرّرة من كل شيء مفتعل. إنهم مقيّدون بكل أنواع التقاليد. يعتمدون على حياة، وفي هذا الصدد حيث الحقيقة التاريخية محاطة بكل أنواع القيود والاعتبارات، حقيقة معقّدة، منظّمة، مكشوفة للهجوم في كل مكان، في حين أعتمد أنا على الموت الذي لا يعرف أيّ عائق، ولا يمكن مهاجمته. تفوُّقي واضح".

"هذه طريقة غير طبيعية لفَرْضه" قال أوسيبون، وهو يراقب اللمعة الباردة للنظّارة المستديرة. "سمعتُ كارل يونت يقول الشيء نفسه منذ مدّة ليست طويلة".

"كارل يونت" همهم الآخر باحتقار، "مندوب اللجنة الشيوعية الدولية يتصرّف مثل شبح طوال حياته. هناك ثلاثة مُفوّضين منكم، أليس كذلك؟ لا أعرف الآخرين، بما أنك واحد منهم. لكن ما تقولونه أنتَم لا يعني شيئاً. أنتم المفوّضون المؤهّلون للدعاية الثورية، لكن المشكلة ليست - فقط - في أنكَ غير قادر على التفكير بشكل مستقلّ مثل أيّ بقّال، أو صحفي محترم من بينهم جميعاً، لكنْ في أنكَ لا تملك أيّ شخصية، على أيّ حال".

أوسيبون لم يستطع كبح جماح غضبه.

"لكنْ ماذا تريد منا؟" صرخ بصوت مكتوم. "ماذا أنتَ بالنسبة لنفسكَ؟"

"مُفجّر ممتاز" كان الرّدّ الحاسم. "لماذا بدا على وجهكَ الانزعاج؟ أرأيتَ؟! لا تستطيع حتّى تحمّل تنويه عن شيء قاطع".

"لم أنزعج" هدر المستاء أوسيبون بجفاء. "أنتم الثوّار" واصل الآخر برويّة وثقة بالنفس، "عبيد العُرْف الاجتماعي الذي يخاف منكم، عبيده -تماماً- مثل الشرطي الذي يقف في الدفاع عن هذا العُرْف. بصراحة هكذا أنتم منذ أن أردتُم الثورة عليه. سيطر على أفكاركم بطبيعة الحال، وعلى أفعالكم أيضاً، ولهذا لا أفكاركم ولا أفعالكم يمكن أن تكون حاسمة على الإطلاق" توقّف قليلاً، هادئاً، مع ذلك الصمت المتكتّم، اللامتناهي، وبعد ذلك تابع على الفور: "أنتَم لستُم أفضل، ولو قليلاً، من القوى المصفوفة ضدّكم - لستُم أفضل من الشرطة على سبيل المثال. قابلتُ منذ بضعة أيّام كبير المفتّشين(*) هيت بالصدفة في زاوية من توتنهام كورت رود. نظر لي بثبات. لكني لم أنظر له. لماذا يجب أن أعطيه أكثر من نظرة خاطفة؟ كان يفكّر بأشياء عديدة ... برؤسائه، بسمعته، قانون المحاكم، راتبه، الصحف - بمئة شيء. لكني كنتُ أفكّر بمُفجّري الرائع فقط. هو لا يعني شيئاً بالنسبة لي. كان تافهاً مثل - لا أستطيع تذكّر أيّ شيء تافه بالقدر الكافي ليقارَن به، باستثناء كارل يونت ربمّا. مثله تماماً. الإرهابي ورجل الشرطة كلاهما يأتي من السلّة نفسها. الثورة، الشرعية - عدّاد يتحرّك في اللعبة نفسها، أشكال من الكسل متطابقة في أساسها. هو يلعب لعبته الصغيرة - هكذا يفعل الدعاة. لكني لا ألعب، أعمل لأربعة عشرة ساعة في اليوم، أعمل وأنا جائع أحياناً. تجاربي تُكلّفني المال من حين إلى آخر، وبعد ذلك، عليّ أن أبقى دون طعام، ليوم أو يومين. أنت تنظر إلى بيرتي. نعم. شربتُ كأسين

---

*) كبير المفتّشين (Ch Insp): هي رتبة مستخدمة في قوّات الشرطة التي تتبع النموذج البريطاني.

بالفعل، وسوف أشرب آخر الآن. هذه عطلة صغيرة، أحتفل بها وحدي. لمَ لا؟ لديّ العزم على العمل وحدي، وحدي تماماً، وحدي بكل ما في الكلمة من معنى. لقد عملتُ وحدي لسنوات".

تغيّر لون وجه أوسيبون إلى أحمر داكن.

"المُفجّر الرائع، ها؟" سخر بصوت خافت جداً.

"نعم" ردّ الآخر. "هذا تعريف جيّد. لا يمكنكم إيجاد أيّ شيء بهذه الدقّة لتعريف طبيعة نشاطكم مع كل منظّماتكم وممثّليكم. أنا هو المروّج الحقيقي".

"لا نريد مناقشة هذه النقطة" قال أوسيبون مع شيء من الترفّع فوق الاعتبارات الشخصية. "رغم ذلك، أخشى أني سوف أضطرّ إلى إفساد عطلتكَ. هناك رجل فجّر نفسه في غرينتش بارك هذا الصباح".

"كيف عرفتَ؟"

"لقد أعلنوا الأخبار بصوت عالٍ في الشوارع منذ الساعة الثانية. اشتريتُ الصحيفة، وركضتُ مباشرة إلى هنا. وبعد ذلك، رأيتكَ تجلس إلى هذه الطاولة. الصحيفة في جيبي الآن".

أخرج الصحيفة. كان حجمها مناسباً، صحيفة وردية، كما لو أنها تورّدت من حماسة قناعاتها الخاصّة التي كانت تفاؤلية. تصفّحها بسرعة.

"آه! ها هو. قنبلة في غرينتش بارك. ليس هناك الكثير حتّى الآن. الساعة الحادية عشرة والنصف. يوم غائم. آثار الانفجار امتدّت إلى رومني رود وبارك بليس. حفرة هائلة في الأرض تحت شجرة، امتلأت بالجذور المهشّمة والأغصان المكسورة. في كل مكان حولها قطع من جثّة رجل

تفجّر إلى أشلاء. هذا كل شيء. الباقي مجرّد أخبار القيل والقال. لا شك أنها محاولة خبيثة لتفجير المرصد، كما يقولون. نعم. من الصعب تصديق ذلك".

نظر إلى الصحيفة طويلاً في صمت، ومرّرها - بعد ذلك - إلى الآخر الذي بعد أن حدّق بدهشة إلى المطبوعة، ووضعها دون تعليق.

أوسيبون هو مَن تحدّث أولاً - ولا يزال مستاءً.

"الأشلاء كانت لرجل واحد فقط، كما لاحظتَ. بناء على ذلك: فجّر نفسه. هذا الخبر قد أفسد يومكَ ... أليس كذلك؟! هل توقّعتَ هذا النوع من التحرّك؟! ليس لديّ أدنى فكرة ... ولا حتّى مثقال ذرة من فكرة عن أيّ شيء، عن أيّ كائن خطّط لهذه المكيدة هنا - في هذه البلاد. تحت الظروف الراهنة هو ليس سوى مجرم".

رفع الرجل الصغير حاجبيه السوداوين بسخرية هادئة.

"مجرم! ما هذا؟ ما هي الجريمة؟ ماذا يمكن أن يكون معنى مثل هذا التأكيد؟"

"كيف لي أن أعبّر عن نفسي؟ يجب على المرء استخدام الكلمات السائدة" قال أوسيبون بجزع. "معنى هذا التوكيد هو أن هذا العمل قد يؤثّر على مكانتنا سلباً في هذا البلد. أليست هذه جريمة كافية بالنسبة لك؟ لقد أقنعتكَ بأن تتخلّى عن بعض أغراضكَ في الآونة الأخيرة".

حدّق أوسيبون بإنعام. والآخر، خفض ورفع رأسه ببطء، دون أن يَجفل.

"هل فعلتَ!" انفجر محرّر منشورات الـ أف. بي. غاضباً وهو يهمس بحدّة. "لا! هل تُسلِّمه حقاً دون قيد بهذه الطريقة، حسب الطلب، لأوّل أحمق يأتي إليك؟".

"بالضبط! النظام الاجتماعي المدان لم يُبنَ على ورق وحبر، لا أظنّ أن مزيج الحبر والورق سوف يضع نهاية له في وقت ما، مهما يكن ما تفكّر به. نعم، سأعطي الموادّ بكلتَا يديّ لكل رجل، امرأة، أو أحمق يودّ أن يأتي لي. أعرف بماذا تفكّر. لكني لم أتلقّ إشارة البدء من اللجنة الشيوعية. أودّ أن أراكم مطاردين جميعاً، أو معتقلين، أو مقطوعي الرأس بسبب هذه القضية دون أن تهتزّ لي شعرة. ما حدث لنا كأفراد ليس ذا أهمّيّة".

كان يتحدّث بلا مبالاة، بلا حماس، وتقريباً بلا مشاعر، وأوسيبون، تأثّر كثيراً في سرّه، وحاول محاكاة هذا التجرّد العاطفي.

"لو عرف رجال الشرطة عملهم هنا، فلابد أن يطلقوا النار عليكَ، ويملؤوا جسدكَ ثقوباً بالمسدّسات، هذا إذا لم يضربوكَ بكيس رمل من الخلف في وضح النهار".

الرجل الصغير كان يبدو أنه يفكّر بالفعل بوجهة النظر تلك بطريقته الرزينة الواثقة.

"نعم" وافق مع أقصى درجات التأهّب. "لكنْ ليفعلوا ذلك عليهم مواجهة مؤسّساتهم الخاصّة. أرأيتَ؟ يتطلّب هذا حصى غير عادية. حصى من نوع خاصّ".

طرفتْ عينا أوسيبون.

"أظنّ أن هذا - بالضبط - ما سوف يحدث لكَ، إذا أسّستَ مختبركَ في الولايات المتّحدة الأمريكية. هم لا يعتمدون على الرسميات في مؤسّساتهم هناك".

"لن أذهب وأرى على الأرجح. من ناحية أخرى، هذه ملاحظتكَ أنت"

اعترف الآخر. "لديهم الكثير من الميزات هناك، وميرتهم فوضوية من حيث الأساس. الأرض الخصبة بالنسبة لنا، الولايات المتّحدة - أرض مناسبة جداً. الجمهورية العظيمة تمتلك جذور المادّة المدمّرة في داخلها. السلوك الجماعي غير خاضع للقانون. رائع. ربّما سيطلقون علينا النار، لكنْ ...".

"أنت متفوّق جداً، بالنسبة لي" هدر أوسيبون مع قلق واضح في مزاجه.

"هذا منطقي" احتجّ الآخر. "هناك عدّة أنواع من المنطق. هذا هو النوع المثقّف منها. أمريكا مناسبة إلى حدّ ما. إنها ذلك البلد الخطير مع مفاهيمه المثالية عن الشرعية. الروح الاجتماعية لهؤلاء الناس مغلّفة بأحكام مسبقة دقيقة، وهذه كارثة

بالنسبة لعملنا. تتحدّث عن إنكلترا كونها ملجأنا الوحيد! هذا أسوأ بكثير. كابوا[*]! ما حاجتنا للملاجئ؟ هنا أنت تتكلّم، تطبع، تتآمر، ولا تفعل شيئاً. أظنّ أن هذا البلد مريح لمثل كارل يونت".

هزّ كتفيه قليلاً، وأضاف بعد ذلك بنفس القناعة والروية: "فصل الخرافة والعبادة عن الشرعية يجب أن يكون هدفنا. لا شيء سوف يُرضيني أكثر من رؤية كبير المفتّشين هيت وأمثاله يُطلقون النار علينا في وضح النهار مع استحسان الجمهور. جانبنا سوف يربح المعركة، وحطام الأخلاقيات القديمة سوف يُوضَع في معبدها. هذا ما يجب أن تسعوا له. لكن ثوّارك لن يفهموا ذلك أبداً. أنتم تخطّطون للمستقبل، تخسرون أنفسكم في أفكار خيالية عن أنظمة أقتصادية مُستمدَّة ممّا هو موجود، في حين أن المطلوب هو تغيير كامل، وبداية واضحة لتصوّر جديد عن الحياة. هذا النوع من المستقبل سوف يرعى نفسه - فقط - في حال أفسحتُم المجال له. لذلك أجرف

---

*) كابوا (Capua): مدينة تقع في مقاطعة كازيرتا، كامبانيا، جنوب إيطاليا. كانت دولة مستقلّة، واقترعت للانضمام إلى مملكة إيطاليا بعد معركة فولتورنوس ١٨٦٠.

أشيائي في أكوام في زوايا الشوارع، إذا كان لديّ ما يكفي لذلك، وإذا لم يكن لديّ ما يكفي، أبذل قصارى جهدي في استكمال جهاز تفجير فعّال".

أوسيبون، الذي كان يسبح ذهنياً في مياه عميقة، قبض على الكلمة الأخيرة كما لو أنها لوح إنقاذ.

"نعم. متفجّراتكَ. لا ينبغي أن أستغرب، في حال لم تُحدث متفجّراتكَ تغييراً كاملاً للرجل في الحديقة العامّة".

طيف من الانزعاج قتّمَ الوجه الحازم الشاحب المواجه لـ أوسيبون.

"صعوباتي - على وجه التحديد - تكمن في التجريب خاصّة مع الأنواع المختلفة. يجب أن يحاولوا بعد كل شيء. إلى جانب ..."

قاطعه أوسيبون.

"مَن يكون ذلك الرفيق؟ أطمئنكَ أننا في لندن ليس لدينا معرفة - هل يمكنكَ وصف الشخص الذي أعطيتَه المفجّر؟"

التفتتْ نظّارة الآخر نحو أوسيبون مثل زوج من الكشّافات.

"صِفْهُ" كرّر ببطء. "لا أظنّ أنه يمكن أن يكون هناك أدنى اعتراض الآن. سأصفه لكَ بكلمة واحدة - ڤيرلوك".

أوسيبون، رفعه الفضول بضع بوصات عن مقعده، وبعدها عاد للجلوس، كما لو تلقّى ضربة في وجهه.

"ڤيرلوك! مستحيل".

الرجل الصغير المتّزن أومأ قليلاً.

"نعم. هو ذلك الشخص. لا يمكنكَ القول في هذه الحالة إني أعطيتُ المادّة لأوّل أحمق يأتي إليكَ. كان عضواً بارزاً في المجموعة على حدّ علمي".

"نعم" قال أوسيبون. "بارز. لا، ليس تماماً. كان مركزاً للاستخبارات العامّة، ويستقبل - عادة - الرفاق الذين يأتون إلى هنا. مفيد أكثر من مهمّ. رجل بلا أفكار. اعتاد منذ سنوات على الخطاب في الاجتماعات ... في فرنسا، على ما أظنّ. ليس عظيماً جداً، مع ذلك. كان موثوقاً به من قِبَل رجال من مثل لتور، موسر، وكل المجموعة القديمة. موهبته الوحيدة التي يُظهرها كانت قدرته على التملّص من اهتمام الشرطة، بطريقة أو بأخرى. في هذه الحالة، على سبيل المثال، لا يبدو أنه كان مُراقَب عن كثب. متزوّج بشكل نظامي، كما تعرف. أظنّ أنه افتتح ذلك المتجر بمالها. ويبدو أنه مُربح أيضاً".

توقّف أوسيبون فجأة، همهم إلى نفسه "أتساءل ماذا ستفعل هذه المرأة الآن؟" وغرق في أفكاره.

الآخر انتظر مع لامبالاة بالغة. أصله غامض، وهو معروف - عموماً - بلقبه البروفيسور. لُقّب بذلك اللقب نسبة إلى عمله فيما مضى كمساعد لمدرّس كيمياء في أحد المعاهد التقنية. اختلف مع السلطات حول مسألة المعاملة غير العادلة. حصل بعد ذلك على وظيفة في مختبر مصنع للأصباغ. هناك أيضاً، تعاملوا معه بظلم فادح. كفاحه، حرمانه، مثابرته لرفع نفسه في السلّم الاجتماعي، ملأه بقناعة عظيمة بمزاياه، مفادها أن من الصعب جداً للعالم التعامل معه بعدالة - أساس تلك الفكرة يعتمد كثيراً على صبر الإنسان. البروفيسور كان عبقرياً، لكنه كان يفتقر إلى فضيلة الاستسلام الاجتماعية العظيمة.

"تافه من الناحية الفكرية" قال أوسيبون بصوتٍ عالٍ. تخلّى فجأة عن

التفكير العميق بفقد السيدة ڤيرلوك لزوجها وعملها. "شخصية عادية تماماً. أخطأتَ في أنكَ لم تبقَ على اتّصال مع الرفاق، بروفيسور" أضاف بنبرة توبيخ. "هل قال لك شيئاً - كشف لك أيّ فكرة عن نواياه؟ لم أره منذ شهر. يبدو من المستحيل أنه قد مات".

"أخبرني عن فكرة مظاهرة أمام مبنى" قال البروفيسور. "أردتُ أن أعرف الكثير لتجهيز القذيفة. لَفَتُّ انتباهه إلى أني - بالكاد - حصلتُ على الكمّيّة الكافية من أجل نتيجة مدمّرة تماماً، لكنه ضغط عليّ بجدّيّة لأبذل قصارى جهدي. كما أنه طلب شيئاً يمكن حمله باليد بشكل عَلَني، لذا قرّرتُ استخدام غالون واحد من طلاء كوبالي(*) قديم كان في متناول يدي بالصدفة. أسعدتْه الفكرة. سبّب لي الأمر بعض المتاعب لأني قطعتُ الجزء السفلي أولاً، ولحمتُه مرّة أخرى فيما بعد. وأصبحتْ جاهزة للاستخدام، العلبة تحيط بقنّينة ذات فوهة واسعة، ومن زجاج سميك، مسدودة بفلّينة. وملأتُ ما حولها ببعض الطين الرطب، وتحتوي على ستّة عشرة أوقية من المسحوق الأخضر X٢. المُفجّر تمّ توصيله بغطاء القنّينة. كان ابتكاراً بحدّ ذاته، مزيجاً من الزمن والصدمة. شرحتُ له كيفية عمل الجهاز. أنبوب رفيع من القصدير يطوّق ...".

تشتّت انتباه أوسيبون.

"ما هو تصوّركَ عمّا حدث؟" قاطعه.

"لا أستطيع أن أقول أيّ شيء. الغطاء كان مُحكماً، وهو ما سيحدث التوصيل، ربّما في غضون ذلك، نسي الوقت. لقد تمّ تحديد المدّة

(*) كوبال (copal): مجموعة من الراتنجات (وهي مركّبات عضوية لزجة أو سائلة سريعة الاشتعال) تتشابه في خواصّها الفيزيائية والكيميائية. تُفرزها بعض الأشجار المدارية مثل Nahuatlcopalli. تُستخدم في صناعة الورنيش.

بعشرين ثانية. من جانب آخر، زمن التوصيل يُحدث هزّة عنيفة تُسبّب الانفجار فوراً. إما أنه سرّع الزمن أو ترك القنبلة تسقط ببساطة. التفاعل كان على ما يرام - هذا واضح جداً بالنسبة لي على أيّ حال. عملُ الجهاز كان ممتازاً. ورغم ذلك سوف تفكّر أن أحمقاً في عجلة من أمره ربمّا سينسى إتمام التوصيل. أُجهد نفسي مع هذا النوع من المخفقين غالباً. لكنْ هناك أنواع من الحمقى أكثر ممّا يستطيع المرء حمايتهم. لا يمكنك التطلّع إلى مُفجّر مضمون على الإطلاق".

أشار إلى النادل. أوسيبون كان يجلس جامداً، مع نظرة ذهول من عناء ذهني. بعد أن ذهب الرجل بعيداً مع النقود، أيقظ نفسه مع ملامح استياء شديد.

"هذا مزعج للغاية، بالنسبة لي" قال متأمّلاً. "كارل كان في الفراش منذ أسبوع لإصابته بالتهاب القصبات. هناك احتمال أنه سوف لن يُشفى ثانية. ميكيلس يعيش بترف في مكان ما من البلاد. ناشر عصري، قدّم له خمسمائة باوند مقابل كتاب. سوف يخفق الكتاب إخفاقاً ذريعاً. لقد فقد ميزة التفكير المنطقي في السجن، كما تعرف".

وقف البروفيسور، زرّر معطفه، ونظر حوله بلامبالاة تامّة.

"ماذا ستفعل؟" سأل أوسيبون بضجر. كان يخشى لوم اللجنة الشيوعية المركزية، هيئة لا تمتلك مكان إقامة ثابتاً، ولم يُبلّغ بمجموع أعضائها على نحو صحيح. إذا أدّت هذه القضية إلى وقف الإعانة الماديّة المتواضعة المخصّصة لنشر كتيّبات أف. بي، سوف يأسف على حماقة ڤيرلوك غير المبرّرة. "التضامن مع الشكل المتطرّف للحَدَث شيء، والتهوّر السخيف شيء آخر" قال بنوع من المزاجية العدائية. "لا أعرف ما الذي أصاب

ڤيرلوك. هناك لغز ما في القصّة. لقد مات على أيّ حال. فكّرْ بما تشاء، لكنْ مع هذه الملابسات، الحلّ الوحيد للجماعة الثورية المسلّحة هو إنكار كل علاقة مع نزوتك اللعينة تلك. كيف تجعل الإنكار مقنع تماماً، هذا هو ما يُقلقني".

وقف الرجل الصغير، زرّر معطفه، واستعدّ للخروج، لم يكن أطول من أوسيبون جالساً. سَوّى نظّارته، وهو ينظر عن كثب إلى وجه الأخير.

"ربمّا عليكم أن تطلبوا من الشرطة شهادة على حُسن السلوك. هم يعرفون أين نام كل واحد منكم الليلة الماضية. ربمّا لو طلبتَ منهم سيوافقون على نشر نوعاً من البيان الرسمي".

"لا شك أنهم مدركون جيداً بأن لا علاقة لنا بهذا الأمر" همهم أوسيبون بمرارة. "ما سيقولونه شيء آخر" ظلّ مستغرقاً في التفكير، متجاهلاً الرجل القصير، شبيه البومة، رثّ الثياب الذي يقف إلى جانبه. "لابدّ من العثور على ميكيلس فوراً، وتهيئته ليخطب بصراحة في إحدى تجمّعاتنا. الجمهور لديه نوع من التقدير العاطفي لهذا الرفيق. اسمه معروف. وأنا على اتّصال ببعض الصحفيين في الصحف اليومية الهامّة. ما سوف يقوله كلام فارغ تماماً، لكنْ لديه صفة مميّزة في الحديث، تجعله مقبولاً رغم كل شيء".

"مثل العسل الأسود" أقحم البروفيسور نفسه بصوت منخفض نوعاً ما، محافظاً على نبرته الجامدة.

أوسيبون المتحيّر واصل مناجاة نفسه بصوت شبه مسموع، على نحو رجل يتأمّل في عزلة تامّة.

"حمار مرتبك! ترك مثل هذا العمل الغبي بين يدَيّ. ولا أعرف حتّى إذا ..."

كان يجلس وهو يضغط على شفتيه، فكرة الذهاب إلى المتجر مباشرة، من أجل معرفة الأخبار فقدت سِحْرَها. كان يظنّ أن متجر ڤيرلوك قد تحوّل، بالفعل، إلى فخّ الشرطة. سوف يقومون ببعض الاعتقالات، وكان يفكّر مع ما يشبه الغضب الفاضل لأن مسار حياته الثورية كان مُهدَّداً، بسبب خطأ لم يرتكبه. وإن لم يذهب إلى هناك، يقع في خطر البقاء في جهل ما قد يكون معرفته هامّ جداً بالنسبة له. وبعدها فكّر في هذا: إذا كان الرجل في الحديقة العامة قد انفجر إلى أشلاء كثيرة، كما نشرت صحف المساء، فمن الصعب تحديد هويّته. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الشرطة ليس لديها أيّ سبب محدّد لمراقبة متجر ڤيرلوك عن قرب أكثر من أيّ مكان آخر معروف بارتياده من قِبَل الفوضويين المشتبه بهم - مثلما في الواقع لا يوجد هناك سبب لمراقبة أبواب سيلينوس. هناك الكثير من المراقبة في كل مكان، بغضّ النظر إلى أين يذهب. ومع ذلك ...

"أتساءل ما الأفضل لفعله الآن؟" همهم وهو يشاور نفسه.

صوت أجشّ عند مرفقه، قال بسخرية رصينة:

"اربط نفسك بالمرأة، من أجل كل قيمتها المالية".

مشى البروفيسور بعيداً عن الطاولة بعد أن قال تلك الكلمات. أوسيبون الذي باغتتْه هذه النصيحة، قام بمحاولة غير فعّالة للنهوض، وظلّ ساكناً، مع نظرة عاجزة، كما لو أنه تسمّر على مقعد كرسيه. البيانو الوحيد، دون مقعد عازف يساعده، ضرب بعض الأوتار بشجاعة، وبدأ بمختارات من ألحان وطنية، وعزف في النهاية لحن "أجراس اسكتلندا الزرقاء". النوتات المنفصلة المؤلمة بدأت تخفت خلف ظهره، وهو يصعد الدرج ببطء، نحو القاعة، وإلى الشارع.

أمام المدخل الكبير صَفّ كئيب من بائعي الصحف يقفون على الرصيف إلى الشارع، يوزّعون بضاعتهم من الصحف. كان يوماً بارداً كئيباً من أوائل الربيع، سماء ملوّثة، الطين في الشوارع، ملابس رثّة لرجال قذرين متوافقين بشكل ممتاز مع هيجان ورق الصحف الرطب المليء بالهراء الملطّخ بحبر الطباعة. الملصقات المبقّعة بالأوساخ على امتداد حجر الرصيف، تُزيّنه مثل سجّادة حائط. المتاجرة في صحف بعد الظهر كان منتعشاً، ولكنْ بالمقارنة مع سرعة حركة السير المتواصلة على الأقدام، الحصيلة لم تكن ذا أهمّيّة، والتوزيع مُهمل. نظر أوسيبون بعجل إلى جانبي الطريق قبل أن يعبر إلى التقاطع، لكن البروفيسور كان قد اختفى بالفعل.

٥

انعطف البروفيسور إلى جهة اليسار، إلى شارع، مشى على طوله منتصب الرأس على نحو صارم، بين حشد من الناس كل فرد فيه يفوق حجم قامته تقريباً. كانت محاولة مخفقة للتظاهر بأنه لم يُحبَط. لكنه مجرّد شعور، رواقية(*) تفكيره لن تضطرب بسبب الحادثة، أو بأي إخفاق آخر. في المرّة القادمة أو الفترة التي تليها، سيتمّ توجيه ضربة قوية - شيء مذهل حقاً - ضربة تصلح لفتح أول شرخ في الواجهة المهيبة لصرح المفاهيم القانونية العظيم الذي يحمي الظلم الفظيع للمجتمع. من أصل متواضع، ومظهر حقير جداً كأنه يقف في طريق قدراته الطبيعية الكثيرة، اتّقدت مخيّلته مبكّراً بحكايات رجال صعدوا من أعماق الفقر إلى مواقع السلطة والثراء. النقاء المتنّسك تقريباً والمبالغ فيه لأفكاره ممتزجاً مع الجهل الصاعق للظروف الدنيوية، وضعَ أمامه أن هدف السلطة والمكانة الاجتماعية يمكن تحقيقه دون وساطة الإبداع، الفضيلة، اللباقة والثروة ... من منطلق أهمّيّة الكفاءة وحدها. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، عدّ نفسه مستحقّاً لنجاح مفروغ منه. والده، رجل متحمّس أسمر رقيق مع جبهة مائلة، كان مبشّراً متجوّلاً ومؤثّراً ومُبهَماً بعض الشيء، لكنه مترمّت للطائفة المسيحية - رجل موثوق بامتيازات استقامتهِ للغاية. بالنسبة لابنه، الأنانيّ بطبعه، بمجرّد أن حلّت العلوم الجامعية، تماماً، محلّ الإيمان بالاجتماعات الدينية السّرّيّة، ترجم

---

*) الرواقية (stoicism): مدرسة فلسفية يونانية، انتشرت في القرن الرابع قبل الميلاد، ترفض الخضوع لمشاعر مثل الخوف، الحبّ، وإلخ.

هذا السلوك الأخلاقي نفسه إلى تزمّت مسعور للطموح. رعاه كشيء مقدّس بشكل علماني. رؤيته مُعطّلاً فتحت عينيه على الطبيعة الحقيقية للعالم الذي كانت أخلاقياته زائفة، فاسدة، وكافرة. نهج أغلب الثورات المبرّرة تمّ إعداده بدوافع شخصية مُقنّعة بالعقائد. غضب البروفيسور في حدّ ذاته أوجد علّة غائيّة برّأتْه من خطيئة التعرّض للهلاك كعميل بسبب طموحه. تدمير إيمان جماعي بشكل مشروع كان صيغة ناقصة لتعصّبه المتفلسف، لكن القناعة اللاواعية بأن إطار النظام الاجتماعي المعترف به لا يمكن تحطيمه بشكل فاعل إلا عن طريق بعض أشكال العنف الفردي أو الجماعي كانت دقيقة وصحيحة. كان عميلاً أخلاقياً ... هذا ما استقرّ في ذهنه. من خلال ممارسة ممثّليّته بتحدٍّ عنيف، حصل على مظاهر السلطة والمكانة الشخصية. كان هذا مفروغاً منه نظراً لخيبة أمله وتوقه للانتقام. هدّأ هذا من اضطرابه، وبالطريقة الخاصّة لغالبية المتحمّسين من الثوريين ربمّا لا يفعلون أكثر من البحث عن السلام عموماً مع باقي الجنس البشري - سلام لتهدئة الغرور، لإشباع الغريزة، أو ربمّا لاسترضاء الضمير.

ضاع في الزحام، بمظهره البائس وصغر حجمه. فكّر ملياً بقدرته بثقة، يُبقي يده في الجيب الأيسر لبنطلونه، ويقبض على الكرة المصنوعة من المطّاط الهندي برفق، الضمان الأهمّ لحُرّيّته المهدَّدة، لكنْ بعد برهة، تأثّر بشكل غير مقبول بمشهد الطريق المزدحم بالعربات والرصيف المزدحم بالنساء والرجال. كان يمشي في شارع طويل، مستقيم، مأهول بجزء بسيط من كثرة هائلة، لكنهم جميعاً حوله في كل مكان، حتّى حدود الأفق يختبئون في أكوام هائلة من الطابوق، شعر أن كتلة البشر هائلة في عددها. يتكاثرون بأعداد هائلة مثل الجراد، مُجدّون مثل النمل، مستهترين مثل قوى الطبيعة، يواصلون سيرهم عُمياً ومُنظّمين ومُنهمكين، لا يتأثّرون بالعاطفة، المنطق، وربمّا الإرهاب أيضاً.

كان هذا من أكثر أشكال الشك التي يخشاها. شك لا يتأثّر بالخوف! غالباً وبينما هو يمشي في الخارج، وعندما يصدف أن يخرج عن نفسه أيضاً، تتملّكه لحظات من الارتياب المخيف والمعقول من البشر. ماذا لو لم يتمكّن أيّ شيء من تحريكهم؟ مثل هذه اللحظات تأتي لكل الرجال الذين يهدف طموحهم إلى فَهْم مباشر للطبيعة البشرية - تأتي للفنّانين، السياسيين، المفكّرين، المصلحين، أو القدّيسين. حالة عاطفية مهينة ضدّ ما تُحصّنه العزلة لشخصية متفوّقة، وبغبطة شديدة، فكّر البروفيسور بالملاذ في غرفته، بخزانته المغلقة بقفل، الضائعة في سعة بيوت فقيرة، صومعة الفوضوي المثالي. من أجل الوصول بسرعة إلى المكان حيث يمكنه أن يستقلّ الحافلة، انعطف بشدّة ليخرج من الشارع المزدحم إلى زقاق ضيّق مُعبّد بالحجر اللوحي. على جانب واحد، كانت النوافذ المغبرّة للبيوت الطابوقية المنخفضة لها مظهرٌ أعمى ومحتضر لخراب لا أمل في إصلاحه - هياكل فارغة تنتظر الهدم. ومن الجانب الآخر، الحياة لم تغادر تماماً حتّى الآن. يواجه المصباح الغازي الوحيد كهف تاجر الأثاث المُستعمَل، في عمق ظلمة جادّة ضيّقة نوعاً ما، متعرّجة بين غابة عجيبة من خزانات الثياب، مع شجيرات متشابكة لأرجل الطاولة، مرآة حائط طويلة تتلألأ مثل بركة ماء في غابة. أريكة تعيسة ومشرّدة، يرافقها كرسيّان منفصلان، يضعهما في الهواء الطلق. الشخص الوحيد الذي دخل الزقاق - بالإضافة إلى البروفيسور - رجل قويّ البنية، يمشي منتصباً، جاء من الاتّجاه المعاكس، وأوقف خطواته المتأرجحة فجأة.

"مرحباً!" قال، ووقف قليلاً على جنب بحذر.

البروفيسور كان قد توقّف بالفعل، ومع نصف استدارة سريعة، اقترب كتفاه إلى الجدار الآخر. وضع يده اليمنى برفق على ظهر الأريكة المبعدة،

ظلّت يده اليسرى تغوص بتعمّد عميقاً في جيب بنطلونه، والاستدارة الحادّة لإطار نظّارته أضفتْ على وجهه الكئيب والبارد سِمة شبيه البوم.

كان مثل لقاء في رواق جانبي لقصر مليء بالحياة. الرجل قويّ البنية كان يرتدي معطفاً داكناً مزرّراً، ويحمل مظلّة. قبّعته تميل إلى الخلف، تكشف جزءاً جيداً من جبينه الذي يظهر أبيض تماماً في الظلمة. في البقع الداكنة لمحجر عينيه تومض مقلتاه بشدّة. شاربه الطويل يتدلّى، لونه مثل لون الذرة الناضجة، يُؤطّر مع نهايتيه مساحة مربّعة من ذقنه الحليق.

"أنا لا أبحث عنكَ" قال باقتضاب.

البروفيسور لم يُحرّك ساكناً. انخفض الضجيج المتداخل للمدينة الهائلة إلى همهمة خافتة، لا يمكن فَهْمها. كبير المفتّشين هيت من قسم الجرائم الخاصّة غيّر نبرته. "ألستَ في عجلة للوصول إلى المنزل؟" سأل ببساطة ساخرة.

ابتهج كريه المنظر الصغير العميل الأخلاقي للتدمير بصمت لشعوره بامتلاك مكانة شخصية، وواصل مراقبة ذلك الرجل المسلّح المفوّض بالدفاع عن مجتمع مُهدَّد. أكثر حظّاً من كاليغولا الذي تمنّى أن يملك مجلس الشيوخ الروماني رأساً واحداً - فقط - من أجل إشباع شهوته الوحشية. ارتأى في هذا الرجل كل القوى التي وضعها في تحدّي: قوّة القانون، الملكية، الاضطهاد، والظلم. نظر إلى أعدائه كلهم، وواجههم جميعاً دون خوف في قناعة عالية بادّعائه. وقفوا في حيرة أمامه كما لو أنهم يقفون أمام نذير شؤم مخيف. شمت في نفسه على فرصة هذا الاجتماع الذي أكّد تفوّقه على هذا العدد الهائل من البشر كلهم.

كان، في الواقع، لقاء بالصدفة. كبير المفتّشين هيت كان يومه حافلاً

بشكل غير مقبول منذ أن تلقّى قسمه البرقية الأولى من غرينتش قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً بقليل. قبل كل شيء، حقيقة أن الاعتداء قد دُبّر بعد أقلّ من أسبوع على تطمينه لمسؤول رفيع أنْ ليس هناك ثورة لنشاط فوضوي يُخشى منه كانت مزعجة بما فيه الكفاية. كان مطمئنّاً وهو يُعدّ التقرير كما لو لم يكن في أيّ وقت مضى. لقد أعدّ ذلك التقرير مع قناعة غير محدودة بنفسه لأن من الواضح أن المسؤول الرفيع كان يرغب جداً في سماع مثل هذه الأخبار. وأكّد أنه لا يمكن لأيّ شيء من هذا حتّى أن يخطر على بال أحد دون أن يكون القسم على علم به خلال أربع وعشرين ساعة، وتحدّث هكذا وفقاً لشعوره بأنه خبير عظيم في قسمه. حتّى إنه ذهب إلى حدّ قول كلمات، تخلو من حكمة حقيقية. لكن كبير المفتّشين هيت لم يكن حكيماً جداً - على الأقلّ، ليس كذلك تماماً. الحكمة الحقيقية، وهي ليست متيقّنة من أيّ شيء في عالم المتناقضات هذا، سوف تمنعه من الوصول إلى مكانته الحالية. كان يمكن أن تُقلق رؤساءه، وتُبعده عن حظّه في الترقية. ترقيته كانت سريعة جداً.

"لا يوجد أيّ واحد منهم، سيدي، لا يمكننا وضع أيدينا عليه في أيّ وقت من الليل والنهار. نحن نعلم ما يفعل كل واحد منهم ساعة بعد ساعة" صرّح هيت. والمسؤول الرفيع تلطّف بابتسامة. من الواضح جداً أن هذا القول كان عين الصواب لأن سمعة كبير المفتّشين هيت كانت مُرضية للغايةً. المسؤول الرفيع صدّق التصريح الذي توافقَ مع فكرته حول صحّة الحقائق. حكمته كانت من النوع الرسمي، بدلاً من ذلك قد يفكّر ملياً بمسألة ما ليس من الناحية النظرية، لكنْ من ناحية الخبرة الموجودة في النسيج المحبوك للعلاقة بين المتآمر والشرطة، هناك تَظهر حلول غير متوقّعة للاستمرارية، حُفَرٌ مفاجئة في الزمان والمكان. ربمّا تُراقب تحرّكات فوضوي معيّن بوصة بعد بوصة، ودقيقة بعد دقيقة، لكنْ هناك لحظة ما

تحدث دائماً عندما تضيع بطريقة أو بأخرى كل لمحة أو اتّصال به لبضع ساعات، حينما يحدث شيء (انفجار عموماً) باعث على الأسى. لكن المسؤول الرفيع منقاد بإحساسه بالحقائق، ابتسم، وتَذكُّر تلك الابتسامة - الآن - مزعج جداً لكبير المفتّشين هيت، الخبير الرئيس في نهج الفوضويين.

لم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي يعكّر تذكّرها الصفو المعتاد للمتخصّص البارع. كان هناك تاريخ آخر يعود لذلك الصباح فقط. التفكير بما حدث عندما تمّ استدعاؤه على وجه السرعة إلى الغرفة الخاصّة للمفوّض المساعد(*)، لم يتمكّن من إخفاء دهشته، كان منزعجاً بوضوح. غريزته كرجل ناجح علّمته منذ زمن طويل، كقاعدة عامّة، أن السُّمعة تعتمد على الأسلوب بقدر ما تعتمد على الإنجاز. وشعر أن أسلوبه عندما واجه البرقية لم يكن مؤثّراً. فتح عينيه على وسعهما، وصرخ "مستحيل!" فضح نفسه بذاك الرّدّ الحاسم القاطع على نقرة إصبع، وُضعت قسراً على البرقية التي رماها المفوّض المساعد على المكتب بعد أن قرأها بصوتٍ عالٍ. أن تُسحَق، إذا جاز التعبير، تحت نقرة سبّابة كانت تجربة غير سارّة. مدمّرة جداً، أيضاً! علاوة على ذلك، أدرك كبير المفتّشين هيت أن لا وجوب لإصلاح الأمر بالسماح لنفسه توضيح الإدانة.

"شيء واحد أستطيع أن أقوله لك الآن: لا أحد من مجموعتنا له أيّ علاقة بما حدث".

كان قوياً في نزاهته كرجل مباحث كَفْء، لكنه رأى الآن أن التّكتّم الحذر على نحو مبهم تجاه هذه الحادثة سوف يخدم سمعته بشكل أفضل. من جانب آخر، اعترف لنفسه بأن من الصعب جداً الحفاظ على سُمعة المرء

---

*) المفوّض المساعد (AC): هو ثالث أعلى مرتبة في شرطة عاصمة لندن، وهو - أيضاً - وكيل شرطة مدينة لندن، رتبة بين القائد والمفوّض. الرتبة تُستخدَم في قوّات الشرطة البريطانية الأخرى.

إذا كان هناك غرباء ذوو مكانة مهمّة شاركوا في العمل. الغرباء مصدر أذى للشرطة كما بالنسبة للمهن الأخرى. النبرة التي تحدّث بها المفوّض المساعد كانت لاذعة إلى حدّ يجعل المرء يغضب بشدّة.

ومنذ وجبة الإفطار، لم يتمكّن كبير المفتّشين هيت من تناول أيّ شيء من الطعام.

انطلق إلى موقع الانفجار لبدء تحقيقه على الفور، كان قد ابتلع قدراً كبيراً من الضباب البارد الكريه في الحديقة العامّة. وبعد ذلك، مشى إلى المستشفى، وعندما انتهى التحقيق في قضية غرينتش أخيراً خسر شهيّته للطعام. لم يكن معتاداً مثل الأطبّاء على فحص بقايا مشوّهة من المخلوقات البشرية عن كثب، صُعق من المنظر الذي كُشف له عندما رُفع له الشرشف المضادّ للماء من على الطاولة في قسم معيّن من المستشفى. وشرشف آخر يغطّي تلك الطاولة بطريقة مفرش المائدة وزواياه مقلوبة على ما يشبه تلّة صغيرة - كومة من الخُرق، محروقة وملطّخة بالدم، يخفي جزئياً ما قد يكون تراكم الموّاد الخام لوليمة آكل لحوم البشر. تطلّب ذلك ثباتاً كبيراً لنفس لا تنفر أمام هذا المنظر. كبير المفتّشين هيت، الضابط الكفء في قسمه، واجه الموقف، لكنْ لدقيقة كاملة لم يتقدّم خطوة نحو الطاولة. شرطي محليّ في زيّ رسميّ ألقى نظرة جانبية، وقال بسذاجةِ متبلّد الحسّ:

"هنا كله. كل جزء منه. كان عملاً شاقاً".

كان أوّل رجل يصل إلى مكان الحادث بعد الانفجار. نوّه إلى الحادثة مرّة أخرى. رأى شيئاً يشبه وميضاً قوياً من الضوء في الضباب. كان يقف في تلك الأثناء عند باب فندق كينغ ويليام ستريت، ويتحدّث إلى الحارس. الصدمة جعلت كل جسده يرتعش. ركض بين الأشجار باتّجاه مبنى المرصد. "ركضتُ بأقصى سرعة" كرّر ذلك مرّتين.

انحنى كبير المفتّشين هيت إلى الأمام على الطاولة بحذر شديد وخوف، سمح للشرطي الاستمرار بالكلام. بوّاب المستشفى ورجل آخر طويا زوايا الغطاء، ووضعاه جانباً. بحثتْ عينا كبير المفتّشين في التفاصيل المخيفة لكومة من الأشياء المخلوطة، والتي تبدو كما لو أنها قد جُمعت في الخرائب ومحلات بيع الملابس المستخدَمة.

"استخدمتَ المجرفة؟" علّق كبير المفتّشين، وهو ينظر إلى حصى صغيرة متناثرة، أجزاء بُنِّيَّة دقيقة من اللحاء وشظايا من خشب متكسّر رفيع مثل الإبر.

" كان في مكان واحد" قال الشرطي المتبلّد الحسّ. "أرسلتُ الحارس لجلب مجرفة. عندما سمعني أكشط الأرض بها، أسْنَدَ جبهته على الشجرة، شعر بغثيان شديد، وتقيّأ".

انحنى كبير المفتّشين بحذر على الطاولة، قاوم إحساساً مزعجاً في حنجرته. العنف المدمّر للانفجار الذي حوّل ذلك الجسد إلى كومة من أشلاء متعذّر وصفها، حرّك مشاعره مع إحساس بقسوة وحشية، رغم أن عقله حدّثه أن التأثّر يجب أن يكون سريعاً مثل ومضة البرق. الرجل - كائناً من كان - مات على الفور، وإلى الآن، يبدو من المستحيل تصديق أن جسم إنسان من الممكن أن يصل إلى هذه الحالة من الانحلال دون أن يمرّ بمخاض ألم مبرح لا يمكن تصوّره. كبير المفتّشين هيت الذي هو ليس عالم بالفسلجة، ولا يزال أقلّ معرفة في علم ماوراء الطبيعة، استقام مدفوعاً بشعور من التعاطف - الذي هو شكل من أشكال الخوف - متعالياً على التصوّر المبتذل للزمن. مباشرة! تذكّر كل ما قرأه في يوم ما في منشورات مشهورة عن الأحلام الطويلة والمرعبة التي يحلم بها المرء في لحظة يقظة، عن حياة ماضية كاملة، عيشت بقوّة مخيفة من قِبَل غريق، ظهر رأسه

الميت، تدفّقت هذه الرؤى، للمرّة الأخيرة. الألغاز المعقّدة للوعي أقلقتْ كبير المفتّشين هيت حتّى إنه طوّر فكرة مرعبة، مفادها أن أعماراً من الألم الفظيع والتعذيب النفسي قد تُساوي ما بين رمشة عين وأخرى. وفي تلك الأثناء، استمرّ كبير المفتّشين في التحديق بالأشياء على الطاولة، بوجه هادئ واهتمام قلق نوعاً ما لشخص فقير ينحني على ما قد يُسمّى منتجات ثانوية في محلّ جزّار من أجل عشاء يوم أحد غير مكلّف. طوال الوقت وقدراته المُدرّبة كمحقّق بارع لا يحتقر أيّ حظّ من المعلومات، تتابع الثرثرة غير المترابطة والواثقة للشرطي.

"رجل ذو شعر أشقر" الملاحظة الأخيرة قالها بنبرة هادئة، وبعدها توقّف قليلاً. "المرأة العجوز التي تحدّثتْ إلى الرقيب قالت إنه رجل ذو شعر أشقر، خرج من محطّة ميز هيل" توقّف مرّة أخرى. "وكان رجلاً ذا شعر أشقر. لاحظتْ أن رجلين خرجا من المحطّة بعد أن غادر القطار الذي أقلّهما" وتابع ببطء. "لا تعرف فيما إذا كان الرجلان معاً. لم تأبه بالرجل الضخم، لكن الرجل الآخر كان شابّاً وسيماً نحيلاً، يحمل علبة طلاء من الصفيح بيد واحدة" توقّف الشرطي عن الكلام.

"هل تعرف المرأة؟" همهم كبير المفتّشين وعيناه ثابتتان على الطاولة. وفكرة غير واضحة في ذهنه حول التحقيق الذي سيُعقّد عمّا قريب، عن شخص، قد يظلّ مجهولاً إلى الأبد.

"نعم. إنها مدبّرة منزل صاحب حانة متقاعد، وتأتي إلى الكنيسة في بارك بلَيس أحياناً" قال الشرطي بجدّيّة، وتوقّف مع نظرة مائلة أخرى إلى الطاولة. وفجأة: "حسناً، هذا هو كلّ ما استطعتُ أن أراه منه. وسيم، ونحيل، نحيل جداً. انظر إلى قَدَمه هناك. التقطتُ الساقين أولاً، واحدة بعد الأخرى. كان متناثراً بحيث لا تعرف من أين تبدأ".

توقّف الشرطي عن الكلام. رعشة ابتسامة مديح ذاتي ساذجة منحت وجهه المستدير مظهراً طفولياً.

"تعثّرتُ" قال على نحو إيجابي. "تعثّرتُ لمرّة واحدة، ووقعتُ على رأسي أيضاً، بينما كنتُ أجمعها. أشلاؤه تظهر في كل مكان. تعثّرتُ بجذر شجرة، وسقطتُ، وذلك الشيء الذي كان يحمله يجب أن يكون قد انفجر تحت صدره تماماً، كما أتوقّع".

صدى كلمات "شخص مجهول" تردّدت في وعيه الداخلي، وأزعجت كبير المفتّشين إلى حدّ كبير. كان يريد أن يقتفي أثر هذه القضية حتّى يصل إلى أصلها الغامض من أجل معلوماته الخاصّة. كان فضولياً بشكل محترف. كان يوّد الدفاع عن كفاءة قسمه أمام عامّة الناس، من خلال كشف هوية هذا الرجل. كان موظّفاً مخلصاً للدولة. وهذا على أيّ حال، بدا مستحيلاً. الكلمات الأولى من القضية لم تكن قابلة للقراءة - وغيّبت كل الاحتمالات ما عدا تلك الوحشية الصارخة منها.

وللتغلّب على اشمئزازه الجسدي، مَدّ كبير المفتّشين هيت يده دون اقتناع من أجل تهدئة وعيه، وأخذ الخرقة الأقلّ اتّساخاً من بين الخرق. كان شريطاً صغيراً من المخمل مع قطعة أكبر مثلّثة الشكل من القماش الأزرق الداكن، تتدلّى منه. رفعهما إلى عينيه، بينما كان الشرطي يتحدّث.

"ياقة مخملية. المضحك أن المرأة العجوز لاحظت الياقة المخملية. معطف أزرق غامق مع ياقة مخملية، قالت لنا. كان هو الشابّ الذي رأتْه، دون أدنى شك. وها هو - الآن - كاملاً، الياقة المخملية وكل شيء. أظنّ أني لم أنسَ أيّ شيء حتّى لو كان بحجم طابع البريد".

في تلك اللحظة القدرات المدرّبة لكبير المفتّشين توقّفت عن سماع

صوت الشرطي. تحرّك إلى إحدى النوافذ، من أجل ضوء أفضل. أشاح بوجهه عن الغرفة، بدا عليه قلق كبير وذهول، بينما يفحص - عن كثب - قطعة القماش المثلّثة الشكل. فصلها مع رعشة مفاجئة، وبمجرّد أن حشرها في جيبه، استدار نحو الغرفة، ورمى الياقة المخملية على الطاولة مرّة أخرى.

"غطّوه" أمر الحاضرين باقتضاب دون نظرة أخرى، وأدّى الشرطي التحية العسكرية له. خطف غنيمته بسرعة.

قطار قريب أقلّه إلى المدينة، وحيداً ويفكّر بتعمّق في مقصورة الدرجة الثالثة. قطعة القماش المحروقة تلك كانت قيّمة بشكل لا يُصدَّق، ولم يستطع كبح نفسه من الذهول من الطريقة العَرَضية التي وصلتْ بها إلى حوزته. كما لو أن القَدَرَ دفع هذا الدليل إلى يديه. ووفقاً لأسلوب رجل عادي طموحه هو مَن يقود الأحداث، بدأ يشكّك بمثل هذا النجاح غير المبرّر والمفاجئ، لمجرّد أنه بدا مفروضاً عليه. القيمة الفعلية للنجاح تعتمد بقدر ليس قليل على الطريقة التي تُنظَر بها له. لكن القَدَرَ لا ينظر إلى أيّ شيء. ليس لديه القدرة على اتّخاذ القرار. لم يعد ينظر له على أنه مبتغى عام لتحديد هوية الرجل الذي فَجّر نفسه ذلك الصباح بمثل هذه الإحاطة الرهيبة بشكل عَلَني. لكنه غير متأكّد من الرؤية التي سيتّخذها قسمه. القسم هو لأولئك الذين يُوظّفون شخصية معقّدة مع أفكار، وحتّى بدع لصالحهم. يعتمد على التفاني المخلص لموظّفيه، ويرتبط الولاء المخلص للموظّفين الثقات مع قدر معيّن من عدم الاحترام المحبّب تُبقيه حلواً، إذا جاز التعبير. في الحُكم الخيّر للطبيعة، ليس هناك رجل بطل بالنسبة لخادمه، وإلا سوف يُنظّف الأبطال ملابسهم بأنفسهم. وبالمثل، ليس هناك قسم يبدو حكيماً تماماً، في تآلفه مع موظّفيه. القسم لا يعرف أكثر ممّا يعرف بعض موظّفيه. النظام النزيه، لا يمكن أن يكون على

علم بكل شيء. ليس مناسباً لكفاءته أن يعرف أكثر من اللازم. خرج كبير المفتّشين هيت من القطار وهو في حالة تأمّل كامل، لم يلوّث بالخيانة، لكنه لم يخلُ تماماً من ارتياب الغيور الذي غالباً ما يثب على أساس تفانٍ مثالي، إما للنساء أو المؤسّسات.

كان في هذا المزاج العقلي جسدياً فارغاً تماماً، لكنه لا يزال مشمئزّاً ممّا رآه، ولهذا جاء للقاء البروفيسور. تحت هذه الظروف التي تُجبر رجلاً سليماً عادياً على الانفعال، هذا اللقاء كان غير مرحّب به خاصّة لكبير المفتّشين هيت. لم يفكّر بالبروفيسور، لم يفكّر بأيّ فوضوي على الإطلاق. المظهر العامّ للحالة فرض عليه - بطريقة أو بأخرى - فكرة عامّة عن سخافة المخلوق البشري، الذي هو - نظرياً - مزعج بما يكفي لمزاج غير فلسفي، وفي حالات محدّدة يصبح مثيراً للغضب بشكل لا يُحتمَل. في بداية مسيرته المهنية، اختصّ كبير المفتّشين هيت بالأشكال الأكثر فعالية للسرقة. أثبت مهارته في ذلك المجال، وكما هو متوقّع ظلّ محافظاً، بعد ترقيته إلى قسم آخر، على شعور مختلف تماماً عن الشفقة. السرقة ليست سخافة مطلقة. إنها شكل من أشكال الصناعة البشرية، شكل منحرف بالتأكيد، لكنها مع ذلك صناعة تتمّ ممارستها في عالم كادح، عمل قام على المنطق نفسه الذي قام عليه العمل في الفخاريات، في مناجم الفحم، في الحقول، في محلات الحدادة. إنه عمل، الفرق العملي عن الأشكال الأخرى من العمل ينحصر في طبيعة مخاطرها التي لا تكمن في مرض القسط العظمي، أو التسمّم بالرصاص، أو غاز المناجم، أو الغبار الرملي، لكنْ فيما يمكن تعريفه بشكل موجز بلغته الخاصّة: "السجن لسبع سنوات". كبير المفتّشين هيت لم يكن غافلاً بالتأكيد، عن خطورة الاختلافات الأخلاقية. ولا حتّى اللصوص الذين كان يلاحقهم. إنهم يخضعون إلى العقوبات الصارمة لأخلاقيات مألوفة لكبير المفتّشين هيت مع تنازل معيّن. إنهم أبناء جلدته الذين

أخطؤوا بسبب نقص التعليم، يؤمن كبير المفتّشين هيت، مع اعترافه بهذا الاختلاف، أن بإمكانه فَهْم عقلية اللص لأن - كما في واقع الأمر - عقل وغرائز اللص وضابط الشرطة من الطبيعة نفسها. يعترف كلاهما بالأعراف نفسها، هما يعرف كل أساليب الآخر وروتين المهنة الخاصّ به. يفهمان بعضهما، وهذا أمر مفيد لكليهما، ويُؤسّس نوعاً من الاعتدال في علاقتهما. مُنتجان من الماكنة نفسها، يُصنّف أحدهما على أنه مفيد والآخر ضارّ. استخدام الماكنة بطرق مختلفة أمر مفروغ منه، لكنْ عند المخاطر هما متشابهان جوهرياً. كان من الصعب على عقل كبير المفتّشين هيت الوصول إلى أفكار الثورة. لكن لصوصه لم يكونوا ثوّاراً. قوّته البدنية، طريقته الباردة القاسية، شجاعته ووضوحه ضمنت له الكثير من الاحترام وبعض التملّق في مجال نجاحاته السابقة. كان يشعر بأنه مُوقّر ومحترم. وكبير المفتّشين هيت، الذي يقف على مسافة ستّ خطوات من الفوضوي الذي يُدعى البروفيسور، تأمّل بأسف عالم اللصوص - عالم مُتعقّل، بلا أهداف مَرَضيّة، يعمل حسب الروتين، يحترم السلطات التشريعية، وخال من كل عيوب الكراهية واليأس.

بعد انقضاء هذا المديح لما هو عادي في عُرْف المجتمع (لأن فكرة السرقة بدت عادية لبديهته مثل فكرة الملكية) شعر كبير المفتّشين هيت بالغضب الشديد مع نفسه، لأنه توقّف، لأنه تحدّث، لأنه اتّخذ هذا الطريق على أساس أنه طريق مختصر من المحطّة إلى المقرّ الرئيس. وتحدّث ثانية بصوته المتسلّط المرتفع، الذي عندما خَفّضه اتّسم بالتهديد.

"أنتَ لستَ مطلوباً، قلتُ لكَ" كرّر هيت.

الفوضوي لم يحرّك ساكناً. ضحكة ساخرة من الأعماق، كشفتْ ليس - فقط - أسنانه ولكنْ لثّته أيضاً، هزّت جسده كله دون أدنى صوت. كبير

المفتّشين هيت كان على وشك أن يضيف، على مضض: "ليس الآن. عندما أحتاجكَ، سأعرف أين أجدكَ".

هذه الكلمات كانت مناسبة تماماً في إطار التقاليد وملائمة لشخصيّته كضابط شرطة، يخاطب واحداً من مجموعته الخاصّة. لكن الاستقبال الذي حظي به خرج عن التقاليد واللياقة. كان مُهيناً. الرجلَ القزم، الضعيف الذي يقف أمامه، تحدّث أخيراً.

"ليس لديّ شك أن الصحف سوف تخصّص لك بيان نعي في حينها. أنت تعرف جيداً ما ستكون قيمة ذلك بالنسبة لكَ. أظنّ أن بإمكانكَ تصوُّر نوع المادّة التي سيتمّ طباعتها بسهولة. لكنكَ قد تتعرّض للكراهية، لأنك ستُدفَن معي، لذا أظنّ أن أصدقاءك سوف يبذلون جهداً كبيراً لفرزنا عن بعضنا قدر المستطاع".

مع كل احتقاره من الناحية الصّحّيّة البدنية للشخص الذي فرض مثل هذا الكلام، التلميح الفظيع للكلمات كان له وقعه على كبير المفتّشين هيت. لديه الكثير جداً من الفطنة، الكثير جداً من المعلومات الدقيقة لينبذ مثل هذا الهراء. الظلمة في هذا الزقاق الضيّق اتّخذت مسحة شرّيرة من مظهر رجل شرّير، صغير ونحيل، ظهره إلى الجدار، ويتحدّث بصوت واثق ضعيف. بالقياس إلى النشاط الحيوي والمثابر لكبير المفتّشين هيت، كان البؤس الجسدي لذلك الكائن غير ملائم للعيش بكل وضوح، كان مشؤوماً، ولذلك بدا له أن لو سوء الطالع قد جعله كهذا الشيء البائس، فإنه لن يهتمّ بموته مهما كان سريعاً. الحياة أحكمت قبضتها عليه بحيث إن موجة جديدة من الغثيان اندفعت في تعرُّق طفيف على جبينه. همسُ حياة المدينة، القعقعة الخافتة للعجلات في شارعين غير مَرئيين على جهة اليمين واليسار، جاءت عبر منعطف الزقاق القذر إلى أذنيه مع ألفة

مُقَدّرة وحلاوة رائعة. إنه إنسان. لكن كبير المفتّشين هيت كان رجلاً أيضاً، ولا يمكنه تمرير مثل هذه الكلمات بسهولة.

" هذا كله جيد لتخويف الأطفال" قال هيت. "وجدتُكَ في النهاية".

قال ذلك كما يجب، دون سخرية، مع هدوء صارم تقريباً.

"ممّا لا شك فيه" كان الجواب، "لكنْ ليس هناك وقت أفضل من اليوم، صدّقني. بالنسبة لرجل قناعات حقيقية هذه هي الفرصة المناسبة للتضحية بالذات. قد لا تجد رجلاً آخر مناسباً وإنسانياً إلى هذا الحدّ. ليس هناك حتّى قطٌ بالقرب منا، وحتّى تلك البيوت القديمة المدانة ستتحوّل إلى كومة عظيمة من الطابوق حيث تقف أنت. لن تقبض عليّ مقابل ثمن قليل جداً من الأرواح والممتلكات، ثمن تدفعه أنت من أجل الحماية".

"أنت لا تعرف إلى مَن تتحدّث" قال كبير المفتّشين هيت بثبات. "لو وضعتُ يدي عليك - الآن - سوف لن أكون أفضل منكَ".

"آه! اللعبة!".

"ربّما أنت متأكّد من أن جانبنا سوف يفوز في النهاية. ربّما من الضروري أن تجعل الناس يصدّقون أن بعضاً منكم يجب أن يُطلق عليه النار مثل كلاب مسعورة. عندها ستكون هذه هي اللعبة. لكني سأكون ملعوناً، لو عرفتُ مَن أنتم. لا أعتقد بأنكم تعرفون أنفسكم. لن تحقّقوا أيّاً من أهدافكم على الإطلاق".

"في غضون ذلك، أنتَ مَن حقّقتَ بعضاً من أهدافك - حتّى الآن. وحقّقتَها بسهولة أيضاً. لا أريد الحديث عن راتبكَ، لكنْ بعد كل شيء، ألم تصنع اسمكَ بسهولة عن طريق عدم معرفة مَن نحن؟!"

"مَن أنتم، إذنْ؟" سأل كبير المفتّشين هيت مع تسرُّع يدل على الاحتقار. مثل رجل في عجلة من أمره، أدرك أنه أضاع وقته.

الفوضوي المثاليّ أجابه بابتسامة، لم تفصل شفتيه الشاحبتين الرقيقتين، وشعر كبير المفتّشين الشهير بإحساس التفوّق الذي دفعه إلى رفع إصبعه محذّراً.

"تخلَّ عن الأمر - أياً كان" قال بنبرة نُصح، لكنْ ليس بعطف، كما لو أنه تنازل بتقديم نصيحة مفيدة إلى لصّ شهير. "تخلَّ عنه. سوف تجد أننا كثيرون جداً بالنسبة لك".

اضطربت الابتسامة الثابتة على شفتي البروفيسور، كما لو أن روحاً ساخرة داخله فقدت قناعتها. تابع كبير المفتّشين هيت:

"لا تصدّقني، إيه؟ حسناً، انظر حولكَ جيداً. وستجدنا في كل مكان. وعلى أيّ حال، أنتم لم تقوموا بعملكم بشكل جيد. دائماً ما تُسبّبون الفوضى. لماذا، إذا كان اللصوص لا يعرفون عملهم بشكل أفضل، فسوف يموتون جوعاً؟!".

التلميح للكثرة التي لا تُقهَر خلف ظهر ذلك الرجل أيقظتْ غضباً مكبوتاً في صدر البروفيسور. لم يعد يبتسم ابتسامته الغامضة والساخرة. القوّة المقاومة للأعداد، تبلّد الحسّ المنيع لجمع غفير من الناس، هو الخطر الذي يطارد عزلته الشريرة. ارتعشتْ شفتاه لبعض الوقت قبل أن يتمكّن من الكلام بصوت مخنوق:

"أنا أقوم بعملي بشكل أفضل من قيامكم أنتم بأعمالكم".

"هذا يكفي" قاطعه كبير المفتّشين هيت بسرعة، وضحك البروفيسور

مباشرة هذه المرّة. ومشى بينما هو يضحك، لكنه لم يضحك طويلاً. الرجل ذو الوجه الحزين، الصغير البائس خرج من الممرّ الضيق إلى صخب الشارع الواسع. كان يمشي مشية واهنة لمتشرّد يسير، يواصل السير، غير مبال للمطر أو الشمس في انفصال شرّير عن مظاهر السماء والأرض. كبير المفتّشين هيت، من جانب آخر، بعد أن راقبه لبعض الوقت، مشى بسرعة متأنّية لرجل تجاهل بالفعل سوء الطقس، لكنه مدرك أن لديه مهمّة رسمية على هذه الأرض، ودعماً معنوياً من زملائه. سكّان المدينة الكبيرة كلهم، سكّان القرية كلهم، وحتّى الملايين الحاشدة التي تتصارع على هذا الكوكب كانوا معه - وحتّى اللصوص والمتسوّلين. نعم، اللصوص أنفسهم كانوا - بالتأكيد - معه في مهمّته الحالية. الوعي للدعم الكوني في نشاطه العامّ شجّعه على التعامل مع المشاكل الخاصّة.

المشكلة التي تواجه كبير المفتّشين هيت الآن هي إدارة المفوّض المساعد في قسمه، رئيسه المباشر. هذه هي المشكلة الأبدية للموظّفين المخلصين ومحل الثقة، الفوضوية أعطتْها مظهرها الخاصّ، لكنْ ليس أكثر من ذلك. في الحقيقة، لم يفكّر كبير المفتّشين هيت كثيراً بالفوضوية. لم يُعلّق عليها الكثير من الأهمّيّة، ولا يمكنه حمل نفسه على التفكير بها بجدّيّة. اتّخذت - بشكل أكبر - طابع السلوك غير المنضبط، غير منضبط دون وجود مبرّر بشري مثل السُّكر، والذي يدلّ على شعور جيد وميل ودّي تجاه الاحتفالات على أيّ حال. وكما هو الأمر مع المجرمين. الفوضويون بلا شك ليسوا طبقة اجتماعية - ليسوا طبقة اجتماعية على الإطلاق. وتذكّر البروفيسور - دون أن يضبط خطوته المتأرجحة - كبير المفتّشين هيت، وهمهم من بين أسنانه:

"معتوه".

القبض على اللصوص كان مسألة أخرى تماماً، يمتلك ذلك النوع من الخطورة المتعلّقة بكل شكل من أشكال الرياضة المفتوحة حيث يفوز الرجل الأفضل وفق قواعد مفهومة على نحو تامّ. لم يكن هناك قواعد للتعامل مع الفوضويين. وكان هذا أمراً مستهجناً لكبير المفتّشين. إنها حماقة، لكن هذه الحماقة تثير عقل الجمهور، تضرّ رجال السلطة، وتؤثّر على العلاقات الدولية. احتقار قاس لا يرحم استقرّ بشكل صارم على وجه كبير المفتّشين، بينما كان يواصل السير. دهس عقله الفوضويين كلهم من مجموعته. لا يمتلك أيٌّ أحد منهم نصف شجاعة هذا السارق أو ذاك من الذين عرفهم. لا نصف - ولا حتّى عُشر شجاعتهم.

في المقرّ الرئيس، أُذن لكبير المفتّشين هيت الدخول إلى الغرفة الخاصّة للمفوّض المساعد. وجده يمسك قلماً بيده، ينحني على مكتب كبير، تتناثر عليه الأوراق، وكما لو أنه يسجد لمحبرة مزدوجة هائلة من البرونز والكريستال. أنابيب التخاطب الشبيهة بالأفاعي كانت رؤوسها مربوطة بظهر كرسي المفوّض المساعد الخشبي ذي الذراعين، وبدت أفواهها الفاغرة على استعداد للَدْغ مرفقيه. وفي هذا الوضع، رفع عينيه فقط، جفناه كانا مجعّدين، وأشدّ قتامة من وجهه. لخّصت التقارير أن: كل فوضوي مسؤول عن الحادثة.

بعد أن قال هذا خفض عينيه، وقّع بسرعة على ورقتين، وعندها - فقط - وضع قلمه جانباً، واعتدل في جلسته، وجّه نظرة استفسار نحو تابعه الشهير. كبير المفتّشين كان يقف منتصباً، مظهره يتّسم بالاحترام، لكنه غامض.

"أحسب أنك كنتَ على حقّ" قال المفوّض المساعد، "في قولكَ لي في البداية إن فوضويي لندن لا شأن لهم بذلك. أنا أقدّر، تماماً، المراقبة

المتواصلة الممتازة لهم من قِبَل رجالكَ. من جانب آخر، بالنسبة للشعب، لا يرقى هذا إلى أكثر من اعتراف بالجهل".

كان إلقاء المفوّض المساعد متمهّلاً، كما لو كان حذراً. بدا أن فكرته تتوقّف لتتوازن على كلمة قبل العبور إلى الأخرى، كما لو كانت الكلمات أحجاراً لعقله، تختار طريقها عبر مياه من الأخطاء. "إلا إذا جلبتَ معكَ شيئاً مفيداً عن غرينتش" أضاف.

بدأ كبير المفتّشين هيت - فوراً - بعرض تحقيقه بطريقة عملية واضحة. أدار رئيسه كرسيّه قليلاً، وضع ساقيه النحيلتين فوق بعضهما، واتّكأ جانباً على مرفقه، وظلّل عينيه بيد واحدة. وضعيّته في الاستماع كان فيها التماعة لصلاة حزين ومكروب. ظهر بريق كما لو أن فضّة مصقولة للغاية تلمع على جانبي رأسه الأبنوسي الأسود عندما أماله ببطء، في نهاية الأمر.

انتظر كبير المفتّشين هيت وبدا أنه كان يقلّب كل ما قاله توّاً في رأسه، لكنْ كما في واقع الأمر، آخذاً بعين الاعتبار الحكمة في قول شيء أكثر من ذلك. المفوّض المساعد قطع تردّده بسرعة.

"أنت تظنّ أن هناك رجلين؟" سأل دون أن يكشف عينيه. كبير المفتّشين هيت كان يظنّ أن هناك أكثر من احتمال. برأيه أن الرجلين قد افترقا عن بعضهما على بُعد مئات الأمتار من جدران المرصد. وضّح - أيضاً - كيفية خروج الرجل الآخر من الحديقة العامّة بسرعة دون أن يلاحظه أحد. رغم أن الضباب لم يكن كثيفاً جداً، إلا أنه كان في صالحه. يبدو أنه رافق الآخر إلى مكان الحادث، وتركه هناك ليقوم بالمهمّة بمفرده. منذ الساعة التي شوهد فيها الرجلان يخرجان من محطّة ميز هيل من قِبَل امرأة عجوز، إلى الساعة التي سُمع فيها صوت الانفجار، يظنّ كبير المفتّشين أن الرجل

الآخر كان بالفعل في محطّة غرينتش بارك، وعلى استعداد للّحاق بالقطار التالي، في تلك اللحظة، كان رفيقه يفجّر نفسه تماماً.

"تماماً، إيه؟" همس المفوّض المساعد من تحت ظلّ يده.

كبير المفتّشين وصف ببضع كلمات قوية مظهر البقايا. "هيئة الطّبّ الشرعي سوف تعالج الأمر" أضاف بتجهّم. كشف المفوّض المساعد عينيه. "لا يجب أن نقول لهم شيئاً" قال بفتور. نظر له، راقب لبعض الوقت السلوك المراوغ بشكل واضح لكبير المفتّشين. طبيعته كانت لرجل لا يمكن كشف خداعه بسهولة. كان يعلم أن القسم تحت رحمة الموظّفين التابعين الذين لديهم تصوّراتهم الخاصّة عن الإخلاص. بدأ حياته المهنية في مستعمرة استوائية. أحبَّ عمله هناك. كان يعمل في الشرطة، وناجحاً جداً في تتبّع ووَضْع حدّ لبعض الجمعيات السّرّيّة الشنيعة بين المواطنين. وبعد ذلك، أخذ إجازته الطويلة، وتزوّج باندفاع نوعاً ما. كان زواجاً سعيداً من وجهة النظر الأسريّة والاجتماعية، لكن زوجته كوّنت رأياً سلبياً عن المناخ الاستعماري حسب شهادات وإشاعات سمعتْها. من جانب آخر، كانت لها علاقات مؤثّرة. كان زواجاً رائعاً. لكنه لم يحبّ عمله الذي يقوم به الآن. شعر أنه يعتمد على الكثير جداً من المرؤوسين، والكثير جداً من الرؤساء. الوجود على مقربة من تلك الظاهرة العاطفية الغريبة المسمّاة بالرأي العامّ أثقل كاهل روحه، وروعه بطبيعته غير العقلانية. من الجهل أن يضخّم لنفسه قوّة هذه الظاهرة فيما يتعلّق بالخير والشر، بلا شك، وخاصّة فيما يتعلّق بالشرّ، والرياح الشرقية العاصفة للربيع الإنكليزي (الذي توافق مع زوجته) زادت من عدم ثقته عموماً بدوافع الرجال وكفاءة تنظيمهم. عدم جدوى العمل المكتبي على وجه الخصوص أرعبه في تلك الأيّام المرهقة جداً لكبده الحسّاس.

نهض واقفاً، أظهر طول قامته بالكامل، وبثقل خطوة ملحوظة لرجل بمثل نحوله، مشى في الغرفة نحو النافذة. انهمر المطر على الزجاج، والشارع الصغير الذي ينظر له في الأسفل كان رطباً وفارغاً، كما لو اجتاحه فجأة طوفان عظيم. كان يوماً عصيباً جداً، اختنق بالضباب البارد في بدايته، والآن غرق بالأمطار الباردة. وميض البريق الضبابي للمصابيح الغازية بدا كما لو أنه ذاب في محيط مائي. والذرائع المتغطرسة للبشر التي قمعها الإذلال البائس للطقس بدت وكأنها تَفَاخُرٌ هائلٌ ويائس يستحقّ السخرية، العجب، والشفقة.

"رهيب! رهيب!" قال المفوّض المساعد لنفسه، ووجهه قريب من زجاج النافذة. "نعيش في هذه الحالة الآن منذ عشرة أيّام، لا، أسبوعين، أسبوعين" توقّف عن التفكير تماماً لبعض الوقت. السكون التامّ لدماغه استمرّ لثلاث ثوان، ثمّ قال بمَلَل: "هل قمتُ بالتحقيقات سيراً على الأقدام للبحث عن الرجل الآخر المفقود صعوداً ونزولاً في الطريق؟".

لم يكن لديه شك أن كل ما هو ضروري قد تمّ القيام به. كبير المفتّشين هيت، بالطبع، كان على علم تامّ بمهامّه في صيد البشر. وهذه الخطوات الروتينية، أيضاً، يقوم بها بطبيعة الحال مَن هم أقلّ خبرة. بعض التحقيقات بين جباة التذاكر والحمّالين في محطّتين صغيرتين للسكّة الحديد من شأنها أن تعطي تفاصيل إضافية عن ظهور الرجلين، فحص التذاكر التي تمّ جمعها سوف يُظهر على الفور من أين جاءا ذلك الصباح. إنها إجراءات أساسية، ولا يمكن التغاضي عنها. وفقاً لذلك، أجاب كبير المفتّشين هيت بأن هذه الإجراءات كلها قد تمّتْ مباشرة بعد أن ظهرت المرأة العجوز، وأدلتْ بأقوالها. وأشار إلى اسم المحطّة. "هذه هي المحطّة التي جاءا منها، سيدي" تابع هيت. "الجابي الذي جمع التذاكر في محطّة ميز هيل تذكّر

شابين، في ردّ على وصف اجتياز الحاجز. بدا له رجلان عاملان محترمان من نوع الرجال المتفوّقين - من نوع الرسّامين أو مصمّمي ديكورات المنازل. الرجل الضخم خرج من مقصورة الدرجة الثالثة الخلفية، وبيده صفيحة لامعة، أعطاها عند رصيف المحطّة لرفيقه الشاب النحيل الذي حملها، وتبعه. هذا كله يتّفق مع ما قالتْه المرأة العجوز للشرطي في غرينتش".

المفوّض المساعد، ولا يزال وجهه إلى النافذة، عبّر عن شكّه فيما إذا لو كان هذان الرجلان لهما أيّ علاقة بالانفجار. هذه النظرية كلها استندت على كلام خادمة عجوز، اصطدم بها رجل في عجلة من أمره. ليست مقنعة بكل تأكيد، إلا على أساس الوحي المفاجئ الذي بالكاد يمكن تقبُّله.

"الآن بصراحة، هل هي مَن أوحتْ لكم بالفكرة؟" تساءل بسخرية رصينة، وظلّ ظهره للغرفة، كما لو أنه قد فُتن بتأمّل الأشكال الهائلة للمدينة التي ضاع نصفها في الليل. لم ينظر حوله عندما سمع همهمة بكلمة "محظوظ" من المرؤوس الرئيس في قسمه، والذي اسمه كان يُطبَع على الورق أحياناً، كان مألوفاً لكثير من الناس على أنه واحد من حماتهم المجتهدين والمتحمّسين. كبير المفتّشين هيت رفع صوته قليلاً.

"شرائح ونثرات من الصفيح اللامع كانت واضحة تماماً بالنسبة لي" قال هيت. "هذا إثبات عظيم جداً". "وهذان الرجلان جاءا من محطّة في بلدة صغيرة" فكّر المفوّض المساعد متسائلاً بصوت عالٍ. قال إن مثل هذا الاسم كان على تذكرتين من ثلاثة خرجا من قطار محطّة ميز هيل. الشخص الثالث الذي خرج كان بائعاً متجوّلاً من غريڤزاند معروف لجباة المحطّة. نقل كبير المفتّشين تلك المعلومات بنبرة حاسمة مع بعض المزاج السيّئ، مثل خادم مخلص مدرك لولائه مع شعور بقيمة جهوده المخلصة. ولم يُحوّل المفوّض المساعد نظره عن الظلام في الخارج، الشاسع كالبحر.

"اثنان من الفوضويين الغرباء جاءا من ذلك المكان" قال بوضوح ووجهه إلى زجاج النافذة. "في الواقع، الأمر غير قابل للتفسير". "نعم، سيدي. لكنه سيكون أكثر تعقيداً إذا لم يكن ذلك الميكيلس باقياً في بيت صغير في الجوار".

مع صوت ذلك الاسم الذي هبط - فجأة - في هذه القضية المزعجة، رفض المفوّض المساعد بشدّة الذكرى غير الواضحة لحفلته اليومية في لعب الورق في ناديه. كانت العادة الأكثر تعزية له في حياته، عرض ناجح جداً لمهارته دون مساعدة من أيّ مرؤوس. كان يدخل إلى ناديه ليلعب الورق من الخامسة حتّى السابعة، قبل أن يذهب إلى البيت للعشاء، ينسى في هاتين الساعتين أيّ إزعاج كان في حياته، كأن اللعبة كانت مخدّراً نافعاً لتهدئة آلام الاستياء الأخلاقي. شركاؤه كانوا: مُحرّر فكاهة سوداء في مجلّة شهيرة، مُحام عجوز صامت مع عينين صغيرتين خبيثتين، وعسكري رفيع، كولونيل عجوز بسيط مع يدين سمراوين متوتّرتين. كان يعرفهم مجرّد معرفة شخصية في النادي. لم يلتقهم في أيّ مكان آخر على الإطلاق ما عدا طاولة القمار. لكنْ كان يبدو أن جميعهم يتعاملون مع اللعبة بروح الضحية، كما لو أنها مخدّر ضدّ الأمراض السّرّيّة للوجود، وكل يوم عندما تغيب الشمس على عدد لا يُحصى من أسطح المدينة، توق عذب، ممتع، يشبه الدافع لصداقة أكيدة وعميقة، كان يخفّف عنه إرهاقه المهني. والآن، هذا الإحساس الممتع خرج منه بما يشبه الصدمة الجسدية، وحلّ محلّه نوع خاصّ من الاهتمام في عمله في حماية المجتمع - نوع غير مناسب من الاهتمام، قد يُعرّف بشكل أفضل على أنه ارتياب يقظ ومفاجئ للسلاح في يده.

٦

السيدة الراعية لميكيلس، السجين المُفرَج عنه لحُسن سلوكه، مبشّر الآمال الإنسانية، كانت إحدى أكثر العلاقات المؤثّرة والمتميّزة لزوجة المفوّض المساعد التي تُدعى آني، التي لا تزال تُعامَل - إلى حدّ ما - على أنها فتاة شابّة ليست عاقلة جداً وعديمة الخبرة تماماً. لكنها وافقت على تقبُّله، وعلى علاقة طيّبة معه، ولم يكن هذا هو الحال مع كل علاقات زوجته المؤثّرة. تزوّجت وهي شابّة ورائعة في حقبة بعيدة من الماضي، لفترة من الزمن كانت على مقربة من القضايا البارزة، وحتّى من بعض الرجال العظماء. هي نفسها كانت سيدة عظيمة. الآن، هي كبيرة في عدد السنوات، لديها ذلك النوع من المزاج الاستثنائي الذي يتحدّى الزمن باستخفاف ساخر، كما لو أنه بالأحرى تقليد مُبتذَل مُقدَّم من قِبَل أناس وضعاء. العديد من التقاليد الأخرى من الأسهل وضعها جانباً، للأسف! أخفقت في الحصول على التقدير الذي تستحقّه، ولأسباب مزاجية أيضاً، إما لأنهم يُشعرونها بالمَلَل، أو لأنهم يقفون في طريق تعاطفها، ورفضها الإعجاب كان عاطفة غير معروفة بالنسبة لها (كان هذا أحد أكثر الأحزان التي يُخفيها زوجها النبيل ضدّها) أولاً، كما هو الحال دائماً تقريباً لأنه ملوّث بالوسطية إلى حدّ ما؛ وثانياً، لكونه اعترافاً بالنقص بطريقة أو بأخرى. وبصراحة، كلاهما غير معقول لطبيعتها. أن تقول رأيها بصراحة ودون خوف أمر سهل بالنسبة لها منذ أن شكّلت رأيها من منطلق وضعها الاجتماعي فحسب. كانت غير مقيّدة - أيضاً - في تصرّفاتها، وكما أدبها انحدر من

طبيعة إنسانية حقيقية، ظلّت قوّتها الجسدية لافتة للنظر، وتفوّقها كان ودّياً وهادئاً، ثلاثة أجيال أُعجبوا بها بلا حدود، والأخير ربّما سمعتْهم يقولون إنها امرأة رائعة. إلى جانب ذكاء مع نوع من البساطة النبيلة، فضولية في الأساس، لكنْ ليس مثل كثير من النساء، فضولها لا يميل ببساطة إلى النميمة الاجتماعية، ومن خلال قوّة مكانتها الاجتماعية العظيمة والتاريخية تقريباً كانت مستمتعة بسنّها بجذب كل شيء ضمن حدود معرفتها يسمو فوق مستوى البشر، بشكل قانوني، أو غير قانوني، من خلال المكانة، خفّة الظلّ، الجرأة، الحظّ، أو سوء الحظّ. أصحاب السموُ المَلَكي، الفنّانون، رجال العلم، رجال الدولة الشباب، والنصّابون من جميع الأعمار والظروف، ضعفاء وخفيفون يبرزون مثل الفلّين على سطح الماء، ويُظهرون على أحسن وجه هدف التيّارات السطحية، يُرحَّب بهم في هذا المنزل، يستمعون لها، يتأثّرون بها، يفهمونها، ويُقدّرون ثقافتها. بكلماتها الخاصّة، كانت تحبّ أن ترصد ما وصل إليه العالم. وكما أن لديها رأيا عملياً في حكمها على الرجال والأشياء، كأن تعتمد في حكمها على تحيّزات شخصية، كانت نادراً ما تُخطئ تماماً، وغالباً لا تتشبّث برأيها الخاطئ. ربّما صالونها هو المكان الوحيد في هذا العالم حيث المفوّض المساعد يمكنه لقاء السجين السابق المُفرَج عنه على أساس آخر غير مهني أو رسمي. لا يتذكّر المفوّض المساعد جيداً مَن جاء بميكيلس إلى هناك في بعد ظهر أحد الأيّام. كان لديه فكرة أنه يجب أن يكون عضو برلمان معيّناً ذا نسب شهير وتعاطف غير تقليدي، والذي أصبح النكتة الدائمة للصحف الساخرة. الوجهاء وحتّى ذوي السمعة السيّئة اليوم يرافقون بعضهم بحُرّيّة إلى ذلك المعبد لسيدة عجوز ذات فضول نبيل. لا يمكنك تخمين مَن يُحتمل أن تلتقي به حتّى يتمّ استقباله بطريقة شبه سرّيّة في الجزء الداخلي من حاجز حريري أزرق باهت وإطاره ذهبي، هناك ركن مريح فيه أريكة وعدد من الكراسي بذراعين في

صالة استقبال كبيرة، مع همهمة أصوات ومجموعات من الناس يجلسون أو يقفون في إضاءة ستّة نوافذ طويلة.

ميكيلس كان دافعاً لنفور الرأي العامّ، الرأي نفسه استحسن منذ سنوات ضراوة عقوبة السجن مدى الحياة التي صدرت بحقّه لتورّطه في محاولة مجنونة لتحرير بعض السجناء من عربة الشرطة. خطّة المتآمرين كانت إطلاق النار على الخيول، والتغلّب على الحَرَس. مع الأسف، أحد رجال الشرطة أُصيب بإطلاق النار أيضاً. ترك وراءه زوجة وثلاثة أطفال صغار، وموت ذلك الرجل أثار في طول المملكة وعرضها من أجل رجال الحماية والخدمة الاجتماعية والشرف الذين يُقتلون وهم يقومون بواجبهم موجة من الغضب الجنوني، من شفقة مستعرة لا سبيل إلى تهدئتها للضحية. تمّ إعدام ثلاثة من زعماء العصابة: ميكيلس، الشابّ النحيل، صانع ومصلح أقفال، ومرتاد كبير للمدارس المسائية، لا يعرف حتّى إن شخص ما قد قُتل، كان دوره في المؤامرة مع بضعة آخرين هو فَتْح الباب الخلفي للعربة الخاصّة بالقوّة. عندما تمّ اعتقاله كان لديه مجموعة من المفاتيح الهيكلية في جيب واحد وإزميل ثقيل في جيب آخر، وعتلة قصيرة في يده: لم يكن سوى لصّ. لكنْ لم يُعاقَب لصّ بمثل هذه العقوبة القاسية من قبل. موت الشرطي جعله حزيناً جداً، لكن إخفاق المؤامرة أحزنه أيضاً. لم يُخفِ أيّاً من هذه المشاعر على مواطنيه المُحلّفين في جلسة المحكمة، وهذا النوع من الندم ظهر ناقصاً بشكل صادم للمحكمة المزدحمة بالحاضرين. علّق القاضي بشكل عاطفي عند إصدار الحكم على فساد السجين الشابّ وقسوته.

صنع هذا شهرة لا مبرّر لها لإدانته، شهرة إطلاق سراحه صُنعت له على أساس غير سليم من قِبَل أناس، رغبوا في استثمار الجانب العاطفي

لسجنه، إمّا لأغراض خاصّة بهم أو لأغراض غير واضحة. سمح لهم أن يفعلوا ذلك في براءة قلبه وبساطة عقله. لا شيء حدث له على المستوى الشخصي، وكان له أيّ أهمّيّة. كان مثل أولئك القدّيسين الذين تضيع شخصيّاتهم في تأمّل إيمانهم. لم تكن أفكاره في طبيعة الاتّهامات. لا يمكن لأفكاره أن تصل إلى المنطق. تُشكّل في جميع تناقضاتها وغموضها أسس عقيدة إنسانية لا تُقهر حيث كان يقرّ بالذنب بدلاً من تقديم النصح، مع دماثة عنيدة، ابتسامة ثقة سلميّة على شفتيه، ويخفّض عينيه الزرقاوين الصادقتين لأن رؤية الوجوه تُقلق تطوّر إلهامه في العزلة. في ذلك الوضع الجسماني الخاصّ، المحزن في بدانته المشوّه وغير القابل للعلاج، جسمه الذي يجرّه ببطء مثل قادس يجذفه العبيد إلى نهاية أيّامه، اجتمع المفوّض المساعد بالمبشّر والسجين السابق المُفرَج عنه لحُسن سلوكه، كان يملأ كرسياً فخماً بذراعين خلف الحاجز. يجلس هناك إلى جانب أريكة تجلس عليها سيدة عجوز، صوته معتدل وهادئ، مع ثقة بالنفس لا تزيد عن ثقة طفل صغير جداً، ومع شيء من سِحر طفل، سِحْر الثقة الجذّاب. الثقة بالمستقبل الذي كشف له طُرُقه السّرّيّة داخل أربعة جدران لسجن معروف، لم يكن لديه أيّ مبرّر للنظر إلى أيّ شخص بعين الشك. إذا لم يستطع تقديم فكرة محدّدة للسيدة النبيلة والفضولية عمّا سيكون عليه العالم، كان ينجح في إقناعها دون جهد بإيمانه الراسخ، وبالطبيعة الواثقة لتفاؤله.

بعض البساطة في التفكير أمر عاديّ بالنسبة للنفوس الهادئة على طرفي السلّم الاجتماعي. السيدة النبيلة كانت بسيطة بطريقتها الخاصّة. وجهات نظره ومعتقداته ليس فيها ما يصدمها أو يفاجئها منذ أن حكمت عليها من منطلق مكانتها البارزة. بكل تأكيد، كان من السهل أن يصل تعاطفها إلى رجل من هذا النوع. لم تكن رأسمالية مستغلّة،

كانت - إذا جاز التعبير - فوق لعبة الظروف الاقتصادية. لديها قدرة عظيمة على الشفقة على أكثر الأشكال وضوحاً من المآسي الإنسانية المنتشرة، خاصّة لأنها كانت غريبة تماماً بالنسبة لهم بحيث إنها ترجمت مفهومها إلى مصطلحات معاناة عقلية قبل أن تتمكّن من فَهْم فكرة وحشيّتهم. تذكّر المفوّض المساعد جيداً المحادثة التي دارت بينهما. كان يُنصت بصمت. كانت شيئاً مثيراً نوعاً ما، وحتّى إنها كانت مؤثّرة في عبثيتها القدرية، كما الجهود المبذولة في التواصل الأخلاقي بين سكّان الكواكب البعيدة. لكن هذا التجسيد الغريب لعاطفة إنسانية كان مناشدة لمخيّلة المرء بطريقة أو بأخرى. أخيراً نهض ميكيلس، وأمسك يد السيدة الممتدّة، هزّها، ظلّت يدها لبعض الوقت في يده الكبيرة الحامية بودّ صريح، وأدار للركن شبه المنعزل في غرفة الاستقبال ظهره الكبير والواسع، وكأنه منتفخ تحت سترته التويدية القصيرة. ينظر حوله بلطف هادئ، تهادى على طول المسافة إلى الباب بين مجاميع من زوّار آخرين. توقّفت همهمة المحادثات عند مروره. ابتسم ببراءة لفتاة طويلة، رائعة، التقتْ عيناها عينيه بالصدفة، وخرج غير مدرك للنظرات التي تبعتْه من جانب إلى آخر من الغرفة. الظهور الأول لميكيلس في العالم كان ناجحاً - نجاح ذا حظوة لا تشوبه همسة واحدة من السخرية. استؤنفت المحادثات التي توقّفت بنبرتها الصحيحة، الجادّة أو المرحة. رجل حسن المظهر نشيط ذو أطراف طويلة في الأربعين من عمره مع سيدتين بالقرب من نافذة، عَلّقَ بصوت عالٍ مع عمق غير متوقّع في التأثّر: " عليّ أن أقول ثمانية عشرة حجراً(*)، وليس خمسة أقدام وستّة إنشات(**). رجل مسكين! إنه أمر فظيع، فظيع". سيدة المنزل، حدّقت بذهول في وجه المفوّض

*) حوالي ١١٤ كغم.

**) ١,٦٧ سم

المساعد، الذي تُرك وحده معها في جانب خاصّ من الحاجز، كما لو أنها تُعيد ترتيب انطباعاتها الذهنية خلف الجمود الوقور لوجها المُسنّ الجميل. رجال مع شوارب شائبة، ممتلئين، أصحّاء، وجوههم مبتسمة بغموض يقتربون، يطوفون حول الحاجز، سيدتان ناضجتان مع مظهر وقور لحزم لطيف، رجل حليق مع خدَّين غائرين، ويُعلّق عدسة لعين واحدة مثبتة في إطار ذهبي على شريط أسود عريض مع انطباع زمن قديم غاضب. ساد للحظة صمت مُتّسم بالاحترام، لكنْ مليء بالتّحفظّات، وبعد ذلك صرخت السيدة النبيلة، ليس باستياء، لكنْ بنوع من غضب الاحتجاج:

"ومن المفترض - وبشكل رسمي - أن يكون ثورياً! ما هذا الهراء" نظرت بحدّة إلى المفوّض المساعد الذي همس مبرّراً:

"ربّما ليس خطيراً".

"ليس خطيراً ... في الواقع، لا أظنّ ذلك. إنه مجرّد رجل مؤمن. إنها مزاجية قدّيس" قالت السيدة النبيلة بنبرة حازمة. "وأبقوه صامتاً لعشرين عاماً. يقشعرّ بدن المرء من غبائهم. والآن أطلقوا سراحه وكل شخص ينتمي له ذهب بعيداً أو مات. مات والداه، الفتاة التي تزوّجها ماتت وهو في السجن، فقد المهارة اللازمة لعمله اليدوي. قال لي هذا كله بصبر جميل، لكنه قال لي بعد ذلك إن لديه الكثير من الوقت ليتأمّل الأمور من أجل نفسه. تعويض جميل! إذا كانت هذه هي المادّة التي صُنع منها الثوّار، فإن البعض منا قد يركع لهم" تابعت بنبرة مازحة بعض الشيء، بينما تصلّبت ابتسامات المجتمع العادية على الوجوه الدنيوية التي تحوّلت نحوها مع مراعاة تقليدية. "الرجل المسكين، كان من الواضح أنه لم يعد في وضع يسمح له الاعتناء بنفسه. شخص ما سوف يقوم برعايته قليلاً".

"ينبغي أن يُوصى باتّباع علاج ما بطريقة أو بأخرى" صوت عسكري لرجل نشيط ينصح بجدّيّة سُمع من مكان بعيد. كان في حالة جسدية جيدة بالنسبة لسنّه، وحتّى نسيج سترته الفراك الطويلة تميّز بمتانة مرنة كما لو أنه نسيج حيّ. "الرجل عاجز عملياً" أضاف مع مشاعر لا لبس فيها.

أصوات أناس آخرين، كما لو كانوا سعداء بهذا الاستهلال، هممهموا سريعاً بتعاطف. "مذهل تماماً"، "هذه وحشية"، "من المؤلم أن ترى هذا" الرجل الضعيف صاحب العدسة المعلّقة في شريط عريض، تلفظ كلمة " غروتَسك[*]" بغرابة، وكان لصدقه موضع تقدير من الذين يقفون إلى جانبه. ابتسموا إلى بعضهم.

المفوّض المساعد لم يُعرب عن رأيه عندها أو فيما بعد. مكانته لا تسمح له بالتعبير عن أيّ رأي مُستقلّ عن السجين المُفرَج عنه لحُسن سلوكه. لكنه - في حقيقة الأمر - يشاطر أصدقاء زوجته والسيدة الراعية الرأي، ويؤيّد أن ميكيلس كان عاطفياً مُحبّاً للخير، مجنون قليلاً، لكنْ عموماً هو غير قادر على إيذاء ذبابة عمداً. لهذا عندما قفز هذا الاسم فجأة في قضية القنبلة المزعجة تلك أدرك كل مخاطرها على السجين السابق المُفرَج عنه لحُسن سلوكه، وتذكّر - فوراً - افتتان السيدة العجوز الراسخ به. عطفها الاستبدادي لن يسمح بأيّ تعرُّض لحُرّيّة ميكيلس. كان افتتانها به عميقاً، هادئاً، وواثقاً. لم تشعر بأنه مسالم فحسب، لكنها قالت ذلك أيضاً، وأصبح أخيراً عن طريق ارتباك عقلها المستبدّ إلى ما يشبه إثبات لا جدال فيه. كان الأمر كما لو أنها قد افتُتِنَت ببشاعة هذا الرجل مع عينيه الطفوليتين الصريحتين والابتسامة الملائكية لوجهه

---

*) غروتَسك (Grotesque): صفة عامّة تُستخدَم لوصف الأشكال الغريبة والمشوّهة. وفي الفنّ والأدب ربّما تستخدم الكلمة لوصف شيء، يستحضر لدى الجمهور شعور مزعج بالغرابة، وكذلك الشفقة. أصل الكلمة إيطالي، استُخدمت لأول مرّة لوصف الأشكال في اللوحات التي وُجدت على جدران الطوابق السفلية في الآثار الرومانية.

السمين. كانت على وشك الاعتقاد بنظريّته عن المستقبل بما أنها ليست بغيضة لآرائها المسبقة. كرهت المبدأ الجديد للبلوتوقراطية في المُركّب الاجتماعي، والنظام الصناعي كوسيلة من وسائل التنمية البشرية ظهر لها على نحو شخصي مثير للاشمئزاز في طابعه الآلي والقاسي. الآمال الإنسانية للمعتدل ميكيلس لا تتّجه نحو التدمير التامّ، لكنها تتّجه ببساطة نحو خراب اقتصادي كامل للمنظومة. وهي لم تكن ترى في الواقع أين كان الضرر الأخلاقي فيها. آماله سوف تتخلّص من كل جموع "محدثي النعمة" الذين تكرههم، ولا تثق بهم، ليس لأنهم ينجحون في كل مكان (وهي ترفض ذلك)، لكنْ لجهلهم العميق بالعالم، والذي كان السبب الرئيس لبدائية فَهْمهم وجفاف قلوبهم. مع إبادة كل رأس المال سوف يختفون أيضاً، لكنْ الخراب الشامل (على شرط أن يكون شاملاً، كما كُشف لميكيلس) سوف يُبقي على القِيَم الاجتماعية. اختفاء آخر قطعة نقد لا يمكن أن يؤثّر على المكانة الاجتماعية للناس. لا يمكنها تصوّر كيف يمكن أن تتأثّر مكانتها الاجتماعية، على سبيل المثال. قدّمت هذه الاكتشافات إلى المفوّض المساعد بكل الجرأة الهادئة لسيدة عجوز تخلّصت من آفة اللامبالاة. وهو صنع لنفسه مبدأ لتلقّي كل شيء من هذا النوع في صمت بأن يكون حذراً من السياسة، ولا يميل إلى العدوانية. كان لديه عاطفة نحو مريدة ميكيلس العجوز، شعور معقّد اعتمد قليلاً على مكانتها، شخصيّتها، لكن الأهمّ من ذلك كله قدرتها الطبيعية على الشكر بطريقة مجاملة. كان يشعر بنفسه محبوباً حقاً في منزلها. كانت تجسيداً للُّطف. وكانت حكيمة بطريقة عملية أيضاً، أسوة بالنساء المحنّكات. جعلت حياته الزوجية أسهل بكثير ممّا سوف تكون عليه دون اعترافها الكامل بسخاء بحقوقه كزوج لـ آني. تأثيرها على زوجته، وهي امرأة التهمتها كل أنواع الأنانيات الصغيرة، الحسد الصغير، الغيرة الصغيرة، كان تأثيراً رائعاً. مع الأسف، كانت طبيعة

كل من حكمتها ولطفها غير معقولة، أنثوية بوضوح، ومن الصعب التعامل معها. ظلّت امرأة مثالية طوال سنين حياتها كاملة، ولم تصبح مثل بعض منهنّ - من نوع عجوز متزعزع، مزعج يرتدي التنّورات النسائية. وكامرأة كان يفكّر بها- على أنها تجسيد خاصّ مختار بعناية للأنوثة، من حيث إنها تُجند اللطيف، الساذج، والحارس الوفي من أجل كل أنواع الرجال الذين يتحدّثون تحت تأثير العاطفة، الحقيقة أو الخداع، من أجل كل الدُّعاة، العرّافين، الأنبياء أو الإصلاحيين.

وتقديراً لصديقة مميّزة ومقرّبة لزوجته وله، أصبح المفوّض المساعد خائفاً من الخطر المُحدق بالسجين السابق ميكيلس. رجل اعتُقل للاشتباه في تورُّطه بهذا العمل العنيف بطريقة ما، رغم أن دوره غير مباشر، الرجل الذي تمكّن من النجاة بصعوبة يعود مجدّداً لإنهاء عقوبته في أسوأ الاحتمالات. وهذا سوف يقتله، سوف لن يخرج حياً على الإطلاق. المفوّض المساعد كوّن فكرة مبالغ فيها وغير لائقة لمنصبه الرسمي ما عدا أنها مشرّفة حقاً لإنسانيّته.

"إذا ألقوا القبض على الرجل مرّة ثانية" قال لنفسه، "سوف لن تسامحني أبداً".

صراحة مثل هذه الفكرة الجريئة في الخفاء لم تمرّ دون بعض نقد ذاتي ساخر. لا يمكن لرجل يمارس عملاً لا يحبّه أن يحافظ على الكثير من الأوهام المصانة عن نفسه. النفور وفقدان الرونق، امتدّا من المهنة إلى الشخصية. في النهاية عندما يبدو أن نشاطاتنا المحددة تمتثل عن طريق صدفة سعيدة لجدّيّة معينة في مزاجنا، يمكننا عندها تذوُّق راحة خداع ذاتيّ تامّ. المفوّض المساعد لا يحبّ عمله في وطنه. ما يميّز عمل الشرطة الذي قام به في جزء بعيد من الكرة الأرضية هو الحماية لنوع غير

نظامي من الصراع، أو على الأقلّ مخاطر وانفعال رياضة تُمارَس في الهواء الطلق. اتّحدت قدراته الحقيقية التي في أساسها ذات طبيعة إدارية مع ميله للمغامرة. مغلول إلى مكتب بسمك أربعة ملايين رجل، عدّ نفسه ضحية قدر ساخر - المذكور آنفاً، بلا شك، أدّى إلى زواجه بسيدة حسّاسة جداً من قضية المناخ الاستعماري إلى جانب قيود أخرى، تدل على رهافة حسّها وذوقها - رغم أنه حكم على خوفه بطريقة ساخرة، لم يطرد الفكرة غير اللائقة من عقله. غريزة حماية الذات كانت قوية في داخله. في مقابل ذلك، كرّرها ذهنياً مع تشديد مُدنّس ودقّة تامّة: "اللعنة! إذا مضى هذا الجهنّمي هيت في طريقه، سيموت الرجل في السجن مخنوقاً ببدانته، وسوف لن تغفر لي أبداً".

هيئته السوداء النحيلة، مع شريط الياقة الأبيض تحت بريق شعره الفضّيّ المقصوص قصير جداً عند الجزء الخلفي لرأسه، ظلّا بلا حراك. دام الصمت لفترة طويلة بحيث إن كبير المفتّشين هيت تجرّأ وسعل قليلاً. هذا الضجيج أتى بنتائجه. كبير المفتّشين المتحمّس والذكي سُئل من قِبَل رئيسه الذي ظلّ يدير له ظهره بلا حراك:

"أنتَ تربط ميكيلس بهذه القضية؟"

كبير المفتّشين هيت كان إيجابياً للغاية، لكنه حذر.

"حسناً، سيدي" قال، "لدينا الكثير من الافتراضات. رجل مثله ليس لديه عمل ليكون حُرّاً، على أيّ حال". "تحتاج إلى بعض الأدلّة القاطعة" جاءت الملاحظة في همهمة. رفع كبير المفتّشين هيت حاجبيه دهشة إلى الظهر الأسود، النحيل، الذي ظلّ يعرضه بعناد لذكائه وحماسته.

"سوف لن يكون هناك صعوبة في الحصول على أدلّة كافية ضدّه"

قال مع شعور بالرضا التامّ. "يمكنك الوثوق بي في هذه القضية، سيدي" أضاف بلا داع ومن قلبه تماماً، لأنه بدا له شيء رائع أن يكون هذا الرجل في قبضته ليُلقي به إلى جمهور يظنّ أنه مستعدّ لإحداث ضجّة مع أيّ غضب خاصّ في هذه الحالة. رغم ذلك، كان من المستحيل القول إن كانت ستحدث ضجّة أم لا. يعتمد هذا في النهاية وبكل تأكيد على الصحافة. لكنْ على أيّ حال، كبير المفتّشين هيت مُموِّن سجون مهني، ورجل ذو مواهب قانونية، كان يؤمن بشكل منطقي أن السجن هو المصير المناسب لكل عدوّ مُعلَن للقانون. ارتكب خطأ دبلوماسياً وفقاً لهذه القناعة. سمح لنفسه بضحكة زهو صغيرة، وكرّر:

"ثق بي في هذه القضية، سيدي".

كان هذا كثيراً جداً بالنسبة للهدوء القسري الذي كان يخفي تحته المفوّض المساعد لحوالي ثمانية عشرة شهراً سخطه من النظام والمرؤوسين في مكتبه. كان مثل سدّادة مربّعة حُشرت لسدّ فتحة دائرية، كان يشعر بغضب يومي من محاولة تنعيم الزوايا الحادّة في طبيعته ليُكيّف نفسه مُرغماً مع هذا المكان برضوخ حسّيّ بعد أن يهزّ كتفيه لمرّة أو اثنتين. أكثر ما كان يغيظه هو ضرورة منح الكثير من الثقة على هذا النحو. عند الضحكة الصغيرة لكبير المفتّشين هيت استدار بسرعة على عقيبه، كما لو أنه اندفع بعيداً عن زجاج النافذة بسبب صدمة كهربائية. لمح الوجه الأخير له، ليس حقيقة الشعور بالرضا فيما يخصّ القضية المتواري تحت شاربيه فحسب، لكنْ آثار اليقظة التجريبية حول عينيه أيضاً، وهذا يدلّ بلا شك على ثباتهما طوال الوقت على ظهره، والآن واجه نظرته لثانية واحدة قبل أن تأخذ طبيعة نظراتهما الوقت لتغيير دلالتها إلى مجرّد نظرة دهشة.

المفوّض المساعد للشرطة لديه بالفعل بعض المؤهّلات لمنصبه.

استيقظ شكّه فجأة. لكنْ من العدل القول إن شكوكه تجاه أساليب الشرطة (إلا في حالة أن تكون الشرطة هيئة شبه عسكرية، يُنظّمها بنفسه) لم يكن من الصعب إيقاظها إذا هجعت في وقت ما من تعب كبير، كان قليلاً ما يحدث هذا، وتقديره لحماسة وقدرة كبير المفتّشين هيت معتدل بحدّ ذاته، يستبعد كل فكرة عن الثقة الأخلاقية. "إنه يخطّط لفعل شيء ما" صرخ في عقله، وفوراً أصبح غاضباً. مشى إلى مكتبه بخطوات سريعة، وجلس بعنف. "أنا هنا عالق بين ركام من الورق" فكّر ملياً مع استياء غير معقول، "من المفترض أن أمسك هذه الخيوط كلها في يدي، وإلى الآن لا أستطيع حتّى أن أمسك ما وُضع في يدي، ولا شيء آخر. وهم يمكنهم ربط نهايات الخيوط الأخرى حيثما يشاءون".

رفع رأسه، وتوجّه وجهه الطويل الهزيل مع ملامح بارزة لـ دون كيخوتي النشيط نحو مرؤوسه.

"الآن، ماذا في جعبتكَ؟"

حدّق الآخر، كان يحدّق دون أن يرمش بثبات تامّ بعينيه المدوّرتين، كما تعوّد أن يحدّق إلى أعضاء مختلفين من الطبقة الإجرامية الذين بعد أن كان يحذّرهم كما يجب، يُدلون بتصريحاتهم بنبرة براءة مجروح، أو سذاجة كاذب، أو استسلام متجهّم. لكنْ خلف ذلك الثبات المهني والقاسي كان هناك بعض المفاجأة أيضاً في مثل تلك النبرة التي تجمع بإتقان بين نغمة الاحتقار ونفاد الصبر، لم يتعوّد كبير المفتّشين هيت - الذراع الأيمن للقسم - على أن يُخاطَب بهذه النبرة. بدأ بالمماطلة مثل رجل باغتته تجربة جديدة وغير متوقّعة.

"تقصد ماذا لديّ ضدّ ذلك الرجل ميكيلس، سيدي؟"

راقب المفوّض المساعد الرأس الصغير المستدير طرفا ذلك الشارب لرَحّالة نرويجي، ينزلان تحت خطّ الفكّ الحادّ، كل ملامح الوجه الشاحب الممتلئ، الذي شوّه سمته المعروفة الكثير من الجلد عند التجاعيد الخبيثة التي تبرز مثل شعاع من زوايتيّ العينين الخارجيّتين - وفي ذلك التأمّل المتأنيّ للموظّف القدير ومحلّ الثقة، استنتج قناعة بشكل مفاجئ جداً حرّكته كما لو أُوحي له.

"كان لديّ سبب للتفكير بذلك عندما دخلتَ إلى هذه الغرفة" قال بنبرة موزونة، "لم يكن ميكيلس في رأسكَ، ليس بالدرجة الأولى - ربّما لم يكن على الإطلاق".

"هل لديك سبب للتفكير على هذا النحو، سيدي؟" همهم كبير المفتّشين هيت مع مظهر من الذهول، كان حقيقياً إلى حدّ معيّن. اكتشف جانباً دقيقاً ومعقّداً في هذه القضية، فرض على المكتشف كمّيّة معيّنة من النفاق - ذلك النوع من النفاق الذي يندرج تحت أسماء مثل مهارة، حكمة، حذر، يظهر من وقت إلى آخر في أغلب القضايا الإنسانية. شعر في تلك اللحظة مثلما قد يشعر بهلوان يسير على حبل مشدود عندما فجأة، وفي منتصف العرض، يخرج مدير قاعة الموسيقى مسرعاً من عزلته الإدارية الخاصّة، ويبدأ بهزّ الحبل. الاستياء، الشعور بعدم الأمان الأخلاقي ناتج عن مثل هذا التصرّف الغادِر المرتبط بخوف آني من كسر في الرقبة، والذي من شأنه، وبعبارة عامّيّة، أن يزجّه في مأزق. وسيكون هناك أيضاً بعض القلق المروّع فيما يخصّ فنّه، لأن الرجل يجب أن يميّز نفسه بشيء حقيقي أكثر من شخصيّته، ويُثبت اعتداده بنفسه في مكان ما، في وضعه الاجتماعي، أو في طبيعة العمل الذي أُجبر على القيام به، أو ببساطة في امتياز البطالة الذي قد يكون محظوظاً جداً في الاستمتاع به.

″نعم″ قال المفوّض المساعد، ″لديّ. لم أقصد القول بأنك لم تفكّر بميكيلس على الإطلاق. لكنك تمنح الحقيقة التي تشير لها أهمّيّة تبدو لي ليست واضحة تماماً، كبير المفتّشين هيت. إذا كان هذا حقاً مسار استنتاجك، لماذا لم تقتف أثره مباشرة، إمّا شخصياً أو عن طريق إرسال أحد رجالك إلى تلك القرية؟!″.

″هل تظنّ سيدي، أني أخفقتُ في مهمّتي هناك؟″ سأل كبير المفتّشين بنبرة كان يسعى لجعلها تأمّلية ببساطة. اضطرّ بشكل غير متوقّع على تركيز قدراته على مهمّة الحفاظ على توازنه، فهم تماماً هذه النقطة، وعرّض نفسه للتوبيخ لأن المفوّض المساعد تجهّم قليلاً، أدرك أن ما قاله كان كلاماً غير مناسب إلى حدّ بعيد.

″لكنْ، بما أنك قد قلتَ هذا″ تابع ببرود، ″أريد أن أخبرك بأن هذا ليس فحوى كلامي″ توقّف قليلاً مع نظرة مباشرة من عينيه الغائرتين المناسبتين تماماً لملاحظة خفية. ″وأنت تعرف″ رئيس ما يسمّى بقسم الجرائم الخاصّة مُنع بسبب منصبه من الخروج شخصياً بحثاً عن الأسرار المحبوسة في قلوب المذنبين، كان يميل إلى ممارسة مواهبه الكثيرة في كشف حقيقة الجرم على مرؤوسيه. من الصعب القول إن هذه الغريزة المميّزة هي نقطة ضعف. إنها طبيعية. لقد وُلد ليكون رجل أمن. تحكّمت هذه الموهبة بلا وعي في اختياره للمهنة، وإذا أخفق في الحياة في وقت ما بسببها، فربمّا كان هذا في الظرف الاستثنائي الوحيد لزواجه الذي كان طبيعياً أيضاً. تتغذّى هذه الموهبة - بما أنها لا تستطيع الطواف في الاتّجاهات كلها - على الموادّ البشرية التي تُقدَّم لها في عزلتها الرسمية. نحن لا يمكننا أبداً الكَفّ عن أن نكون أنفسنا.

مرفقه على المكتب، يضع ساقيه النحيلتين على بعضهما ومسند خدّه

براحة يده الهزيلة، المفوّض المساعد المسؤول عن فرع الجرائم الخاصّة أمسك بزمام القضية باهتمام متزايد. كبير مفتّشيه، إن لم يكن خصماً جديراً بالتأكيد لذكائه، فكان الأكثر جدارة من بين موظّفيه كلهم، على أيّ حال. عدم الثقة بسمعة مؤكّدة كان متناسباً بشدّة مع قدرة المفوّض المساعد كرجل أمن. استحضرت ذاكرته عجوزاً سميناً وزعيماً وطنياً ثرياً في مستعمرة بعيدة ممّن كان مثالاً يُحتذى به لحكّام المستعمرة الناجحين في الثقة، وعدّه الكثيرون صديقاً وطيداً وداعماً للنظام والشرعية التي أسّسها الرجال البيض، في حين، عندما بحث بتشكّك، اكتشف أنه كان صديق نفسه أساساً، ولا أحد آخر. ليس خائناً على وجه التحديد، لكنه ظلّ رجلاً مع كثير من التحفّظات الخطيرة حول إخلاصه، يعود هذا إلى مراعاة مصلحته، راحته، وسلامته الشخصية. رجل مع شيء من البراءة في نفاقه الساذج، لكنه خطير رغم ذلك. استولى على بعض نتائج التحقيق. جسدياً، كان رجلاً ضخماً أيضاً و(مع مراعاة اختلاف اللون، بكل تأكيد) مظهر كبير المفتّشين هيت يذكّره برئيسه. لا العينين ولا حتّى الشفتين على وجه التحديد. كان مظهره غريباً. لكنْ ألم يروِ ألفريد والاس في كتابه الشهير عن مجموعة جزر ملاوي، وسط جزر آرو، بأنه اكتشف تشابهاً غريباً بين عجوز متوحّش عارٍ، جلده قاتم، وصديق عزيز له في وطنه؟!

لأول مرّة منذ أن تولّى مهامّ منصبه شعر المفوّض المساعد كما لو أنه ذهب للقيام بعمل حقيقي مقابل راتبه. وكان هذا إحساساً رائعاً. "سوف أقلبه بطناً لظهر مثل قفّاز قديم" فكّر المفوّض المساعد وعيناه تستقرّان بجدّيّة على كبير المفتّشين هيت.

"لا، لم تكن هذه فكرتي" بدأ مرّة أخرى. "ليس هناك شك حول درايتكَ بأمورك، ليس هناك شك على الإطلاق، وهذا هو بالضبط السبب الذي

جعلني ... ″ توقّف لفترة قصيرة، وغيّر نبرته: ″ما الذي يمكنك أن تُقدّمه ضدّ ميكيلس بشكل محدّد؟ أقصد بصرف النظر عن حقيقة وجود رجلين مشتبه بهما - أنت متأكّد من أن اثنين منهما كانا هناك - جاءا من محطّة السكّة الحديدية التي تبعد ثلاثة أميال عن القرية التي يعيش فيها ميكيلس الآن″.

″هذا بحدّ ذاته كافٍ بالنسبة لنا سيدي، لنتحرّ حول هذا النوع من الرجال″ قال كبير المفتّشين، وعادت نبرته الهادئة. حركة موافقة طفيفة من رأس المفوّض المساعد نجحت في تهدئة دهشة استياء من رجل الشرطة الشهير. لأن كبير المفتّشين هيت كان رجلاً لطيفاً، زوجاً ممتازاً، وأباً مخلصاً، والثقة الإدارية والعامة التي يتمتّع بها، بمحاباة وفقاً لطبيعة دمثة، خلّصتْه من شعور الاحتفاء تجاه مساعدي المفوّضين المتوالين الذين رآهم يمرّون في هذه الغرفة بالذات. هناك ثلاثة تعاقبوا طوال فترة عمله في القسم. الأول كان باسلاً، حاداًّ، وجهه أحمر، حاجباه أشيبان، وسريع الانفعال، كان يجب التعامل معه بحذر شديد. غادر بعد وصوله إلى سنّ التقاعد. الثاني كان رَجلاً محترماً جداً، عارفاً لمكانته ومكانة أيّ شخص آخر تماماً، عندما استقال ليتابع العمل في منصب أعلى خارج إنكلترا، قَلّدَ (بالفعل) كبير المفتّشين هيت وساماً تقديراً لخدماته. العمل معه كان مفخرة ومتعة. الثالث، من البداية كان شخصاً غامضاً إلى حدّ ما، عند نهاية الثمانية عشر شهراً شيء من إمكانياته المجهولة ظلّ في القسم. عموماً يعتقد كبير المفتّشين هيت أنه ذا مظهر بريء عموماً - غريب، لكنه بريء. كان يتحدّث وكبير المفتّشين يُنصت ظاهرياً بإذعان (وهذا لا يعني شيئاً، إنها مسألة واجب) وروحياً بتسامح كبير.

″هل أبلغ ميكيلس بنفسه الشرطة قبل مغادرته لندن إلى القرية؟″

"نعم، سيدي، فعل ذلك".

"وماذا يمكن أن يفعل هناك" واصل المفوّض المساعد الذي كان على علم تماماً بهذا الموضوع. متكيّف مع ضيق مؤلم في كرسيه الخشبي القديم ذي الذراعين إلى جانب طاولة من خشب البلّوط المنخور في غرفة في الطابق العلوي لبيت ريفي متكوّن من أربع حجيرات مع سقف من القرميد المَكسوّ بالطحلب، ميكيلس كان يطوي الليل بالنهار في الكتابة بيد مائلة، ترتجف "السيرة الذاتية لسجين" الكتاب الذي كان من الممكن أن يكون مثل سِفْر الرؤيا في تاريخ البشرية. ظروف مكان محصور، عزلة، والوحدة في حجيرة من أربعة جدران كانت ملائمة لإلهامه. مثل ظروف العيش في سجن، ماعدا أن الرجل فيه لا يزعجه أبداً الإصرار الكريه على التمارين الرياضية وفقاً للوائح المستبدّة لمكانه القديم في السجن. لا يعلم على أيّ حال إن كانت الشمس لا تزال تُشرق على الأرض أم لا. عَرَقُ عمله الأدبي كان يقطر من جبينه. الحماس الممتع حثّه على المزيد من العمل. هذا الهروب من نفسه، مكّنه الخروج من روحه إلى عالم أوسع. وحماسة غروره الساذج (الذي أيقظه لأوّل مرّة عرض بخمسمائة باوند من أحد الناشرين) بدا شيئاً مُقدّراً ومكتوباً.

" بالطبع، سيكون من الأفضل أن تكون ملماً بالموضوع على نحو دقيق" ألحّ المفوّض المساعد بانزعاج.

كبير المفتّشين هيت، مدركاً للغضب المتجدّد في عرض الإفراط في الدقّة هذا، قال: إن شرطة المقاطعة قد علمت بوصول ميكيلس منذ البداية، وإن من الممكن الحصول على تقرير كامل في غضون ساعات قليلة. برقية إلى المفتّش ...

هكذا تحدّث، ببطء، في حين بدا أن عقله يتأمّل العواقب بالفعل. عقد جبينه قليلاً في إشارة صريحة على ذلك. لكنْ قاطعه سؤال.

"هل أرسلتَ هذه البرقية؟"

"لا، سيدي" أجاب كما لو أنه قد فُوجئ بالسؤال.

أنزل المفوّض المساعد ساقه عن الأخرى فجأة. خفّة هذه الحركة تتناقض مع الطريقة العَرَضية التي طرح بها الاقتراح. "هل تظنّ أن ميكيلس له أيّ علاقة بتلك القنبلة، على سبيل المثال؟"

كبير المفتّشين اتّخذ وضعاً تأمّلياً في الكلام.

"لا أريد أن أقول هذا. في الوقت الحاضر، لا داع لقول أيّ شيء. لقد ارتبط برجال يُصنَّفون على أنهم خطرون. جعلوه ممثّلاً للجنة الشيوعية بعد الإفراج عنه بأقلّ من سنة. نوع من المجاملة كما أظنّ".

ضحك كبير المفتّشين مع شيء من الغضب، شيء من الاحتقار. مع رجل من هذا النوع المفرط في التدقيق كان تصرُّفه في غير محلّه، بل وحتّى غير قانوني. الشهرة التي مُنحت لميكيلس بعد إطلاق سراحه منذ عامين من قِبَل بعض الصحفيين العاطفيين، بهدف نسخة خاصّة، سبّبت له ضيقاً في صدره منذ ذلك الحين. كان اعتقال هذا الرجل لمجرّد الشبهة قانونياً تماماً قانونياً ونافعاً، إن حكمنا بالظواهر. لو كان الرئيسان السابقان محلّه لأدركا الغاية فوراً، بينما هذا الرجل دون أن يقول لا أو نعم، جلس هناك كما لو أنه ضاع في حلم. علاوة على ذلك، وإلى جانب أنه قانوني ونافع، اعتقال ميكيلس حلّ صعوبة شخصية صغيرة أزعجت كبير المفتّشين هيت قليلاً. هذه الصعوبة أثّرت على سُمعته، على راحته، وحتّى على كفاءة أدائه لواجباته. لأن، إذا كان ميكيلس يعرف دون شك

شيء عن هذا العمل العنيف، كبير المفتّشين كان متأكداً تماماً من أنه لا يعرف الكثير عنه. وهذا كان جيداً. كبير المفتّشين كان متأكداً - من أن ميكيلس كان يعرف أقلّ من المشتبه بهم الآخرين الذين يفكّر بهم، لكنْ مَن استرعى الاهتمام بدا له لا يستحقّ، إلى جانب كون القضية أكثر تعقيداً بسبب قواعد اللعبة. قواعد اللعبة لا تحمي كثيراً شخصاً مثل ميكيلس، المبشّر والسجين السابق. سيكون من الغباء عدم الاستفادة من التسهيلات القانونية، والصحفيين الذين كتبوا عنه بحماس عاطفي سيكونون مستعدّين للكتابة عنه بسخط عاطفي.

لهذا الاحتمال، الذي ظهر بثقة، جاذبية الانتصار الشخصي بالنسبة لكبير المفتّشين هيت. وفي أعماق صدر بريء لمواطن عادي متزوّج مثله، لا واعٍ تقريباً، ولكنْ قوي بالرغم من ذلك، كراهية أن تكون مجبراً بسبب الأحداث على التعامل مع الضراوة الشديدة للبروفيسور. قَويت هذه الكراهية من خلال لقاء بالصدفة في الطريق. المواجهة لم تترك لدى كبير المفتّشين هيت ذلك الشعور المُرضي من التفوّق الذي يحصل عليه عادة أعضاء قوّات الشرطة من جهة غير رسمية، ماعدا الجانب الودّيّ لعلاقاتهم مع أصحاب الجريمة حيث يهدأ غرور السلطة، ويُجامل الحبّ المبتذَل للهيمنة على أخوتنا في البشرية بالقدر الذي يستحقّه.

الفوضوي المثاليّ لم يكن مُعترَفاً به على أنه مخلوق بشري من قِبَل كبير المفتّشين هيت. كان لا يُطاق - كلباً مسعوراً يجب أن يُترَك وحده. ليس لأن كبير المفتّشين هيت خائف منه، بل على العكس من ذلك، كان ينوي القبض عليه في يوم من الأيّام. لكنْ ليس بعد، كان ينوي القبض عليه في أثناء أوقات فراغه، بشكل صحيح وفعّال حسب قواعد اللعبة. حالياً الوقت ليس مناسباً للقيام بهذا العمل البطولي، الوقت ليس مناسباً

لأسباب عديدة، منها شخصية، ومنها ما يخصّ الصالح العامّ. لأن هذا الشعور كان قوياً لدى كبير المفتّشين هيت، ظهر له عادلاً ومناسباً لكي يحوّل هذا الخوف عن مساره الغامض والخطير، ويقوده إلى حيث لا يدري أحد، إلى مسار جانبي هادئ (وقانوني) يُدعى ميكيلس. وكرّر ما قاله كما لو أنه يُعيد النظر في الاقتراح بشكل واع:

"القنبلة. لا، ليس هذا بالضبط ما أريد قوله. ربّما لن نكشف هذا أبداً. لكنْ من الواضح أنه متورّط في هذه القضية بطريقة أو بأخرى، ويمكننا أن نستنتج ذلك دون متاعب".

بدا على وجهه ملامح اللامبالاة الخطيرة والمتعجرفة، المعروفة والمخيفة جداً لدى النوع الأفضل من اللصوص. كبير المفتّشين هيت، رغم أنه يُدعى رجلاً، لم يكن حيواناً مبتسماً. لكنه كان راضياً في داخله عن السلوك المُتقبّل بشكل سلبي للمفوّض المساعد، الذي همهم بلطف:

"وأنت، هل تظنّ - حقاً - أن التحقيق يجب أن يتمّ في هذا الاتّجاه؟"

"نعم، سيدي".

"مقتنع تماماً؟".

"نعم، سيدي. هذا هو الخطّ الصحيح الذي يجب أن نتّخذه".

تخلّى المفوّض المساعد عن دَعْم يده لرأسه المتّكئ بشكل مفاجئ، ونظراً لموقفه الضعيف، أوحى ذلك بأنه مهدّد بانهيار شخصه بالكامل. لكنْ على العكس، استقام في حالة تأهّب قصوى خلف المكتب الكبير الذي أسقط عليه يده مع صوت ضربة عنيفة.

"ما أريد أن أعرفه هو ما الذي نسيتَه حتّى الآن؟".

"ما نسيتُه" كرّر كبير المفتّشين الجملة ببطء شديد.

"نعم. حتّى دُعيت إلى هذه الغرفة - كما تعرف"

شعر كبير المفتّشين كما لو أن الهواء بين ملابسه وجلده أصبح ساخناً بشكل مزعج. كان إحساس تجربة غير مسبوقة، ولا تُصدَّق.

"بالطبع" قال، وبالغ في التأنّي في كلامه إلى أقصى حدّ ممكن، "إذا كان هناك من سبب لا أعرف عنه شيئاً لعدم التصادم مع المُدان ميكيلس، ربمّا من الأفضل ألا أعطي أوامر لشرطة الإقليم بتتبّع أثره".

استغرق هذا وقتاً طويلاً للقول إن الاهتمام الدؤوب للمفوّض المساعد بدا عملاً بطولياً رائعاً في القدرة على التحمّل. جاء ردّه سريعاً دون تأخير.

"حسب ما أعرف لا يوجد أيّ سبب. ثمّ، تعال، كبير المفتّشين، هذا الاحتيال معي غير لائق للغاية من جانبكَ - غير لائق للغاية. وغير عادل أيضاً، كما تعرف. لا تدعني أحلّ ألغازاً مثل هذه بنفسي. حقاً، أنا مندهش".

توقّف قليلاً، ثمّ تابع بلطف: "لستُ بحاجة إلى أن أقول لكَ إن هذه المحادثة غير رسمية تماماً".

هذه الكلمات كانت بعيدة عن تهدئة كبير المفتّشين. السخط من فضح البهلوان على الحبل المشدود كان قوياً في داخله. شعوره بالفخر كموظّف موثوق به تأثّر بقناعة أن الحبل لم يهتزّ لغرض كسر رقبته، كما يحدث في استعراض للوقاحة. كما لو أن هناك شخصاً كان خائفاً! المفوّضون المساعدون يأتون ويذهبون، لكن قيمة كبير المفتّشين ليست ظاهرة إدارية سريعة الزوال. لم يكن خائفاً من كسر رقبته. أن يُشوَّه أداؤه كان

أكثر من كافٍ لإظهار اتّقاد غضبه الصريح. ومثل فكرة عدم محاباة الوجوه، اتّخذ تفكير كبير المفتّشين هيت شكل تهديد ووعيد. "أنت، يا فتى" قال في نفسه، وأبقى عينيه المدوّرتين الهائمتين - كما المعتاد - ثابتتين على وجه المفوّض المساعد - "أنت، يا فتى، أنت لا تعرف مكانكَ، ومكانكَ سوف لن يعرفكَ لفترة طويلة، أراهن على ذلك".

كما لو أن في الجواب المزعج لهذه الفكرة شيئاً من طيف ابتسامة مزعجة ارتسمت على شفتي المفوّض المساعد. كان أسلوبه سهلاً وعملياً إلى حدّ ما، بينما كان يُثابر في التأهّب لهزّة أخرى للحبل.

"دعنا نتحدّث- الآن - فيما اكتشفته على الفور، كبير المفتّشين" قال.

"أحمق، وسوف يُفصَل من عمله قريباً" استمرّت سلسلة الأفكار التنبّؤية في رأس كبير المفتّشين هيت. لكنْ تبعتها مباشرة فكرة أن هذا المسؤول الرفيع، حتّى عندما "يُطرد خارجاً" (هذه هي الصورة الدقيقة) لا يزال لديه الوقت ليقوم بركلة سيئة على عظم ساق المرؤوس عند هروبه بسرعة من خلال الباب. دون تلطيف كثير لطبيعة نظرته البازيليسقية(*)، قال بلا مبالاة:

"سنأتي إلى هذا الجزء من التحقيق الذي قمتُ به، سيدي".

"هذا صحيح. حسناً، ما الذي حملتَه معك بعيداً عن هذا الجزء من التحقيق؟".

كبير المفتّشين، الذي اتّخذ قراره بالقفز من الحبل، وصل إلى الأرض مع صراحة محزنة. "جلبتُ معي عنواناً" قال ذلك وهو يسحب من جيبه خرقة محروقة من القماش الأزرق الداكن بتأنٍّ. "هذه تخصّ المعطف الذي

---

*) البازيليسق: حيوان أسطوري، من الزواحف، يُعرَف بملك الحيّات، ولديه قدرة على التسبّب في الموت بنظرة واحدة.

كان يرتديه الرجل الذي فجّر نفسه إلى أشلاء. بالتأكيد، ربّما يكون المعطف له، وربّما مسروقاً. لكن هذا غير محتمل إطلاقاً، إذا نظرت إلى هذا".

تقدّم كبير المفتّشين إلى المكتب، وبسط بعناية خرقة القماش الزرقاء. التقطها من ركام مقزّز في المشرحة لأن اسم الخيّاط يوجد عادة تحت الياقة. لا يحدث هذا كثيراً، لكنْ مع ذلك، كان يأمل أن يجد أيّ شيء مفيد، وبالتأكيد لم يتوقّع أن يجده، ليس تحت الياقة على أيّ حال، لكنْ الاسم كان مخيطاً بعناية على بطانة طيّة صدر السترة ... قطعة مربّعة من قماش الكاليكو مع عنوان مكتوب عليها بالحبر الأسود.

سحب كبير المفتّشين يده الممتدّة. "حملتُها معي دون أن يلاحظ أحد" قال. "أظنّ أن هذا أفضل. يمكن إظهارها دائماً، إذا لزم الأمر".

نهض المفوّض المساعد من كرسيه قليلاً، سحب قطعة القماش إلى جانبه من المكتب. جلس ينظر لها بهدوء. رَقْم ٣٢ واسم بريت ستريت مكتوب بحبر أسود على قطعة من قماش الكاليكو أكبر بقليل من ورق السجائر العادي. ذُهل تماماً.

"لا أستطيع أن أفهم لماذا كان عليه خياطة العنوان بهذه الطريقة" قال وهو ينظر إلى كبير المفتّشين هيت. "إنه شيء غير عادي".

"التقيتُ ذات مرّة في غرفة تدخين في فندق برجل عجوز يتجوّل مع اسمه وعنوانه مخيطين على معاطفه كلها تحسّباً لوقوع حادث أو وعكة مفاجئة" قال كبير المفتّشين. "زعم أنه في الرابعة والثمانين، لكنْ لا يبدو عليه سنّه. قال لي أيضاً إنه يخاف من فقدان ذاكرته فجأة، مثل أولئك الناس الذين نقرأ عنهم في الصحف".

سؤال من المفوّض المساعد الذي أراد أن يعرف ماذا يعني رَقْم ٣٢

بريت ستريت، قطع هذا التَذكّر على عجل. كبير المفتّشين نزل إلى الأرض بحيل مغرضة، واختار المضي في طريق واضح صريح. لو ظنّ بشكل قاطع أن معرفة الكثير غير مفيدة للقسم، فإن الحكيم يستبقي المعرفة لنفسه بقدر ما يتجرّأ ولاؤه على القيام به من أجل مصلحة القسم. إذا أساء المفوّض المساعد التصرّف في هذه القضية، لن يستطيع أن يمنعه بالتأكيد. لكنْ من جانبه الخاصّ، رأى أن ليس هناك أيّ سبب لاستعراض الرشاقة الآن. لذا أجاب بإيجاز:

"إنه متجر، سيدي".

المفوّض المساعد، وعيناه منخفضتان على خرقة القماش الزرقاء، كان ينتظر المزيد من المعلومات. وإذا لم تأتِ يحصل عليها عن طريق طرح أسئلة متتالية بصبر ولطف. لذا أخذ فكرة عن طبيعة تجارة السيد ڤيرلوك، عن مظهره الشخصي، وسمع أخيراً اسمه. في لحظة صمت، رفع المفوّض المساعد عينيه، واكتشف بعض الحيوية على وجه كبير المفتّشين. نظرا إلى بعضهما بصمت.

"بالطبع" قال الأخير، "القسم لا يملك سجلاً لهذا الرجل".

"هل إن أيّ أحد من المفوّضين الذين سبقوني لديه علم بما قلتَه لي الآن؟" سأل المفوّض المساعد وهو يضع مرفقيه على المكتب، ويرفع يديه المضمومتين أمام وجهه، كما لو أنه يتهيّأ للصلاة، ما عدا أن عينيه لا تُعبّران عن التقوى.

"لا، سيدي، بالتأكيد لا. ماذا يمكن أن يكون الدافع؟ هذا النوع من الرجال لا يمكن أن يحقّق أيّ غرض نافع بشكل عَلَني. كان كافياً بالنسبة لي أن أعرف مَن هو، واستخدامه بطريقة ما بحيث يمكن الاستفادة منه علانية".

”وهل تظن أن هذا النوع من المعرفة الخاصّة يتناسب مع المنصب الرسمي الذي تشغله؟“

”تماماً، سيدي. أظنّ أن هذا مناسب تماماً. سوف أسمح لنفسي أن أقول لكَ، سيدي، إن هذا هو ما دفعني إلى أن أكون ما أنا عليه الآن - وأنا أعدّ نفسي رجلاً على دراية بعمله. هذه مهمّتي الخاصّة. صديق شخصي في الشرطة الفرنسية قدّم لي تلميحاً بأن الرجل كان جاسوساً للسفارة. صديق خاصّ، معلومات خاصّة، استخدام خاصّ لها - هكذا أنظر أنا إلى القضية“.

المفوّض المساعد لاحظ بنفسه أن الحالة الذهنية لكبير المفتّشين المعروف بدت تؤثّر على شكل فكّه الأسفل، كما لو أن إحساساً يقظاً لمهنيّته الرفيعة المتميّزة استقرّ في ذلك الجزء من جسمه، نبذ الفكرة للحظة، وقال بهدوء: ”فهمتُ“، ثمّ أسند خدّه على يديه المضمومتين:

”حسناً - تحدَّثْ بشكل سرّيّ، إذا أردتَ، منذ متى وأنت على اتّصال شخصي مع جاسوس السفارة؟“

الجواب على هذا السؤال شخصي جداً لكبير المفتّشين إلى درجة أنه لم يُصغه في كلمات مسموعة أبداً، وكان:

”منذ فترة طويلة، حتّى قبل أن تفكّر في مكانك هنا“.

كلامه العَلَني إذا جاز التعبير كان أكثر دقّة بكثير:

”رأيتُه لأول مرّة في حياتي منذ أكثر من سبع سنوات تقريباً، عندما كان كلّ من صاحب السمو المَلَكي والمستشار المَلَكي في زيارة إلى هنا. تمّ تكليفي بالقيام بكافّة الإجراءات لمراقبتهم. البارون ستوت – ورتنهايم كان

سفيراً في ذلك الوقت. كان عجوزاً عصبياً جداً. في ليلة، وقبل ثلاثة أيّام من المأدبة في قاعة مبنى البلدية غيلدهول أرسل في طلب رؤيتي لبعض الوقت. كنتُ في الطابق الأرضي والعربات تقف عند الباب لتُقِلّ صاحب السموّ المَلَكي والمستشار إلى الأوبرا. صعدتُ فوراً. وجدتُ البارون يمشي جيئة وذهاباً في غرفة نومه في حالة يُرثى لها من الحزن، ويعصر يديه في الوقت نفسه. أكّد لي أن لديه ثقة كاملة في شرطتنا وبقدراتي، لكنْ كان لديه هناك رجل جاء للتوّ من باريس يمكن الوثوق بمعلوماته تماماً. طلب مني أن أستمع إلى ما يقوله هذا الرجل. أخذني فوراً إلى حجرة اللبس المجاورة حيث رأيتُ رجلاً ضخماً، يرتدي معطفاً ثقيلاً، ويجلس على كرسي، يمُسك قبّعته وعصاه في يد واحدة. قال له البارون بالفرنسية "تكلّمْ، صديقي" الضوء في تلك الغرفة لم يكن جيداً تماماً. تحدثتُ معه ربّما لخمس دقائق. قدّم لي بالتأكيد بعض الأخبار المذهلة للغاية. وبعد ذلك، أخذني البارون جانباً بعصبية ليُثني عليه أمامي، وعندما التفتُّ حولي مرّة ثانية، اكتشفتُ أن الرجل قد اختفى مثل شبح. انتفضتُ قائماً، وتسلّلتُ نازلاً بعض السلالم الخلفية، على ما أظنّ. لم يكن هناك وقت لملاحقته، كما أني نزلتُ بسرعة الدرج الكبير خلف السفير، ورأيتُ الحفلة قد بدأت بأمان في الأوبرا. مع ذلك، تصرّفتُ بناءً على المعلومات التي سمعتُها منه في تلك الليلة. سواء كانت صحيحة تماماً أم لا، المعلومات كانت تبدو جدّيّة تماماً. من المرجّح أنها قد أنقذتْنا من متاعب مزعجة في يوم الزيارة المَلَكية إلى المدينة.

"بعد فترة شهر تقريباً على ترقيتي إلى كبير مفتّشين، جذب انتباهي رجل ضخم البنية ظننتُ أني رأيتُه من قبل في مكان ما، خرج بعجل من محلّ مجوهرات في ستراند. مشيتُ خلفه، كما لو كان طريقي باتّجاه تشارنغ كروس، وهناك رأيتُ أحد مُخبرينا السّرّيّين على الجانب الآخر من

الطريق، أومأتُ له، وأشرتُ له على الرجل، مع تعليمات لمراقبة تحرّكاته لعدّة أيّام، وأن يبلّغني بعد ذلك بتحرّكاته. لم يتأخّر المُخبر عن بعد ظهر اليوم التالي، وظهر ليخبرني أن الرجل تزوّج من ابنة صاحبة النُّزل الذي يسكن فيه في مكتب كبير الكتّاب في ذلك اليوم الساعة ١١:٣٠ صباحاً، وذهب معها إلى مارغيت لأسبوع. المُخبر رأى الأمتعة تُوضَع على الجزء المغطّى من العربة. كان هناك بعض الملصقات الباريسية القديمة على إحدى الحقائب. بطريقة ما لم أتمكّن من إخراج الرجل من رأسي، وفي المرّة الثانية، كنتُ في زيارة إلى باريس في مهمّة، وتحدّثتُ عنه لذلك الصديق في شرطة باريس. قال صديقي: "ممّا قلتَه لي أظنّ أنك تقصد المعروف المتطفّل وممثّل اللجنة الشيوعية الثورية. قال إنه إنكليزي بالفطرة. لدينا فكرة أنه عميل سرّيّ منذ عدّة سنوات لواحدة من السفارات الأجنبية في لندن" أيقظ هذا ذاكرتي بالكامل. كان هو الرجل المختفي الذي كان يجلس على كرسي في حمّام البارون ستوت - ورتنهايم. قلتُ لصديقي إنه كان على حقّ تماماً. الرجل عميل سرّيّ حسب معلوماتي المؤكّدة. تولّى صديقي فيما بعد عناء البحث عن سجلّ كامل لهذا الرجل. أظنّ أني قد عرفتُ كل شيء أردتُ معرفته بشكل أفضل، لكني لا أفترض أنك ترغب في سماع تاريخه الآن، سيدي؟"

هزّ المفوّض المساعد رأسه المسنود. "تاريخ علاقاتك مع هذه الشخصية المفيدة هو الشيء الوحيد المهمّ الآن" قال، وهو يُغلق عينيه المرهقتين الغائرتين ببطء، ويفتحهما بعد ذلك بسرعة مع نظرة منتعشة للغاية.

"لا شيء رسمي عنهم" قال كبير المفتّشين بمرارة. "ذهبتُ إلى متجره ذات مساء، أخبرتُه مَن أكون، وذكرّته بلقائنا الأوّل. لم يفعل شيئاً أكثر من

رفع حاجبه. قال إنه قد تزوّج واستقرّ الآن، وإن كل ما يريده هو ألا يتدخّل أحد في مشروعه التجاري البسيط. أخذتُ هذا على عاتقي، واتّفقتُ معه: طالما أنه لا يهتمّ بفعل أيّ شيء شائن بشكل واضح سيبقى بعيداً عن الشرطة. وكان هذا شيئاً مهماً بالنسبة له لأن كلمة منا إلى موظّفي مصلحة الجمارك سوف تكون كافية للحصول على بعض الصناديق التي يأتي بها من باريس وبروكسل ليتمّ فتحها في ميناء دوڤر، مع مصادرة البضاعة بكل تأكيد، وربّما ملاحقته قضائياً في نهاية الأمر".

"هذه تجارة غير مستقرّة للغاية" همهم المفوّض المساعد. "لماذا يفعل ذلك؟"

رفع كبير المفتّشين حاجبيه ببرود.

"على ما يبدو أنه على اتّصال - بأصدقاء في أوروبا - أشخاص يتاجرون بهذه البضاعة. مجرّد أنهم من النوع الذي ينسجم معه. إنه كلب كسول أيضاً - مثل الباقين".

"ماذا حصلتَ منه مقابل حمايتكَ له؟".

كبير المفتّشين لا يميل إلى الإسهاب في قيمة خدمات السيد ڤيرلوك.

"لا يمكنه أن يكون جيداً لأيّ أحد غيري أنا. على المرء أن يُتمّ مسبقاً صفقة جيدة للاستفادة من رجل مثل هذا. أستطيع أن أفهم نوع التلميح الذي يمكن أن يعطيه. وعندما أريد معلومات يمكنه عموماً تزويدي به".

استغرق كبير المفتّشين فجأة في مزاج تأمّلي حذر، والمفوّض المساعد قمع ابتسامة عند فكرة عابرة من أن سمعة كبير المفتّشين هيت - ربّما - جزء كبير منها قد صنعه العميل السّرّيّ ڤيرلوك.

"ولتكون الفائدة أعمّ، رجالنا كلهم في قسم الجرائم الخاصّة في الخدمة عند تشارنغ كروس وڤيكتوريا، لديهم أوامر بمراقبة أيّ شخص يرونه معه. يلتقي بقادمين جُدُد في كثير من الأحيان، ويقتفي أثرهم بعد ذلك. يبدو أنه قد وُبِّخ بسبب هذا النوع من العمل. إذا أردتُ عنواناً على عجل، يمكنني دائماً الحصول عليه منه. بالطبع، أنا أعرف كيف أدير علاقاتنا. لم أره يخطب لثلاث مرّات في السنتين الأخيرتين. أكتب له رسالة قصيرة غير موقّعة، ويجيبني بالطريقة نفسها على عنواني الخاصّ".

من وقت لآخر، كان المفوّض المساعد يُظهر إيماءة غير محسوسة تقريباً. أضاف كبير المفتّشين أنه لم يفترض أن السيد ڤيرلوك كان محلّ ثقة عميقة للأعضاء البارزين في المجلس الدولي الثوري، لكنه كان يحظى بالثقة هناك، بلا شك. "على أيّ حال، لديّ سبب للاعتقاد بأن هناك خطّة سرّيّة" استنتج هيت، "أجد أن بإمكانه أن يقول لي شيئاً من المهمّ معرفته".

أبدى المفوّض المساعد ملاحظة هامّة. "لقد خذلكَ هذه المرّة".

"لن أحصل على المعلومات بأيّ طريقة أخرى" ردّ كبير المفتّشين هيت، "لم أطلب منه أيّ شيء، لذا لا يمكنه أن يقول لي أيّ شيء. هو ليس من رجالنا. الأمر ليس كما لو أنه مأجور لنا".

"لا" همهم المفوّض المساعد. "إنه جاسوس مأجور لحكومة أجنبية. لا يمكن أن نثق به أبداً".

"يجب أن أقوم بعملي بطريقتي الخاصّة" قال كبير المفتّشين. "عندما يتطلّب الأمر مني أن أتعامل مع الشيطان نفسه، سأفعل وأتحمّل النتائج. هناك أشياء ليس من المناسب أن يعرفها الجميع".

"يبدو أن فكرتكَ عن السّرّيّة تنحصر في إخفاء المعلومات عن رئيس قسمك. هذا الكلام مبالغ فيه، إلى حدّ كبير، أليس كذلك؟! هو يسكن فوق متجره؟!"

"مَن - ڤيرلوك؟ آه، نعم. هو يسكن فوق متجره. والدة زوجته، كما أظنّ، تعيش معهم".

"هل البيت مُراقَب؟"

"أوه، لا. لم أفعل. بعض الناس الذين يأتون إلى هناك مُراقَبون. برأيي أنه لا يعرف شيئاً عن هذه القضية".

"كيف تفسّر هذا؟" أومأ المفوّض المساعد إلى قطعة القماش أمامه على المكتب.

"ليس لديّ أي تفسير، سيدي. ببساطة، هذا شيء غير قابل للتفسير. لا يمكنني تفسيره من خلال ما أعرفه" قال كبير المفتّشين هذه الاعترافات بصراحة رجل كأنما بنى سمعته على صخر صلب. "على أيّ حال، ليس في الوقت الراهن. أظنّ أن الرجل الأكثر تورّطاً من غيره في هذه القضية هو ميكيلس".

"هل تظنّ ذلك؟"

"نعم، سيدي لأني أستطيع الإجابة عن الآخرين كلهم".

"وماذا عن الرجل الآخر الذي من المفترض أنه هرب من الحديقة العامّة؟"

"أظنّ أنه كان بعيداً جداً في ذلك الوقت" عبّر كبير المفتّشين عن رأيه.

نظر المفوّض المساعد إليه بحدّة، ونهض فجأة، كما لو أنه قرّر ما ينبغي فعله. في واقع الأمر، في تلك اللحظة بالذات خضع لإغراء ساحر. سمع كبير المفتّشين بنفسه أمر الانصراف مع تعليمات للقاء رئيسه في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي لمزيد من التشاور حول القضية. أنصتَ بوجه متحجّر، وخرج من الغرفة بخطوات منتظمة.

كل ما قد خطّط المفوّض المساعد القيام به لن ينفّذه مع هذا العمل المكتبي الذي كان لعنة وجوده بسبب طبيعته المقيّدة وافتقاره الواضح للواقعية. لا يمكنه ذلك، وإلا فإن المظهر العامّ للنشاط الذي انتاب المفوّض المساعد لا يمكن تفسيره. بمجرّد أن تركه وحده، بحث عن قبّعته باندفاع، ووضعها على رأسه. وما إن فعل ذلك، جلس مرّة أخرى لإعادة النظر بالقضية كلها. لكنْ بما أنه قد اتّخذ القرار، لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. وقبل أن يذهب كبير المفتّشين هيت بعيداً جداً في طريقه إلى البيت، ترك المبنى هو الآخر.

٧

مشى المفوّض المساعد في شارع صغير وضيّق، يشبه خندقاً موحلاً رطباً، واجتاز بعد ذلك شارعاً عريضاً جداً ليدخل مبنى عامّاً ضخماً ، وسعى للحديث مع سكرتير خاصّ شابّ (موظّف بدون أجر) بشخصية عظيمة.

هذا الشابّ الأشقر، حليق الوجه، شعره المرتّب بشكل متماثل منحه ملامح تلميذ ضخم وأنيق، حقّق طلب المفوّض المساعد مع نظرة ارتياب، وقال وهو يحبس أنفاسه:

"هل يريد رؤيتكَ؟ لا علم لي بذلك. لقد غادر المجلس منذ ساعة ليتحدّث مع وكيل الوزارة الدائم، والآن هو مستعدّ للعودة مرّة أخرى. ربمّا قد أرسل في طلبه، لكنه فعل ذلك بهدف القيام بتمرين بسيط، كما أظنّ. هذا كل ما يقوم به من تمارين يمكنه أن يجد لها وقتاً في أثناء الجلسات. أنا لا أشكو، بل أستمتع بهذه النزهات القصيرة. يتوكّأ على ذراعي، ولا يفتح شفتيه. لكني أرى أنه مُتعَب جداً، وأيضاً - حسناً - هو ليس في أحلى مزاج الآن".

"فيما يخصّ قضية غرينتش".

"أوه! أظنّ ذلك! خاب أمله بمجموعتكَ. لكني سوف أذهب وأرى، إذا كنتَ تصرّ على ذلك".

"افعل، هذا جيد" قال المفوّض المساعد. السكرتير (بدون أجر) احترم هذه الجرأة. اتّخذ وجهاً بريئاً، فتح باباً، ودخل بثقة طفل جميل ومُميّز. وما إن عاود الظهور مع إيماءة إلى المفوّض المساعد الذي مرّ من الباب نفسه الذي تُرك مفتوحاً، وجد نفسه مع شخصية عظيمة في غرفة كبيرة.

عظيمة في الحجم والمنزلة، مع وجه أبيض طويل، يتّسع في أسفله بسبب ذقنه المزدوج الكبير، بدا بيضوي الشكل عند حاشية لحيته الرمادية الرقيقة، الشخصية العظيمة ظهر في هيئة رجل متضخّم. أمر مؤسف من وجهة نظر عمل الخِياطة تلك الطيّات العَرَضية في وسط معطفه الأسود المزرّر، والتي أضافت إلى الانطباع فكرة أن أزرار المعطف قد جُرِّبت إلى أقصى حدّ. من الرأس الموضوع فوق رَقَبة مكتنزة، عينان مع جفنين سفليين منتفخين تحدّقان بنظرة متغطرسة منخفضة على جانبي أنفه العدواني المعقوف البارز بنبل في محيط وجهه الشاحب الكبير. قبّعة برّاقة من الحرير، وزوج من القفّازات البالية، وُضعتْ سريعاً على نهاية مكتب طويل، بدا ممتدّاً وهائلاً.

كان يقف على بساط قرب المدفأة، يرتدي جزمتين كبيرتين واسعتين، ولم يلفظ أيّ كلمة للتحية.

"أريد أن أعرف إن كانت هذه بداية لحملة تفجير أخرى" سأل فوراً، بصوت عميق، ناعم جداً. "لا تتحدّث بالتفاصيل. ليس لديّ الوقت لذلك".

مظهر المفوّض المساعد أمام هذا الحضور الكبير والغليظ بدا مثل قصبة سهلة الكسر تخاطب شجرة سنديان. وبالتأكيد الرَّقْم القياسي الذي لم يحطّم بعد لسلالة هذا الرجل تجاوز بعدّة قرون عمر أكبر شجرة سنديان في البلاد.

"لا. بقدر ما يمكن للمرء أن يكون إيجابياً حيال أيّ شيء، يمكنني أن أضمن لك أن الأمر ليس كذلك".

"نعم. لكن فكرتك عن الضمانات في هذه القضية" قال الرجل العظيم مع تلويح سخرية بيده نحو نافذة تطلّ على شارع واسع "على ما يظهر لي إنها تنحصر في جعل وزير الدولة يبدو أحمقاً إلى حدّ بعيد. لقد تحدّثت بإيجابية في هذه الغرفة بالذات منذ أقلّ من شهر بأن لا شيء من هذا القبيل يمكن حتّى أن يحدث".

حدّق المفوّض المساعد في اتّجاه النافذة بهدوء.

"اسمح لي بملاحظة، سيدي أثلرَد، حتّى الآن لم تسنح لي الفرصة تقديم ضمانات لك من أيّ نوع".

النظرة المتغطرسة المنخفضة لعينيه ركّزت الآن على المفوّض المساعد.

"صحيح" أقرّ الصوت الناعم العميق. "أرسلتُ بطلب هيت. أنت لا تزال مبتدئاً نوعاً ما في وظيفتك الجديدة. كيف تنجح في ذلك؟"

"أؤمن بأني أتعلّم شيئاً كل يوم".

"بالتأكيد، بالتأكيد. أتمنّى لك النجاح".

"شكراً لك، سيدي أثلرَد. لقد تعلّمتُ شيئاً اليوم، وحتّى في الساعة الأخيرة، أو نحو ذلك. هناك الكثير في هذه القضية ممّا لا تراه العين في عمل فوضوي عنيف مماثل، حتّى لو بحث فيه المرء بعمق. ولهذا السبب أنا هنا".

تخصَّر الرجل الضخم، وظاهر يديه الكبيرتين مستند على وركيه.

"جيد جداً. استمرّ. لكنْ دون تفاصيل، أرجوكَ. أبْعِدْني عن التفاصيل".

"عليك ألا تقلق بشأنهم، سيدي أثلرَد" بدأ المفوّض المساعد بنبرة توكيد هادئة وواثقة. وبينما كان يتحدّث، تحرّك المؤشّران على وجه الساعة خلف ظهر الرجل العظيم - شيء ثقيل، لامع ذو زخرفة هائلة في نفس الرخام الداكن لرفّ الموقد، مع تكّة شبحية سريعة الزوال - سبع دقائق. تحدّث بإخلاص جادّ إلى طريقة عَرَضية، وذكر كلّ حقيقة صغيرة - كل شيء، كل تفصيل - زُوّد بها بسهولة ويُسر. لا همهمة ولا حتّى حركة لمّحت إلى المقاطعة في أثناء الكلام. الشخصية العظيمة - ربمّا - كان تمثالاً لأحد أسلافه الأمراء وقد جُرد من عدّة الحرب الصليبية، ووُضع في معطف قصير بقياس غير مناسب. شعر المفوّض المساعد كما لو أنه حُرّ في التحدّث لساعة. لكنه حافظ على هدوئه، وعند نهاية الوقت المذكور أعلاه، توقّف عن الكلام مع استنتاج مفاجئ حيث بإعادة تصريحه الذي بدأ به الحديث، فاجأ السيد أثلرَد على نحو لطيف بقوّته، وسرعته الواضحة.

"من الأمور التي تواجهنا تحت سطح هذه القضية، فيما عدا أنها ليست ذا أهمّيّة كبيرة، هو أنها قضية غير عادية - في هذا الشكل الدقيق على الأقلّ... وتتطلّب معاملة خاصّة".

نبرة السيد أثلرَد كانت عميقة ومليئة بالثقة. "يجب أن أفكّر بهذه الطريقة: تورّط سفير دولة أجنبية".

"أوه! السفير!" اعترض الآخر، المستقيم والنحيل، وسمح لنفسه بمجرّد ابتسامة بسيطة. "سيكون غباء مني الإدلاء بأيّ شيء من هذا القبيل، وهذا غير ضروري على الإطلاق، فلو كنتُ على حقّ في ظنوني، سواء كان السفير أو حَرَس القاعة ستبقى مجرّد تفاصيل".

فتح السيد أثلرَد فمه الواسع مثل كهف إلى أنفه المعقوف، ممّا شكّل قلقاً لنظيره، اندفع منه صوت خافت، كما لو أنه خرج من أُورغن(*) بعيد مع وقفة غضب مُحتقِر.

"لا! التعامل مع هؤلاء الناس صعب جداً. ماذا يقصدون باستيراد أساليبهم من تتار القرم إلى هنا؟ يجب أن يتحلّى التركيّ بالمزيد من اللياقة".

"يبدو أنك نسيتَ، سيدي أثلرَد، قلنا بشكل دقيق إننا لا نعرف أيّ شيء مؤكّد إلى حدّ الآن".

"لا! لكنْ كيف يمكنكَ تعريف ذلك؟ باختصار".

"وقاحة سافرة، تبلغ حدّ صبيانية من نوع غريب".

"لا يمكننا تحمُّل جهل أطفال صغار أشرار" قال الشخصية العظيمة والمتضخّمة، تضخّمَ أكثر قليلاً ممّا كان. النظرة المتغطرسة المنخفضة أصابت بشكل ساحق السجّادة عند قَدَمَي المفوّض المساعد. "سوف يُوبّخون بشدّة خلال هذه القضية، يجب أن نكون في الوضع المناسب لذلك - ما هي فكرتكَ العامة؟ وَضِّحْها باختصار. لا حاجة إلى الخوض في التفاصيل".

"لا، سيدي أثلرَد. من حيث المبدأ، يجب أن أبيّن أن وجود عملاء سرّيّين لا ينبغي السكوت عنه، كما أنه يميل إلى زيادة مخاطر شرّ حقيقية ضدّ ما استُخدموا من أجله. الجاسوس سوف يُلفِّق معلوماته وهذا أمر مألوف.

---

*) أُرغن: آلة موسيقية ضخمة، تتكوّن من لوحة مفاتيح وأنابيب، تركيبها الداخلي مُعقّد جداً، يمكن العزف عليها باستخدام اليدين للوحة المفاتيح، أو بالقدم باستخدام الدوّاسات لنَفْخ الهواء في الأنابيب. له عدّة أشكال واستخدامات مختلفة. منها أرغن الكنيسة، الأرغن ذو الأنابيب والأرغن اليدوي.

لكنْ في مجال العمل السياسي والثوري، الذي يعتمد جزئياً على العنف، الجاسوس المحترف لديه كل التسهيلات لتلفيق الحقائق نفسها، وسوف ينشر الشرّ في اتّجاهين: المنافسة من جهة، والذعر، التشريعات المتسرّعة، الكراهية دون تفكير، من جهة أخرى. لكنْ هذا هو العالم الناقص".

الوجود الصوتي العميق الواقف على البساط قرب المدفأة بلا حراك، ومرفقاه الكبيران بارزان، قال بعجالة: "كنْ واضحاً، أرجوك".

"نعم، سيدي أثلرَد - عالم ناقص. لهذا فور أن اتّضَحت لي طبيعة هذه القضية، فكّرتُ بوجوب التعامل معها بسرّيّة خاصّة، وغامرتُ بالقدوم إلى هنا".

"هذا صحيح" أكّد الشخصية العظيمة، وهو يحدّق إلى أسفل برضا فوق ذقنه المزدوج. "أنا مسرور لأن هناك شخصاً ما في محلّ عملكَ يظنّ أن وزير الدولة شخص يمكن الوثوق به بين الحين والآخر" ابتسم المفوّض المساعد مستمتعاً.

"فكّرتُ حقاً بأنه قد يكون من الأفضل في هذه المرحلة لـ هيت أن يُستبدل بـ ..."

"ماذا؟ هيت! حمار - إيه؟" صرخ الرجل العظيم بعدائية واضحة.

"لا، على الإطلاق. أتوسّل إليك، سيدي أثلرَد، لا تُسقط هذا التأويل الظالم على ملاحظاتي".

"ماذا إذنْ؟ ذكيّ جداً؟"

"لا هذا ولا ذاك، ليس كقاعدة على الأقلّ. كل أسباب ظنوني أخذتُها منه. الشيء الوحيد الذي اكتشفتُه بنفسي أنه استفاد من ذلك الرجل بصورة شخصية. مَن يستطيع لومه؟ هو يدُ عونٍ قديمة للشرطة. قال لي

فعلياً بأنه يجب أن يكون لديه أدوات للتعامل معهم. خطر في بالي أن هذه الأداة يجب أن تخضع - بشكل كامل - لقسم الجرائم الخاصّة، بدلاً من إبقاء مِلْكيّتها الخاصّة لكبير المفتّشين هيت. وسّعتُ تصوّري عن واجبات قسمنا نحو قَمْع العميل السّرّيّ. لكن كبير المفتّشين هيت خبرة إدارية قديمة للقسم. سوف يتّهمني بإفساد أخلاقيات العمل، ومهاجمة كفاءته. سوف يُظهرها - بمرارة - على أنها حماية امتدّت إلى الفئة الإجرامية من الثوريين. هذا كل ما سوف يعنيه موقفي بالنسبة له".

"نعم. لكنْ ماذا تقصد؟"

"أقصد القول، أولاً، محاولة إثبات أن كل فعل عنيف - إتلاف الممتلكات، أو إبادة حياة الناس - هو ليس عملاً فوضوياً إطلاقاً، لكنه شيء آخر تماماً، نوع من النذالة المشروعة، ما هي إلا تعزية بائسة. وهذا التفسير كما أتصوّر، يتردّد أكثر ممّا كنا نتوقّع. ثانياً، من الواضح أن وجود هؤلاء الناس الذين يعملون سرّاً لصالح حكومة أجنبية، يدمّر إلى حدّ ما كفاءة مراقبتنا. جاسوس من هذا النوع يستطيع أن يكون أكثر تهوّراً من أكثر المتهوّرين من المتآمرين. مهنته خالية من كل عائق. ليس لديه الكثير من الإيمان إلا إذا كان ذلك ضرورياً لرفض كامل، وليس لديه الكثير من القوانين ما لم تكن مفهوماً ضمنياً في الفوضى. ثالثاً، وجود هؤلاء الجواسيس بين المجاميع الثورية الذين وُبّخنا على إيوائهم هنا، قضى على كل يقين. لقد استلمتُ بياناً مُطمئناً من كبير المفتّشين هيت منذ وقت قريب. لم يكن له أساس على الإطلاق - وبعد حدوث هذه الحادثة. أسميتُها حادثة، لأن هذه القضية - أجرؤ على القول – هي حادثة عَرَضية، ليست جزءاً من أيّ مخطّط عامّ، رغم وحشيّتها. خصوصيّاتها التي فاجأتْ وأربكتْ كبير المفتّشين هيت أكّدتْ طبيعتها في تصوّري. لقد تجنّبتُ التفاصيل، سيدي أثلرَد".

الشخصية البارزة التي تقف على البساط أنصتَتْ باهتمام شديد.

"بالضبط. اختصرْ قدر استطاعتكَ".

المفوّض المساعد لمّح بإيماءة تقدير جادّة عن حرصه في أن يتحدّث بإيجاز.

"هناك غباء وضعف غريبان في هذه القضية منحاني آمالاً رائعة في الوصول إلى خباياها، وكشفا شيئاً آخر غير النزوة الفردية للتعصّب. لأنه شيء مخطّط له، من غير شك. ويبدو أن الجاني الفعلي اقتيد من يده إلى مكان الحادث، وتُرِك بعد ذلك بسرعة مع أدواته الخاصّة. ما يُستنتَج منه أنه قد جُلب من الخارج لغرض ارتكاب هذا العمل العنيف. في الوقت نفسه، يضطرّ المرء إلى استنتاج أنه لا يعرف الإنكليزية بما يكفي للسؤال عن الطريق إلا إذا كان يتقبّل النظرية الخيالية بأنه كان أبكمَ أصمّ. أتساءل الآن - لكن هذا مضيعة للوقت. لقد دمرّ نفسه عن طريق الصدفة، بكل تأكيد. لم يكن حادثاً استثنائياً. لكنْ بقيت حقيقة صغيرة استثنائية: العنوان على ملابسه اكتُشف بالصدفة البحتة أيضاً. إنها حقيقة صغيرة لا تُصدَّق إلى درجة أن التعليل الذي يفسّرها يستلزم الوصول إلى قاع القضية. بدلاً من أمر هيت التعامل مع هذه الحالة، نيّتي هي بحث هذا التعليل شخصياً، بنفسي. أقصد - حيث تمّ الحصول عليه. في متجر معيّن في بريت ستريت، وعلى لسان عميل سرّيّ معيّن، كان فيما مضى الجاسوس السّرّيّ والمؤتمن للبارون ستوت – ورتنهايم السابق، سفير دولة عظمى في بلاط سانت جيمس المَلَكي".

توقّف المفوّض المساعد، ثمّ أضاف: "هؤلاء الرجال وباء شامل" من أجل رفع نظرته المنخفضة إلى وجه المتحدّث، الشخصية البارزة التي تقف

على بساط الموقد. مال رأسه - تدريجياً - إلى الخلف، ممّا منحه مظهراً من العنجهية غير العادية.

"لماذا لا تترك القضية لـ هيت؟"

"لأنه يد إدارية قديمة. لديهم أخلاقيات خاصّة بهم. طريقتي في التحقيق سوف تظهر بالنسبة له تشويهاً مخيفاً للمهمّة. بالنسبة له، الواجب العادي هو لصق التهمة على أكبر عدد ممكن من الفوضويين وفقاً لبعض الدلالات القليلة التي جمعها في أثناء تحقيق أجراه في مكان الحادث. سوف يقول إني أساعد في الدفاع عن براءتهم. حاولتُ أن أكون واضحاً قدر استطاعتي في عرض هذه القضية الغامضة عليك دون تفاصيل".

"سوف يقول، يقول ذلك؟" تمتم الرأس المتكبّر للسيد أثلرَد من علوّه الشاهق.

"أخشى ذلك - مع غضب وضجر من ما لا نستطيع تصوُّره أنا أو أنت. هو موظّف ممتاز. لا يجب أن نضع ضغطاً لا مبرّر له على إخلاصه. هذا خطأ دائماً. إلى جانب ذلك، أريد حُرّيّة مطلقة - حُرّيّة أكبر ربمّا ممّا يستحسن منحها إلى كبير المفتّشين هيت. ليس لديّ أيّ رغبة في استبقاء هذا الرجل ڤيرلوك. سوف يكون كما أتصوّر مندهشاً للغاية من أن علاقته بهذه القضية، مهما كانت، قد اكتُشفت بهذه السرعة. تخويفه سوف لن يكون صعباً جداً. لكن هدفنا الحقيقي يكمن وراءه في مكان ما. أحتاج إلى سلطتكَ لتعطيه بعض ضمانات السلامة الشخصية حسب ما قد أراه مناسباً".

"بكل تأكيد" قال الشخصية البارزة التي تقف على البساط. "اكتشفْ قدر استطاعتكَ، اكتشفْ بطريقتكَ الخاصّة".

"يجب أن أبدأ فوراً دون تضييع الوقت، هذا المساء إلى حدّ بعيد" قال المفوّض المساعد. السيد أثلرَد حرّك إحدى يديه تحت ذيل سترته، وأمال رأسه إلى الخلف، وهو ينظر إليه بثبات.

"سوف تكون لنا جلسة الليلة في وقت متأخّر" قال. "تعال إلى المجلس مع استنتاجاتكَ، إذا لم نذهب إلى منازلنا. سوف أطلب من تودلس(*) أن يبحث عنكَ. سوف يأتي بكَ إلى غرفتي".

الأسر العديدة والعلاقات الواسعة للسكرتير الخاصّ صاحب المظهر الفتي، قَدّرت له الأمل في مصير صارم ورفيع. في غضون ذلك، المجال الاجتماعي الذي يجمّله في ساعات فراغه، اختار أن يُدلّله بالاسم المستعار أعلاه. والسيد أثلرَد، الذي يسمعه على لسان زوجته والفتيات كل يوم (في وقت وجبة الإفطار غالباً) منح هذا الاسم هيبة التبنّي الجادّ.

المفوّض المساعد كان مندهشاً وممتناً للغاية.

"بالتأكيد، سأحضر استنتاجاتي إلى المجلس، في حال كان لديك وقت لذلك - "

"ليس لديّ الوقت" قاطعه الشخصية العظيمة.

"لكني سوف أراك. ليس لديّ الوقت الآن - وأنت هل ستذهب بنفسك؟"

"نعم، سيدي أثلرَد. أظنّ أنها الطريقة الأفضل"

أمال الشخصية العظيمة رأسه إلى الخلف أكثر، من أجل أن يُبقي المفوّض المساعد تحت مراقبته، لذا كان عليه أن يُغلق عينيه تقريباً.

---

*) تودلس (Toodles): اسم دلع، يعني المحبوب.

"أمم! ها! وماذا تنوي - هل ستعتمد التّنكّر؟"

"التّنكّر غير محتمل! سوف أغيّر ملابسي، بالطبع".

"بالطبع" ردّد الرجل العظيم مع شيء من بهاء شارد الذهن. أدار رأسه الكبير ببطء، ومن فوق كتفه حدّق بنظرة منحرفة متغطرسة إلى الساعة الرخامية الثقيلة مع تكّة ضعيفة مخادعة. المؤشّران المذهّبان بادرا في اغتنام الفرصة، وسرقا ما لا يقلّ عن خمس وعشرين دقيقة من وراء ظهره.

المفوّض المساعد، الذي لا يستطيع أن يراهما، زاد انفعاله قليلاً في غضون ذلك. لكن الرجل العظيم أظهر له وجهاً هادئاً وشجاعاً. "جيد جداً" قال وتوقّف قليلاً، كما لو كان يحتقر متعمّداً ساعة الدوام الرسمية.

"لكنْ ما الذي حرّكك - أولاً - في هذا الاتّجاه؟"

"لديّ - دائماً - آرائي الخاصّة" بدأ المفوّض المساعد.

"آه. نعم! آراؤك. بالتأكيد. لكنْ ما الدافع المباشر؟"

"ماذا يجب أن أقول، سيدي أثلرَد؟ خصومة رجل مستجدّ في العمل للأساليب القديمة. الرغبة في معرفة شيء فور حدوثه. بعض نفاد الصبر. إنه عملي القديم، لكن ترتيب العمل مختلف. هذا ما أغضبني قليلاً في واحد أو اثنين من الأماكن المتساهلة".

"أتمنّى أنك سوف تنجح في ذلك" قال الرجل العظيم بلطف، ومَدّ يده، كانت ناعمة المَلمس، لكنها تشبه يد فلاح مبجّل في سعتها وضخامتها. هزّ المفوّض المساعد يده، وانصرف. تودلس في الغرفة الخارجية ينتظر جالساً على حافة الطاولة، جاء لمقابلته، قال وهو يقمع مرحه الطبيعي.

"حسناً؟ هل أنت راضٍ؟" سأل مع شيء من التقدير.

"تماماً. لقد نلتَ امتناني الدائم" ردّ المفوّض المساعد، الذي بدا وجهه الطويل متبلّداً بالمقارنة مع الطبيعة الخاصّة لجدّيّة الآخر المتأهّبة بشكل دائم على إخفاء ما يظهر من خطوط الوجه والضحكات المكتومة.

" هذا كله صحيح. لكنْ بجدّيّة، لا يمكنك تخيّل كيف غضب من الهجمات على مشروعه لتأميم الثروات السمكية. يسمّونها بداية الثورة الاجتماعية. بالطبع، إنها مقياس ثوري. لكن هؤلاء الرجال بلا لياقة. الهجمات الشخصية ..."

"لقد قرأت الصحف" قال المفوّض المساعد.

"عمل مشين؟ ها؟ ليس لديك أيّ فكرة عن ضخامة العمل الذي كان يُنجزه كل يوم. فعل ذلك كله بنفسه. يبدو من غير الممكن الوثوق بأيّ شخص مع تلك الثروات السمكية".

"رغم ذلك، خصّصَ نصف ساعة كاملة لدراسة سمكتي الصغيرة" تدخّل المفوّض المساعد.

"صغيرة؟! هل هي صغيرة؟ أنا سعيد لسماع ذلك. لكنْ من المؤسف أنك لم تبقه بعيداً عنها. هذه المعركة خرجت من سيطرته بشكل مرعب. الرجل قد أُرهق. شعرتُ بذلك من خلال الطريقة التي يميل بها على ذراعي عندما نمشي. وأنا أقول، هل هو آمن في الشوارع؟ مولينز أمر رجاله بالمشي هنا عند بعد ظهر ذلك اليوم. هناك شرطي متسمّر عند كل عمود إنارة، وكل شخص نلتقيه بين هنا وبالس يارد هو رجل مباحث بشكل واضح. هذه الأمور سوف تثير انفعاله عمّا قريب. أقول، أولئك الأجانب الأوغاد من غير المحتمل أن يرموا شيئاً في وجهه - هل يمكنهم ذلك؟ إنها كارثة وطنية. لا يمكن للبلد أن يستغني عنه".

"ناهيك عن نفسك. هو يستند على ذراعك" لمّح المفوّض المساعد بجدّيّة. "ستذهبان معاً".

"ستكون طريقة سهلة بالنسبة لرجل شابّ أن يغوص في التاريخ. لم يتمّ اغتيال الكثير من الوزراء البريطانيين على نحو يجعلها حادثة غير خطيرة. لكنْ بجدّيّة الآن ...".

"أخشى أنكَ لو أردتَ الغوص في التاريخ سيتوجّب عليك القيام بشيء من أجله. بكل جدّيّة، ليس هناك أيّ خطر لكليكما إلا من الإرهاق".

رحّب المتعاطف تودلس بهذه البداية مع ضحكة مكتومة.

"مشكلة الثروات السمكية لن تقتلني. أنا معتاد على البقاء لساعات متأخّرة" قال بتهوّر ساذج. لكنْ شعر بالندم على الفور، وتظاهر بمظهر رجل الدولة متقلّب المزاج، الحكيم الصارم. "ذكاؤه الهائل سوف يتحمّل أيّ قدر من العمل. انفعاله هو ما أخاف منه. الجماعة الرجعية، وعلى رأسهم تشيزمن المتعسّف الوحشي، تهينه كل ليلة".

"إذا كان يصرّ على الشروع في ثورة!" همهم المفوّض المساعد.

"لقد حان الوقت، وهو رجل عظيم بما يكفي لهذا العمل" قاطع الثوري تودلس، كان يستشيط غضباً تحت نظرته الهادئة التأمّلية إلى المفوّض المساعد. في مكان ما من الممرّ، رنّ جرس بعيد بسرعة عاجلة، وبيقظة وحرص صرّ الرجل الشاب أذنيه للصوت. "هو مستعدّ للذهاب الآن" قال بهمس، انتزع قبّعته، واختفى من الغرفة.

خرج المفوّض المساعد من باب آخر، بطريقة أقلّ مرونة. مرّة أخرى عبر الشارع العريض، مشى على طول شارع ضيّق، وبسرعة دخل ثانية إلى

المباني الإدارية. حافظ على تلك الخطوات المسرعة حتّى وصل باب غرفته الخاصّة. وقبل أن يُغلق الباب - تماماً - تفحّصت عيناه مكتبه. وقف ساكناً لدقيقة، وبعد ذلك مشى، نظر إلى الأرضية حوله، جلس على كرسيه، رَنّ الجرس، وانتظر.

"هل غادر كبير المفتّشين هيت أيضاً؟"

"نعم، سيدي. غادر من نصف ساعة".

حرّك رأسه. "حسناً" وجلس ساكناً، قبّعته مسحوبة عن جبهته، فكّر أن هذه مجرّد وقاحة من هيت المرتبك في خطف العيّنة الوحيدة من الدليل الماديّ بهدوء. لكنه فكّر بذلك دون حقد. الموظّفون موضع التقدير والقدامى لديهم الحُرّيّة في فعل ذلك. العيّنة من المعطف مع العنوان المخيط عليها لم تكن شيئاً يمكن تركه. طرد من رأسه هذه الفكرة من عدم الثقة لكبير المفتّشين هيت. كتب وأرسل بسرعة رسالة موجزة إلى زوجته، يطلب منها أن تُقدّم اعتذاره للسيدة النبيلة وميكيلس اللذين ارتبطا معهما بعشاء في ذلك المساء.

فيما يشبه فجوة ذات ستارة في جدار الغرفة تحتوي على مغسلة، صفّ من أوتاد خشبية صغيرة تُعلّق عليها الملابس ورف، ارتدى سترة قصيرة وقبّعة صغيرة مدوّرة، أبرزت بشكل رائع طول وجهه الأسمر الجادّ. عاد إلى الإضاءة الكاملة من الغرفة، يبدو مثل دون كيخوتي المتأمّل البارد مع عينين غائرتين لشغوف بالظلمة، وبطريقة متأنّية جداً. غادر مكان عمله اليومي بسرعة مثل شبح خفي. نزوله إلى الشارع كان مثل النزول إلى حوض سمك غروي، يفرغ الماء منه، غلّفته رطوبة موحشة ضبابية. جدران المنازل كانت رطبة، الوحل يلمع على الطريق المعبّد مع وميض فوسفوري، وعندما خرج

إلى ستراند عبر شارع ضيّق إلى جانب محطّة تشارنغ كروس سيطرت عليه عبقرية المكان. قد لا يكون إلا واحداً من الأسماك الأجنبية الغريبة التي يمكن رؤيتها في أمسية تتحرّك هناك حول الزوايا المظلمة.

كان يقف على حافة رصيف الشارع، وينتظر. أبصرتْ عيناه المتمرّستان بصعوبة في الحركات المرتبكة للضوء، ورأى تجمهراً في الطريق المعبّد، يتقدّم ببطء مقترباً من عربة. لم يعطِ إشارة، لكنْ عندما انزلقت الدرجة المنخفضة للعربة بالقرب من الرصيف الحجري واقتربتْ من قَدَمه، راوغ بإتقان أمام العجلة الكبيرة، ودخل من خلال باب العربة الصغير أمام رجل يحدّق إلى الأمام بثبات من مقعده، وكان مدركاً لصعود ركّاب بالأجرة.

لم تكن المسافة طويلة. انتهت بإشارة مفاجئة، لا مكان محدّد، توقّف بين عمودَي إنارة مقابل مبنى كبير لمؤسّسة للستائر - صفّ طويل من المحلات التجارية، كانت أبوابها ونوافذها مغطّاة بالفعل بألواح من الحديد المموّج ليلاً. قدّم الأجرة من خلال الباب الصغير، الأجرة دُسّت بعيداً، تركت تأثيراً غامضاً غريباً، خارقاً على عقل السائق. لكن حجم العملة كان مُرضياً للمسه، وثقافته لم تكن واسعة، بقي مطمئنّاً، لا يكدّره خوف العثور عليها عمّا قريب، وقد تحوّلت إلى ورقة ميّتة في جيبه. ارتقى فوق عالم الأجور وفقاً لطبيعة مهنته، فكّر مَلياً في تأثيرها باهتمام محدود. الشّدّ العنيف للجام حصانه ليبقيه مستقيماً عبرّ عن فلسفته.

في غضون ذلك، كان المفوّض المساعد قد أعطى أوامره - بالفعل - إلى النادل في مطعم إيطالي صغير عند الزاوية - واحدة من تلك الفخاخ المنصوبة للجياع، مكان طويل وضيّق، يصطاد زبائنه بمنظر المرايا وأغطية الموائد البيضاء، بلا هواء، لكنْ مع جوّه الخاصّ - أجواء فنّ الطبخ المخادع الذي يسخر من الجنس البشري الذليل في الحاجة الأكثر إلحاحاً من

احتياجاته البائسة. في هذه الأجواء غير الأخلاقية، فكّر المفوّض المساعد بمغامرته، واتّضح له أنه قد فَقَدَ شيئاً أكثر من هويّته. كان لديه شعور بالوحدة، بحُرّيّة شرّيرة. كانت ممتعة إلى حدّ ما. وبعد أن دفع ثمن وجبته الصغيرة، وقف وانتظر الباقي، رأى نفسه في لوح زجاجي، وصُدم بمظهره الأجنبي. تأمّل صورته بنظرة فضولية وحزينة، وبإيحاء مفاجئ، رفع ياقة سترته. هذا التعديل ظهر له جديراً بالثناء، وأتمّه بفتل طرفي شاربه الأسود إلى أعلى. كان راضياً من التحوّل المتقن في مظهره الشخصي الناتج عن هذه التغييرات البسيطة. "حسناً فعلت" قال لنفسه، "أصبحت مبللاً قليلاً، مرشوشاً بالماء قليلاً - "

أصبح مدركاً للنادل عند مرفقه، ومن كومة صغيرة من العملة الفضّيّة أمامه على حافة الطاولة. النادل راقب النقود بعين، وبالأخرى كان يتبع ظهراً طويلاً لفتاة طويلة، ليست شابّة جداً، مرّت بسرعة إلى طاولة بعيدة، تبدو غير مَرئية تماماً، ومنعزلة عموماً. يبدو أنها زبونة ثابتة.

عند خروج المفوّض المساعد لاحظ أن الزبائن خسروا في ارتيادهم المطاعم المخادعة كل مميّزاتهم الوطنية والخاصّة. وهذا كان غريباً لأن المطعم الإيطالي هو مثل مؤسّسة بريطانية على نحو مميّز. لكن هؤلاء الناس مجرّدون من صفاتهم مثل الأطباق الموضوعة أمامهم في حالة احترام غير مدموغة بختم. لم تكن شخصيّاتهم مدموغة بأيّ ختم، مهني، اجتماعي، أو حتّى عِرْقي. كأنهم خُلقوا من أجل المطعم الإيطالي، هذا إذا لم يتمّ إنشاء المطعم الإيطالي بالصدفة من أجلهم. لكن هذه الفرضية الأخيرة كانت غير واردة لأن المرء لا يمكنه وضعهم في أيّ مكان خارج تلك المؤسّسات الخاصّة. لا يلتقي المرء هؤلاء الناس الغامضين في مكان آخر على الإطلاق. من المستحيل صياغة فكرة محدّدة عن المهنة التي يمتهنونها

نهاراً، وأين يذهبون للفراش ليلاً. وهو نفسه أصبح بلا مكان. سوف يكون من المتعذّر على أيّ شخص أن يُخمّن مهنته. مثل الذهاب إلى الفراش، كان هناك شكٌ حتّى في عقله. ليس فيما يخصّ مكان إقامته بالتأكيد، لكنْ فيما يخصّ احترام الوقت بدرجة أكبر عندما يكون بمقدوره العودة إلى هناك. تملّكه شعور من الاستقلالية عندما سمع تأرجح الأبواب الزجاجية خلف ظهره مع نوع من الجلجلة المرتبكة المشوّشة. تقدّم فوراً إلى فسحة واسعة من الطين الزلق والجصّ الرطب تتخلّلها مصابيح، ولُفَّ، قُمِع، اختُرِق، انعدم نفسه، واختنق بظلام ليل لندن الرطب الذي تشكّل من السخام وقطرات الماء.

لم يكن بريت ستريت بعيداً جداً. يتفرّع، يضيق، من جانب مساحة ثلاثية مفتوحة محاطة ببيوت مظلمة وغامضة، معابد لتجارة بسيطة جُرِّدت من تجّارها ليلاً. إلا متجر لبائع فاكهة في الزاوية أحدث بريقاً قوياً من الضوء واللون. خلف هذا كله كان كل شيء أسود، والعدد القليل من الناس الذين يمرّون في ذلك الاتّجاه يختفون في خطوة واحدة خلف الكومة المتوهّجة من البرتقال والليمون. لا صدى لوقع أقدامهم. سوف لن تُسمَع مرّة أخرى. رأس المغامر في قسم الجرائم الخاصّة راقب هذا الاختفاء باهتمام من مسافة بعيدة. شعر بسعادة، كما لو أنه نصب كميناً وحده فقط، في غابة تبعد آلاف الأميال عن المكاتب الإدارية والمحابر الرسمية. هذه البهجة وتشتُّت الفكر أمام عمل مهمّ تبرهن على أن عالمنا هذا ليس مثل قضية خطيرة جداً في النهاية. لأن المفوّض المساعد لم يكن ميّالاً دستورياً إلى التهوّر.

رجل الشرطة ماض في واجبه، انعكس ظلّه المعتم والمتحرّك على الهالة المضيئة للبرتقال والليمون، ودخل بريت ستريت دون تسرّع. المفوّض المساعد، كما لو كان فرداً من الطبقة الإجرامية، توارى بعيداً

عن الأنظار، في انتظار عودته. لكن هذا الشرطي بدا أنه ضاع إلى الأبد في مهمّته. لم يرجع أبداً: ربّما ذهب إلى الطرف الآخر من بريت ستريت.

بعد أن توصّل المفوّض المساعد إلى استنتاجه، دخل الشارع بدوره، وواجه عربة كبيرة، توقّفت أمام النوافذ الزجاجية المضيئة بإضاءة خافتة لمطعم رخيص، كان يتناول فيه سائق العربة طعامه. أنعش الرجلُ نفسَه في الداخل، والخيول خفّضت رؤوسها الكبيرة إلى الأرض لتتغذّى من أكياس العلف بثبات. أبعد من ذلك، على الجانب الآخر من الشارع، بقعة مشبوهة لضوء خافت، انبعثت من واجهة متجر السيد ڤيرلوك، ويظهر من خلالها أوراق مُعلّقة على حبل، وأكوام غامضة من الصناديق الكارتونية وأشكال الكُتُب. وقف المفوّض المساعد يراقبه من الجانب الآخر للشارع. ليس هناك ثمّة خطأ على الإطلاق. إلى جانب الواجهة الأمامية، المثقلة بظلال أشياء، يصعب وصفها، كان الباب الذي تُرك موارباً، سمح بانبعاث شعاع واضح وهزيل من مصباح الغاز في الداخل إلى رصيف الشارع.

خلف المفوّض المساعد اندمجت العربة والخيول في كتلة واحدة، بدت مثل شيء حيّ - وحش أسود مربّع الظهر، أغلق نصف الشارع، مع ضربات مفاجئة لنعل صلب، جلجلة عنيفة، تنهّدات مرهقة وثقيلة. الوهج الاحتفالي الصاخب، المنحوس لحانة كبيرة ومزدحمة واجه النهاية الأخرى لبريت ستريت عبر طريق عريض. هذا الحاجز من الأضواء المتوهّجة، المقابل للظلال المجتمعة حول المسكن المتواضع لسعادة السيد ڤيرلوك الأسرية، أعاد غموض الشارع إليه مرّة أخرى، وجعله أكثر تجهّماً، كآبة، ونحساً.

٨

بعد إلحاح مستمرّ بثّ نوعاً معيّناً من الحماس في الاهتمام الفاتر لعدد من أصحاب الحانات (المعارف السابقين لزوجها سيّئ الحظّ الراحل) أخيراً أمّنت والدة السيدة ڤيرلوك حقّ دخولها إلى إحدى بيوت الفقراء التي أسّسها صاحب نُزُل ثريّ للأرامل الفقيرات وبلا مهنة.

هذه النهاية، التي تخيّلتها في أعماق قلبها المهموم، سعتْ إليها السيدة المسنّة بسرّيّة وعزم. البداية كانت عندما أخفقت ابنتها ويني أمام السيد ڤيرلوك عند تمريره لملاحظته من أن "الأمّ قد أنفقت نصف كرونة وخمسة شلنات تقريباً في الأسبوع الماضي وبشكل يومي في أجور النقل" لكن الملاحظة لم تصدر على مضض. ويني تحترم عجز والدتها. اندهشتْ قليلاً من هذا الهَوَس المفاجئ للانتقال. السيد ڤيرلوك، الذي كان رائعاً بأسلوبه، تذمّر وهو يقول الملاحظة جانباً بنفاد صبر، كما لو تداخلت مع تأمُّلاته. ملاحظاته كانت متكرّرة، غامضة، وطويلة، حملّت المسألة أهمّيّة أكبر من خمسة شلنات. أهمّيّة أكبر وبشكل واضح، وصعوبة أكبر في تأمُّل جميع جوانبها بهدوء فلسفي.

وصلتْ إلى هدفها بسرّيّة وذكاء، العجوز القوية قالت الحقيقة مهما كانت سيّئة إلى السيدة ڤيرلوك. روحها كانت منتصرة، وقلبها يرتجف. روحياً، كانت ترتجف لأنها خائفة ومُقدرة للشخصية الهادئة المتحفّظة لابنتها ويني التي كان استياؤها رهيباً عبر أشكال متنوّعة من الصمت

المخيف. لكنها لم تسمح لقلقها الداخلي أن يسلبها فضيلة رباطة الجأش المهيبة التي أثّرت على مظهرها الخارجي من خلال ذقنها المضاعف لثلاث مرّات، والاتّساع السائب لشكل شيخوختها، وحالة ساقيها الضعيفة.

الصدمة من الخبر كانت غير متوقّعة بحيث إن السيدة ڤيرلوك - وعلى عكس عادتها المألوفة عندما تتحدّث - قطعت العمل المنزلي الذي كانت تقوم به. كانت تنفض الأتربة عن الأثاث في غرفة الجلوس خلف المتجر. أدارت رأسها نحو أمّها. "لأيّ شيء تريدين فعل ذلك؟" صاحتْ وهي في حالة صدمة وذهول.

الصدمة يجب أن تكون قاسية لتجعلها تحيد من هذه المسافة، وتقبل بلا استفسار بالحقائق التي كانت تُقوّيها وتحميها في الحياة.

"ألم نجعلكِ ترتاحين تماماً هنا؟"

توقّفت عن هذه التساؤلات، لكنْ بعد ذلك، حافظت على الانتظام في تصرُّفها باستئناف تنفيض الأتربة، بينما كانت المرأة المسنّة تجلس خائفة وصامتة تحت قبّعتها البيضاء المغبرّة وشعرها المستعار الداكن الباهت.

انتهت ويني من تنظيف الكرسي، ومرّرت منفضة الغبار على المائدة الماهوغانية خلف الأريكة المصنوعة من شعر الحصان حيث يحبّ السيد ڤيرلوك أن يرتاح عليها وهو يرتدي القبّعة والمعطف. كانت منشغلة بعملها، لكنْ الآن سمحت لنفسها بسؤال آخر.

"كيف يا تُرى ستتدبّرين أمرك، أمّي؟"

مثلما أن حقيقة الأشياء لا تثير العاطفة، وهذا كان مبدأ السيدة ڤيرلوك في التجاهل، هذا الفضول كان يمكن غفرانه. ما يهمّ هو الطريقة التي عبّرت

عن هذا الفضول. العجوز رحّبت بالسؤال بلهفة كما لو ذُكر شيء ممكن الحديث عنه بصدق أكثر. أيّدت ابنتها بإجابة مستفيضة مليئة بالأسماء وثرية بالتعليقات الجانبية حول فساد الزمن كما ملاحظ في تغيّر ملامح الإنسانية. الأسماء كانت أسماء أصحاب الحانات على وجه الخصوص، "أصدقاء بابا المساكين، عزيزتي" أسهبت مع تقدير خاصّ للطف وتسامح صانع الجعة الكبير، البارونيت وعضو البرلمان، رئيس المؤسّسات الخيرية. وبعد ذلك عبّرت عن نفسها بحماس، لأنها قد تمكّنت من مقابلة سكرتيره الخاصّ - "رجل مهذّب جداً، كل ما كان يرتديه لونه أسود، صوته لطيف حزين، لكنه رفيع جداً جداً، وهادئ. مثل ظلّ، عزيزتي".

ويني، أطالت عملها في تنفيض الأتربة حتّى روتْ الحكاية كلها، خرجتْ من غرفة الجلوس إلى المطبخ (نزلت درجتين) بطريقتها المعتادة، دون أيّ تعليق.

ذرفت بعض الدموع من سعادتها بلطف ابنتها في هذا الأمر الفظيع، والدة السيدة ڤيرلوك غيّرت مسار الموضوع بدهاء إلى الحديث عن أثاثها لأنه ملكها، وأحياناً كانت تتمنّى لو لم يكن لها. البطولة لا بأس بها، لكنْ توجد ظروف حيث تدبير عدد من الطاولات والكراسي، سرير نحاسي، وإلخ، قد يكون أمراً عظيماً مع عواقب غير متوقّعة، وكارثية. طلبت عدداً من قطع الأثاث لنفسها، المؤسّسة التي ضمّتها إلى صدرها الرحيم بعد الكثير من الإلحاح، لا تقدّم شيئاً سوى أرضية خشبية رثّة وطابوق مغطّى بورق جدران رخيص لأغراض الرعاية السَّكَنية. اللطف الذي قادها إلى اختيار أقلّ الأشياء قيمة وأكثرها رثاثة مرّ دون ملاحظة، لأن فلسفة ويني اعتمدتْ على تجاهل باطن الحقائق، وافترضتْ أن أمّها قد أخذت أفضل ما يناسبها. وكما هو الحال مع السيد ڤيرلوك، تأمُّله الشديد عزله تماماً مثل سور الصين عن ظواهر هذا العالم ذي الجهد العقيم والمظاهر الخادعة.

انتقت ما تريد من الأثاث، التخلّص من الباقي أصبح سؤالاً مربكاً بطريقة ما. تركتْه في بريت ستريت، بالطبع. لكنْ لديها طفلان. ويني أمّنتْ عيشها بزواجها العقلاني من ذلك الزوج الفاضل، السيد ڤيرلوك. ستيڤي كان مُعدَماً وغريباً بعض الشيء. وضعه أُخذ بعين الاعتبار من قِبَل مزاعم العدالة القانونية، وحتّى التحريض على التأييد. ملكية الأثاث لن تكون إعالة بأيّ حال من الأحوال. وجب عليه امتلاكه - الصبي المسكين. لكنْ سيكون من العبث منحه له مع حالته من الاتّكالية الكاملة. كان نوعاً من الشكوى من أنها تخشى أن تضعف. بالإضافة إلى ذلك، ربمّا مشاعر السيد ڤيرلوك لن تطيق الاعتراف بالفضل لشقيق زوجته من أجل الكراسي التي يجلس عليها. في تجربة طويلة مع مستأجرين نبلاء، والدة السيدة ڤيرلوك كوّنت رأياً محزناً، لكنه خاضع للجانب الخيالي في الطبيعة البشرية. ماذا لو أن السيد ڤيرلوك فكّر في أن يأمر ستيڤي بأخذ عصيّه المباركة إلى مكان ما خارج هذا المكان؟ الانفصال، من جانب آخر، مهما تمّ بعناية، قد يُسبّب الأذى لويني. لا، يجب أن يظلّ ستيڤي مُعدَماً وخاضعاً. وفي اللحظة التي تركت فيها بريت ستريت قالت لابنتها: "لا فائدة من الانتظار حتّى موتي، أليس كذلك؟ كل شيء تركتُه هنا هو ملكك الآن بالكامل، عزيزتي".

ويني، وهي ترتدي قبّعتها، صامتة خلف ظهر والدتها رتّبت ياقة معطف المرأة العجوز الفضفاض. حملتْ حقيبة يدها، مظلّتها، مع وجه هادئ. حان الوقت لإنفاق مبلغ ٣ شلن و٦ بنسات على ما قد يُفترَض أن يكون آخر أجرة نقل في حياة والدة السيدة ڤيرلوك. وخرجوا من باب المتجر.

العربة التي تنتظرهم زُيّنت بالحكمة التالية: "الحقيقة يمكن أن تكون أكثر قسوة من رسم كاريكاتوري" هذا إن وُجدت مثل هذه الحكمة. تحبو خلف حصان عاجز عربة نقل حضرية ترتكز على عجلات متزعزعة، وسائق أجذم،

يجلس على المقصورة. هذه الميزة الأخيرة تسبّبت في بعض الارتباك. عند لمحة سريعة، رأتْ والدة السيدة ڤيرلوك أداة الحديد المعقوفة تبرز من الكُمّ الأيسر لمعطف الرجل، لقد فقدتْ فجأة شجاعتها البطولية في هذه الأيّام. في الواقع، لا يمكنها الاتّكال على نفسها. "ما رأيكِ، ويني؟" قالت وهي متردّدة في المضي إلى العربة. الاعتراضات الانفعالية على الوجه الكبير لسائق العربة بدت كما لو أنها ظهرتْ نتيجة عصر حنجرة مسدودة. ينحني وهو جالس على مقعده، ويهمس بغضب بكلمات غير مفهومة. ما الأمر الآن؟ هل كان من الممكن التعامل مع رجل مثل هذا؟ وجهه الضخم والوسخ احمرّ متوهّجاً عند سير العربة في المكان الموحل من الشارع. هل من الممكن أن يمنحوه رخصة قيادة؟ تساءل بيأس، لو ....

هدّأه رجل من الشرطة في الشارع بنظرة ودّيّة، توجّه بالحديث إلى السيدتين دون اعتبار ملحوظ، قال: "إنه يقود عربة الأجرة منذ عشرين عاماً. لم أسمع بأنه قد تعرّض لأيّ حادث قطّ".

"حادث!" تساءل السائق بهمس محتقر.

شهادة رجل الشرطة حسمت الأمر. اختفى التجمُّع المتواضع من سبعة أشخاص، أغلبهم تحت سنّ البلوغ. ويني تبعتْ أمّها إلى العربة. ستيڤي تسلّق إلى المقعد إلى جانب السائق على المقصورة. فمه الفاغر وعيناه القلقتان صوّرت حالة عقله فيما يتعلّق بالتعاملات التي حدثت أمامه. في الشوارع الضيّقة كان سير العربة معقولاً نسبة لسيرها في الشوارع القريبة من المنازل حيث تنزلق بعيداً ببطء، وتهتزّ مع صخب وجلجلة عظيمين للزجاج، كما لو أنها أوشكت على السقوط خلف العربة، والحصان الضعيف مع السرج يغطّي عموده الفقري الحادّ، ويتدلى بحُرّيّة على فخذيه، يظهر كما لو أنه يرقص بتكلّف على أطراف أصابعه مع صبر غير محدود. بعد ذلك،

في مساحة واسعة من وايتهول، كل الشواهد المرئية على الحركة أصبحت غير ملحوظة. صخب وجلجلة الزجاج استمرّا إلى ما لا نهاية أمام مبنى الخزانة العامّة الطويل، وبدا أن الزمن نفسه قد توقّف تماماً.

قالت ويني أخيراً: "هذا الحصان ليس جيداً".

لمعت عيناها اللتان تحدّقان إلى الأمام بثبات في ظلمة العربة. على المقصورة إلى جانب السائق، أغلق ستيڤي فمه الفاغر أولاً، من أجل أن يهتف بجدّيّة: "لا تفعل".

رفع السائق اللجام الملفوف حول الكلّاب بقوّة، ولم يكترث. ربّما لم يسمع تنهّدات صدر ستيڤي. "لا تضرب!".

أدار الرجل ببطء وجهه المنتفخ المخضلّ المتلوّن بعدّة ألوان ومليء بالشعيرات البيضاء الخشنة. لمعت عيناه الحمراوان الصغيرتان مع نداوة على جفنيه. شفتاه الكبيرتان لها مسحة من لون بنفسجي، ظلّتا مغلقتين. وبظهر يده القذرة التي تمسك بالسوط حكّ لحيته الخفيفة النابتة على ذقنه الضخم.

"يجب ألا تفعل" تلعثم ستيڤي بعداونية. "هذا يؤلم".

"لا يجب الضرب بالسوط" شكّك الآخر بصوت خافت رصين، وضرب بالسوط فوراً. فعل هذا، ليس لأن روحه قاسية وقلبه شرّير، لكنْ ليكسب أجرته. ولبعض الوقت جدران كنيسة القدّيس أسطفانوس بأبراجها وقبابها المستدقّة، تأمّلت في جمود وصمت عربة مجلجلة. وتترنّح أيضاً، على أيّ حال. لكنْ على الجسر كان هناك إرباك. تحرّك ستيڤي فجأة لينزل من العربة. كان هناك صرخات على الرصيف، وأناس يركضون إلى الأمام، توقّف سائق العربة وهو يهمس بشتائم من الدهشة والغضب. خفّضتْ ويني

النافذة، وأخرجتْ رأسها، بيضاء مثل شبح. وفي جوف العربة كانت أمّها تصرخ بنبرة حزن: "هل أُصيب الصبيّ بأذى؟! هل أُصيب الصبيّ بأذى؟!".

لم يُصَب ستيڤي بأذى، ولم يسقط حتّى، لكنْ كما العادة، سلبه الانفعال القدرة على الكلام بشكل مترابط. لم يفعل أكثر من التأتأة عند النافذة. "صعب جداً، صعب جداً". وضعتْ ويني يدها على كتفه.

"ستيڤي! قفْ، وعدْ إلى مقعدك فوراً، ولا تحاول النزول مرّة أخرى".

"لا. لا. أمشي. يجب أن أمشي".

في محاولته تحديد طبيعة هذه الحاجة إلى المشي تلعثم بكلام مشوّش. لم يكن لديه عجز جسدي يقف في طريق نزوته. يمكن لستيڤي بسهولة مواكبة الحصان العاجز الراقص دون أن يلتقط أنفاسه. لكن شقيقته قطعتْ صمتها بشكل حاسم. "فكر! مَن يسمع مثل هذه الأشياء! اركض خلف العربة!". والدتها كانت خائفة وعاجزة في جوف العربة، وتوسّلتْ: "أوه! لا تتركيه، ويني. سوف يضيع. لا تتركيه".

"بالتأكيد، لا. وماذا بعد؟! السيد ڤيرلوك سوف يأسف لسماع هذا الهراء ستيڤي، يمكنني أن أقول لك ذلك. لن يكون سعيداً على الإطلاق".

فكرة أسف السيد ڤيرلوك وحزنه أثّرت بقوّة كالعادة على ميل ستيڤي للانصياع أساساً، جعلتْه يتخلّى عن كل مقاومة، وتسلّق مرّة أخرى إلى المقعد على المقصورة مع وجه، بدا عليه اليأس. أدار سائق العربة وجهه الضخم والغاضب بشراسة إليه. "لا تُقدم على تجربة هذه اللعبة السخيفة مرّة أخرى، أيها الرجل الشابّ".

بعد أن خاطب نفسه بهمس شديد، مُجهد إلى حدّ الاندثار تقريباً،

قاد العربة وهو يتأمّل بجدّيّة. بالنسبة لعقله ظلّت الحادثة غامضة بعض الشيء. لكن عقله، رغم أنه قد فقد حيويته الأصلية في سنوات الخَدَر والجلوس الطويل في مواجهة تقلُّبات الطقس، لا يفتقر إلى الاستقلالية والتفكير السليم. نبذ بجدّيّة فرضية أن ستيڤي مجرّد شابّ سكّير.

في داخل العربة سادتْ فترة من الصمت حيث تحمّلت السيدتان جنباً إلى جنب الارتجاج والسرعة والجلجلة في أثناء الرحلة، كسر هذا الصمت هياج ستيڤي. رفعتْويني صوتها "لقد فعلتِ ما تريدين، أمّي. سوف تلومين نفسك فقط إذا لم تكوني سعيدة بعد ذلك. ولا أظنّ أنك ستكونين سعيدة. لا أظنّ. ألم تكوني مرتاحة تماماً في المنزل؟! ما الذي سيظنّه الناس بنا - رميتِ نفسك بهذه الطريقة إلى مؤسّسة خيرية؟".

"عزيزتي" صرخت السيدة العجوز بجدّيّة بصوت أعلى من الضجيج "كنتِ أفضل بنت لي. كذلك للسيد ڤيرلوك - هناك ..."

خذلتْها الكلمات في موضوع فضيلة السيد ڤيرلوك، ورفعتْ عينيها الدامعتين إلى سقف العربة. وبعد ذلك أدارتْ رأسها متظاهرة بالنظر من النافذة، كما لو أنها كانت تريد أن تُكوِّن رأياً حول سير العربة. كان سيرها بطيئاً، واقتربتْ من حجارة الرصيف. في الليل، في وقت مبكّر من الليل القذر، ليل جنوب لندن المشؤوم، المفعم بالضجيج، اليائس والمشاكس، باغتها في رحلتها الأخيرة بالعربة. في ضوء المصباح الغازي للواجهة المنخفضة من الدكاكين، توهّج خداها الكبيران بمسحة من لون برتقالي تحت قبّعتها السوداء - البنفسجية.

اصفرّت بشرة والدة السيدة ڤيرلوك بسبب تأثير السّنّ، ومن الاستعداد الطبيعي للتشاؤم وتفاقم بسبب تجارب صعبة وقلقة في الحياة، في

البداية كزوجة وبعدها كأرملة. كانت بشرتها من نوع البشرة التي تتورّد تحت تأثير الخجل، وتأخذ مسحة من اللون البرتقالي. وهذه المرأة متواضعة بالتأكيد، لكنها تقسو في نيران المحنة، في مثل سنّها حيث حمرة الخجل غير متوقّعة، احمرّت خجلاً أمام ابنتها. في عزلة من أربع عجلات، في طريقها إلى سَكَن المؤسّسة الخيرية (منزل في صفّ من المنازل) حيث تضاؤل أبعاده وبساطة تجهيزه، ربّما صُمّم بلطف كمكان للتدرّب على الظروف الأكثر ضيقاً للقبر، كانت مجبرة على إخفاء احمرار وجهها من الندم والخجل عن ابنتها.

ترى بماذا يفكّر الناس؟ هي تعرف جيداً بماذا يفكّرون، الناس الذين تقصدهم ويني - الأصدقاء القدامى لزوجها، والآخرون أيضاً، الذين اهتمّوا بأنها توسّلتْ لمثل هذا النوع من النجاح المجاني. لم تكن تعرف من قبل أنها ممكن أن تكون متسوّلة جيدة بهذا الشكل. لكنها خمّنت جيداً أيّ استنتاج سوف يُستوحَى من توسّلها. بسبب رهافة الحسّ تلك الموجودة جنباً إلى جنب مع الوحشية العدوانية في الطبيعة الذُّكُورية، التحقيقات حول ظروفها لم تُضايقها كثيراً. ردعتْهم بالضغط الواضح على الشفاه، وإظهار بعض الانفعال الذي ينتهي بصمت بليغ. والرجال سوف يصبحون غير مُبالين على نحو مفاجئ تبعاً لطبيعتهم. هنّأت نفسها أكثر من مرّة على أنها لم تتعامل في هذا الأمر مع النساء اللواتي يكنّ بالطبع أكثر قسوة ونهماً بالتفاصيل، كان يمكن أن يتلهّفنَ لمعرفة أيّ نوع من التصرّف الفظّ قد تعرّضتْ له من قِبَل ابنتها وزوجها، وأدّى بها إلى هذه النهاية الحزينة. حدث هذا فقط أمام سكرتير مخمر شهير للبيرة عضو البرلمان ورئيس مجلس إدارة المؤسّسة الخيرية، الذي - في أثناء قيامه بمهمّته - شعر أنه مُلزَم بأن يكون فضولياً بوعي رغم الظروف الحقيقية للسائلة، انفجرت بالبكاء تماماً، وبصوت عالٍ كما تبكي امرأة، وقعت في مأزق. الرجل الرفيع

والمهذّب، بعد أن تأمّلها مع شعور "مرتبك للغاية" أهمل مكانته تحت جُنح من العبارات المهدّئة. يجب ألا تُزعج نفسها. عمل المؤسّسات الخيرية ليس مُخصّصاً قطعاً لـ "الأرامل المحرومات من الأطفال". في الواقع، لا يُجرّدها هذا بأيّ حال من حقوقها. لكن تقدير اللجنة يجب أن يكون تقديراً واعياً. ممكن للمرء أن يفهم جيداً عدم رغبتها في أن تكون عبئاً، إلخ، إلخ. وفي هذا الشأن، ذرفت والدة السيدة ڤيرلوك مزيداً من الدموع بقوّة أكبر، كان هذا من دواعي حيرته الشديدة.

دموع هذه الأنثى الضخمة مع شعر مستعار داكن ومغبرّ وفستان حريري قديم الطراز مزيّن بدانتيل قطني أبيض وسخ، كانت الدموع نتيجة حزن حقيقي. لقد بكتْ لأنها كانت قوية لا تتورّع ومليئة بالحبّ لولديها. كثيراً ما يُضحّى بالفتيات من أجل سعادة الأولاد. في هذه الحالة، هي ضحّت ب-ويني. شوّهت سمعتها من خلال كَتْم الحقيقة. بالطبع، ويني كانت مستقلّة، ولا تحتاج إلى مراعاة رأي الناس الذين لا تراهم ولا يرونها على الإطلاق، في حين أن المسكين ستيڤي لا يملك شيئاً في هذا العالم يستنجد به سوى شجاعة أمّه، وعدم تورّعها.

الإحساس الأوّل بالسّرّيّة الذي لاحق زواج ويني اضمحلّ مع مرور الزمن (لأنْ لا شيء يدوم)، ووالدة السيدة ڤيرلوك - في عزلتها في غرفة النوم الخلفية - تذكّرت ما تعلّمتْه من هذه التجربة حيث يتّضح العالم لامرأة أرملة. لكنها تذكّرته دون مرارة جوفاء لأن خزين تنازلاتها يتساوى تقريباً مع كرامتها. تأمّلتْ بصبر، ووجدت أن كل شيء يتآكل ويبلى في هذا العالم، وأن طريق المعروف يجب أن يكون مُبَسّطاً للمتعاطفين، وأن ابنتها ويني كانت أختاً مخلصة جداً، وزوجة واثقة جداً من نفسها، بكل تأكيد. فيما يتعلّق بإخلاص الأخت ويني، خانها تجلّدها. استثنت هذا الشعور من

مبدأ الانحلال الذي أفسد كل الأشياء الإنسانية وبعض الأشياء الإلهية. لا يمكنها المساعدة في هذا الأمر، وكذلك عدم فعلها لأيّ شيء يُرعبها كثيراً جداً. لكنْ عند النظر في ظروف زواج ابنتها، كانت ترفض بشدّة كل الأوهام المُجامِلة. كانت تتّخذ وجهة نظر لامبالية، معقولة، وأقلّ توتّراً، مفادها: كلّما قلّ العبء على عطف السيد ڤيرلوك، امتدّ تأثيره ربّما لفترة أطول. هذا الرجل الفاضل أحبّ زوجته بالطبع، لكنه بلا شك، فضّل أن يحتفظ بالقليل من علاقاتها التي تنسجم مع الإظهار المناسب لتلك المشاعر. سوف يكون من الأفضل لو كان كل تأثير عاطفته مركّزاً على ستيڤي المسكين. والعجوز الشجاعة عزمتْ على الذهاب بعيداً عن ابنتها وابنها كعمل من أعمال التضحية، وكخطوة سياسية عميقة.

"الفضيلة" لهذه السياسة تكمن في (والدة السيدة ڤيرلوك كانت بارعة في أسلوبها) أن هذه الخطوة سوف تُقوّي الذريعة الأخلاقية لـ ستيڤي. الصبي المسكين - صبي طيّب، ونافع، مع أنه غريب بعض الشيء - لم يكن له تقدير كاف. لقد استولى عليه مع أمّه، استولى على أثاث نُزُل بيلغريڤيا بالطريقة نفسها تقريباً، كما لو كان على أساس انتمائه لها على وجه الخصوص. ماذا سيحدث - سألتْ نفسها - عندما أموت؟ (لأن والدة السيدة ڤيرلوك كانت خيالية إلى حدّ ما) وعندما سألتْ نفسها هذا السؤال، كانت فزعة. كان من المزعج أيضاً التفكير بأنها سوف لن تملك الوسائل لمعرفة ما يحدث للصبي المسكين. لكنْ بالتنازل عنه إلى أخته، وبالتالي الذهاب بعيداً، منحتْه فرصة الاستفادة من مكانة التابع بشكل مباشر. كان هذا إقراراً دقيقاً جداً على شجاعة والدة السيدة ڤيرلوك، وعدم تورّعها. تَركُها المنزل كان في الواقع إجراء، تمنح من خلاله ابنها مكاناً دائماً في الحياة. أناس آخرون قدّموا تضحيات مادّيّة لمثل هذا الغرض، وهي تبعتْ هذه الطريقة. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة. علاوة على

ذلك، ستكون قادرة على رؤية كيف سارت الأمور. بشكل حسن أو سيّئ، كانت تريد أن تتجنّب الشك القاتل على فراش الموت. لكنْ هذا كان صعباً، صعباً، صعباً وقاسياً.

العربة ارتجّت، جلجلتْ، اهتزّتْ. في الواقع، كان اهتزازها غير عاديّ تماماً. بسبب قوّتها غير المتكافئة وحجمها، طمستْ كل شعور للسير إلى الأمام، والتأثير كان كمثل أن تتعرّض للاهتزاز في آلة ثابتة مثل أداة من القرون الوسطى مخصّصة لتنفيذ عقوبة على جريمة ما، أو نوع من الأدوات المبتكرة الحديثة جداً لعلاج كسل الكبد. كان هذا مؤلماً للغاية، وارتفاع صوت والدة السيدة ڤيرلوك بدا مثل تأوّه من الألم.

"أعلم، عزيزتي، سوف تأتين لزيارتي، كلّما سنحتْ لك الفرصة. أليس كذلك؟".

"بالطبع" أجابتْ ويني باختصار، وهي تحدّق بها مباشرة.

واهتزّت العربة أمام دكّان مشحم ومشبع بالبخار، في اشتعال الغاز ورائحة السمك المقلي.

ارتفع نحيب السيدة العجوز مرّة أخرى. "و، عزيزتي، يجب أن أرى هذا الصبي المسكين كل أحد. لن يمانع في قضاء اليوم مع أمّه العجوز ..."

صرختْ ويني ببلادة:

"يُمانع! لا أظنّ. هذا الصبيّ المسكين سوف يفتقدك بشدّة. كنتُ أتمنّى لو أنك فكّرتي قليلاً في هذا، أمّي".

لم تفكّر بذلك! المرأة الشجاعة ابتلعتْ شيئاً لعوباً وغير مريح يشبه كرة البليارد، حاول القفز من حلقها. جلستْ ويني صامتة، عابسة لبعض

الوقت في الجزء الأمامي من المقصورة، ثمّ قطعت صمتها، وتكلّمتْ بنبرة غير عادية معها:

"أتوقّع أني سأنشغل معه في البداية، سوف يكون عصبياً -"

"مهما فعلتِ، لا تدعيه يُقلق زوجَك، عزيزتي".

وهكذا تحدّثتا بطريقة معتادة عن احتمالات الوضع الجديد. والعربة تهتزّ. عبّرت والدة السيدة ڤيرلوك عن بعض شكوكها. هل يمكن الوثوق بستيڤي ليقطع هذه المسافة كلها وحده؟ زعمتْويني أن "شرود ذهنه" أصبح أقلّ بكثير الآن، واتّفقتا على ذلك. لا يمكن إنكار ذلك. أقلّ بكثير - لكنْ ليس كافياً. صرختْ كل واحدة منهما على الأخرى في الضجيج مع مرح نسبي. لكنْ فجأة، اندفع قلق الأمومة من جديد. يجب على ستيڤي أن يستقلّ حافلتين ويمشي مسافة قصيرة بينهما لزيارتها. وهذا متعذّر بالنسبة له! المرأة العجوز استسلمتْ للحزن والذعر.

ويني كانت تحدّق إلى الأمام.

"لا تُزعجي نفسَكِ بهذه الطريقة، أمّي. يجب أن يزوركِ، بالطبع".

"لا، عزيزتي، لن أحاول ذلك".

مسحتْ عينيها الدامعتين.

"لكنْكِ لا تملكين الوقت لتأتي معه، وإذا نسي نفسه، وأضاع طريقه، وأحدهم تكلّم معه بحدّة قد ينسى اسمه وعنوانه، ويظل ضائعاً لأيّام وأيّام ..."

تَخيّل إصلاحية الأحداث لستيڤي المسكين - إلا إذا كان ذلك في أثناء

التحقيقات - عذّب قلبها. لأنها كانت امرأة أبيّة. نظرة ويني زادتْ حدّتها، قلقها، وتأمُّلها. "لا يمكنني أخْذُه لك بنفسي كل أسبوع" بكتْ. "لكنْ لا تقلقي، أمّي. سوف أتأكّد من أنه لن يضيع لوقت طويل".

شعروا بارتطام غريب، مشهد لأعمدة من الطابوق بقيتْ أمام نوافذ العربة المهتزّة. توقُّفٌ مفاجئ مع هزّة فظيعة وجلجلة صاخبة، أذهل السيدتين. ماذا حدث؟ تجلسان بلا حراك ومذعورتين في صمت شديد، حتّى انفتح الباب، وسمعتا صوت مرهقاً مضطرباً:

"هذا هو المكان!"

صفّ من البيوت الجملونية الصغيرة، كل بيت مع نافذة لونها أصفر باهت في الطابق الأرضي، تحيط مساحة مظلمة مفتوحة من أرض عشبية مزروعة بالشجيرات، ومفصولة بحاجز عن خليط من الأضواء والظلال في شارع واسع، يضجّ بالهمهمة الرتيبة للمارّة. أمام باب أحد هذه البيوت الصغيرة - بيت في الطابق الأرضي، وليس ثمّة ضوء ينبعث من نافذته الصغيرة - توقّفت العربة. والدة السيدة ڤيرلوك خرجتْ أولاً، بشكل عكسي، ومفتاح في يدها. بقيتْ ويني في درب من حجر لوحي لتدفع ثمن الأجرة للسائق. ستيڤي، بعد أن ساعد في حمل الكثير من الحُزم الصغيرة إلى الداخل، خرج ووقف تحت ضوء مصباح الغاز التابع للمؤسّسة الخيرية. نظر السائق إلى القطع الفضّيّة، بدتْ صغيرة جداً في راحة يده الكبيرة القذرة، ترمز إلى حصيلة تافهة، مكافأة على بسالة وتعبٌ شديد، لرجل يومه قصير على هذه الأرض الملعونة.

دُفعَت له النقود باحترام - أربعة قطع من فئة واحد شلن - تأمُّلها في هدوء تامّ، كما لو أن عليها وصفاً مدهشاً لمشكلة حزينة. الانتقال البطيء

لهذه الثروة إلى جيبه الداخلي تطلّب الكثير من التلمُّس الشاق في أعماق ملابسه البالية. كان بديناً، وغير مرن. ستيڤي النحيل، كتفاه مرفوعان قليلاً، ويداه مغرورتان بعمق في الجيوب الداخلية لمعطفه الدافئ، كان يقف وهو عابس الوجه على حافة الدرب.

توقّف سائق العربة عن حركاته المتعمّدة، بدا أنه مأخوذ بتذكّر شيء مبهم.

"أوه! أنت، أيها الشابّ" همس قائلاً، "سوف تعرفه مرّة أخرى، أليس كذلك؟"

كان ستيڤي يحدّق بالحصان الذي بدا الجزء الخلفي منه يرتفع بشكل مفرط عن بقية جسده. كان ذيله الصلب القصير يبدو ملائماً لنكتة قاسية، وعلى الطرف الآخر رقبته الرفيعة والمنبسطة، مثل لوح مغطّى بجلد حصان عجوز، خفّض رأسه إلى الأرض تحت وطأة وزن رأسه العظمي الضخم. الأذنان متدلّيتان بزوايا مختلفة على نحو مهمل، بدا أن بؤس الشكل المرعب لذلك الساكن الصامت على الأرض يتصاعد مباشرة من ضلوعه وعموده الفقري ليتبخّر في سكون الهواء الرطب والحارّ.

ضرب سائق العربة برفق على صدر ستيڤي بذراعه الحديدية المعقوفة البارزة من كُمّ ممزّق، مشحّم. "انظر، أيها الشابّ المهذّب، هل تريد الجلوس هنا خلف هذه المؤخّرة حتّى الساعة الثانية صباحاً، ربّما؟"

نظر ستيڤي ببلاهة في العينين الصغيرتين المتوحّشتين، بجفنين حافّتاهما حمراوان. "هو ليس أعرج" تابع الآخر بالهمس بحيوية "ليس لديه قروح أو كسور في جسده. ها هو. كيف تجد ذلك؟! - "

أضفى صوته الخافت المرهق طابعاً من السّرّيّة الشديدة على كلامه.

تغيّرت نظرة ستيڤي البلهاء تدريجياً إلى نظرة خوف. "أرأيتَ؟! حتّى الساعة الثالثة والرابعة صباحاً. برد وجوع. تبحث عن أجرة. حفلة سُكْر".

وجنتاه القرمزيّتان المرحتان محفوفتان بشعر أبيض، ومثل سيلينوس الذي ذكره فرجيل، الذي بعد أن لطّخ وجهه بعصير التوت تحدّث عن الآلهة الأولمبية إلى رعاة صقلية الأبرياء، تحدّث إلى ستيڤي عن شؤون وقضايا عائلية لرجال، معاناتهم عظيمة وخالدة وثابتة أبداً.

"أنا سائق عربة، أقود عربتي ليلاً. أنا" همس مع شيء من سخط متّسم بالتبجّح. "يجب أن أمسك بقوّة بكل ما يعطونه لي حتّى نهاية الرحلة. لديّ زوجتي وأولادي الأربعة في المنزل".

الطبيعة الفظيعة لهذا التصريح الوالديّ بدا كما لو أنه يصفع صمت العالم. ساد الصمت حتّى إن خاصرتي الحصان العجوز، فرس سِفْر الرؤيا، انبعث منها الدخان إلى أعلى في ضوء المصباح الغازي للمؤسّسة الخيرية.

نخر سائق العربة، وتابع حديثه بهمس غير واضح: "هذا العالم ليس سهلاً" كان وجه ستيڤي يرتعش من حين إلى آخر، وأخيراً انفجرت مشاعره في رغيها الإيجازي المعتاد.

"سيّئ! سيّئ!"

ظلّت نظرته ثابتة على ضلوع الحصان، نظرة خجولة وحزينة، كما لو أنه كان يخاف أن يرى سوء العالم من حوله. ونحوله، شفتاه الورديتان وبشرته الشاحبة الناصعة منحتْه هيئة صبي ناعم، على الرغم من نموّ شعر رقيق أشقر على وجنتيه. تجهّم بطريقة مخيفة مثل طفل. سائق العربة القصير والعريض، حدّق به بعينيه الصغيرتين الشرستين اللتين كانتا تبدوان كما لو أنهما تتألمان بشدّة في سائل شفّاف وتالف. "شاقّ بالنسبة لحصان، وأشقّ حدّ اللعنة لرجل مسكين مثلي" تنفّس بشكل مسموع.

"مسكين! مسكين!" تلعثم ستيڤي، وهو يدفع يديه بعمق أكبر في جيوبه مع تعاطف متشنّج. لا يستطيع أن يقول أيّ شيء لأن الإحساس بكل الألم وكل البؤس، الرغبة في جعل الحصان سعيداً وسائق العربة سعيداً بلغت حدّ توق غريب لأخذهم إلى الفراش معه. وهذا، كما يعرف، مستحيل لأن ستيڤي ليس مجنوناً. كانت هذه رغبة رمزية، إذا جاز التعبير، وفي الوقت نفسه، كانت واضحة جداً لأنها ناتجة عن التجربة، مصدر الحكمة. لذا عندما كان طفلاً ينكمش خائفاً في زاوية مظلمة، تعيساً، متألماً، وحزيناً مع سوداوية، حزناً سوداوياً للروح، أخته ويني اعتادتْ أن تسرع إليه، وتحمله إلى الفراش معها، كما لو أنها تحمله إلى سماء من سلام مُعزٍ. رغم أن ستيڤي معرّض إلى نسيان الكثير من الحقائق، مثل اسمه وعنوانه على سبيل المثال، لديه ذاكرة مخلصة للأحاسيس. أن تؤخَذ إلى سرير من الشفقة كان علاجاً مميّزاً مع عيب واحد فقط كونه صعب التطبيق على نطاق واسع. وعندما نظر إلى سائق العربة، أدرك ستيڤي ذلك بوضوح لأنه كان عاقلاً.

واصل سائق العربة استعداداته بروية كما لو أن ستيڤي لم يكن موجوداً. كان يستعدّ للصعود إلى مقعده في العربة، لكنْ في اللحظة الأخيرة، ولسبب أو لآخر، ربمّا لمجرّد شعور بالاشمئزاز من قيادة العربة، امتنع عن ذلك. لفت انتباهه بدلاً من ذلك شريكه الساكن، وانحنى ليمسك اللجام، رفع الرأس الكبير المتعب إلى ارتفاع كتفيه بمحاولة واحدة من ذراعه اليمنى، مثل القيام بحركة صعبة.

"تعال" همس خفية.

قاد العربة بعيداً وهو يعرج. كان هناك شيء من القسوة في هذا الرحيل، الحصى المسحوقة صاحت تحت التدوير البطيء للعجلات،

تحرّك فخذا الحصان الهزيلان مع تأنّ تزهّديّ بعيداً عن الضوء إلى ظلام مساحة مفتوحة محاطة ببعض السطوح المدبّبة والنوافذ المضيئة بإضاءة خافتة لمنازل صغيرة لفقراء وعجزة. عويل الحصى سافر بتأنّ إلى كل مكان من الرحلة. بين مصابيح بوّابة المؤسّسة الخيرية الموكب الجنائزي البطيء ظهر من جديد، تحت الإضاءة لبعض الوقت، الرجل الغليظ، القصير يعرج بنشاط، ورأس الحصان يُبقيه عالياً في قبضته، الحيوان الضعيف يمشي بوقار قاس ويائس، المقصورة المظلمة، المنخفضة على عجلات تتدحرج بشكل هزلي مع شيء من التبختر. انعطفت العربة إلى اليسار. كان هناك حانة في نهاية الشارع، على بعد خمسين ياردة من البوّابة.

تُرك ستيڤي وحده إلى جانب عمود الإنارة الخاصّ بالمؤسسة الخيرية، دُسّت يداه بعمق في جيبيه، يحدّق بغضب مع وجه عابس أبله. في قعر جيوبه، كان يضمّ قبضتيه الضعيفتين العاجزتين بإحكام وغضب. في مواجهة كل شيء يُحرِّك بشكل مباشر أو غير مباشر مشاعر خوفه المَرَضي من الألم، وصل ستيڤي إلى منعطف خطر. الغضب النبيل ضخّم صدره الضعيف حدّ الانفجار، وتسبّب في انحراف عينيه الصريحتين. ستيڤي كان واعياً لأقصى حدّ في معرفة ضعفه، لكنه لم يكن واعياً إلى الحدّ الذي يمكّنه من كبح عواطفه. لطف إحسانه الكوني له وجهان مرتبطان ومتصلان بقوّة مثل وجهَي عملة واحدة. معاناة الشفقة المفرطة كان يتبعها ألم لبريء، وغضب لا يرحم. هذان الوجهان يظهران إلى العيان بنفس العلامات أعلاه من انفعال جسديّ عقيم. هدّأت أخته ويني من انفعاله دون سبر أغوار شخصيّته المزدوجة. السيدة ڤيرلوك لا تضيّع أيّ شيء من هذه الحياة العابرة في البحث عن معلومات جوهرية. هذا نوع من التدبير على ما يبدو، وبعض من مزايا الحكمة. من الواضح أنه قد يكون مناسباً لشخص لا يعرف الكثير. ومثل هذا الرأي يتّفق بشكل جيد جداً مع الكسل البنيوي.

في ذلك المساء حيث يمكن القول إن والدة السيدة ڤيرلوك رحلتْ إلى الأبد عن أولادها، رحلتْ عن هذه الحياة أيضاً، ويني ڤيرلوك لم تبحث في علم نفس أخيها. الصبي المسكين كان منفعلاً بالتأكيد. ومرّة أخرى، وعدت المرأة العجوز على عتبة المنزل بأنها سوف تعرف كيف تتّقي خطر ضياع ستيڤي لفترة طويلة جداً في رحلته لبرّ الوالدين. أمسكتْ ذراع أخيها، وسارتْ معه بعيداً. ستيڤي لم يهمهم حتّى مع نفسه، لكنْ مع شعور خاصّ من الإخلاص الأخوي نشأ في طفولتها المبكّرة، شعرتْ أن الصبي كان في الواقع منفعلاً جداً. أمسكتْ ذراعه بإحكام، بدا كما لو أنها تتّكئ عليها، وفكّرتْ ببعض كلمات مناسبة لهذا الحَدَث.

"الآن، ستيڤي، يجب أن تعتني بي جيداً عند تقاطعات الطرق، وأن تدخل الحافلة أولاً مثل أخ صالح".

هذه المناشدة للحماية الرجولية استقبلها ستيڤي بطاعته المعتادة. أغرتْه. رفع رأسه، ودفع صدره إلى الأمام.

"لا تقلقي، ويني. لا يجب أن تقلقي! إلى الحافلة، لا عليكِ" أجاب بكلام غير واضح مع تلعثم شديد فيه خجل الطفل وحزم الرجل. تقدّم بلا خوف وذراع سيدة حول ذراعه، لكن شفته السفلى تدلّت. لكنْ على رصيف الشارع القذر الواسع الذي يفتقر إلى كل مرافق الحياة وقف مكشوفاً بحماقة في الوفرة المجنونة للمصابيح الغازية، تشابههما مع بعضهما كان واضحاً جداً كأنما أذهل المارّة العاديين.

أمام أبواب الحانة عند الزاوية حيث وصلتْ غزارة المصابيح الغازية إلى ذروة شرّ حقيقي، تقف عربة بأربع عجلات إلى جانب الرصيف، ولم يكن هناك أيّ أحد على المقصورة، بدت مهملة في الشارع بسبب خراب،

تعذّر إصلاحه. تعرّفت السيدة ڤيرلوك على العربة. كان مظهرها مؤسفاً للغاية، مع نوع من كمال بؤس غريب وغموض تفاصيل رهيبة، كما لو أنها كانت عربة الموت نفسها بحيث إن السيدة ڤيرلوك، مع تلك الشفقة الحاضرة لامرأة تجاه حصان (عندما لا تكون جالسة خلفه) صرختْ بكلمات غير واضحة:

"بهيمة مسكينة!"

تخلّف ستيڤي عن شقيقته بغتة ليلحق بها هزّة ملحوظة. "مسكين! مسكين!" هتف بتقدير. "سائق العربة مسكين أيضاً. لقد حدّثني عن نفسه".

سيطر عليه تأمُّل الفَرَس الضعيف والوحيد. تحرّك، لكنْ بتعنّت، أراد أن يبقى هناك، محاولاً التعبير عن رأي انكشف أخيراً لعواطفه حول العلاقة بين بؤس البشر والخيول. لكنْ هذا صعب جداً. "البهيمة مسكينة! الناس مساكين!" كان هذا كل ما استطاع أن يردّده. لم تبدُ العبارة فعّالة بشكل كافٍ، وتوقّف فجأة مع همهمة غاضبة: "عار!" ستيڤي لم يكن خبيراً بالعبارات، وربّما لهذا السبب بالذات تفتقر أفكاره الوضوح والدقّة. لكنه شعر بكمال عظيم وبعض العمق. ضمّت هذه الكلمة الصغيرة كل مشاعره من الغضب والرعب تجاه نوع واحد من البؤس الذي يعتاش على معاناة الآخرين - مثلما يضرب سائق العربة المسكين الحصان المسكين باسم أطفاله الفقراء في المنزل، إذا جاز التعبير. وستيڤي كان يعرف كيف يكون حال مَن يتعرّض للضرب. كان يعرف من التجربة. كان عالماً سيّئاً. سيّئاً! سيّئاً!

السيدة ڤيرلوك أخته الوحيدة، الراعية والحامية، لا يمكنها أن تدّعي

مثل هذا التعمّق في البصيرة. علاوة على ذلك، هي لم تجرّب سِحْر بلاغة سائق العربة. لم يكن لديها علم بحقيقة كلمة "عار". وقالتْ بهدوء:

"تعال، بقربي، ستيڤي. لا يمكنك أن تفعل شيئاً حيال ذلك".

مشى ستيڤي المطيع، لكنْ الآن مشى دون شعور بالفخر، متثاقلاً، ويتمتم بكلمات غير مكتملة، وحتّى الكلمات الكاملة بدتْ كما لو أنها لم تتشكّل من نصفين، لا ينتميان إلى بعضهما. كأنما كان يحاول أن يجعل كل الكلمات التي يمكن أن يتذكّرها تنسجم مع مشاعره، من أجل الحصول على ما يشبه فكرة مطابقة. و، كما في واقع الأمر، حصل عليها أخيراً، وعندها تخلّف عن ويني ليقولها فوراً.

"عالم سيّئ للمساكين".

حالما عبّر عن الفكرة، أصبح مدركاً من أنها كانت مألوفة له بالفعل في كل عواقبها. عزّزت هذه الحالة من قناعته بقوّة، لكنها زادت من سخطه أيضاً. شعر، أن شخصاً ما يجب أن يُعاقَب على ذلك - يُعاقَب بقسوة شديدة. لم يكن إنساناً كثير الشك، لكنه إنسان أخلاقي، كان بطريقة ما تحت رحمة عواطفه الصالحة.

"وحشية!" أضاف بإيجاز.

كان واضحاً للسيدة ڤيرلوك أنه كان منفعلاً إلى حدّ كبير.

"لا أحد يمكنه عمل شيء حيال ذلك" قالت. "هيا، تعال إلى هنا. هل هذه هي طريقتك لتعتني بي؟!"

عدّل ستيڤي سرعة خطوته بكل طاعة. كان يفخر بنفسه كونه أخاً صالحاً. أخلاقياته المثالية جداً تقتضي ذلك منه. لكنه كان منزعجاً من المعلومات

التي نقلتْها أخته ويني، التي كانت طيّبة. لا أحد يمكنه عمل شيء حيال ذلك! أسرع بحزن شديد، لكنه ابتهج بعد ذلك بسرعة. مثل باقي البشر الحائرين في غموض الكون، كان يواسي نفسه بالاتّكال على السلطات المنظّمة للأرض.

"الشرطة" قال بثقة.

"الشرطة ليست من أجل هذا" قالت السيدة ڤيرلوك بسرعة، بينما كانت تسير متعجّلة.

استطال وجه ستيڤي كثيراً. كان يفكّر. كلّما فكّر بعمق أكبر، تدلّى فكّه الأسفل أكثر. ومع مظهر من الخواء الميؤوس منه تخلّى عن مشروعه الفكري.

"ليست من أجل هذا؟" تمتم، مستسلماً، لكنْ مندهشاً. "ليست من أجل هذا؟" لقد صاغ لنفسه تصوُّراً مثالياً عن شرطة العاصمة على أنها نوع من المؤسّسات الخيرية لقمع الشرّ. مفهوم الخير على وجه الخصوص كان مرتبطاً بشكل وثيق جداً مع مشاعره حول سلطة الرجال بالزّيّ الأزرق. كان يحبّ رجال الشرطة كلهم بوفاء وإخلاص ساذج. وكان يتألم. كان منزعجاً أيضاً بسبب شبهة النفاق بين أفراد السلطة لأن ستيڤي كان واضحاً ومكشوفاً مثل ضوء النهار. ماذا يقصدون بالادّعاء، إذنْ؟ على عكس أخته التي تضع ثقتها في القِيَم الظاهرية، كان يرغب في الوصول إلى عمق القضية. ومضى في استفساره باعتراض غاضب.

"من أجل ماذا، إذنْ، وين؟" من أجل ماذا؟ أخبريني".

كرهتْ ويني الجَدَل. لكنها كانت خائفة من نوبة كآبة شديدة نتيجة افتقاد ستيڤي لأمّه كثيراً في البداية، لم ترفض النقاش تماماً. بريئة من كل

سذاجة، أجابت بشكل ربّما كان غير طبيعي بالنسبة لزوجة السيد ڤيرلوك، مفوّض اللجنة الشيوعية المركزية، الصديق الشخصي لبعض الفوضويين والمؤيّد للثورة الاجتماعية.

"ألا تعرف ما عمل الشرطة، ستيڤي؟ هم هناك حتّى يمنعوا هؤلاء الناس الذين لا يملكون شيئاً من أخذ أيّ شيء من الناس الذين يملكونه".

تجنّبتْ استخدام الفعل "يسرق" لأنه يزعج أخيها دائماً لأن ستيڤي كان صادقاً بشكل حسّاس. بعض مبادئ بسيطة غُرست فيه بخوف كبير (بسبب "غرابته") حتّى إن مجرّد ذِكْر أسماء بعض الآثام تملؤه بالرعب. كان دائماً ما يتأثّر بالحديث بسهولة. هو متأثّر ومندهش الآن، وذكاؤه كان يقظاً جداً.

"ماذا؟" سأل فوراً بقلق. "حتّى لو كانوا جائعين؟ عليهم أن لا يفعلوا ذلك؟" توقّف الاثنان عن المشي لبعض الوقت.

"ليس لو كانوا دائماً هكذا" قالت السيدة ڤيرلوك مع رباطة جأش شخص، لا تُقلقه مشكلة توزيع الثروات، ويبحث في الشارع عن حافلة بلون مناسب. "بالتأكيد، لا. لكنْ ما الفائدة من الحديث عن هذا كله؟ لم تكن جائعاً من قبل على الإطلاق".

ألقتْ نظرة سريعة على الصبي كشابّ بجانبها. رأتْه لطيفاً، جذّاباً، حنوناً، ولكنه غريب الأطوار قليلاً، قليلاً جداً. ولا يمكنها أن تراه خلاف ذلك لأنه ارتبط مع ما كان ملح العاطفة في حياتها التي لا طعم لها - عاطفة الغضب، الشجاعة، الشفقة، وحتّى التضحية بالنفس. لكنها لم تقلْ: "وأنت من غير الممكن أن تجوع طوال بقائي على قيد الحياة"، يمكنها أن تفعل ذلك، منذ أن اتّخذت خطوات فعلية لهذه الغاية. السيد ڤيرلوك

كان زوجاً صالحاً. وكانت فكرتها الصريحة: أن لا أحد يمكنه المساعدة في حبّ الصبي. صرختْ فجأة:

"بسرعة، ستيڤي. أوقفْ تلك الحافلة الخضراء".

وستيڤي، كان مضطرباً وجاداً، وهو يُمسك ذراع شقيقتهويني، لوّح بيده الأخرى عالياً فوق رأسه عند وصول الحافلة، بنجاح تامّ.

بعد ساعة من ذلك، رفع السيد ڤيرلوك عينيه من الصحيفة التي كان يقرؤها، أو ينظر لها على أيّ حال، خلف المائدة، وبعد أن توقّفت جلبة جرس الباب، لمح السيدة ڤيرلوك، زوجته، دخلتْ، واجتازت المتجر في طريقها إلى الطابق العلوي، يتبعها ستيڤي شقيقها. رؤية زوجته كان مريحاً للسيد ڤيرلوك. هذه طبيعته. مظهر شقيقها ظلّ غير ملحوظ بشكل حسيّ بالنسبة له، بسبب تصوّرات كئيبة نزلت مؤخّراً مثل ستار بين السيد ڤيرلوك ومظاهر عالم الحسّيّة. راقب زوجته بثبات، دون أن ينطق بكلمة واحدة، كما لو أنها كانت شبحاً. صوته في المنزل كان أجشّاً ورائقاً، لكنْ الآن لا يُسمَع صوته على الإطلاق. لم يُسمَع صوته عند العشاء حيث يُدعى من قِبَل زوجته بطريقة مختصرة معتادة: "أدولف". يجلس لـ يلتهم طعامه دون قناعة، وهو يرتدي قبّعته المدفوعة إلى الخلف على رأسه. لم يكن هذا تمسّكاً بالحياة خارج المنزل، لكن التردّد على المقاهي الأجنبية الذي كان مسؤولاً عن هذه العادة، وظّف ميزة عدم الاستقرار غير الرسمي لولاء السيد ڤيرلوك الراسخ إلى حياته الأسرية. نهض مرّتين عند صلصلة الجرس المتصدّع دون أن يقول كلمة، اختفى في المتجر، وعاد بصمت. خلال هذه الغيابات، أصبحت السيدة ڤيرلوك مدركة إلى حدّ كبير للكرسي الخالي على يمينها، اشتاقتْ لوالدتها كثيراً، كانت تحدّق أمامها بحدّة، بينما ستيڤي للسبب ذاته ظلّ يحرّك ويعدّل قدميه، كما لو أن الأرضية تحت

المائدة كانت ساخنة بشكل مزعج. عندما عاد السيد ڤيرلوك ليجلس في مكانه، كأنه تجسيد حقيقي للصمت، تغيّرت طبيعة نظرة السيدة ڤيرلوك بشكل بارع، وكفّ ستيڤي عن تحريك قَدَميه بعصبية، بسبب تقديره الكبير والمهيب لزوج أخته. وجّه له نظرات شفقة، تتّسم بالتقدير. السيد ڤيرلوك كان حزيناً. أختهويني طبعتْ في ذهنه (في الحافلة) أن السيد ڤيرلوك سوف يكون في المنزل في حالة حزن، ويجب ألا يقلق من ذلك. غضب والده، حدّة طباع السادة النزلاء، وميل السيد ڤيرلوك للكآبة المفرطة، كانت الأسباب الرئيسة لتحفّظ ستيڤي. من بين المشاعر، التي يمكن إيقاظها بسهولة، لكنْ ليس من السهل فَهْمها دائماً، كان الأخير له أعظم تأثير أخلاقي عليه - لأن السيد ڤيرلوك كان رجلاً "صالحاً". أمّه وأخته رسّختا هذه الحقيقة الأخلاقية على أساس متين. رسّختا، وشيّدتا، وأحاطتا هذه الحقيقية بهالة من دون علم السيد ڤيرلوك، لأسباب لا علاقة لها بالقِيَم الأخلاقية المجرّدة. والسيد ڤيرلوك لم يكن مُدركاً لهذا. لكنْ من العدالة الواضحة تجاهه القول إنه لم يكن لديه أيّ فكرة عن مظهره الصالح في عينَي ستيڤي. إنما هذا ما حصل. حتّى إنه الرجل الوحيد القدير في فَهْم ستيڤي لأن السادة المستأجرين نزلاء عابرون جداً وبعيدون جداً لمعرفة أيّ شيء مميّز بخصوصهم، لكنْ ربّما جزماتهم، وفيما يتعلّق بالإجراءات الصارمة لوالده، عزلة أمّه، وتملّص أخته من إعداد نظرية الصلاح أمام الضحية. كان يمكن أن تكون قاسيةً جداً. ومن المحتمل أيضاً أن ستيڤي لم يصدّقهما. بقدر ما كان السيد ڤيرلوك مهموماً، لا شيء يمكنه أن يقف في طريق تصديق ستيڤي. من الواضح أن السيد ڤيرلوك كان "صالحاً" بشكل غامض. وحزن رجل صالح، حزن مهيب.

وجّه ستيڤي نظرات من الشفقة التبجيلية إلى نسيبه. السيد ڤيرلوك كان حزيناً. شقيق ويني لم يشعر بهذا التقارب الوثيق مع غموض هذا

الرجل الصالح من قبل. كان حزناً غير مفهوم بالنسبة له. وستيڤي نفسه كان حزيناً. كان حزيناً جداً. من نفس نوع الحزن. ولفت انتباهه إلى هذه الحالة المزعجة، حرّك ستيڤي قَدَمَيه. مشاعره كانت تظهر كالعادة على هيئة اضطراب في أطرافه.

"أبقِ قَدَمَيك ساكنتين، عزيزي" قالت السيدة ڤيرلوك بتسلّط وحنان الأمومة، وبعدها تحوّلت نحو زوجها بنبرة لا مبالاة، أداء بارع من المهارة الغريزية: "هل ستخرج الليلة؟" سألتْه.

بدا التلميح البسيط بغيضاً للسيد ڤيرلوك. هزّ رأسه بمزاجية، وجلس صامتاً مع عينين حزينتين، ينظر إلى قطعة من الجبن في صحنه لدقيقة كاملة. بعد انتهاء ذلك الوقت، نهض وخرج - خرج في جلبة جرس باب المتجر. تصرّف بكآبة، ليس من رغبة في جعل نفسه حزيناً، لكنْ بسبب قلق لا يمكنه قهره. ليس لديه رغبة في الخروج. لا يستطيع أن يجد ما يريده في أيّ مكان في لندن. منقاد بسلسلة من الأفكار الكئيبة على طول الشوارع المظلمة، بين الشوارع المضيئة، دخل وخرج من بارين قذرين، يومضان، كما لو كان ذلك محاولة مخفقة لإضاعة الوقت، وأخيراً عاد إلى منزله المهدّد بالخطر حيث جلس مرهقاً خلف المنضدة، وازدحموا حوله بسرعة مثل مجموعة من الكلاب السوداء الجائعة. بعد إغلاق باب المنزل وإطفاء مصابيح الغاز، أخذهم إلى الطابق العلوي معه - مرافقة مروّعة لرجل يذهب إلى الفراش. زوجته سبقتْه منذ بعض الوقت، تحدّد شكل جسدها الفاره تحت اللحاف بشكل غير واضح، رأسها على الوسادة، ويد تحت خدّها، أوحتْ لشرود ذهنه بفكرة نعاس مبكّر، يقاوم رباطة جأش روح رصينة. عيناها الكبيرتان المفتوحتان على سعتهما تحدّقان بإنعام، عاجزتان وكئيبتان مقابل البياض الثلجي للأغطية. ولم تتحرّك زوجته.

روحها رصينة. شعرتْ بعمق بأن من غير المستحسن البحث في بواطن الأمور. صنعتْ قوّتها وحكمتها من هذه البديهة. لكن صمت السيد ڤيرلوك أرهقها لعدّة أيّام. كان كما في واقع الأمر مثيراً لأعصابها. مضطجعة وساكنة، قالتْ بهدوء:

"ستُصاب بالبرد، وأنت تمشي بهذه الجوارب".

هذا الكلام المناسب لهمّ الزوجة وحذر المرأة، باغت السيد ڤيرلوك. ترك جزمته في الطابق الأسفل، لكنه نسي أن يرتدي خُفّه، وتوجّه إلى غرفة النوم بخطوات هادئة مثل دبّ في قفص. توقّف عند سماعه صوت زوجته، ونظر لها طويلاً نظرة خالية من التعبير لسائر في نومه حتّى حرّكت السيدة ڤيرلوك أطرافها قليلاً تحت أغطية السرير. لكنها لم تُحرّك رأسها الأسود الغارق في الوسادة البيضاء، يد واحدة تحت خدّها، وعينان الكبيرتان القاتمتان، لا ترمشان.

ومع نظرة زوجها الخالية من التعبير، وتذكّر غرفة والدتها الفارغة على بسطة الدرج، شعرتْ بألم شديد من الوحدة. لم تفارق والدتها من قبل. كانتا تقفان إلى جانب بعضهما. شعرتْ، وقالتْ لنفسها إن الأمّ قد رحلت الآن ... رحلت إلى الأبد. السيدة ڤيرلوك لم تتوهّم ذلك. بقي ستيڤي معها على أيّ حال. وقالت:

"أمّي فعلتْ ما أرادت القيام به. ليس هناك معنى يمكنني أن أدركه فيما فعلتْ. أنا متأكّدة من أنها لم تفكّر في أنك لم تعد تتحمّلها. إنه الإثم بعينه أن تتركنا بهذه الطريقة".

السيد ڤيرلوك لم يكن شخصاً واسع الاطّلاع، ما يعرفه من العبارات التلميحية كان محدوداً، لكنْ كان هناك شيء غريب في هذه الملابسات

جعلتْه يفكّر بالجرذان التي تركتْ سفينة منكوبة. كان على وشك أن يقول هذا. كان لديه شك وسخط متزايدان. هل يمكن أن يكون لدى تلك المرأة العجوز حاسّة شمّ ممتازة؟ لكن عدم عقلانية مثل هذه الشكوك كان واضحاً، السيد ڤيرلوك أمسك لسانه. ليس تماماً على أيّ حال، لأنه همهم بصعوبة:

"ربمّا كان هذا أفضل".

بدأ في خلع ملابسه. ظلّت السيدة ڤيرلوك ساكنة، ساكنة جداً، وعيناها ثابتتان في نظرة حالمة، هادئة. وبدا قلبها قد توقّف لأجزاء من الثانية أيضاً. تلك الليلة "لم تكن نفسها تماماً" كما يُقال، وعانتْ فيها من بعض الضغوط بحيث إن جملة بسيطة قد تحمل العديد من المعاني المختلفة - وأغلبها مزعج. كيف يمكن أن يكون هذا أفضل؟! ولماذا؟! لكنها لم تسمح لنفسها الوقوع في فراغ التكهّنات العقيمة. كانت متأكّدة من قناعتها في أن من غير المستحسن البحث في بواطن الأمور. عملية وماهرة في أسلوبها، دفعتْ موضوع ستيڤي إلى الواجهة دون أن تضيع الوقت لأن صلابة إرادتها ذا طبيعة سديدة وقوّة غريزية.

"لا أعرف ماذا يجب أن أفعل لرفع معنويات الصبي في الأيّام القليلة القادمة. سوف يُقلق نفسه من الصباح حتّى المساء قبل أن يعتاد على غياب أمّه. هو صبيّ طيّب. لا يمكنني الاستغناء عنه".

استمرّ السيد ڤيرلوك في تعرية نفسه من ملابسه مع تركيز داخلي غير ملحوظ لرجل يتعرّى في عزلة صحراء كبيرة ويائسة. بهذا الشكل الرديء ظهرت هذه الأرض العادلة، إرثنا المشترك، إلى التصوّر العقلي للسيد ڤيرلوك. ذلك كله كان في هدوء تامّ، فقط تلك التكّات المنفصلة لساعة

الحائط على دثار بسطة الدرج تسلّلتْ إلى الغرفة كما لو أنها تبحث عن صُحبة.

دخل السيد ڤيرلوك فراشه، واستلقى على جانبه المعتاد من السرير، ظلّ مستلقياً وصامتاً خلف ظهر السيدة ڤيرلوك. استقرّت يداه الغليظتان بإهمال على اللحاف مثل أسلحة ملقاة، مثل معدّات متروكة. في تلك اللحظة كان على قيد شعرة من قول كل شيء لزوجته. بدت اللحظة مواتية. نظر جانباً، ورأى كتفيها الواسعين ملفوفين بالبياض، الجزء الخلفي من رأسها، وشعرها الذي ضفرتْه ليلاً، في ثلاث ضفائر مربوطات بأشرطة سوداء في نهاياتها. وهو كان يتماسك. أحبّ السيد ڤيرلوك زوجته كما ينبغي أن تُحَبّ الزوجة، أو بمعنى آخر بشكل زوجي مع مراعاة المرء للقيمة الثمينة لما في حوزته. هذا الرأس تمّ ترتيبه للّيل، تلك الكتفان الواسعتان، تمتلكان مظهر قدسية مألوفة، قدسية السلام المنزلي. لم تتحرّك، ضخمة ولا شكل محدّداً لقوامها مثل تمثال راقد في العراء، تخيّل عينيها الواسعتين تنظران في الغرفة الفارغة. كانت غامضة، مع غرابة كائن مفعم بالحياة. العميل السّرّيّ المشهور جداً [دلتا] لمراسلات البارون السابق ستوت - ورتنهايم الإخطارية كان ليس من الرجال الذين يقتحمون مثل هذا الغموض. كان تخويفه سهلاً. وكان كسولاً أيضاً، مصاب بكسل غالباً ما يكون السّرّ لطبيعة طيّبة. تذرّع بالصبر فيما يخص ذلك الغموض بعيداً عن الحبّ، الخجل، والكسل. كان هناك دائماً ما يكفي من الوقت. لدقائق معدودة، حمل معاناته بصمت في الهدوء الناعس للغرفة. وبعدها أربك هذا الصمت بتصريح حازم.

"أنا ذاهب إلى أوروبا غداً".

ربمّا نامتْ زوجته بالفعل. لا يمكنه قول ذلك. في الغالب، السيدة

ڤيرلوك قد سمعته. ظلّتْ عيناها مفتوحتين على سعتهما، وكانت مستلقية بلا حراك، أكّدتْ بقناعتها الغريزية أن من غير المستحبّ البحث في بواطن الأمور. وأيضاً ليس بالأمر الغريب جداً بالنسبة للسيد ڤيرلوك أن يذهب في هكذا رحلة. كان يملأ مخزونه من باريس وبروكسل. غالباً ما كان يذهب لإنجاز صفقاته الشخصية. جماعة صغيرة محدّدة من الهواة يجتمعون حول المتجر في بريت ستريت، جماعة سرّيّة مناسبة بشكل كبير لأيّ عمل تجاري يتولاه السيد ڤيرلوك الذي، وعن طريق اتّفاق غامض بين الرغبة والحاجة، تخصّص ليكون عميلاً سرّيّاً طوال حياته.

انتظر لبعض الوقت، وأضاف: "سأكون بعيداً، لأسبوع أو ربمّا أسبوعين. دَعي السيدة نيل تأتي لمساعدتك" السيدة نيل كانت خادمة في بريت ستريت. ضحية زواجها من رجل فاسق من ليدز. كانت مرهقة بسبب حاجات العديد من الأطفال الصغار. كانت ترتدي أكماماً حمراء، وتتأزّر بقماش خشن حتّى إبطيها، تزفر معاناة الفقر في نفخة من رغوة الصابون وشراب الرّم المُسْكِر، في جلبة من الدعك وضجيج سطول من الصفيح. ردّت السيدة ڤيرلوك بثقة وبنبرة فيها شيء من اللامبالاة. "لا حاجة إلى هذه المرأة طوال اليوم. سنقوم بالعمل بشكل جيد، أنا وستيڤي".

سمحتْ للساعة الوحيدة على بسطة الدرج أن تدقّ خمس عشرة تكّة في هاوية الأبدية، وسألتْ:

"هل أُطفِئ المصباح؟"

قاطع السيد ڤيرلوك زوجته بصوت مبحوح.

"أطفئيه".

٩

عاد السيد ڤيرلوك من أوروبا بعد عشرة أيّام بمزاج، لم تنعشه - كما هو واضح - معجزات الرحلة الأجنبية، وملامح قاتمة، لم تُنرها فرحة العودة إلى الوطن. دخل مع صخب جرس المتجر مع مظهر من الكآبة والانهاك المُضجر. حقيبته في يده ورأسه منخفض، سار بخطوات كبيرة خلف منضدة المتجر مباشرة، وترك نفسه يسقط على الكرسي كما لو وصل سائراً على قَدَميه طوال الطريق من دوفر. الوقت كان الصباح الباكر. ستيڤي، كان ينفض الغبار عن أشياء مختلفة معروضة في الواجهة الأمامية، استدار نحوه، وفغر له فاه بتوقير ورعب.

"هنا!" قال السيد ڤيرلوك، وركل الحقيبة على الأرض ركلة خفيفة، وستيڤي ألقى نفسه عليها، وضع يده عليها، وحملها بتفانٍ مبتهج بالنصر. كان سريعاً جداً حتّى إن السيد ڤيرلوك كان مندهشاً. في ذلك الحين، مع ضجيج جرس المتجر كانت السيدة نيل تدهن الموقد في غرفة الجلوس بشحم الجرافيت لتلميعه، نظرتْ من خلال الباب، رفعتْ ركبتيها عن الأرض، وذهبتْ، بمئزرة ومتّسخة برسومات أبدية بالسخام لتخبر السيدة ڤيرلوك في المطبخ بأن "السيد قد عاد".

لم تتقدّمويني إلى أبعد من الباب الداخلي للمتجر

"ربمّا تكون بحاجة إلى وجبة إفطار" قالتْ من بعيد.

حرّك السيد ڤيرلوك يديه قليلاً، كما لو أنه ضحية اقتراح مستحيل. لكنْ بمجرّد أن استُدرج إلى غرفة الجلوس، لم يرفض إغراء الطعام الذي وُضع أمامه. أكل كما لو أنه يجلس في مكان عامّ، أبعد قبّعته عن جبينه، حاشية معطفه الثقيل تتدلّى في شكل مثلّث على جانبي الكرسي. وعلى الجانب الآخر لمائدة مغطّاة بغطاء مائدة بنّيّ، كانت ويني، زوجته، تتحدّث بهدوء معه حديثاً خاصّاً بالزوجة، مناسباً بدهاء، بلا شك، لظروف عودته مثل حديث بينيلوبي عند عودة أوديسيوس من ترحاله. السيدة ڤيرلوك لم تحك ثوباً في أثناء غياب زوجها على أيّ حال. لكنها نظّفت كل غرف الطابق العلوي، باعتْ بعض السلع، والتقتْ السيد ميكيلس عدّة مرّات. أخبرها في آخر مرّة أنه ينوي الذهاب بعيداً للعيش في بيت صغير في الريف في مكان ما على طريق لندن، تشاتم ودوڤر. كارل يونت جاء أيضاً، مرّة واحدة، منقاداً تحت ذراع تلك "مدبّرة منزله العجوز الشرّيرة" كان "عجوزاً مثيرة للاشمئزاز" فيما يتعلّق بالرفيق أوسيبون، الذي استقبلتْه باقتضاب، تحصّنتْ خلف منضدة المتجر مع وجه متحجّر، ونظرة حالمة، لم تقلْ شيئاً، تذكرها للفوضوي القوي يُلاحظ في وقفة قصيرة مع أبهت حمرة خجل ممكنة. أقحمتْ أخيها ستيڤي فوراً في مجرى الأحداث المنزلية، وأشارتْ إلى أنه يجلس حزيناً لفترات طويلة.

"لأن أمّي قد غادرتْنا بتلك الطريقة".

السيد ڤيرلوك لم يقل: "اللعنة!" ولا حتّى "ليذهب ستيڤي إلى الجحيم!" والسيدة ڤيرلوك، لم تصل إلى سرّ أفكاره وأخفقت في تقدير فضيلة هذا التحفّظ.

"ليس الأمر أنه لم يعمل كما هو شأنه دائماً" أضافتْ. "كان متعاوناً جداً. تظنّ أنه لا يشعر بأن ما يقوم به كافياً".

وجّه السيد ڤيرلوك نظرة عَرَضية ناعسة إلى ستيڤي الذي كان يجلس إلى يمينه ضعيفاً، شاحب الوجه، فاغراً فمه الوردي ببلاهة. لم تكن نظرة انتقادية. لم تكن بقصد. وإذا فكّر السيد ڤيرلوك ولو للحظة أن شقيق زوجته يبدو عديم الفائدة تماماً، فإنها مجرّد فكرة غبية وعابرة مجرّدة من تلك القوّة والمتانة التي تمكّن أحياناً فكرة من تحريك العالم. مال السيد ڤيرلوك إلى الخلف، ونزع قبّعته. قبل أن يمدّ يده ليضع القبّعة، انقض عليها ستيڤي، وحملها بوقار إلى المطبخ. ومرّة أخرى، اندهش السيد ڤيرلوك.

"يمكنكَ أن تفعل أيّ شيء مع هذا الصبي، أدولف" قالت السيدة ڤيرلوك مع حفاظها على مظهر من الهدوء الرصين. "هو يتمنّى أن يفعل أيّ شيء من أجلك، هو ..."

توقّفت منصتة، حرّكتْ أذنها نحو باب المطبخ.

هناك كانت السيدة نيل تمسح الأرضية. تأوّهت بحزن عند ظهور ستيڤي، لاحظتْ أن من الممكن استمالته بسهولة، لمصلحة أطفالها الصغار، بأن يهبها الشلن الذي تعطيه له أخته ويني من وقت لآخر. الأربعة وسط البرك، مبلّلين وقذرين مثل نوع من الحيوانات البرمائية والأليفة تعيش في صناديق قمامة ومياه قذرة، لفظتْ ديباجتها المعتادة: "كل شيء على ما يرام، لا تفعلْ شيئاً مثل سيد مدلّل" وتبعتْ قولها هذا بشكوى أزلية من الفقر، كذب مثير للشفقة، يُثبت ذلك ببؤس شديد نفخة فظيعة من الرّم الرخيص ورغوة الصابون. تفرك الأرضية بكل بقوّتها، تَخِنّ طوال الوقت، وتثرثر. وكانت مخلصة. وعلى جانبي أنفها الأحمر الرفيع عيناها الدامعتين الضبابيتان تسبحان في الدموع لأنها تشعر بالحاجة الحقيقية لنوع معيّن من المنبّهات في الصباح.

في غرفة الجلوس، قالت السيدة ڤيرلوك بدراية:

"السيدة نيل هنا مرّة أخرى مع حكاياتها المروّعة عن أطفالها الصغار. لا يمكن أن يكونوا جميعهم صغاراً إلى هذا الحدّ، كما تصفهم هي. بعضهم يجب أن يكون كبيراً بما يكفي الآن لمحاولة مساعدتها. هذا ما يُغضب ستيڤي".

هذه الكلمات أكّدها صوت ارتطام مثل قبضة تضرب مائدة المطبخ. في التنامي الطبيعي لعواطفه، أصبح ستيڤي غاضباً من اكتشاف أنه لا يملك شلناً في جيبه. بسبب عجزه عن تخفيف معاناة "صغار" السيدة نيل، شعر فوراً أن شخصاً ما يجب أن يعاني من أجل ذلك. نهضت السيدة ڤيرلوك، وذهبتْ إلى المطبخ لـ "وقف هذا الهراء" فعلتْ ذلك بحزم، لكنْ بلطف. كانت تدرك جيداً أن السيدة نيل فور حصولها على المال ستذهب مباشرة إلى الزاوية لتشرب مُسكِرات قوية في حانة قذرة ومتعفّنة - محطّة لا مفرّ منها على طريق آلام حياتها. تعليق السيدة ڤيرلوك على هذه الممارسة كان غير متوقّع تماماً، كما لو أنه جاء من شخص غير راغب في النظر تحت سطح الأشياء "بالطبع، ماذا ينبغي أن تفعل لتبقى ثابتة؟ لو كنتُ مثل السيدة نيل أتوقّع أني سوف لن أفعل شيئاً آخر".

فيما بعد ظهر اليوم نفسه، كما هي عادة السيد ڤيرلوك، بعد أن يستيقظ من قيلولة طويلة أمام الموقد في غرفة الجلوس، يُصرّح عن نيّته الخروج بنزهة، ويني قالتْ من المتجر:

"أتمنّى لو أنك تأخذ هذا الصبي معك، أدولف".

للمرّة الثالثة في ذلك اليوم، تفاجأ السيد ڤيرلوك. نظر بغباء إلى زوجته. تابعتْ بطريقتها الحازمة، الصبي طالما لا يفعل أيّ شيء، يكتئب في المنزل. هذا ما يجعلها مرتبكة، يجعلها عصبية، اعترفتْ. وعلى الرغم من هدوء ويني، بدا هذا الكلام من ويني الهادئة كأنه مبالغة. لكنها على حقّ، ستيڤي كان يكتئب بشدّة على الهيئة الشهيرة لحيوان أليف حزين. سوف

يصعد إلى بسطة الدرج ليجلس على الأرض عند قاعدة الساعة الطويلة، يطوي ركبتيه، ويضع رأسه بين يديه. أن تتفاجأ بعينيه الكبيرتين تلمعان في العتمة، كان مربكاً، أن تفكّر به يجلس هناك بهذه الطريقة كانت مزعجة لها. استأنس السيد ڤيرلوك بالابتكار المذهل للفكرة. كان مولعاً بزوجته كما ينبغي لزوج صالح أن يفعل، أي: بسخاء. لكن اعتراضاً خطيراً حضر في عقله وصاغه بقوله:

"ربمّا سيغيب عن نظري، ويضيع في الشارع" قال. هزّت السيدة ڤيرلوك رأسها بتمكّن.

"لن يفعل. أنت لا تعرفه. هذا الصبي يُبجّلكَ. لكنْ إذا فقدتَه -" توقّفت السيدة ڤيرلوك للحظة، للحظة فقط. "تابع سيركَ، وقمْ بنزهتكَ. لا تقلق. سوف يكون بخير. من المؤكّد أنه سيعود آمناً قبل مضي وقت طويل".

هذا التفاؤل قدّم مفاجأة رابعة للسيد ڤيرلوك في يوم واحد. "حقاً!" همهم بارتياب. لكنْ ربمّا شقيق زوجته لم يكن أحمقاً كما يبدو عليه. زوجته تعرف ذلك بشكل أفضل. صرف عينيه الثقيلتين بعيداً، وقال بصوت مبحوح: "حسناً، دعيه يُسرع، إذنْ"، انتكس، وعاد للسقوط في براثن قلق سوداوي، جعله ربمّا يفضّل الجلوس خلف الفارس(*)، لكنه يعرف أيضاً كيف يمشي في اعقاب أناس، ليسوا أثرياء بشكل كاف لامتلاك الخيول - مثل السيد ڤيرلوك، على سبيل المثال.

كانت ويني تقف عند باب المتجر، لم ترَ ذلك المرافق الخطير في مشية السيد ڤيرلوك. راقبت الرجلين في نهاية الشارع البائس، أحدهما طويل وضخم، والآخر ضعيف وقصير مع رقبة رفيعة وكتفان هزيلان مرفوعان قليلاً

---

*) في إشارة إلى إحدى قصائد هوراس الغنائية: وما برح القلق السوداوي القادس ذو الرأس الفضيّ المدبّب، وهي تجلس خلف الفارس.

تحت أذنين كبيرتين شبه شفّافتين. معطفاهما كانا من القماش نفسه، وقبّعتاهما سوداوين دائريّتي الشكل. من وحي تشابه الملابس البالية، أطلقت السيدة ڤيرلوك العنان لخيالها.

"قد يكونان أباً وابناً" قالتْ لنفسها. فكّرتْ أيضاً أن السيد ڤيرلوك كثيراً ما كان مثل أب في حياة المسكين ستيڤي. وبزهو واطمئنان، هنّأتْ نفسها على قرار معيّن اتّخذتْه قبل عدّة سنوات. كلّفها هذا بعض الجهد، وحتّى بعض الدموع.

لا تزال تُهنّئ نفسها أكثر على ملاحظتها أن السيد ڤيرلوك مع مرور الأيّام قد تقبّل برحابة صدر رفقة ستيڤي. الآن عندما يستعدّ للخروج في نزهته، ينادي السيد ڤيرلوك على الصبيّ بصوت عالٍ، وبلا شك من منطلق الاهتمام الذي يطلبه الرجل من كلب العائلة، لكنْ بطريقة مختلفة بالتأكيد. في المنزل، كان من الممكن ضبط السيد ڤيرلوك وهو يحدّق بفضول إلى ستيڤي لبعض الوقت. سلوكه الخاصّ قد تغيّر. لا يزال قليل الكلام، لكنه لم يعد غير مبالٍ بعد الآن. ترى السيدة ڤيرلوك أنه كان عصبياً نوعاً ما في بعض الأحيان. يمكن اعتبار ذلك تحسّناً في سلوكه. كذلك ستيڤي، لم يعد يجلس كئيباً عند قاعدة الساعة، لكنه بدلاً من ذلك كان يهمهم مع نفسه في ارتباك بنبرة توعّد. وعندما يُسأل: "ماذا قلتَ، ستيڤي؟" كان يفتح فمه فحسب، ويحدّق في وجه أخته بعينين نصف مغمضتين. في أوقات عَرَضية، يجمع قبضتيه دون سبب واضح، وعندما يُكتشَف في عزلة، كان عادة ما ينظر إلى الحائط بتجهّم مع ورقة وقلم رصاص، لم يستخدمهما على طاولة المطبخ، أُعطيتا له لرسم دوائر. يجلس إلى طاولة المطبخ غافلاً وكسولاً. كان هذا تغييراً، لكنه ليس تغييراً نحو الأفضل. أدرجت السيدة ڤيرلوك كل هذه التحوّلات تحت تعريف عامّ للانفعال، وبدأت تخاف من

أن ستيڤي كان يسمع أكثر من اللازم من حوارات زوج أخته مع أصدقائه. السيد ڤيرلوك - بالطبع - كان يلتقي ويتحدّث خلال "نزهاته" بأشخاص مختلفين. من النادر أن يكون الأمر خلاف ذلك. المشي كان جزأ لا يُجتزأ من أنشطته في الهواء الطلق، والتي لم تستقصها زوجته بتعمّق أبداً. شعرت السيدة ڤيرلوك أن الموقف كان حسّاساً، لكنها واجهتْه بالهدوء المنيع نفسه الذي أثر وحتّى أذهل زبائن المتجر، وجعل الزوّار الآخرين يحافظون على مسافة بينهم وبينها بتعجّب. لا! هي كانت تخشى من أن هناك أشياء ليس من المستحسن أن يسمعها ستيڤي، وأخبرتْ زوجها بذلك. مجرّد أنها كانت تُزعج الصبي المسكين لأنه ببساطة لا يمكنه أن يفعل شيء إزاء ذلك. لا أحد يمكنه ذلك.

حدث هذا في المتجر. لم يُعلّق السيد ڤيرلوك. ولم يردّ، مع أن الرّدّ كان واضحاً. لكنه امتنع عن لفت انتباه زوجته من أن فكرة جعل ستيڤي مرافقاً له في نزهته كانت فكرتها هي ولا أحد غيرها. في تلك اللحظة، وبنظرة محايدة، ظهر السيد ڤيرلوك أكثر من إنسان في شهامته. أنزل صندوقاً كارتونياً صغيراً من الرّفّ، نظر فيه نظرة خاطفة ليرى أن المحتويات كانت على ما يرام، ووضعه بهدوء على المنضدة. وعندها كسر الصمت بقوله إن ستيڤي ربّما سوف يستفيد جداً بإرساله خارج المدينة لبعض الوقت، إلا أنه كان يتوقّع أن زوجته لا يمكنها الاستغناء عنه.

"لا يمكن الاستغناء عنه!" كرّرت السيدة ڤيرلوك ببطء "يمكنني الاستغناء عنه إذا كان هذا مفيداً له! افترضْ! بالطبع يمكنني الاستغناء عنه. لكنْ ليس هناك مكان يمكن أن يذهب إليه".

أخرج بعض الأوراق البنّيّة وكرة خيوط، وفي غضون ذلك، كان يُهمهم من أن ميكيلس يعيش في منزل صغير في الريف. ميكيلس لا يمانع منح

ستيفي غرفة لينام فيها. لم يكن هناك زائرون ولا اجتماعات في ذلك المكان. ميكيلس كان يكتب كتابه.

السيدة ڤيرلوك أظهرت مَيلها إلى ميكيلس، ذكّرت باشمئزازها من كارل يونت "عجوز شرّير" وعن أوسيبون لم تقلْ شيئاً. كذلك هو الحال مع ستيفي لا يمكن أن يكون إلا راضياً جداً. السيد ميكيلس كان دائماً لطيفاً وطيّباً جداً معه. بدا أنه يحبّ الصبي. حسناً، الصبي كان صبياً طيّباً. "وأنت أيضاً يبدو أن حبّكَ له يزداد كثيراً في الآونة الأخيرة" أضافتْ، بعد توقّف، بثقة لا تتزعزع.

ربط السيد ڤيرلوك الصندوق الكارتوني من أجل إرساله بالبريد، قطع الحبل عن طريق شَدّه بحماقة، وهمهم ببعض كلمات شتيمة سرّاً إلى نفسه. وبعد ذلك، ارتفعتْ نبرته إلى تمتمة عادية بصوت مبحوح، أعلن عن رغبته أخذ ستيفي إلى الريف بنفسه، وتَركه بكل أمان مع ميكيلس. نفّذ هذا المخطّط في اليوم التالي مباشرة. لم يقدّم ستيفي أيّ اعتراض. بدا متحمّساً بالأحرى، بطريقة محيّرة نوعاً ما. كان يوجّه نظرته المخلصة بفضول إلى الوجه الضخم للسيد ڤيرلوك من وقت لآخر، وبشكل متكرّر، خاصّة عندما لا تنظر له أخته. كان يبدو فخوراً، قلقاً ونشيطاً، مثل طفل صغير، عُهد إليه لأول مرّة بعلبة الثقاب، وأذنَ له بإشعال المصباح. لكن السيدة ڤيرلوك الممتنّة لطاعة أخيها، أوصتْه ألا يوسّخ ملابسه بإفراط في الريف. عند هذا نظر ستيفي إلى أخته الحامية والراعية لأوّل مرّة في حياته نظرة، بدت تفتقر ميزة الثقة الطفولية المثالية. كانت نظرة متجهّمة متغطرسة. ابتسمت السيدة ڤيرلوك.

"يا إلهي! لا تنزعج هكذا. أنت تعرف بأنك توسّخ نفسك إذا وجدتَ فرصة لذلك، ستيفي" السيد ڤيرلوك كان قد مشى بالفعل مسافة قصيرة في الشارع.

وهكذا من تصرّفات والدتها الشجاعة وغياب أخيها في ذلك الريف، وجدت السيدة ڤيرلوك نفسها وحيدة أكثر من المعتاد، ليس في المتجر فقط، ولكنْ في البيت أيضاً. والسيد ڤيرلوك، خرج للتنزّه كعادته. كانت وحدها لفترة أطول من المعتاد في يوم انفجار القنبلة المدبّر في غرينتش بارك لأن السيد ڤيرلوك خرج مبكّراً جداً ذلك الصباح، ولم يعد إلى المنزل حتّى حلول الظلام تقريباً. لا تبالي في أن تكون وحيدة. لم يكن لديها رغبة في الخروج. الطقس كان سيّئاً جداً، والمتجر أكثر دفئاً من الشارع. تجلس خلف المنضدة مع شيء مُعدّ للخياطة، لم ترفع عينيها عن عملها عندما دخل السيد ڤيرلوك مع جلجلة عدوانية للجرس. ميّزت خطوته بالفعل من على حجارة الرصيف في الخارج.

لم ترفع عينيها، لكنْ عندما توجّه السيد ڤيرلوك مباشرة إلى باب غرفة الجلوس صامتاً وقبّعته مثبتة على جبهته، قالتْ بهدوء:

"يا له من يوم بائس! هل أنت تبحث عن ستيڤي؟"

"لا! لا أبحث عنه" قال السيد ڤيرلوك بلطف، وأغلق الباب المزجّج لغرفة الجلوس خلفه بقوّة غير متوقّعة.

ظلّت السيدة ڤيرلوك ساكنة والقطعة التي تخيطها ظلّت في حجرها لبعض الوقت قبل أن تضعها بعيداً تحت المنضدة، ونهضتْ لإشعال مصباح الغاز. وعندما تمّ ذلك، سارت عبر غرفة الجلوس في طريقها إلى المطبخ. السيد ڤيرلوك كان يريد شايه بسرعة. ولأنها واثقة من قوّة سِحْرِها، لم تتوقّع ويني من زوجها في المعاشرة اليومية لحياتها الزوجية كلام ملاطفة رسمي وأساليب مجاملة، مجرّد أشكال عقيمة وقديمة في أفضل الأحوال، ربّما لا تُلاحظ بدقّة على الإطلاق، منبوذة في هذه الأيّام حتّى بالنسبة

للطبقات الراقية، ودائماً ما كانت دخيلة على معايير طبقتها. لا تبحث عن مجاملة منه. لكنه زوج صالح، ولديها تقدير كبير لحقوقه.

اجتازت السيدة ڤيرلوك غرفة الجلوس إلى واجباتها المنزلية في المطبخ بهدوء مثالي لسيدة متأكّدة من قوّة مفاتنها. لكن صوتاً طفيفاً، طفيفاً جداً، مشوّشاً وسريعاً، زاد على سمعها. صوت غريب وغير مفهوم، سيطر على اهتمام السيدة ڤيرلوك. وبعد ذلك، عندما أصبح طابعه عادياً للأذن، توقّفت فجأة، مندهشة وقلقة. أشعلتْ عود ثقاب من العلبة التي كانت في يدها، أشعلت المصباح فوق المائدة في غرفة الجلوس، أحد مصباحي الغاز الذي كان عاطلاً صفّر في البداية بشكل مباغت، واستمرّ بعد ذلك بالهرهرة بارتياح مثل القطّ.

خلع السيد ڤيرلوك معطفه على غير عادته. كان مستلقياً على الأريكة. قبّعته - والتي يجب أن يكون قد خلعها - وُضعت مقلوبة تحت حافة الأريكة. سحب كرسياً من أمام الموقد، ووضع قَدَمَيه داخل سياج الموقد، وقبض على رأسه بين يديه، كان يخيّم على ارتفاع منخفض فوق وهج الموقد. أسنانه تصطكّ بقوّة وعنف، سبّب ذلك ارتعاش ظهره الضخم بالكامل على النسق نفسه. السيدة ڤيرلوك كانت مذهولة. "لقد تبلّلتَ" قالت.

"ليس كثيراً" تمكّن السيد ڤيرلوك من التلعثم بهذه الكلمات مع رعشة شديدة.

وبجهد كبير قمع اهتزاز أسنانه.

"ستنام بين ذراعي بعد قليل" قالتْ بقلق واضح.

"لا أظنّ ذلك" علّق السيد ڤيرلوك بصوت مبحوح.

كان منفعلاً دون شكّ، وبطريقة أو بأخرى، وقع في شرك برد لعين بين الساعة السابعة صباحاً والخامسة من بعد الظهر. نظرت السيدة ڤيرلوك إلى ظهره المنحني.

"أين كنتَ اليوم؟" سألته.

"في أيّ مكان" أجاب السيد ڤيرلوك بنبرة أنفية مخنوقة خافتة. أوحى سلوكه باستياء وامتعاض أو صداع قاس. مراوغة وعدم وضوح إجابته أصبح واضحاً بشكل مؤلم في صمت الغرفة القاتل. تنشّق بصوت مسموع معتذراً، وأضاف:

"كنتُ في البنك".

تيقّظت السيدة ڤيرلوك.

"هل فعلتَ!" قالت بهدوء. "لماذا؟"

همهم السيد ڤيرلوك وأنفه فوق الموقد، وبدا عليه عدم رغبة واضحة في الإجابة:

"أسحب المال"

"ماذا تقصد؟ المال كله؟"

"نعم، كله"

فرشت السيدة ڤيرلوك بعناية غطاء المائدة الزهيد، أخرجتْ سكّينتين وشوكتين من درج المائدة، وتوقّفت فجأة في إجراءاتها المنتظمة.

"لماذا فعلتَ ذلك؟"

"ربّما أحتاج المال قريباً" ردّ بشكل غير واضح، السيد ڤيرلوك وصل إلى نهاية طيشه المدبّر.

"لم أفهم ماذا تقصد؟" قالت زوجته بلهجة رسمية تماماً، لكنها ظلّت واقفة كالصنم بين المائدة والخزانة.

"كما تعرفين، يمكنك أن تثقي بي" قال السيد ڤيرلوك وهو ينظر إلى الموقد، بصوت أجش مضطرب.

استدارت السيدة ڤيرلوك ببطء نحو الخزانة، وقالتْ بتأنّ:

"أوه، نعم. يمكنني أن أثق بك"

واستمرّت بإجراءاتها المنتظمة. وضعتْ طبقين، جلبت الخبز والزبدة، ذهاباً وإياباً بهدوء بين المائدة والخزانة في سلام وصمت منزلها. وعلى وشك أن تخرج المربىّ، فكّرتْ بطريقة عملية: "سوف يشعر بالجوع، كان غائباً طوال اليوم"، وعادتْ إلى الخزانة مرّة أخرى لتجلب لحم البقر البارد. وضعتْه تحت أزيز مصباح الغاز، ومع لمحة عابرة إلى زوجها الذي يحتضن الموقد بلا حراك، ذهبتْ (نزلتْ درجتين) إلى المطبخ. وحال عودتها، وسكّين وشوكة في يدها لتقطيع اللحم، تحدّثتْ مرّة أخرى.

"لو لم أكنْ أثقُ بكَ، لما تزوّجتُكَ".

انحنى السيد ڤيرلوك تحت رفّ الموقد، يمسك رأسه بكلتَا يديه، بدا أنه قد نام بالفعل. حضّرتْويني الشاي، ونادتْه بصوت خافت:

"أدولف"

نهض السيد ڤيرلوك فوراً، وترنّح قليلاً قبل أن يجلس إلى المائدة. فحصتْ زوجته الحافة الحادّة لسكّين قطع اللحم، ووضعتْها على الطبق،

وجذبتْ انتباهه إلى لحم البقر البارد. ظلّ غير مدرك للتلميح، وذقنه على صدره.

"يجب أن تُغذّي جسمكَ لتتفادى البرد" قالت السيدة ڤيرلوك بشكل دوغماتي.

رفع بصره، وهزّ رأسه. كانت عيناه محتقنتين بالدماء، ووجهه أحمر. أصابعه نفشت شعره على نحو عبثي غير مرتّب. عموماً كان مظهره سيّئاً، كان يعبّر عن المشقّة، الغضب والكآبة التي تلي انتهاكاً خطيراً. لكن السيد ڤيرلوك ليس رجلاً مُتهتّكاً. كان مُحترماً في سلوكه. مظهره قد تأثّر بالحمّى. شرب ثلاثة أكواب من الشاي، لكنه امتنع عن الطعام تماماً. ارتدّ عنه بنفور وتجهّم عندما ألحّت السيدة ڤيرلوك، التي قالتْ أخيراً:

"هل قدماك رطبتان؟ من الأفضل أن ترتدي خُفّك. لن تخرج هذا المساء أبداً".

صرّح السيد ڤيرلوك بهمهمة وإشارات عابسة بأن قَدَمَيه لم تكونا رطبتين، وأنه على أيّ حال غير مهتمّ. اقتراح الخُفّ تمّ تجاهله، كأنه غير جدير باهتمامه. لكن سؤال الخروج في المساء حقّق تقدّماً غير متوقّع. ليس الخروج في المساء ما كان يفكّر به السيد ڤيرلوك. تبنّت أفكاره مخطّطاً ثابتاً. من خلال عبارات متقلّبة وناقصة، أصبح واضحاً أن السيد ڤيرلوك كان يفكّر في نفعية الهجرة. لم يكن واضحاً إن كان في عقله فرنسا أو كاليفورنيا على أيّ حال.

الفجائية التامّة، اللاحتمالية، وعدم تصديق وقوع مثل هذا الحَدَث سلب ذلك التصريح الغامض كلّ تأثيره. السيدة ڤيرلوك كانت ساكنة كما لو أن زوجها هدّدها بنهاية العالم، قالتْ:

"وما الغاية من ذلك؟!"

أعلن السيد ڤيرلوك نفسه مريضاً ومتعباً من كل شيء، ورغم ذلك قاطعتْه. "لديك نزلة برد قوية" كان واضحاً بكل تأكيد أن السيد ڤيرلوك لم يكن بحالته الطبيعية، لا جسدياً ولا حتّى عقلياً. تردُّد كئيب حمله على الصمت لفترة من الوقت. وبعد ذلك، همهم ببضع عموميات مشؤومة عن ضرورة مغادرة المنزل.

"سوف تفعل لاحقاً" كرّرتْويني، وهي تجلس هادئة وذراعاها مطويّتان مقابل زوجها. "أودّ أن أعرف مَن فعل بكَ هذا؟ أنتَ لستَ عبداً. لا أحد بحاجة إلى أن يكون عبداً في هذه البلاد - ولا تجعل نفسكَ أحدهم" توقّفتْ قليلاً، ثمّ قالتْ بصدق راسخ لا يُقهَر. "التجارة ليست سيّئة" واصلتْ. "لديك بيت مريح" ونظرت إلى أرجاء غرفة الجلوس كلها من زاوية الخزانة إلى النار في الموقد. المنزل المحتجب بشكل مريح خلف متجر من البضائع المشكوك بها مع واجهة زجاجية معتمة على نحو غامض، وبابه الموارب على نحو مريب في شارع مظلم وضيّق، كان وفقاً لكل مبادئ الآداب المنزلية والراحة المنزلية منزلاً محترماً. افتقدتْ عاطفتها المخلصة فيه أخاها ستيڤي، الذي يستمتع الآن برطوبة الريف في طرق كَنتش تحت رعاية السيد ميكيلس. افتقدتْه بشدّة، بكل قوّة عاطفة الحماية لديها. كان هذا منزل الصبي أيضاً السقف، الخزانة، والموقد الساخن. مع هذه الفكرة نهضت السيدة ڤيرلوك، ومشتْ إلى النهاية الأخرى للمائدة، وقالتْ بملء قلبها:

"وأنتَ لم تملّ مني".

لم يقل السيد ڤيرلوك أيّ شيء. مالتْ ويني على كتفه من الخلف، وضغطتْ شفتيها على جبهته. وهكذا ظلّت مائلة عليه. لم يصلهما همس

من العالم الخارجي. اختفى صوت خطوات الأقدام على رصيف الشارع في العتمة الحذرة للدكّان. وحده مصباح الغاز فوق المائدة استمرّ بالأزيز، استمرّ بثبات في صمت وسكينة غرفة الجلوس.

خلال تلامس تلك القبلة غير المتوقّعة والطويلة، أمسك السيد ڤيرلوك بكلتا يديه حافّتي كرسيّه، ومحافظاً على ثبات هيراطيقي. عندما لم يعد يشعر بشفتيها على جبينه ترك الكرسيّ، نهض، ومضى ليقف أمام الموقد. لم يُدر ظهره بعد إلى الغرفة. مع ملامحه المتورّمة، ومظهر من بلادة الحسّ، تبع بعينيه حركات زوجته.

مضت السيدة ڤيرلوك بهدوء في تنظيف المائدة. بصوتها الهادئ علّقتْ على الفكرة بنبرة منطقية وأليفة. لم يكن هناك ما يدعو للتفكير. أدانت الفكرة من كل وجهات النظر. لكن همّها الحقيقي كان رعاية ستيڤي. في هذا الصدد، ظهر لتفكيرها على أنه "غريب" بما يكفي لعدم أخْذه إلى خارج البلاد بتسرّع. وهذا كان كل شيء. لكنْ في أثناء الحديث عن هذه النقطة الحيوية، تحدّثتْ مع عنف مطلق في إلقائها. وفي غضون ذلك، بحركات فظّة، ألبستْ نفسها المئزر لغسل الكؤوس. وكما لو أنها مولعة برنين صوتها الذي لا يُنكَر، ذهبتْ إلى أبعد من ذلك لتقول بلهجة لاذعة إلى حدّ ما:

"إذا ذهبتَ إلى خارج البلاد، عليكَ أن تذهب بدوني".

"أنتِ تعرفين أن هذا لن يحدث" قال السيد ڤيرلوك بصوت مبحوح، والصوت غير المدوّي لحياته الخاصّة ارتعش نتيجة إحساس مبهم. ندمت السيدة ڤيرلوك على كلماتها بالفعل. كانت تبدو قاسية أكثر ممّا كانت تقصد. كانت كلمات حمقاء أيضاً عن أشياء غير ضرورية. في الحقيقة،

لم تعنِ ما قالتْه كله، على الإطلاق. كانت نوعاً من العبارات التي يوسوس بها الشيطان من وحي فاسد. لكنها تعرف طريقة تجعلها تبدو مختلفة.

أدارتْ رأسها فوق كتفها، ونظرتْ إلى ذلك الرجل المرهق المغروز أمام الموقد نظرة شبه ماكرة، شبه قاسية بعينيها الكبيرتين - نظرة كانت تعجز عنها تلك المرأةويني من أيّام نُزل بيلغريڤيا لكونها امرأة محترمة وجاهلة. لكن الرجل زوجها الآن، وهي لم تعد جاهلة. ظلّت تنظر له لثانية كاملة، مع وجهها الجادّ الجامد كأنه قناع، حتّى قالتْ بشكل هزلي:

"لا يمكنك ذلك. سوف تفتقدني كثيراً".

تقدّم السيد ڤيرلوك إلى الأمام.

"بالضبط" قال بنبرة أعلى، رمى ذراعيه، وتقدم خطوة نحوها. شيء جامح ومريب في ملامحه جعله يبدو متردّداً فيما إذا كان يقصد خنق أو عناق زوجته. لكن اهتمام السيدة ڤيرلوك انصرف عن عرض زوجها بسبب جلجلة جرس المتجر.

"المتجر، أدولف. اذهبْ أنتَ".

توقّف، هبطتْ ذراعاه ببطء.

"اذهبْ أنتَ" كرّرت السيدة ڤيرلوك، "أنا لا أزال أرتدي مئزري".

أطاع السيد ڤيرلوك الأوامر بطريقة جامدة، يحدّق أمامه بعينين ثابتتين، مثل إنسان آليّ، طُلي وجهه باللون الأحمر. وهذا التشابه مع المظهر الآلي تمادى، وأصبح غريباً إلى الحدّ الذي جعله مدركاً للآلية في داخله. أغلق باب غرفة الجلوس، والسيدة ڤيرلوك تحرّكت بخفّة، وهي تحمل الطبق إلى المطبخ. غسلت الكؤوس وبعض الأشياء الأخرى قبل أن تتوقّف عن

عملها لتُنصت. لم يصلها أيّ صوت. الزبون كان في المتجر لوقت طويل. إنه زبون، لأنه إن لم يكن كذلك، فسوف يصطحبه السيد ڤيرلوك إلى الداخل. فكّت خيوط مئزرها مع رعشة، رمتْه على الكرسي، وعادت إلى غرفة الجلوس ببطء.

في تلك اللحظة بالذات، دخل السيد ڤيرلوك من المتجر. ذهب ووجهه أحمر. وعاد بوجه غريب أبيض كبياض الورق. وجهه فقد ذهوله المُخدّر المحموم في ذلك الوقت القصير، واكتسب ملامح ارتباك وإرهاق. مشى مباشرة نحو الأريكة، وظلّ ينظر إلى معطفه الذي وضعه هناك كما لو أنه خائف من لمسه.

"ماذا حدث؟" سألت السيدة ڤيرلوك بصوت خافت. من خلال الباب الذي تُرك موارباً، استطاعت أن تلاحظ بأن الزبون لم يذهب بعد.

"أجد نفسي مضطراً للخروج هذا المساء" قال السيد ڤيرلوك. لم يحاول التقاط معطفه. دون أن تقول كلمة، اندفعتويني نحو المتجر، وأغلقت الباب خلفها، وسارتْ خلف المنضدة. لم تنظر إلى الزبون صراحةً حتّى جلستْ بشكل مريح على الكرسي. لكنْ حتّى ذلك الوقت لاحظتْ أنه كان طويلاً ونحيفاً وكان شارباه ملفوفين إلى أعلى. في الحقيقة كان قد لفّ نهايتيه الرفيقتين في تلك اللحظة. وجهه الطويل النحيل يبرز فوق الياقة المطوية. مرشوش بالماء قليلاً، رطب قليلاً. رجل داكن، مع نتوء عظام الخدّ المحدّد جداً تحت صدغ مجوّف قليلاً. رجل غريب تماماً. ليس زبوناً على أيّ حال.

السيدة ڤيرلوك نظرتْ له بهدوء.

"هل جئتَ من أوروبا؟" قالتْ بعد بعض الوقت.

الرجل الغريب النحيف الطويل دون أن ينظر تماماً إلى السيدة ڤيرلوك، أجاب فقط بابتسامة باهتة غريبة. السيدة ڤيرلوك نظرتْ له بثبات، نظرة لا مبالية.

"أنت تفهم الإنكليزية، أليس كذلك؟"

"أوه، نعم. أفهم الإنكليزية"

لم يكن هناك شيء أجنبي في لهجته، ما عدا أنه كان يبدو، كما لو أنه يبذل مجهوداً في نطقه البطيء. والسيدة ڤيرلوك في تجاربها المتنوّعة، توصّلتْ إلى استنتاج، مفاده أن بعض الأجانب يمكنهم أن يتحدّثوا الإنكليزية أفضل من المواطنين. قالت وهي تنظر إلى باب غرفة الجلوس بثبات:

"ألا تفكّر البقاء ربّما في إنكلترا، بشكل دائم؟"

ابتسم لها الرجل الغريب مرّة أخرى ابتسامة صامتة. كان فمه رقيقاً وعيناه متفحّصتين. وهزّ رأسه قليلاً بحزن، كما يبدو.

"زوجي سيهتمّ بك تماماً. في غضون ذلك، إذا كانت إقامتكَ لأيّام قليلة، فمن الأفضل أن تقيم عند السيد جوغلياني. فندق اسمه "كونتيننتل هوتيل". منعزل. هادئ. زوجي سوف يصطحبك إلى هناك".

"فكرة جيدة" قال الرجل الداكن، النحيل، الذي أصبحتْ نظرته قاسية فجأة.

"هل تعرف السيد ڤيرلوك من قبل؟ - هل تعرفه؟ ربّما في فرنسا؟"

" لقد سمعتُ منه" اعترف الزائر بلهجته البطيئة، المتحفّظة، المقتضبة والمتسلّطة إلى حدّ ما. صمت لبعض الوقت. وتكلّم مرّة أخرى بطريقة أقلّ بطئاً إلى حدّ بعيد.

"لم يخرجْ زوجكِ لانتظاري في الشارع، أليس كذلك؟"

"في الشارع!" ردّدت السيدة ڤيرلوك بدهشة. "لا يمكنه ذلك. ليس هناك باب آخر للمنزل".

جلستْ صامتة لدقيقة، وبعدها تركتْ مقعدها، وذهبت لتنظر نظرة سريعة من خلال إحدى الألواح الزجاجية للباب. فتحتْه فجأة، واختفتْ في غرفة الجلوس. لم يفعل السيد ڤيرلوك شيئاً سوى ارتداء معطفه. لكنْ لماذا كان يجب أن يبقى بعد ذلك يميل على المائدة مستنداً على ذراعيه كما لو كان يشعر بالغثيان أو المرض، لم تستطع أن تفهم تصرّفه. "أدولف" نادتْه بصوت عالٍ إلى حدّ ما، وعندما نهض: "هل تعرف هذا الرجل؟" سألتْه بسرعة.

"لقد سمعتُ منه" همس السيد ڤيرلوك بصعوبة، ونظر إلى الباب نظرة حادّة.

عينا السيدة ڤيرلوك الجميلتان، الهادئتان أضاءتا مع التماعة كراهية.

"أحد أصدقاء كارل يونت - العجوز البغيض".

"لا! لا!" اعترض السيد ڤيرلوك وهو مشغول في البحث عن قبّعته. وعندما وجدها تحت الأريكة أمسكها كما لو أنه لا يعرف كيفية استخدام القبّعة.

"حسناً - هو في انتظارك" قالت السيدة ڤيرلوك أخيراً. "نعم بالتأكيد، أدولف، أليس هو واحداً من رجال السفارة الذين أزعجوك سابقاً؟"

"إزعاج رجال السفارة" ردّد السيد ڤيرلوك، بصعوبة شديدة من المفاجأة والخوف. "مَن أخبرك عن رجال السفارة؟".

"أنت بنفسك".

"أنا! أنا! أخبرتُك عن رجال السفارة؟!".

بدا السيد ڤيرلوك مرعوباً ومرتبكاً للغاية. وضّحتْ زوجته:

"لقد تحدّثتَ في نومكَ قليلاً في الآونة الأخيرة، أدولف".

"ماذا - ماذا قلتُ؟ ماذا تعرفين؟".

"ليس كثيراً. كان يبدو في أغلبه هراء. لكنه يكفي لأخمّن أن شيئاً ما يقلقكَ".

ضغط قبّعته على رأسه بقوّة. سيل قرمزي من الغضب اجتاح وجهه.

"هراء - إيه؟! رجال السفارة! أودّ قطع قلوبهم واحداً بعد الآخر. لكنْ فليحذروا. لديّ لسان في فمي".

غضبَ وشرع يخطو بسرعة ذهاباً وإياباً بين المائدة والأريكة، ومعطفه المفتوح منكمش الزوايا. تدفُّق اللون الأحمر من الغضب كان قد انحسر، وترك وجهه أبيض تماماً، وفتحتا أنفه ترتعشان. السيدة ڤيرلوك، ولأسباب عملية، عزتْ هذه المظاهر كلها إلى الحمّى.

"حسناً" قالتْ، "تخلّص من الرجل، كائناً مَن كان، بأسرع ما تستطيع، وارجعْ لي. أنت تحتاج إلى رعاية ليوم أو يومين".

هدأ السيد ڤيرلوك، مع ملاحم حزم على وجهه الشاحب، فتح الباب بالفعل عندما نادتْه زوجته بهمس: "أدولف! أدولف!" عاد مندهشاً. "ماذا عن المال الذي سحبتَه؟" سألتْه. "هل لا يزال في جيبكَ؟ أليس من الأفضل لك أن - " حدّق السيد ڤيرلوك ببلاهة في راحة يد زوجته الممدودة لبعض الوقت قبل أن يصفع جبهته.

"المال! نعم! نعم! لم أعرف ماذا تقصدين".

سحب من جيب الصدر محفظة جيب جديدة من جلد الخنزير. أخذتْها السيدة ڤيرلوك دون أن تقول كلمة واحدة، وظلّت على حالها حتّى هدأتْ صلصلة الجرس خلف السيد ڤيرلوك وضيف السيد ڤيرلوك. عندئذ فقط اختلست النظر إلى النقود، استخرجت الأوراق النقدية كلها لتعرف مقدار المبلغ. بعد هذا التفتيش، نظرتْ حولها بتأمّل مع شعور من عدم الثقة في صمت وعزلة المنزل. مسكن حياتها الزوجية ظهر لها مهجوراً وغير آمن، كما لو أنه قائم في وسط غابة. كل مكان يمكن تصوُّره لإخفاء النقود بين هذا الأثاث الثقيل، الصلب بدا لها سيئاً ومغرياً للصّ المنازل. كان تصوّرها مثالياً عن لصّ المنازل ذي القدرات العظيمة والبصيرة الخارقة. درج النقود لم يخطر في بالها. إنه المكان الأوّل الذي يتوجّه له اللصّ. فكّت السيدة ڤيرلوك إبزيمين على عجل، دسّت المحفظة تحت صدرية ثوبها. وبعد أن تخلّصتْ من رأس مال زوجها، كانت سعيدة نوعاً ما لسماعها جلجلة جرس الباب، الذي أعلن وصول زائر ما. اصطنعتْ نظرتها الثابتة وغير المرتبكة ووجهها القاسي المتحفّظ الذي اعتادتْ أن تستقبل به زبوناً طارئاً، مشتْ حتّى وقفتْ خلف المنضدة.

كان رجل يقف في وسط المتجر يتفحّص المكان بنظرة سريعة باردة في أرجائه كلها. تفحّصتْ نظراته الجدران، وتوجّهتْ إلى السقف، وانتبهتْ إلى الأرضية - هذا كله في لحظة. يتدلّى طرفا شاربه الطويل الأشقر تحت خطّ فكّه. ابتسم كما لو أنه يعرفها معرفة شخصية منذ زمن طويل، والسيدة ڤيرلوك تذكّرتْ أنها قد رأتْه من قبل. ليس زبوناً. خفّفتْ من "نظرة الزبون" إلى مجرّد عدم الاكتراث، وواجهتْه على الجانب الآخر من المنضدة. اقترب من جانبه بثقة، ولكنْ ليس بشكل ملحوظ تماماً.

"هل زوجكِ في المنزل، سيدة ڤيرلوك؟" سألها بلهجة سلسة وودّية.

"لا. لقد خرج".

"أنا آسف لذلك. لقد طُلِب مني جلب معلومات شخصية بسيطة عنه".

كانت هذه الحقيقة بالضبط. كبير المفتّشين هيت كان يفكّر طوال الطريق إلى المنزل، وقد ذهب حتّى بعيداً في تفكيره إلى درجة التخلّي عن هذه القضية، قال لنفسه، لأنها عملياً قد خرجتْ من يده. كان منغمساً في بعض الأفكار الكريهة والغاضبة، وجد أن الأمور قد سارت بطريقة غير مُرضية، وقرّر البحث عن تهدئة خارج المنزل. لا شيء يمنعه عن زيارة ودّيّة للسيد ڤيرلوك، مصادفة إذا جاز التعبير. كان ذلك كامناً في شخصية مواطن عادي، تلاحقه عاداته الشخصية في نزهة خاصّة، قادتْه نحو منزل السيد ڤيرلوك. كبير المفتّشين هيت كان يحترم خصوصيّته بقوّة إلى حدّ، بذله جهداً خاصّاً لتجنّب رجال الشرطة الموجودين كلهم للحراسة والواجبات الدورية في جوار بريت ستريت. هذا الاحتراز كان ضرورياً جداً لرجل في مكانته أكثر من المفوّض المساعد غير المعروف. دخل المواطن العادي هيت الشارع، ناور بطريقة "المتسلّل" التي يوصم بها أعضاء الطبقة الإجرامية. قطعة الملابس التي التقطها في غرينتش كانت في جيبه. لم يكن لديه أدنى نيّة في إخراجها بصفته الخاصّة كمواطن عادي. على العكس من ذلك، كان يريد أن يعرف فقط ما الذي سوف يقوله السيد ڤيرلوك عن طيب خاطر. كان يتمنّى أن يكون حديث السيد ڤيرلوك عن طبيعة تورّط ميكيلس في الجريمة. كانت أمنية مهنية بشكل واعٍ في المقام الأوّل، لكنها لا تخلو من قيمتها الأخلاقية لأن كبير المفتّشين هيت كان خادماً للعدالة. خروج السيد ڤيرلوك من المنزل جعله يُشعره بخيبة أمل.

"أودّ أن أنتظره قليلاً، لو أني كنتُ متأكّداً من أنه لن يكون في الخارج لفترة طويلة" قال.

السيدة ڤيرلوك لم تُقدّم متطوّعة أيّ ضمان من أيّ نوع.

"المعلومات التي أحتاجها خاصّة جداً" ردّد هيت. "أنت تفهمين ما أقصد؟ أتساءل إذا كان بإمكانكِ منحي فكرة عن المكان الذي ذهب إليه؟".

هزّت السيدة ڤيرلوك رأسها.

"لا أستطيع".

التفتتْ صوب بعض الصناديق على الرفوف خلف المنضدة. كبير المفتّشين هيت نظر لها بتمعّن لبعض الوقت.

"أفترض أنك تعرفين مَن أنا؟" قال.

نظرت السيدة ڤيرلوك بسرعة فوق كتفها. كان كبير المفتّشين هيت مستغرباً من رباطة جأشها.

"هيا! أنت تعلمين أنني من الشرطة" قال بحدّة.

"أنا لا أُزعج رأسي كثيراً بهذه الأمور" قالت السيدة ڤيرلوك وهي تعود إلى صفّ صناديقها.

"اسمي هيت. كبير المفتّشين هيت، من قسم الجرائم الخاصّة".

عدلّت السيدة ڤيرلوك بإتقان صندوق كارتوني صغير في مكانه، والتفتتْ، واجهتْه مرّة أخرى، بعينين ثقيلتين، ويدين فارغتين متدلّيتين. ساد الصمت لبعض الوقت.

"إذنْ خرج زوجك من ربع ساعة! ولم يقلْ متى سيعود؟".

"لم يخرج وحده" السيدة ڤيرلوك أدلت بهذا سهواً.

"مع صديق؟".

لمست السيدة ڤيرلوك الجزء الخلفي من شعرها. كان مرتّباً جداً.

"رجل غريب".

"فهمتُ. أيّ نوع من الرجال كان هذا الرجل الغريب، هل لديك مانع في أن تقولي لي؟".

ليس لدى السيدة ڤيرلوك أيّ مانع. وعندما سمع كبير المفتّشين هيت عن رجل داكن، نحيل، ووجهه طويل يلفّ شاربيه إلى أعلى، ظهرتْ عليه علامات قلق، وهتف:

"سبقني، لو أني لم أفكّر بهذه الطريقة! هو لا يضيّع أيّ وقت".

تبرّم بشدّة في قرارة نفسه من التصرّف غير الرسمي لرئيسه المباشر. لكنه لم يكن خيالياً. لقد فقد كل رغبته في انتظار عودة السيد ڤيرلوك. لا يعرف لأيّ غرض خرجا، لكنه تصوّر أن من الممكن عودتهما معاً. القضية لم تتمّ متابعتها بشكل صحيح، هناك تلاعب، فكّر بمرارة.

"أخشى أني لا أملك الوقت لانتظار زوجك" قال.

السيدة ڤيرلوك تلقّتْ هذا التصريح بلا مبالاة. لا مبالاتها أعجبتْ كبير المفتّشين هيت طوال الوقت. في تلك اللحظة بالذات تحرّك فضوله. كبير المفتّشين هيت في مهبّ الريح، تأرجحه عواطفه مثل أغلب المواطنين العاديين.

"أظنّ" قال وهو ينظر لها بثبات، "أنك تستطيعين تقديم فكرة جيدة عمّا يحدث هنا، لو أحببتِ".

أرغمت عينيها الجميلتين الثابتتين على مبادلته النظرة، تذمّرت السيدة ڤيرلوك:

"ما يحدث! ما الذي يحدث؟"

"حسناً، القضية التي جئتُ للحديث حولها قليلاً مع زوجك".

في ذلك اليوم، نظرت السيدة ڤيرلوك بسرعة إلى صحف الصباح كالعادة. لكنها لم تتحرّك خارج المنزل. الأولاد الذين يبيعون الصحف لا يأتون إلى بريت ستريت على الإطلاق. الشارع لم يكن مناسباً لتجارتهم. وصدى صرخاتهم كان يتردّد على طول الطريق العام المزدحم، وينتهي بين جدران الطابوق الوسخ دون أن يصل إلى عتبة المتجر. زوجها لم يجلب صحف المساء إلى المنزل. لم ترها على أيّ حال. السيدة ڤيرلوك لا تعرف أيّ شيء عن أيّ قضية. قالتْ هذا، مع نبرة ذهول حقيقية في صوتها الهادئ.

لم يصدّق كبير المفتّشين هيت بهذا الجهل كله. باقتضاب، وبفظاظة، أخبرها بذلك.

السيدة ڤيرلوك صرفتْ عينيها بعيداً.

"هذه سخافة!" قالتْ ببطء. توقّفتْ قليلاً. "نحن لسنا عبيداً مسحوقين هنا".

انتظر كبير المفتّشين بترقّب. لم تقلْ شيئاً أكثر من ذلك.

"وزوجك لم يذكر لكِ أيّ شيء عند عودته إلى المنزل؟"

حرّكت السيدة ڤيرلوك وجهها ببساطة من اليمين إلى اليسار في إشارة إلى النفي. صمتٌ مرهق محيّر ساد المتجر. شعر كبير المفتّشين هيت بغضب يفوق الاحتمال.

"هناك مسألة صغيرة أخرى" بدأ بنبرة قاطعة، "ما أريد الحديث عنه مع زوجك. وصل إلى أيدينا، ما ... ما نظنّ أنه ... معطف مسروق".

كانت السيدة ڤيرلوك مدركة لوجود اللصوص ذلك المساء بشكل خاصّ. لمستْ برفق صدر ثوبها.

"لم نفقد أيّ معطف" قالتْ بهدوء.

"هذا مضحك" تابع كبير المفتّشين هيت. "أرى أنك تحتفظين بالكثير من الحبر الأسود هنا ...".

أخذ قنّينة صغيرة، ونظر لها أمام مصباح الغاز في وسط المتجر.

"بنفسجي. أليس كذلك؟!" قال وهو يُعيده إلى مكانه. "كما قلتُ، هذا غريب. لأن المعطف فيه علامة مخيطة في الداخل مع عنوانك مكتوب بالحبر الأسود".

مالت السيدة ڤيرلوك على المنضدة، وتنهّدت في ذهول.

"إنه أخي، إذنْ".

"أين أخوكِ؟ هل يمكنني رؤيته؟" سألها كبير المفتّشين باهتمام. مالت السيدة ڤيرلوك أكثر على المنضدة.

"لا. هو ليس هنا. أنا كتبتُ العنوان بنفسي".

"أين أخوكِ الآن؟".

"يسكن بعيداً مع ... صديق ... في الريف".

" جاء المعطف من الريف. وما اسم الصديق؟".

"ميكيلس" اعترفتْ السيدة ڤيرلوك بهمس مرعب. زفر كبير المفتّشين من بين أسنانه، وطرفتْ عيناه.

"بالضبط. عظيم. والآن أخوك، كيف يبدو - غلاماً قوياً، داكناً - إيه؟".

"أوه، لا" صرخت السيدة ڤيرلوك بحماس. "يجب أن يكون هذا اللص. ستيڤي نحيل وأشقر".

"جيد" قال كبير المفتّشين بنبرة موافقة. وبينما السيدة ڤيرلوك تترنّح بين الذعر والعجب، نظرتْ له، وهو كان يرغب في المزيد من المعلومات. لماذا خيط العنوان بهذه الطريقة داخل المعطف؟ وسمع أن البقايا المشوّهة التي فحصها ذلك الصباح باشمئزاز شديد كانت لشابّ، متوتّر، شارد الذهن، غريب الأطوار، وأن هذه المرأة التي يتحدّث معها مسؤولة عن الصبي منذ أن كان طفلاً.

"ينفعل بسهولة؟" سألها.

"آه، نعم. هو هكذا. لكنْ ما الذي حدث حتّى يفقد معطفه؟! ..."

سحب كبير المفتّشين هيت صحيفة وردية كان قد اشتراها قبل أقلّ من نصف ساعة. كان مهتماً بالخيول. أُرغم بسبب مهنته على سلوك الشك والريبة تجاه مواطنيه، تحرّر كبير المفتّشين هيت من غريزة السذاجة المتأصّلة في قلب البشر، بأن يضع إيمانه المطلق بأنبياء الرياضة في الإصدار الخاصّ لذلك المساء. أسقط الشيء الإضافي الخاصّ على المنضدة، غرز يده في جيبه مرّة أخرى، وسحب منها قطعة القماش التي

أهداها له القَدَر من بين كومة أشياء، كانت تبدو كما لو أنها جُمعت في فوضى وأسمال محلات بيع المستعمل، قدّمها للسيدة ڤيرلوك لتراها.

"أظنّ أنك تعرفين هذا؟".

أخذت قطعة القماش بكلتَا يديها بشكل آليّ. بدت عيناها كما لو أن حجمهما يزداد بينما تنظر لها.

"نعم" همستْ، وبعدها رفعتْ رأسها، وترنّحتْ قليلاً إلى الوراء.

"ماذا حدث حتّى تمزّق المعطف بهذه الطريقة؟"

انتزع كبير المفتّشين قطعة القماش من يدها من على المنضدة، جلستْ بتثاقل على الكرسيّ. قال لنفسه: التحقيق قد اكتمل الآن. وفي تلك اللحظة، اتّضحتْ له الحقيقة المذهلة بأكملها. ڤيرلوك هو "الرجل الآخر".

"سيدة ڤيرلوك" قال، "يبدو لي أنك تعرفين معلومات عن قضية القنبلة أكثر ممّا أنتِ نفسك مدركة لذلك".

ظلّت السيدة ڤيرلوك تجلس دون حراك، مصعوقة، ضائعة في ذهول لا حدود له. ما العلاقة بين كلّ ما قاله؟ وأصبحت جامدة جداً حتّى إنها لم تكن قادرة على تحريك رأسها نحو جلجلة جرس الباب التي تسبّب بها كبير المفتّشين هيت في دورانه حول كعبه. أغلق السيد ڤيرلوك الباب، ونظر الرجلان إلى بعضهما للحظة.

السيد ڤيرلوك، ودون أن ينظر إلى زوجته، مشى نحو كبير المفتّشين الذي ارتاح لرؤيته عائداً وحده.

"أنت هنا!" تمتم السيد ڤيرلوك بصعوبة. "عمّنْ تبحث؟".

"لا أحد" قال كبير المفتّشين هيت بنبرة خافتة. "انظر هنا! أريد الحديث معك قليلاً".

السيد ڤيرلوك كان لا يزال شاحباً، عاد مع شيء من الحزم في ملامحه. قال وهو لا يزال لا ينظر إلى زوجته:

"تعال، هنا، إذنْ" وقاد الطريق إلى غرفة الجلوس.

حالما أُغلق الباب بقوّة، قفزت السيدة ڤيرلوك من الكرسيّ، ركضتْ نحو الباب، كما لو أرادتْ رَفْسَهُ لِفَتْحِهِ، لكنْ بدلاً من ذلك، سقطتْ على ركبتيها، ووضعتْ أذنها على ثقب الباب. يجب أن يكون الرجلان قد توقّفا مباشرة عند دخولهما لأنها سمعتْ صوت كبير المفتّشين بوضوح، رغم أنها لا تستطيع أن ترى أصبعه، وهو يضغط على صدر زوجها بشدّة.

"أنت الرجل الآخر، ڤيرلوك. شُوهد رجلان يدخلان الحديقة العامّة".

وصوت السيد ڤيرلوك قال:

"حسناً، خذني الآن. ما الذي يمنعكَ؟ لديكَ الحقّ في ذلك".

"أوه، لا! أنا أعرف جيداً لمَن منحت نفسكَ دون تردّد. وسوف يدير هذه القضية الصغيرة كلها بنفسه. لكنْ لا ترتكب أيّ خطأ، لأني أنا مَن سيعثر عليكَ".

وبعد ذلك، سَمِعت همهمة فقط. يجب أن يكون كبير المفتّشين هيت قد عرض على السيد ڤيرلوك الخرقة من معطف ستيڤي لأن أخت ستيڤي، الوصية عليه والحامية له، سمعتْ صوت زوجها يعلو قليلاً.

"لم أنتبه أبداً إلى أنها اهتدتْ إلى هذه الحيلة".

ومرّة أخرى، لم تسمع السيدة ڤيرلوك إلا همهمة لبعض الوقت، كانت غريبة وأقلّ رعباً لدماغها من التلميحات المروّعة للكلمات المسموعة. بعد ذلك، رفع كبير المفتّشين هيت صوته على الجانب الآخر من الباب:

"يجب أن تكون مجنوناً".

وردّ صوت السيد مع شيء من غضب شديد:

"أنا مجنون لشهر أو أكثر، لكني لستُ مجنوناً الآن. انتهى الأمر. سوف أكشف كل شيء، وأنا مسؤول عن العواقب" ساد صمت لبعض الوقت، وبعد ذلك همهم المواطن هيت:

"ما الذي ستكشفه؟".

"كل شيء" وضح صوت السيد ڤيرلوك، وانخفض جداً إلى أدنى حدّ.

وبعد فترة قصيرة، ارتفع مرّة أخرى.

"أنت تعرفني منذ عدّة سنوات الآن، ولقد وجدتَني نافعاً أيضاً. أنت تعرف بأني رجل صريح. نعم، صريح".

هذه المناشدة لمعرفة شخصية قديمة، يجب أن تكون كريهة للغاية بالنسبة لكبير المفتّشين.

اتّخذ صوته نبرة تحذير.

"لا تثق كثيراً بما قد وُعِدْتَ به. لو كنتُ مكانك، أُغادر فوراً. لا أظنّ بأننا سنلاحقكَ".

سمعت السيد ڤيرلوك يضحك قليلاً.

"أوه، نعم. أنت تأمل أن يزيحني الآخرون من طريقك - أليس كذلك؟ لا، لن تتخلّص مني بهذه السهولة. كنتُ رجلاً موثوقاً لهؤلاء الناس لفترة طويلة، والآن كل شيء يجب أن ينكشف".

"دعه ينكشف، إذنْ" وافق الصوت اللامبالي لكبير المفتّشين. "لكنْ أخبرني الآن كيف وجدتَ طريقة للهروب؟".

"كنتُ في طريقي إلى تشيسترفيلد ووك" سمعت السيدة ڤيرلوك صوت زوجها "عندما سمعتُ صوت الانفجار، بدأتُ بالركض. ضباب. لم أرَ أحداً حتّى وصلتُ نهاية جورج ستريت. لا أظنّ أني رأيتُ أحداً حتّى ذلك الحين".

"هكذا، بهذه السهولة!" كان يبدو التعجّب على صوت كبير المفتّشين هيت. الانفجار روّعكَ، أليس كذلك؟".

"نعم، حدث بسرعة" اعترف صوت السيد ڤيرلوك الحزين، الأجشّ.

ضغطت السيدة ڤيرلوك أذنها على ثقب الباب، كانت شفتاها زرقاوين، ويداها باردتين جداً، ووجهها شاحباً، فيه بدت عيناها مثل ثقبين أسودين، كانت تشعر كما لو أحاطت بها النيران.

على الجانب الآخر من الباب، الأصوات انخفضت جداً. ويني كانت تلتقط بعض الكلمات بين الحين والآخر، أحياناً صوت زوجها، وأحياناً نبرات سلسلة من كبير المفتّشين هيت. سمعتْ هذه العبارة أخيراً:

"نحن نظنّ أنه قد تعثّر بجذع شجرة؟".

كان هناك همهمة قوية وهذر استمرّا لبعض الوقت، وبعد ذلك، تحدث كبير المفتّشين، كأنه كان يجيب عن بعض الأسئلة بشكل قاطع.

"بالتأكيد. انفجر إلى قطع صغيرة، أطراف، حصى، ملابس، عظام، شظايا - اختلطت جميعاً مع بعضها. سأقول لك: لقد اضطرّوا إلى إحضار مجرفة لجمعه مع بعضه".

قفزت السيدة ڤيرلوك فجأة من مكان جثومها على ركبتيها، ضغطت يديها على أذنيها، وترنّحت جيئة وذهاباً بين المنضدة والرفوف على الحائط خلف الكرسي. انتبهت عيناها المذعورتان إلى صحيفة الرياضة التي تركها كبير المفتّشين هيت، وعندما اصطدمتْ بالمنضدة، انتزعتْها، سقطتْ على الكرسي، مزّقت الصحيفة الوردية المتفائلة بالعرض تماماً في محاولة لفَتْحها، وبعدها رمتْها على الأرض. من الجانب الآخر للباب، كبير المفتّشين هيت كان يقول للسيد ڤيرلوك، العميل السّرّي:

"وهكذا دفاعكَ سيكون - عملياً - اعترافاً كاملاً؟".

"سيكون. أنوي قول القصّة كاملة".

"لن تُصدَّق قصّتُكَ بالقدر الذي تتخيّله".

وبقي كبير المفتّشين رصيناً. اتّخذت القضية منعطفاً قد يؤدّي إلى كشف الكثير من الأشياء - وحتّى ضياع حقول من المعرفة، حرثها رجل بارع، لديه تقدير ملحوظ للفرد والمجتمع. كان مؤسفاً، تطفّل مؤسف. سيترك ميكيلس سالماً دون أذى، سوف يُسلّط الضوء على المعمل في منزل البروفيسور، يُفسد نظام المراقبة بأكمله، لن يضع نهاية لضجيج الصحف التي، من وجهة النظر تلك ظهرت له في إضاءة مفاجئة، تُكتب بثبات من قِبَل الحمقى من أجل أن يقرأها المعتوهون. ذهنياً، أتّفق مع كلمات السيد ڤيرلوك التي أشار لها أخيراً في إجابة على ملاحظته الأخيرة.

"ربمّا، لا. لكنْ سوف تُقلب الكثير من الأشياء رأساً على عقب. لقد كنتُ رجلاً صريحاً، وسأظلّ صريحاً في هذه ...".

· "إذا سمحوا لكَ" قال كبير المفتّشين بسخرية. "سوف تُلقي خطاباً بلا شك قبل أن يضعوكَ في قفص الاتّهام. وفي النهاية ربّما ستحصل على حكم يفاجئكَ. لن أثق كثيراً بالرجل الذي تحدّثتَ معه".

السيد ڤيرلوك كان يُصغي عابساً.

"نصيحتي لك أن تغادر طالما بإمكانك ذلك. ليس لديّ أيّ تعليمات. هناك بعض منهم" تابع كبير المفتّشين هيت، بذل جهداً غريباً في نطق كلمة "منهم"، "يظنّون أنك قد ذهبت عن هذا العالم بالفعل".

"حقاً" تأثّر السيد ڤيرلوك. رغم أنه منذ عودته من غرينتش، قضى معظم وقته في بار سَكَن عامّ مظلم صغير، وبالكاد كان يأمل بسماع مثل هذه الأخبار الإيجابية.

"هذا هو الانطباع عنك" أومأ كبير المفتّشين له. "تَلاشَ. غادرْ".

"إلى أين؟" زمجر السيد ڤيرلوك. رفع رأسه، وحدّق في الباب المغلق لغرفة الجلوس، تمتم بمشاعره: "أتمنّى فقط أن تأخذني بعيداً الليلة. أريد أن أغادر بهدوء".

"يمكن ذلك" وافق كبير المفتّشين ساخراً، وهو يتبع اتّجاه نظرته.

ظهر على جبين السيد ڤيرلوك رطوبة خفيفة. خفض صوته الأجش بثقة أمام كبير المفتّشين الهادئ.

"الفتى كان أبلهاً، غير مسؤول. أيّ محكمة سوف ترى ذلك فوراً. لا يصلح إلا في مشفى الأمراض النفسية. وهذا أسوأ ممّا كان ممكن أن يحدث له إذاً".

همس كبير المفتّشين ويده على مقبض الباب للسيد ڤيرلوك:

"ربّما هو أبله، لكنْ يجب أن تكون أنت مجنوناً. ما الذي غيّب عقلكَ بهذه الطريقة؟".

السيد ڤيرلوك وهو يفكّر بالسيد ڤلاديمير لم يتردّد في اختيار الكلمات.

"خنزير الأصقاع الشمالية" همس بكراهية. "ما قد تسمّونه - سيد".

كبير المفتّشين مع عينيه الثابتتين، عبّر بإيماءة موجزة على فَهْمه، وفتح الباب. السيدة ڤيرلوك خلف المنضدة ربّما سمعت الجلجلة العدوانية للجرس عند مغادرته، لكنها لم تره. جلستْ في مكان عملها خلف المنضدة. جلست باستقامة متصنّعة في الكرسي مع قطعتين قذرتين من الصحيفة، تفترشهما عند قَدَمَيها. راحتا يديها تضغطان بتشنّج على وجهها. وأطراف أصابعها منكمشة عند جبهتها، كما لو أن الجلد كان قناعاً مستعدّة لتمزيقه بعنف. الثبات التامّ لجلستها عبّر عن انفعال من الغضب واليأس، عن كل القسوة الكامنة في المشاعر المأساوية، أفضل من أيّ ردّ فعليّ استعراضيّ تافه للصراخ، وضرب رأس حائر في الجدران. كبير المفتّشين هيت اجتاز المتجر بخطوته المتأرجحة السريعة، نظر لها نظرة خاطفة. وعندما توقّف الجرس المتصدّع عن اهتزازه على شريطه الفولاذيّ الملتويّ لم تتحرّك السيدة ڤيرلوك، كما لو أن وضعية جلوسها تحت تأثير قوّة محكمة من السِّحْر. حتّى شعلتي الغاز على شكل فراشة على طرفي حاملة مصباح معلّقة على شكل حرف T احترقتا دون ارتعاش. في متجر البضائع المشبوهة هذا، المزوّد برفوف خشبية مصبوغة بلون بنّيّ باهت بدا كما لو أنه امتصّ لمعان الضوء، الحلقة الذهبية لخاتم زواج السيدة ڤيرلوك في يدها اليسرى لمعت بقوّة مع هالة نقية مثل قطعة ثمينة من المجوهرات، سقطتْ في صندوق القمامة.

١٠

كان المفوّض المساعد على عجل في عربة تقوده من حيّ في سوهو باتّجاه ويستمنستر، وخرج منها إلى قلب الإمبراطورية التي لا تغيب شمسها. بعض من رجال الشرطة الأقوياء البنية ممّن لا يبدو عليهم بشكل خاصّ إعجابهم بواجب المراقبة لهذا المكان المهيب، أدّوا التحية العسكرية له. دخل عبر البوّابة بلا تكبّر على الإطلاق إلى القسم الإداري لمجلس النوّاب وهو المكان الأفضل في أذهان الملايين من الرجال، التقى أخيراً تودلس الظريف والثائر.

لم يُظهر ذلك الرجل الشابّ الأنيق والجميل استغرابه من الحضور المبكّر للمفوّض المساعد الذي، قيل له، أن يتوقّع حضوره حوالي منتصف الليل. خلص إلى أن حضوره المبكّر جداً دلالة على أن هذه الأمور - مهما كانت - قد سارت بشكل خاطئ. مع تعاطف حاضر دائماً، يوافق الطبيعة المرحة للشباب الوسيمين، شعر بالأسف نحو الحضور العظيم الذي يسمّى "الرئيس" وللمفوّض المساعد أيضاً، الذي بدا له وجهه أكثر تبلّداً وشؤماً من أيّ وقت مضى، وطويلاً جداً بشكل عجيب. "كم هو غريب وأجنبي مظهر هذا الرجل" فكّر في نفسه، بينما كان يبتسم له من مسافة بعيدة بمرح وودّ. وعند اقترابهما من بعضهما، بدأ الحديث مباشرة بنيّة طيّبة، تهدف إلى دفن حرج الإخفاق تحت كومة من الكلمات. كان يبدو الأمر،

كما لو أن الاعتداء الكبير المهدّد لتلك الليلة كان في طريقه إلى الإخفاق تدريجياً. تابع وضيع لـ "ذلك البهيمي تشيزمن" كان منشغلاً في إزعاج المجلس الهزيل جداً بسيل من الإحصاءات المغلوطة الوقحة بلا رحمة. كان تودلس يتمنّى إزعاجهم بانتهاء الوقت كل دقيقة. لكنْ عندها يكون قد خصّص وقتاً للسماح لـ تشيزمن بابتلاع عشائه في وقت فراغه. على أيّ حال، الرئيس لم يكن مقتنعاً بالذهاب إلى المنزل.

"سوف يراك حالاً، كما أظنّ. يجلس وحده تماماً في غرفته، ويتأمّل كل أسماك البحر" استنتج تودلس بمرح. "هيا".

على الرغم من لطف تصرّفه، السكرتير الخاصّ الشابّ (دون مقابل) كان منفتحاً على كل نقاط ضعف الطبيعة البشرية. لم يكن يرغب في إيذاء مشاعر المفوّض المساعد الذي بدا بشكل واضح مثل رجل أفسد عمله. لكن فضوله كان قوياً جداً لكتمانه لمجرّد الشعور بالشفقة. وبينما هما يسيران خلال الممرّات، لم يتمكّن من مقاومة أن يطرح سؤاله برفق من فوق كتفه:

"وذلك السمك الصغير(*)؟".

"حصلتُ عليه" ردّ المفوّض المساعد بإيجاز لا يضمر أيّ نفور.

"جيد. لا يمكنك أن تتصوّر كم يكره هؤلاء الرجال العظام خيبة الأمل في الأشياء الصغيرة".

بعد هذه الملاحظة العميقة، بدا المحنّك تودلس كما لو أنه يتأمّل. على أيّ حال، لم يقل شيئاً لثانيتين كاملتين. وقال بعد ذلك: "أنا سعيد. لكنْ - حسناً - هل هو صغير جداً كما أظهرتَهُ أنت؟".

---

*) sprat: سمك الاسبرط أو الرنجة الصغيرة، نوع من سمك السردين.

"أتعرف ماذا يمكنك أن تفعل بسمكة صغيرة؟" سأله المفوّض المساعد بدوره.

"أضعه أحياناً في علبة السردين" ضحك تودلس، الذي كانت معرفته في موضوع صناعة الصيد حديثة العهد، وبالمقارنة مع جهله بكل الأمور الصناعية الأخرى، هائلة.

"هناك مصانع لتعليب السردين على الساحل الإسباني الذي ..."

قاطع المفوّض المساعد رجل الدولة المبتدئ.

"نعم. نعم. لكن السمك الصغير يُلقَى به أحياناً لاصطياد الحوت".

"حوت. أف!" صاح تودلس وقد حبس أنفاسه. "أنت تلاحق الحوت، إذنْ؟".

"ليس تماماً. ما ألاحقه أكثر شبهاً ب-كلب البحر. أنت لا تعرف ربّما كيف يبدو كلب البحر".

"نعم، أعرف. نحن غارقون حتّى آذاننا بين الكُتُب المتخصّصة - رفوف كاملة مليئة بهذه الكُتُب - مع الألواح .... إنها ضارّة، بغيضة المظهر، بهيمة مقيتة تماماً، مع وجه ناعم الملمس نوعاً ما، وشوارب".

"وصف دقيق" أشاد المفوّض المساعد. "عدا أن سمكتي حليقة الذقن تماماً. لقد رأيتُه. إنه سمكة ظريفة".

"أنا رأيتُه!" قال تودلس بشكّ. "لا أستطيع أن أتصوّر أين رأيتُه؟".

"في نادي المستكشفين، كما أظنّ" قال المفوّض المساعد بهدوء. ومع ذِكْر اسم هذا النادي الاستثنائي للغاية، بدا تودلس خائفاً، وتوقّف لفترة قصيرة.

"هراء" أعترض، لكنْ بنبرة يشوبها الرعب. "ماذا تقصد؟ عضو فيها؟".

"فخرية" همهم المفوّض المساعد من بين أسنانه.

"يا إلهي!" بدا تودلس مذهولاً جداً إلى درجة أن المفوّض المساعد ابتسم قليلاً.

"هذا فيما بيننا فقط" قال.

"هذا أكثر شيء لا أخلاقي سمعتُه في حياتي" قال تودلس بضعف، كما لو أن الدهشة سلبتْه كل قوّة نشاطه في ثانية.

نظر له المفوّض المساعد نظرة متجهّمة. حتّى وصلا إلى باب غرفة الرجل العظيم، حافظ تودلس على صمت مروّع وجادّ، كما لو أنه استاء من المفوّض المساعد لفضحه مثل هذه الحقيقة البغيضة والمزعجة. غيّرت هذه الحقيقة فكرته عن الانتقاء المتطرّف لأعضاء نادي المستكشفين ونقائه الاجتماعي. تودلس كان ثورياً فقط في السياسة، معتقداته الاجتماعية ومشاعره الشخصية يرغب أن يُبقيها نقية دون مساس ما دام يحيا على هذه الأرض التي كان يعتقد عموماً أنها مكان جميل للعيش.

وقف جانباً.

"ادخل دون أن تطرق الباب".

الظلال المنبعثة من أغطية المصابيح المنخفضة ذات اللون الأخضر البراق أضفتْ على الغرفة شيئاً من كآبة الغابات العميقة. عينا الرجل العظيم المتغطرستان كانتا نقطة الضعف في جسده. نقطة ضعف غُلّفت بالسّرّيّة التامّة. عندما تكون الفرصة سانحة، يمنحهما بعض الراحة.

رأى المفوّض المساعد عند دخوله يداً كبيرة شاحبة، تسند رأساً كبيراً،

وتُخفي الجزء العلويّ من الوجه الشاحب الكبير. وضع صندوق الرسائل المفتوح على طاولة الكتابة إلى جانب عدد من الأوراق المستطيلة وحفنة متناثرة من ريش الكتابة. لم يكن هناك أيّ شيء آخر على الإطلاق على السطح المستوي الواسع ما عدا تمثال صغير من البرونز ملفوف برداء، بدا يقظاً بشكل غامض في جموده المظلّل. دعا المفوّض المساعد إلى اختيار كرسيّ، والجلوس. في الضوء الخافت، الملامح البارزة في شخصيّته، الوجه الطويل، الشعر الأسود، نحافته، جعلتْه يبدو أجنبياً أكثر من أيّ وقت مضى.

لم يُظهر الرجل العظيم أيّ استغراب، ولا فضولاً، ولا أيّ نوع من المشاعر. الوضع الجسماني الذي كان يريح فيه عينيه المهدّدتين كان تأمّلياً للغاية. لم يُغيّره، ولو قليلاً. لكن نبرة صوته لم تكن تأمُّلية.

"حسناً! ما الذي اكتشفتَه؟ لقد واجهتَ شيئاً غير متوقّع في الخطوة الأولى".

"ليس غير متوقّع تماماً، سيدي أثلرَد، لقد وجدتُه في حالة نفسية ملائمة".

تحرّك الرجل العظيم حركة طفيفة.

"ينبغي أن تكون واضحاً، من فضلك".

"نعم، سيدي أثلرد. أنت تعرف بلا شك أن معظم المجرمين في وقت ما، أو بعضهم، يشعرون بحاجة لا تُقاوَم للاعتراف - أن يُفرغ المجرم كل ما في صدره لشخص ما - أيِّ شخص. يفعلون ذلك غالباً مع الشرطة. في ذلك الڤيرلوك الذي تمنّى هيت كثيراً إخفاءه وجدتُ رجلاً في تلك الحالة النفسية الاستثنائية. الرجل، أتحدّث على سبيل المجاز، رمى نفسه على

صدري. كان ذلك كافياً من جانبي لأهمس له مَن أنا، وأُضيف "أنا أعرف بأنكَ في صميم هذه القضية" لابدّ أنها كانت معجزة بالنسبة له أننا قد عرفنا ذلك بالفعل، لكنه تقبّل الأمر بهدوء. العجب لم يُعقه للحظة. لم يبقَ لي إلا أن أدسّ له السؤالين: مَن دبّر لكَ هذا؟ ومَن هو الرجل الذي فعل هذا؟ أجاب على السؤال الأوّل مع تأكيد ملحوظ. ومن إجابة السؤال الثاني، عرفتُ أن الرجل مع القنبلة كان شقيق زوجته - شاباً، مخلوقاً ضعيف العقل .... إنها قضية غريبة نوعاً ما - القصّة طويلة جداً بالنسبة لك لتسمعها كلها الآن".

"ما الذي عرفتَه، إذنْ؟" سأل الشخصية المهمّة.

"أولاً، لقد عرفتُ أن السجين السابق ميكيلس لا علاقة له بالقضية، رغم أن الفتى في الحقيقة قد سكن معه مؤقّتاً في الريف حتّى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم. الأكثر احتمالاً أن ميكيلس لا يعرف أيّ شيء حتّى هذه اللحظة".

"هل أنت واثق بخصوص ذلك؟" سأل الشخصية المهمّة.

"واثق تماماً، سيدي أثلرَد. ذلك الرجل ڤيرلوك ذهب إلى هناك ذلك الصباح، وأخذ الفتى بحجّة الذهاب في نزهة في الطرقات. هذه ليست المرّة الأولى التي يفعل فيها هذا، لهذا لم يكن لدى ميكيلس أدنى شك عن أيّ شيء غير عادي. والباقي، سيدي أثلرَد، غضب ذلك الرجل ڤيرلوك لم يترك أيّ شك - لا شيء أيّاً كان. لقد فقد عقله تقريباً بقيامه بمهمّة غير عادية من الصعب أخذها على محمل الجدّ بالنسبة لي ولك، لكنها أظهرت انطباعاً هائلاً عليه بشكل واضح".

نقل المفوّض المساعد الأخبار بشكل رسمي إلى الرجل العظيم الذي

كان يجلس هادئاً، يُريح عينيه تحت ستار يده. وبعد ذلك تحدّث باختصار عمّا اعترف به السيد ڤيرلوك حول تصرُّفات السيد ڤلاديمير وشخصيّته. بدا ذلك قابلاً للتصديق بعض الشيء بالنسبة للمفوّض المساعد. لكن الرجل المهمّ قال:

" هذا كله يبدو رائعاً جداً".

"أليس كذلك؟ ربّما يراها شخص ما نكتة بغيضة جداً. لكن رجالنا تعاملوا معها بجدّيّة، كما يبدو. كان يشعر أنه مهدّد. سابقاً، كما تعلم، كان على صلة مباشرة بالعجوز ستوت - ورتنهايم نفسه، وعَدّ أن خدماته لا غنى عنها. كانت صدمة عنيفة للغاية. أتصوّر أنه قد فقد عقله. أصبح غاضباً وخائفاً. أقول بصدق، انطباعي هو أنه كان يفكّر بأن رجال السفارة ليسوا قادرين على طرده فحسب، بل والتخلّص منه أيضاً، بطريقة أو بأخرى ...".

"كم من الوقت بقيتَ معه؟" قاطعه الرجل المهمّ من وراء يده الكبيرة.

"حوالي أربعين دقيقة، سيدي أثلرَد، في فندق ذي سمعة سيّئة، اسمه "كونتيننتل هوتيل"، جلستُ معه في غرفة صغيرة، أجّرتُها لليلة. وجدتُه تحت تأثير ردّة الفعل التي تتبع كل جريمة. لا يمكن تعريف الرجل على أنه مجرم قاس. من الواضح أنه لم يخطّط لموت ذلك الفتى البائس - شقيق زوجته. كان هذا صدمة بالنسبة له - هذا ما لاحظتُه. ربّما هو رجل حسّاس جداً. ربّما كان يحبّ الفتى أيضاً - مَن يدري؟ وربّما كان يأمّل أن الفتى سوف يخرج سالماً من هذه المهمّة، في هذه الحالة سوف يكون من المستحيل تقريباً معرفة حقيقة الأمر. على أيّ حال، لم يجازف بشكل واع بأكثر من إلقاء القبض على الصبي".

توقّف المفوّض المساعد عن تخميناته ليُفكر للحظة.

"رغم ذلك، وفي هذه الحالة الأخيرة، ربّما كان يأمل التستّر على تورُّطه في هذه القضية، هذا أكثر ما أستطيع قوله" تابع، في جهله لتفاني المسكين ستيڤي للسيد ڤيرلوك (الذي كان "صالحاً")، ولحماقته الغريبة جداً، أي في قضية الألعاب النارية القديمة على السّلم التي قاومت لسنوات عديدة توسلات، تملّق، غضب، ووسائل ضغط أخرى استخدمتْها أخته المُحبّة لأن ستيڤي كان مخلصاً.... "لا، لا أتصوّر ذلك. من المحتمل أنه لم يفكّر بذلك على الإطلاق. تبدو فكرة مبالغاً فيها، سيدي أثلرَد، لكن حالة فزعه أوحتْ لي برجل مندفع، بعد محاولة انتحار على أمل أنها سوف تضع نهاية لكل متاعبه، اكتشف أنها لم تكن الحلّ المناسب على الإطلاق".

قدّم المفوّض المساعد هذا التوضيح بنبرة تبريرية. لكنْ في الحقيقة، اللغة المبالغ فيها تجعل بعض الأشياء تبدو واضحة وضوح الشمس، والرجلُ العظيم لم ينزعج. حركة تشنّجية بسيطة من الجسم الضخم الذي يختفي نصفه في ظلمة الظلال الخضراء البرّاقة، ومن الرأس الكبير الذي يستند على اليد الكبيرة، رافق ذلك صوت مخنوق متقطّع، لكنه قوي. الرجل العظيم كان يضحك.

"ماذا فعلتَ معه؟".

أجاب المفوّض المساعد بسرعة:

"عندما بدا حريصاً جداً على العودة إلى زوجته في المتجر، سمحتُ له بالذهاب، سيدي أثلرَد".

"حقاً؟ لكن الرجل سوف يهرب".

"عفواً. لا أظنّ ذلك. إلى أين يذهب؟ علاوة على ذلك، يجب ألا تنسى بأنه يتوقّع الخطر من رفاقه أيضاً. هو هناك في مكانه. كيف يمكن أن

يفسّر مغادرته؟ لكنْ حتّى لو لم يكن هناك عقبات تعيق حُرّيّته في القيام بأيّ شيء، لن يفعل شيئاً. في الوقت الحاضر، ليس لديه طاقة معنوية لاتّخاذ أيّ قرار من أيّ نوع. اسمح لي أن أشير إلى أني لو كُنتُ اعتقلتُه، فإننا سوف نتورّط بمسار عمل معيّن، كُنتُ أريد معرفة نواياك حوله بدقّة أولاً".

نهض الرجل العظيم بتثاقل، جسد مظلّل مهيب في ظلمة ضاربة للخضرة في الغرفة.

"سوف أرى النائب العامّ الليلة، وأُرسل في طلبكَ غداً صباحاً. هل هناك أيّ شيء آخر ترغب في قوله لي الآن؟".

نهض المفوّض المساعد أيضاً، نحيل ومرن. "لا أظنّ، سيدي أثلرَد، ما عدا أني كُنتُ أنوي الخوض في التفاصيل التي -".

"لا. لا تفاصيل. من فضلك".

بدا الشكل المظلّل الكبير ينكمش بعيداً، كما لو أنه في فزع جسدي من التفاصيل، ثمّ تقدّم إلى الأمام، واسع، هائل، وثقيل، مدّ يداً كبيرة. "قلتَ إن الرجل لديه زوجة؟".

"نعم، سيدي أثلرَد" قال المفوّض المساعد، صافح بتبجيل اليد الممدودة. "زوجة حقيقية، وعلاقة زوجية حقيقية، ومحترمة. قال لي إنه بعد مقابلته في السفارة كان ينوي التخلّي عن كل شيء، فكّر في بيع دكّانه ومغادرة البلاد، لكنه شعر أن زوجته لا تريد حتّى سماع موضوع الذهاب إلى الخارج. لا شيء يمكن أن يبين احترام العلاقة الزوجية أكثر من هذا" تابع مع مسحة من الحزن، المفوّض المساعد سوف ترفض زوجته أيضاً سماع موضوع الذهاب إلى الخارج. "نعم، زوجة حقيقية. والضحية كان شقيقاً حقيقياً للزوجة. من وجهة نظر لا ريب فيها نحن هنا أمام دراما عائلية".

ضحك المفوّض المساعد قليلاً، لكن أفكار الرجل العظيم بدت أنها ذهبت بعيداً، ربّما إلى أسئلة عن سياسة بلاده الداخلية، أرض المعركة لبسالته العسكرية في الحرب الصليبية ضدّ الكافر تشيزمن. انسحب المفوّض المساعد بهدوء غير ملحوظ، كما لو أنه قد نُسي بالفعل.

لديه غرائزه القتالية. هذه القضية التي بطريقة أو بأخرى أثارت اشمئزاز كبير المفتّشين هيت، بدت له كما لو أنها نقطة البدء التي أرسلتْها السماء لحرب صليبية. كان يتطلّع لوقوعها. مشى ببطء إلى المنزل، متأمّلاً هذا المغامرة في الطريق، ويفكّر بحالة السيد ڤيرلوك النفسية بمزاج مركّب من النفور والارتياح. مشى كل الطريق إلى المنزل. وجد غرفة الاستقبال مظلمة، ذهب إلى الطابق العلوي، وقضى بعض الوقت بين غرفة النوم وغرفة اللبس، يغيّر ملابسه، يمشي ذهاباً وإياباً مع مظهر سائر في نومه غارق في الأفكار. لكنه نفض أفكاره قبل الخروج مرّة أخرى للانضمام إلى زوجته في منزل السيدة النبيلة الراعية لميكيلس.

كان يعرف أنه سيُرحَّب به هناك. عند الدخول إلى أصغر غرفة من غرفتي الضيوف، رأى زوجته بين مجموعة صغيرة بالقرب من البيانو. ملحّن شابّ نجح في أن يصبح مشهوراً، كان يتحدّث وهو يجلس على كرسي البيانو إلى رجلين ضخمين، ظهرهما يبدو لعجوزين، وثلاث نساء نحيلات، ظهورهنّ يبدون لشابّات. خلف حاجز الغرفة كانت السيدة النبيلة تجلس مع شخصين فقط: رجل وامرأة، يجلسان جنباً إلى جنب على كرسيين بذراعين عند طرف أريكتها. مَدّت يدها إلى المفوّض المساعد.

"لم آمل أن أراك هنا الليلة. قالتْ لي آني ...".

"نعم. أنا نفسي لم يكن لديّ فكرة أن عملي سوف ينتهي مبكّراً".

أضاف المفوّض المساعد بصوت منخفض. "يسرّني أن أخبرك بأن ميكيلس بعيد تماماً عن هذه ...".

راعية المبشّر والسجين السابق تلقّت هذا التوكيد بسخط.

"لماذا؟! هل رجالك أغبياء إلى درجة ربطه ب- ...؟!".

"ليسوا أغبياء" قاطعها المفوّض المساعد، عارضها بتبجيل. "أذكياء بما يكفي - أذكياء تماماً لمثل هذه الأمور".

ساد الصمت لبعض الوقت. الرجل عند طرف الأريكة توقّف عن الكلام مع السيدة، ونظر اليهما مع ابتسامة باهتة.

"لا أعرف ما إذا كنتُما قد التقيتُما من قبل" قالت السيدة النبيلة.

تعرّف السيد ڤلاديمير والمفوّض المساعد على بعضهما، وأظهرا مجاملة حذرة ورسمية بينهما.

"هو يحاول أن يُخيفني" قالت السيدة التي تجلس إلى جانب السيد ڤلاديمير فجأة، وهي تومئ برأسها نحو ذلك السيّد. المفوّض المساعد كان يعرف السيدة.

"لا يبدو أنك خائفة" قال بعد أن نظر لها بتمعّن بنظرته المرهقة والجادّة. في غضون ذلك كان يفكّر بأن في هذا المنزل يلتقي المرءُ الجميعَ، إن عاجلاً أم آجلاً. الوجه الوردي للسيد ڤلاديمير الظريف تعلوه ابتسامة، لكنْ ظلّت عيناه جادّتين مثل عينَي رجل مقنع.

"حسناً، هو حاول على الأقلّ" أصلحت السيدة الأمر.

"قوّة العادة ربّما" قال المفوّض المساعد، مدفوعاً بأفكار لا تُقاوَم.

"لقد هدّد المجتمع بكل أنواع الفظائع" تابعت السيدة التي كان نطقها بطيئاً، وصوتها متغنّجاً، "فيما يتعلّق بذلك الانفجار في غرينتش بارك. يظهر أن علينا جميعاً أن نُصاب بالذعر ممّا سيأتي، إذا لم يتمّ قَمْعُ هؤلاء الناس في أنحاء العالم جميعه. لم أكن أتصوّر أنها كانت قضية خطيرة إلى هذا الحدّ".

السيد ڤلاديمير، تظاهر أنه لم يسمع، مال باتّجاه الأريكة، وهو يتحدّث بشكل ودّي وبنبرة خافتة، لكنه سمع المفوّض المساعد يقول:

"أنا لا أشك بأن السيد ڤلاديمير لديه رأي دقيق جداً عن أهمّيّة هذه القضية".

سأل السيد ڤلاديمير نفسه ماذا يدبّر هذا الشرطي المرتبك والمتطفّل. كرجل انحدر من أجيال كانت ضحايا أجهزة السلطة التعسّفية، كان خائفاً بشكل عنصري، قومي وشخصي من الشرطة. كان هذا خوفاً موروثاً، منفصلاً تماماً عن حكمه، عقله، وتجربته. لقد وُلد به. لكن هذا الشعور الذي يشبه الرعب غير العقلاني لبعض الناس من القطط، لم يقف عائقاً في طريق احتقاره الكبير للشرطة الإنكليزية. ختم العبارة الموجّهة للسيدة النبيلة، وحرّك نفسه قليلاً في كرسيه.

"أنت تقصد أن لدينا تجربة عظيمة مع هؤلاء الناس. نعم، بالتأكيد، نحن نعاني كثيراً من نشاطهم، بينما أنت ..." تردّد السيد ڤلاديمير للحظة، مع ابتسامة ذهول - "بينما أنت تتحمّل وجودهم بين ظهرانيك بكل سرور" انتهى من كلامه، وظهرت غمّازتاه على خدّيه الحليقين. وأضاف بمبالغة أكبر: "ربمّا أودّ حتّى أن أقول: لأنك تفعل هذا".

عندما توقّف السيد ڤلاديمير عن الكلام، خفض المفوّض المساعد

نظرته، وترك المحادثة. وبعد ذلك على الفور، غادر السيد ڤلاديمير. بعد أن أدار ظهره للأريكة مباشرة، نهض المفوّض المساعد أيضاً.

"ظننتُ أنك تنوي البقاء، وتأخذ آني معك إلى المنزل" قالت السيدة الراعية لميكيلس.

"اكتشفتُ الآن أن لديّ القليل من العمل للقيام به هذه الليلة".

"له علاقة بـ ...؟".

"حسناً، نعم، نوعاً ما".

"أخبرني، ما هو هذا العمل بالضبط - هذه القضية المرعبة؟".

"من الصعب قول ذلك، لكنه قد تصبح cause célébre (قضية مشهورة)" قال المفوّض المساعد.

غادر غرفة الاستقبال بسرعة، ووجد أن السيد ڤلاديمير لا يزال في الردهة، بينما هو كان يلفّ وشاحاً حريرياً كبيراً حول حنجرته بعناية. خلفه كان أحد الخدم ينتظر وهو يمُسك معطفه. والآخر كان يقف مستعدّاً لفَتْح الباب. المفوّض المساعد تمّت مساعدته كما ينبغي في ارتداء سترته، وخرج فوراً. بعد نزول الدرجات الأمامية لشرفة المنزل توقّف، كما لو أنه كان يفكّر أيّ طريق ينبغي أن يسلك. وعندما رأى السيد ڤلاديمير ذلك من خلال الباب المفتوح، تريّث في الردهة، أخرج سيجارة، وطلب وَلعة. زُوّده رجل مسنّ بها في زيّ خادم مع مظهر من الاهتمام والهدوء. لكن عود الثقاب انطفأ، عندها قد أغلق الخادم الباب، والسيد ڤلاديمير أشعل سيجارته الهافانا الكبيرة بعناية ودون جهد. عندما خرج أخيراً من المنزل رأى باستياء "الشرطي المرتبك" لا يزال واقفاً على الرصيف.

"هل من الممكن أنه ينتظرني؟" فكّر السيد ڤلاديمير وهو ينظر بكل اتّجاه بحثاً عن عربة تقلّه. لم يرَ شيئاً. زوج من العربات كان ينتظر إلى جانب حجر الرصيف، مصابيحهما تتّقد بثبات، الخيول كانت تقف ساكنة تماماً كما لو أنها منحوتة في حجر، سائقا العربتين يجلسان بلا حراك تحت رداء كبير من الفرو، ودون حتّى رعشة تهزّ السير الأبيض لسياطهم الكبيرة. سار السيد ڤلاديمير، واندفع "الشرطي المرتبك" يخطو على مقربة منه. لم يقل شيئاً. وبعد الخطوة الرابعة، شعر السيد ڤلاديمير بالغضب وعدم الارتياح. لا يمكن لهذا الحال أن يستمرّ.

"طقس سيّئ" دمدم بغضب.

"معتدل" قال المفوّض المساعد دون انفعال. ظلّ صامتاً لبعض الوقت. "لقد ألقينا القبض على رجل يُدعى ڤيرلوك" ذَكَرَ ذلك بلامبالاة. السيد ڤلاديمير لم يتعثّر، لم يترنّح إلى الوراء، لم يغيّر خطوته. لكنه لم يمنع نفسه من الصراخ:

"ماذا؟" لم يردّ المفوّض المساعد على سؤاله. "أنت تعرفه" تابع بالنبرة نفسها.

توقّف السيد ڤلاديمير، وأصبح صوته أجشّ.

"ما الذي جعلكَ تقول ذلك؟".

"لم أفعل. ڤيرلوك هو مَن قال ذلك".

" كلب كذّاب" قال السيد ڤلاديمير بلغة شرقية مميّزة إلى حدّ ما. لكنْ في قلبه كان مرعوباً من الذكاء الخارق للشرطة الإنكليزية. تغيير رأيه حول

الموضوع في تلك اللحظة كان عنيفاً إلى الحدّ الذي جعله للحظة يشعر بالغثيان قليلاً. رمى سيجارته بعيداً، ومضى.

"ما يسرّني أكثر في هذه القضية" تابع المفوّض المساعد كلامه ببطء، "أنها صنعت نقطة انطلاق ممتازة لإصلاح العمل الذي شعرتُ بأنه يجب أن يكون تحت سيطرتنا منذ زمن طويل - هذا كل شيء، تنظيف هذه البلاد من كل جواسيس السياسة الخارجية، العملاء وهذا النوع من - من - الكلاب. هم مصدر إزعاج مروّع برأيي، ويشكّلون خطراً لنا أيضاً. لكنْ لا يمكننا البحث عنهم واحداً واحداً. الطريقة الوحيدة هي جعل عملهم مزعجاً لرؤسائهم. أصبحت الحالة غير لائقة تدريجياً. وخطيرة أيضاً، بالنسبة لنا، هنا".

توقّف السيد ڤلاديمير للحظة مرّة أخرى.

"ماذا تقصد؟".

"مقاضاة هذا الڤيرلوك سوف يكشف للشعب كلاً من الخطر والبذاءة على حدّ سواء".

"لن يصدّق أحد ما سيقوله رجل من هذا النوع" قال السيد ڤلاديمير باستخفاف.

"وفرة ودقّة التفاصيل سوف تعزّز قناعة مجموعة كبيرة من الناس" ردّ المفوّض المساعد بلطف.

"إذنْ هذا ما تنوي فعله بجدّيّة".

"لقد قبضنا على الرجل، ليس لدينا خيار آخر".

"كل ما ستناله هو تغذية روح الكذب لدى هؤلاء الثوريين الأوغاد"

احتجّ السيد ڤلاديمير. "ماذا تريد أن تصنع من هذه الفضيحة؟ درساً أخلاقياً، أم ماذا؟".

قلقُ السيد ڤلاديمير كان واضحاً. تيقّن المفوّض المساعد بهذه الطريقة من أن هناك بعض الحقيقة في التصريحات الموجزة للسيد ڤيرلوك، قال بلا مبالاة:

"هناك جانب عملي أيضاً. لدينا في الواقع عمل فعلي ينبغي القيام به. لا يمكنك القول بأننا لا نعمل بفعالية. لكننا لن نسمح للزائفين بإزعاجنا تحت أيّ ذريعة".

نبرة السيد ڤلاديمير أصبحت متغطرسة.

"من جهتي، لا أستطيع أن أشاركك وجهة نظرك. إنها أنانية. مشاعري تجاه بلدي ليست محلّ شك، لكني أشعر دائماً أننا يجب أن نكون أوربيين صالحين أيضاً - أقصد كحكومات وشعوب ..."

"نعم" قال المفوّض المساعد ببساطة. "مجرّد أنك تنظر إلى أوروبا من طرفها الآخر. لكنْ ..." استمرّ بنبرة ودّيّة، "الحكومات الأجنبية لا يمكن أن تشكو من كفاءة الشرطة لدينا. انظر إلى هذا الاعتداء، حالة خاصّة كان من الصعب جداً اقتفاء أثرها، لأنه كان خُدعة. في أقلّ من اثني عشر ساعة حدّدنا هوية الرجل الذي انفجر إلى أشلاء حرفياً، عثرنا على الجهة المنظّمة للمحاولة، ولدينا لمحة إلى المحرّض الذي يقف وراءها. ويمكننا المضي قُدُماً، مجرّد أننا توقّفنا عند حدود أراضينا".

"إذنْ تريد القول إن هذه الجريمة التعليمية قد خُطِّط لها في الخارج؟" قال السيد ڤلاديمير بسرعة. "أنت تعترف بأن الجريمة قد خُطّط لها في الخارج؟".

"من الناحية النظرية. النظرية فقط، في الأراضي الأجنبية، خارج الحدود، نظرياً على أرض أجنبية" قال المفوّض المساعد، مُنوّهاً إلى أرض السفارات التي من المفترض أن تكون جزءاً لا يُجتزأ من البلد الذي تنتمي له. "لكنها مهمّة خاصّة. تحدّثتُ لك عن هذه الأعمال لأن حكومتك غالباً ما تتذمّر من نظام الشرطة لدينا. ها أنت ترى أننا لسنا سيئين إلى هذا الحد. أردتُ أن أخبرك على انفراد عن نجاحنا".

"أنا بالتأكيد ممتنّ لك للغاية" همهم السيد ڤلاديمير دون أن يحرّك شفتيه.

"يمكننا وضع أيدينا على كل فوضوي هنا" تابع المفوّض المساعد، كما لو أنه كان يستشهد بقول كبير المفتّشين هيت، "كل ما نحتاجه الآن هو التخلّص من العامل المحرّض من أجل استتباب الأمن".

رفع السيد ڤلاديمير يده إلى العربة المارّة.

"ألن تدخل إلى هنا؟" قال المفوّض المساعد وهو ينظر إلى مبنى القيم الأميرية ومظاهر حسن الضيافة حيث ضوء الردهة الكبيرة الذي أضاءت أشعته السُّلّم العريض للشرفة من خلال أبوابها الزجاجية.

لكن السيد ڤلاديمير كان يجلس داخل العربة، يحدّق أمامه بعينين ثابتتين، وذهب دون أن يقول كلمة. المفوّض المساعد نفسه لم يدخل إلى المبنى الأرستقراطي. كان هذا هو نادي المستكشفين. الفكرة التي كانت تدور في رأسه هي أن السيد ڤلاديمير، العضو الفخري، سوف لن يحضر هناك كثيراً في المستقبل. نظر إلى ساعته. كانت الساعة هي العاشرة والنصف. كان مساؤه حافلاً جداً.

١١

بعد أن غادر كبير المفتّشين هيت، ظلّ السيد ڤيرلوك يمشي جيئة وذهاباً في غرفة الجلوس. من وقت لآخر، كان ينظر إلى زوجته من خلال الباب المفتوح. "الآن هي تعرف كل شيء" فكّر مع شعور بالمواساة لحزنها ومع شيء من الرضا كتقدير لنفسه. روح السيد ڤيرلوك، مع أنها تفتقر إلى النبل ربمّا، كانت قادرة على مشاعر العطاء. احتمال أن ينقل الأخبار السيّئة لها بنفسه أصابه بالذعر. خلّصه كبير المفتّشين هيت من هذه المهمّة. كان هذا جيداً. بقي له الآن مواجهة حزنها.

لم يتوقّع السيد ڤيرلوك أبداً مواجهتها بسبب الموت الذي لا يمكن تبرير طابعه المأساوي بمنطق صعب، أو بلاغة مقنعة. السيد ڤيرلوك لم يقصد أبداً موت ستيڤي بهذه الطريقة العنيفة والمفاجئة. لم يقصد منذ لك موته على الإطلاق. موت ستيڤي كان أكثر إزعاجاً بكثير من وجوده على قيد الحياة. تكهّن السيد ڤيرلوك بنتيجة مرضية لمغامرته، لم يعتمد على ذكاء ستيڤي (الذي كان أحياناً يقوم بحيل غريبة) لكنْ على الطاعة العمياء، وعلى الإخلاص الأعمى للصبي. ورغم أن ڤيرلوك لا يعرف الكثير عن علم النفس، إلا أنه قاسى عمق تعصّب ستيڤي. تجرّأ على إخفاء أمنيّته في أن يمشي ستيڤي بعيداً عن جدران المرصد كما أُمر أن يفعل، من خلال الطريق الذي قطعه معه لعدّة مرّات من قبل، واللحاق بزوج أخته، الحكيم والصالح السيد ڤيرلوك، خارج سياج الحديقة العامّة. خمس

عشرة دقيقة يجب أن تكون كافية لأحمق حقيقي لإيداع القنبلة، والمشي بعيداً. والبروفيسور ضمن لنا أكثر من خمس عشرة دقيقة. لكن ستيڤي تعثّر في خلال خمس دقائق بعد أن تُرك وحده. والسيد ڤيرلوك تمزّق معنوياً إلى أشلاء. كان يتوقّع حدوث أيّ شيء إلا هذا. توقّع أن ينصرف انتباه ستيڤي ويضيع - يبحث عنه - ليجده في أحد مراكز الشرطة، أو الإصلاحيات الإقليمية في النهاية. توقّع اعتقال ستيڤي، ولم يخشَ ذلك لأن السيد ڤيرلوك لديه إيمان قوي بولاء ستيڤي حيث لقّنه - بعناية - ضرورة الصمت خلال نزهات عديدة. مثل فيلسوف متجوّل، يتمشّى السيد ڤيرلوك على طول شوارع لندن، يُعدّل رأي ستيڤي حول الشرطة عن طريق حوارات مليئة بإيضاحات ماكرة. لم يسبق لأيّ فيلسوف أن حصل على مثل هذا الاهتمام والإعجاب من تابع من قبل. الخنوع والتأليه كانا واضحين جداً، إلى الحدّ الذي جعل السيد ڤيرلوك يشعر بشيء يشبه الميل نحو الصبي. على أيّ حال، لم يتوقّع السرعة التي وصل بها الخبر عن صلته بالحادث إلى المنزل. أن تهتدي زوجته إلى أخذ الحيطة بأن تخيط عنوان الصبي داخل معطفه كان آخر شيء يمكن أن يفكّر به السيد ڤيرلوك. لا يستطيع المرء أن يفكّر بكل شيء. إذنْ هذا ما قصدتْه عندما قالت أنْ لا داعي للقلق إذا ضاع ستيڤي خلال نزهاتهما. أكّدتْ له أن الصبي سوف يعود مهما حصل. حسناً، لقد عاد بقوّة!

"حسناً! حسناً!" تمتم السيد ڤيرلوك مندهشاً. ماذا كانت تقصد من ذلك؟ أن تجنّبه متاعب مراقبة ستيڤي بقلق؟ كانت نيّتها حسنة على الأرجح. كان يجب عليها فقط أن تُخبره عن اتّخاذها مثل هذا الاحتياط.

مشى السيد ڤيرلوك خلف منضدة المتجر. لم يكن في نيّته مواجهة زوجته بعتاب مرير. السيد ڤيرلوك لا يشعر بالمرارة. سير الأحداث غير

المتوقّعة حوّلته إلى عقيدة القضاء والقَدَر. لا يمكن أن يتغيّر أيّ شيء الآن. قال:

"لم أقصد إيذاء الصبي".

ارتعشت السيدة ڤيرلوك عند سماعها صوت زوجها. لم تكشف وجهها. العميل السّرّيّ الأمين للبارون السابق ستوت - ورتنهايم نظر لها لبعض الوقت نظرة ثقيلة، ثابتة، غير مفهومة. صحيفة المساء الممزّقة مُلقاة عند قَدَمَيها. لا يمكن للصحيفة أن تُخبرها الكثير. شعر السيد ڤيرلوك بحاجة إلى الحديث مع زوجته.

"هذا اللعين هيت - ايه؟" قال، "لقد أزعجكِ. إنه بهيمة، أفشى الخبر من غير تفكير إلى امرأة بهذه الطريقة. لقد تعبتُ من التفكير في كيفية إخبارك بالأمر. جلستُ لساعات في القاعة الصغيرة لبار تشيشر تشيز(*)، أُفكّر بالطريقة الأفضل لإخبارك. أنتِ تفهمين بأني لم أقصد الإساءة لذلك الصبيّ أبداً".

السيد ڤيرلوك، العميل السّرّيّ، كان يقول الحقيقة. عاطفتُه الزوجية تلقّت الصدمة الأكبر من الانفجار المنجز قبل أوانه. وأضاف:

"لم أشعر بأيّ سعادة خاصّة وأنا أجلس هناك، وأفكّر بك".

لاحظ رعشة خفيفة أخرى من زوجته، قطعتْ قلبه حزناً لأنها استمرّتْ في إخفاء وجهها بيديها، فكّر أن من الأفضل تركها وحدها لبعض الوقت. بهذا الدافع المرهف انسحب السيد ڤيرلوك إلى غرفة الجلوس مرّة أخرى

(*) Ye Olde Cheshire Cheese: حانة في فليت ستريت في لندن. أُعيد بناؤها بعد حريق لندن الكبير، مكتوب على بابها أسماء كل الملوك والملكات الذين تولوا الحكم منذ بنائه. مكان كئيب مظلم يحتوي على العديد من الزوايا المتداخلة، كان يتردّد عليه الكثير من الكتّاب، مثل: ألفريد تينسون والسير آرثر كونان دويل.

حيث مصباح الغاز يهرهر مثل قطّة مرتاحة. تركت السيدة ڤيرلوك لحم البقر البارد على المائدة مع سكّين وشوكة تقطيع اللحم ونصف رغيف من الخبز لعشاء السيد ڤيرلوك بدافع العناية الزوجية. لاحظ كل هذه الأشياء الآن لأوّل مرّة، قطع لنفسه قطعة من الخبز واللحم، وبدأ في الأكل.

شهيته لا علاقة لها بالقسوة. لم يتناول السيد ڤيرلوك وجبة الإفطار في ذلك اليوم. ترك منزله صائماً. لم يكن رجلاً نشيطاً، وترك نفسه لانفعاله العصبي الذي بدا أنه قد سيطر عليه تماماً. لا يستطيع بَلْعَ أيّ شيء صلب. منزل ميكيلس كان يفتقر إلى الطعام مثل زنزانة سجين. المبشّر والسجين السابق كان يعيش على القليل من الحليب وقشور خبز قديم. علاوة على ذلك، عندما وصل السيد ڤيرلوك كان ميكيلس بالفعل في الطابق العلوي بعد تناول وجبته الهزيلة. مستغرقاً في التعب وسعادة التأليف الأدبي، إلى درجة أنه لم يردّ على صراخ السيد ڤيرلوك فوق الدرج الصغير.

"سآخذ معي هذا الرجل الشابّ إلى المنزل، ليوم أو يومين".

وفي الحقيقة، لم ينتظر السيد ڤيرلوك جواباً، لكنه سار خارج المنزل الريفي فوراً، يتبعه المطيع ستيڤي.

الآن، وقد انتهت الأحداث كلها، وخرج مصيره من بين يديه بسرعة غير متوقّعة، شعر بفراغ جسدي فظيع. قطع شريحة من اللحم، قطع الخبز، والتهم عشاءه وهو يقف إلى المائدة، وبين الحين والآخر كان يُلقي نظرة على زوجته. بقاؤها بلا حراك لفترة طويلة أربك تأمُّلاته المواسية. مشى مرّة أخرى إلى المتجر، واقترب منها كثيراً. هذا الحزن الذي تخفيه خلف يديها جعل السيد ڤيرلوك قلقاً. توقّع بالطبع أن زوجته كانت منفعلة جداً، لكنه أرادها أن تتمالك نفسها. احتاج إلى كل عونها وكل وفائها في هذه الحالة الجديدة أمام القضاء والقَدَر الذي تقبّله بالفعل.

"لا يمكن عمل أيّ شيء" قال بلهجة تعاطف محزنة. "تعالي، ويني، علينا أن نفكّر بالغد. سوف تحتاجين إلى ذكائك كله عندما يُلقون القبض عليّ".

صمت قليلاً. ارتفع صدر السيدة ڤيرلوك بتشنّج. لم يُطمئن هذا السيد ڤيرلوك، الذي رأى أن الوضع الناشئ الجديد يتطلّب من الشخصين الأكثر تورُّطاً بالقضية الهدوء، واتّخاذ القرار، ويتطلّب خصائص أخرى تتعارض مع الاضطراب العقلي للحزن عاطفي. السيد ڤيرلوك كان رجلاً إنسانياً، عاد إلى المنزل، وكان على استعداد السماح لزوجته أن تعبّر عن حزنها على أخيها بحُرّيّة. مجرّد أنه لم يكن يعرف لا طبيعة ولا الحدّ الأقصى لهذه المشاعر. وفي هذا كان معذوراً، منذ أن كان من المستحيل فَهْم هذه المشاعر دون الكفّ عن أن يكون نفسه. كان مذهولاً ومثبطاً، وقال كلامه بلهجة خشنة.

"هل يمكنك أن تنظري لي" قال بعد انتظار لفترة من الوقت.

كما لو أجبر الردّ أن يخرج من خلال يدي السيدة ڤيرلوك اللتين تغطّيان وجهها، ميتاً، مثيراً للشفقة.

"لا أريد أن أنظر لكَ طوال حياتي".

"ايه؟ ماذا؟" اندهش السيد ڤيرلوك بكل بساطة من المعنى السطحي والحَرْفي لهذا التصريح. من الواضح أنها مجرّد صرخة غير معقولة لحزن مبالغ فيه. غطّى هذا التصريح برداء تسامحه الزوجي. عقل السيد ڤيرلوك يفتقر إلى العمق. تحت تأثير الأخطاء حيث قيمة الأفراد تكمن فيما هم عليه في أنفسهم، لم يتمكن ڤيرلوك ربّما من فَهْم قيمة ستيڤي في نظر السيدة ڤيرلوك. تلقّت الحَدَث بامتعاض شديد، هكذا فكّر مع نفسه.

هذا كله بسبب اللعين هيت. ماذا أراد من إزعاج المرأة؟ لكنْ يجب ألا يسمح لها - من أجل مصلحتها - أن تستمرّ بهذه الطريقة حتّى تُجنّ تماماً.

"انظري! لا يمكنك الجلوس هكذا في المتجر" قال بقسوة، لكنْ مع بعض الانزعاج الحقيقي لأن هناك أموراً عملية ملحّة، يجب الحديث عنها إذا كان عليهما السهر طوال الليل. "قد يأتي شخص ما في أيّ لحظة" أضاف، وانتظر مرّة أخرى. لم يُحدث أيّ تأثير، وفكرة حتمية الموت خطرت على بال السيد ڤيرلوك في غضون ذلك. غيّر نبرته. "تعالي. هذا لن يُعيده إلى الحياة مرّة أخرى" قال بلطف، مع شعور أنه على استعداد لأخذها بين يديه، وضمّها إلى صدره حيث الجزع والشفقة يجتمعان جنباً إلى جنب. لكنْ ما عدا رجفة قصيرة، ظلّتْ السيدة ڤيرلوك كما يبدو غير متأثّرة بقوّة تلك البديهية الرهيبة. السيد ڤيرلوك نفسه هو مَن تحرّك. تحرّك ببساطته لتهدئتها، من خلال تأكيد ادّعاءاته الشخصية.

"تصرّفي بعقلانية، ويني. ماذا سيحدث لو فقدتني!".

كان يتوقّع أن يسمعها تصرخ. لكنها لم تتزحزح. انحنتْ إلى الوراء قليلاً، سكتتْ إلى حدّ سكون تامّ، لا يمكن سبر غوره. قلب السيد ڤيرلوك بدأ يدقّ أسرع مع الغضب، ومع ما يشبه الذعر. وضع يده على كتفها، وقال:

"لا تكوني حمقاء، ويني".

لم تمنحه أيّ إيماءة. لا يمكن للمرء التّحدّث مع امرأة، لأيّ سبب، ولا يستطيع رؤية وجهها. قبض السيد ڤيرلوك بشدّة على معصمي زوجته. لكنْ كان يبدو أن يديها ملتصقتان بإحكام. مالتْ بجسدها إلى الأمام عندما شدّهما، وكادت تسقط من الكرسي. أخافه الشعور بارتخائها العاجز، حاول إعادتها على الكرسي، عندما تصلّب فجأة جسدها كله، انتزعتْ نفسها

من بين يديه، ركضتْ خارج المتجر، عبر غرفة الجلوس، وإلى المطبخ. حدث هذا بسرعة كبيرة. مجرّد أنه لمح وجهها والكثير من عينيها ليعرف أنها لم تنظر له.

بدا الأمر وكأنه صراع من أجل حيازة الكرسي لأن السيد ڤيرلوك أخذ مكان زوجته على الفور. السيد ڤيرلوك لم يغطّ وجهه بيديه، لكن أفكاراً كئيبة حجبتْ ملامحه. السجن لا يمكن تجنّبه. لا يرغب الآن في تجنّبه. السجن مكان آمن من انتقامات معيّنة غير شرعية مثل القبر، مع هذه الفائدة: إن في السجن هناك مساحة من الأمل. ما رآه أمامه كان السجن، الإفراج المبكّر، والحياة بعد ذلك في مكان ما في الخارج، كما فكّر من قبل في حال إخفاق المهمّة. حسناً، كان إخفاقاً، حتّى لو لم يكن الإخفاق الذي كان يخشاه تماماً. كان قريباً جداً من نجاح يمكنه مع هذا الدليل على الكفاءة من ترويع السيد ڤلاديمير ليكفّ عن توبيخه القاسي إلى الأبد. أو هكذا على الأقلّ بالنسبة للسيد ڤيرلوك. مكانته عند السفارة كانت ستكون عظيمة لو - لو أن زوجته لم يكن لديها تلك الفكرة المشؤومة بأن تخيط عنوان ستيڤي داخل المعطف. السيد ڤيرلوك، لم يكن أحمقاً، فَهِمَ سريعاً الميزة الاستثنائية للتأثير الذي يملكه على ستيڤي، رغم أنه لم يفهم بالضبط منشأ هذا التأثير ... عقيدة حكمته السامية وطيبة قلبه طبعها في ذهن الصبي سيدتين قلقتين. الاحتمالات كلها التي توقّعها السيد ڤيرلوك قدّرها ببصيرة سديدة وفقاً لولاء ستيڤي الفطري وتقديره الأعمى. الاحتمال الذي لم يتوقّعه أفزعه كرجل عطوف وزوج محبّ. ومن وجهات النظر الأخرى كلها كانت هناك مزايا مفيدة إلى حدّ ما. لكنْ لا شيء يمكن أن يوازي الحذر الأزلي من الموت. عندما كان السيد ڤيرلوك يجلس متحيّراً وخائفاً في قاعة صغيرة من بار تشيشر تشيز، لم يتمكّن من الاعتراف بذلك إلى نفسه لأن إحساسه لم يقف في طريق قراره. التدمير

العنيف لستيڤي، مهما كان التفكير فيه مزعجاً، كان يؤكّد النجاح فقط بكل تأكيد، في أن هدم الجدار لم يكن الهدف من تهديدات السيد ڤلاديمير، لكنْ إحداث تأثير معنوي. مع كثير من المتاعب والألم من جانب السيد ڤيرلوك، يمكن القول إن التأثير قد حدث بالفعل. عندما عاد إلى المنزل بشكل غير متوقّع تقريباً ليجثم في بريت ستريت، السيد ڤيرلوك الذي كما لو أنه رجل قاتل بشجاعة في كابوس من أجل أن يحافظ على منصبه، تقبّل الكارثة بروح مؤمنة بالقضاء والقَدَر. ذهبتْ مكانته، ولم تكن غلطة أحد. تسبّب في حدوث هذا حقيقة صغيرة، بالغة في الصغر. كان مثل أن تنزلق بقشرة برتقال في الظلام، وتنكسر ساقك.

سحب السيد ڤيرلوك نَفَساً متعباً. لم يضمر أيّ كراهية لزوجته. فكّر: سوف تعتني بالمتجر، بينما أكون في السجن. وفكّر أيضاً بأنها ستفتقد ستيڤي بشدّة في البداية، شعر بقلق كبير حول صحّتها وروحها. كيف ستتحمّل وحدتها - وحدها تماماً - في هذا المنزل؟ ينبغي ألا تصبح مجهدة، بينما يكون في السجن! ماذا سيحدث للمتجر عندها؟ المتجر كان شيئاً ثميناً بالنسبة له. رغم أن السيد ڤيرلوك القَدَري تقبّل نهايته كعميل سرّيّ، لكنه لم يكن يرغب في أن يتحطّم تماماً، يجب الاعتراف، مراعاة لزوجته في المقام الأوّل.

صامتة، وخارج حدّ بصره في المطبخ، إنها تؤرقه. لو كانت أمّها معها الآن. لكن تلك السيدة العجوز الساذجة ... فزع شديد سيطر على السيد ڤيرلوك. كان يجب أن يتحدّث مع زوجته. يمكن أن يخبرها بالتأكيد أن الرجل يصبح يائساً تحت ظروف معيّنة. لكنه لن يتمادى إلى درجة أن ينقل لها هذه المعلومات. أوّلاً وقبل كل شيء كان من الواضح بالنسبة له أن في هذا المساء لن يكون هناك وقت للأعمال التجارية. نهض ليُغلق باب المتجر

إلى الشارع، ويُطفئ مصباحه الغازي. وبهذا ضمن عزلته حول حجر الموقد، مشى السيد ڤيرلوك إلى غرفة الجلوس، ونظر نحو المطبخ. السيدة ڤيرلوك كان تجلس في المكان الذي عادة ما كان يثبت عليه ستيڤي المسكين مساء مع ورقة وقلم رصاص لتسليته المفضّلة برسم تلك الالتماعات من دوائر لا تُعدّ ولا تُحصى، توحي بحالة من الفوضى والأبدية. ذراعاها مطويّتان على المائدة، ورأسها مُلقى على ذراعيها. السيد ڤيرلوك تأمّل ظهرها وتسريحة شعرها لبعض الوقت، ومضى - بعد ذلك - بعيداً عن باب المطبخ. فلسفة السيدة ڤيرلوك، اللامبالاة المتكبّرة تقريباً، الأساس لانسجامهما في الحياة المنزلية، جعلت من الصعب جداً التواصل معها – وخصوصاً الآن – في ظلّ هذه المأساة التواصل كان حاجة ملحّة. شعر السيد ڤيرلوك بهذه الصعوبة بشدّة. يدور حول المائدة في غرفة الجلوس بطريقته المعتادة مثل حيوان كبير في قفص.

لأن الفضول أحد أشكال البوح الذاتي، فالشخص اللامبالي بشكل منهجي يبقى دائماً غامضاً إلى حدّ ما. في كل مرّة يمرّ بالقرب من الباب، ينظر السيد ڤيرلوك إلى زوجته بقلق. ليس لأنه خائف منها. تصوّر السيد ڤيرلوك أنه محبوب من قِبَل هذه المرأة. لكنها لم تعوّده على البوح بأسراره. الأسرار التي يريد الحديث عنها الآن ذات طبيعة نفسية جداً. كيف له - مع افتقاره إلى الخبرة - أن يتمكّن من قول ما يشعر به، لكنه غير واضح بالنسبة له: إن هناك مؤامرات لمصير كارثي، إن هناك فكرة تنمو في العقل أحياناً حتّى تحقّق لها وجوداً خاصّاً، سلطة مستقلّة بحدّ ذاتها، وحتّى صوتاً مثيراً للعواطف؟ لا يمكنه إخبارها أن الرجل ربّما تطارده أشباح وجه بدين، ظريف، حليق الذقن حتّى الحيل الأكثر وحشية للتخلّص منها تبدو غير مؤثّرة.

ومع تذكّر السكرتير الأوّل لسفارة كبيرة، توقّف السيد ڤيرلوك في

المدخل، ونظر في المطبخ، خاطب زوجته بوجه غاضب وقبضتين مشدودتين.

"أنت لا تعرفين مع أيّ بهيمة قد تعاملتِ".

ودار حول المائدة مرّة أخرى، وبعد أن وصل إلى الباب توقّف مرّة أخرى، نظر نظرة ساخطة من ارتفاع درجتين من السّلّم.

"سخيف، ساخر، بهيمة خطيرة، ليس لديه إحساس أكثر من - ... بعد كل هذه السنوات! رجل مثلي! وعرّضتُ حياتي للخطر من أجل هذه اللعبة. أنت لا تعرفين. وهذا أفضل. ما الفائدة في أن أقول لك بأني طوال سبع سنوات من زواجنا كنتُ معرّضاً في كل دقيقة لخطر طعنة تنغرس في جسدي؟! لستُ الرجل الذي يُقلق امرأة تحبّني. لم تكوني بحاجة لمعرفة ذلك". تجوّل السيد ڤيرلوك مرّة أخرى في غرفة الجلوس غاضباً.

"وحش حاقد" بدأ مرّة أخرى من المدخل. "أوقعني في حفرة لأموت جوعاً على سبيل المتعة. يمكنني أن أرى أنه كان يظنّها مزحة لعينة ظريفة. رجل مثلي! انظري هنا! بعض من أعظم الناس في العالم يدينون بالفضل لي في أنهم يمشون على أرجلهم حتّى هذا اليوم. هذا هو الرجل الذي تزوّجتِهِ، يا فتاتي!".

لاحظ أن زوجته قد اعتدلتْ في جلستها. بقيتْ ذراعا السيدة ڤيرلوك ممدودتين على المائدة. راقب السيد ڤيرلوك ظهرها كما لو أنه يستطيع من خلاله قراءة تأثير كلماته عليها.

"ليس هناك مؤامرة قتل طوال الإحدى عشرة سنة الأخيرة لم أعلم بها - مع وجود خطر على حياتي. هناك العشرات من هؤلاء الثوريين الذين طردتُهم، وقنابلهم الملعونة في جيوبهم ليُلقى القبض عليهم في الحدود.

البارون السابق كان يعرف فائدتي لهذه البلاد. وفجأة يأتي إلى هنا مثل هذا الخنزير - جاهل، خنزير متعجرف".

نزل السيد ڤيرلوك الدرجتين ببطء، دخل المطبخ، أخذ قدحاً من خزانة المطبخ، وسار إلى المغسلة، وهو يقبض على القدح دون أن ينظر إلى زوجته.

" البارون السابق سوف لن تخطر على باله هذه الحماقة الشرّيرة في استدعائي للحضور في الساعة الحادية عشرة صباحاً. هناك رجلان أو ثلاثة في هذه البلاد، لو رأوني أذهب إلى هناك، سوف لن يجدوا أيّ مانع من قتلي إن عاجلاً أم آجلاً. إنها مكيدة سخيفة قاتلة لفضح رجل مثلي من أجل لا شيء".

فتح السيد ڤيرلوك الصنبور فوق المغسلة، صبّ ثلاث أقداح من الماء، واحداً تلو الآخر في حلقه ليطفئ نيران غضبه. سلوك السيد ڤلاديمير كان مثل نار مستعرة، تشتعل في صدره. لا يمكنه التغلّب على غدرها. هذا الرجل، الذي لم يعمل في المهامّ الصعبة المعتادة التي يعدّها المجتمع لأفراده الوضيعين، مارس نشاطاته السّرّيّة بتفانٍ، لا يعرف الكلل. لا يفتقر السيد ڤيرلوك إلى الإخلاص. كان مخلصاً لمُديريه، لقضايا الاستقرار الاجتماعي، وأيضاً لحبّه الذي أصبح واضحاً عندما - وبعد أن وضع القدح في المغسلة - التفتَ، وقال:

"لو لم أفكّر بكِ، لكنتُ أمسكتُ هذا البهيمة الإرهابي من عنقه، وضربتُ رأسه بالموقد بقوّة. كنتُ منافساً قوياً لذلك الوجه المتورّد الحليق الأملس ..."

أهمل السيد ڤيرلوك تكملة الجملة، كما لو أن ليس هناك أيّ شك

في الكلمة الأخيرة. لأول مرّة في حياته يمنح ثقته لهذه المرأة اللامبالية. خصوصية هذا الحادث وقوّة المشاعر الشخصية وأهمّيّتها أدّوا إلى هذا الاعتراف، نسي السيد ڤيرلوك مصير ستيڤي تماماً. حياة الخوف والغضب للصبي المتلعثم، بالإضافة إلى قسوة نهايته، غابتْ عن الرؤية العقلية للسيد ڤيرلوك لبعض الوقت. لهذا السبب عندما نظر إلى زوجته صدمتْه طبيعة تحديقها الغريب. لم تكن نظرة قاسية أو شاردة، لكن تأثيرها كان غريباً وغير مُرضٍ نظراً لأنها كانت تبدو كما لو أنها مركّزة على بعض النقاط خلف السيد ڤيرلوك. الانطباع كان قوياً جداً، إلى درجة أن السيد ڤيرلوك ألقى نظرة سريعة على كتفه. لم يكن هناك شيء خلفه. كان هناك فقط حائط أبيض. الزوج الرائع لـويني ڤيرلوك لم يرّ أيّ كتابة على الجدار(*). التفت إلى زوجته مرّة أخرى، وكرّر مع بعض التشديد:

"كنتُ أرغب بإمساكه من عنقه. حقيقة مثل ما أقف أمامك الآن، لو لم أفكّر بكِ، كنتُ سأخنق هذا البهيمة تقريباً قبل أن أسمح له بالوقوف. ولا تظنّي أنه يتوق إلى استدعاء الشرطة. هو لا يملك الجرأة لفعل ذلك. أتعلمين لماذا؟ - هل تعلمين؟".

غمز إلى زوجته غمزة ذات مغزى.

"لا" قالت السيدة ڤيرلوك بصوت خافت، ودون أن تنظر له نهائياً. "عن ماذا تتحدّث؟".

شعر السيد ڤيرلوك بإحباط كبير نتيجة الإرهاق. كان يومه مليئاً بالأحداث، وأعصابه قد جرّبت أقصى ما تحتمل. بعد شهر من القلق

---

*) "الكتابة على الجدار"(The writing on the wall): تعبير يدلّ على التحذير والإنذار بخطر وشيك، جاءت من كتاب دانيال من الكتاب المقدّس حيث تظهر الكتابة الإلهية خلال وليمة عشاء لتُنبئ بسقوط الإمبراطورية البابلية.

المجنون الذي انتهى بكارثة غير متوقّعة، الروح القلقة المضطربة للسيد ڤيرلوك كانت تتوق للراحة. سيرته كعميل

سرّيّ وصلتْ إلى النهاية، بطريقة لم يكن أحد يتوقّعها، تمكّن الآن ربمّا أخيراً من النوم ليلاً. لكنْ عندما نظر إلى زوجته شكّ في ذلك. من الصعب عليها تقبُّل الأمر، هذا لا يناسبها على الإطلاق، ظنّ السيد ڤيرلوك. وحاول بجهد الحديث معها.

"عليكِ أن تتمالكي نفسكِ، فتاتي" قال بتعاطف. "ما حدث قد حدث".

نظرتْ له السيدة ڤيرلوك بلامبالاة، مع ذلك لم تتحرّك أيّ عضلة من عضلات وجهها الأبيض في أقلّ تقدير. السيد ڤيرلوك الذي كان لا ينظر لها، واصل حديثه بضجر:

"اذهبي إلى الفراش الآن. ما تحتاجينه هو البكاء".

هذه الفرضية لا أساس لها سوى رأي بشري سائد. إنه مفهوم كوني - كما لو أن لا شيء حقيقي أكثر من بخار يذوب في الهواء - أن كل عاطفة لدى المرأة لا بد أن تنتهي في وابل من الدموع. ومن المحتمل جداً أن ستيڤي حتّى لو مات في فراشه مع نظرتها اليائسة، وبين ذراعيها الآمنتين، فإن حزن السيدة ڤيرلوك سوف يهدأ في طوفان من دموع مريرة وخالصة. السيدة ڤيرلوك، مثل الكائنات البشرية الأخرى، زُوّدت برصيد من الاستسلام اللاواعي كافٍ لمواجهة المظهر العادي للقضاء والقَدَر. دون أن "تُتعب رأسها بذلك" كانت تعرف أن "من الأفضل ألا تفكّر بالأمر كثيراً" لكن الطريقة المؤسفة التي مات بها ستيڤي - وهي بالنسبة للسيد ڤيرلوك ذات أهمّيّة ثانوية فحسب كونها جزءاً من كارثة أكبر - جفّفت دموعها من

منبعها. كما لو أن مكواة ساخنة مُرِّرَت على عينيها، في الوقت نفسه، قسا وبَرَد قلبها حتّى أصبح كتلة من الثلج، أبقى جسدها في قشعريرة روحية، ثَبّتَ ملامحها في جمود تأمّلي باتّجاه جدار أبيض، لا كتابة عليه. متطلّبات مزاج السيدة ڤيرلوك التي، إذا ما جُرِّدت من تحفُّظها الفلسفي، كانت أمومية وعنيفة، أجبرتْها على تقليب سلسلة من الأفكار في رأسها الساكن. تلك الأفكار كانت أفكاراً غامضة بدلاً من صور واضحة. السيدة ڤيرلوك كانت امرأة قليلة الكلام بشكل استثنائي، إمّا للاستخدام العامّ أو الخاصّ. بغضب وحيرة امرأة مخدوعة، استعرضتْ حياتها الماضية في رؤى متعلّقة أساساً بالوجود الصعب لستيڤي منذ أيّام الطفولة. كانت حياة من هدف واحد، ومن مصدر إلهام نبيل واحد، مثل تلك الحيوات الاستثنائية التي تركت بصمتها على الأفكار والمشاعر الإنسانية. لكن رؤى السيدة ڤيرلوك تفتقر إلى النُّبل والعَظَمَة. رأتْ نفسها وهي تضع الصبي في الفراش على ضوء شمعة واحدة في الطابق العلوي المهجور لـ "بار"، ظلام تحت السقف، والطابق الأرضي مضاء بشكل مبالغ فيه بأضواء، والزجاج البلوري عند مستوى الشارع مثل قصور الحكايات الخرافية. ذلك البهاء المزيّف كان الشيء الوحيد الواضح في رؤى السيدة ڤيرلوك. تذكّرت تمشيط شعر الصبي، وتلبيسه مئزره(*) - وهي نفسها لا تزال ترتدي مئزر الطفولة، كلمات المواساة التي تهمس لطفل صغير وخائف بشدّة من قِبَل طفل آخر صغير مثله تقريباً، لكنْ ليس خائفاً تماماً، يتراءى لها مشهد ضربات اعترضتْها (غالباً برأسها)، باب كانت تُبقيه بصعوبة مغلقاً في وجه رجل غاضب (لكنْ ليس لفترة طويلة)، التخلّص من مقامر ذات مرّة (لكنْ ليس إلى مكان بعيد جداً) حتّى يهدأ ذلك الغضب الشديد إلى صمت أخرس وفظيع كالذي يتبع الرعد. وكل مشاعر العنف تلك تظهر

(*) pinafore: الميدَعَةُ أو المئزر أو المريالة، ثوب قصير بدون أكمام، ترتديه الفتيات أو الأطفال الصغار جداً، يُلبَس فوق الملابس لحمايتها من الأوساخ.

وتختفي مصحوبة بشتائم قاسية بصوت خشن، تصدر من فم رجل مجروح بكبريائه الأبوي، يلعن نفسه بوضوح منذ أن كان أحد أبنائه "أحمقاً، يسيل من فمه اللعاب، والأخرى "شيطانة شرّيرة" كانت هذه عبارات محزنة لها لسنوات طويلة.

سمعت السيدة ڤيرلوك الكلمات مرّة أخرى بطريقة شبحية، وعندها هبط الظلّ الكئيب لنُزل بيلغريڤيا على كتفيها. ذكريات مدمّرة، ومشهد مرهق لعدد لا يُحصى من صواني الإفطار تُحمَل صعوداً ونزولاً على درجات لا تُعدّ ولا تُحصى، مساومات لا تنتهي على البنس، عمل شاقّ لا ينتهي من الكنس وإزالة الغبار والتنظيف من القبو إلى العليّة، بينما الأمّ العاجزة تتهادى على ساقين متورّمتين، تطبخ في مطبخ قذر، وستيڤي المسكين، البطل الرئيس اللاواعي لكل تعبهما، يصبغ أحذية السادة بالصبغ الأسود في حجرة غسل الأطباق. لكنْ، كان في هذه الرؤية نسيم صيف لندن الحارّ مع شخصية محورية لشابّ يرتدي ملابس الأحد المفضّلة مع قبّعة من القشّ على شعره الداكن وغليون خشبي في فمه. محبّ ومرح، كان رفيقاً جذّاباً لرحلة فوق تيّار الحياة المتلألئ، لكن قاربه كان صغيراً جداً. كان فيه مجال لشريكة شابّة في الجذف، لكنْ ليس هناك مكان للركّاب. سمح لنفسه الانجراف بعيداً عن عتبة نُزُل بيلغريڤيا، بينما كانت تتفادى النظر إليه بعينيها الدامعتين. لم يكن مستأجراً. المستأجر كان السيد ڤيرلوك، الكسول، الذي كان يظلّ راقداً لوقت متأخّر، يمازح بتكاسل في الصباح تحت أغطية سريره، لكنْ مع بريق إعجاب في عينيه الناعستين، ودائماً مع بعض المال في جيوبه. لم تكن هناك أيّ لمحة من أيّ نوع على تيار كسل في حياته. حياته التي كان تجري في أماكن سرّيّة. لكن قاربه بدا مركباً واسعاً، وبشهامته المتحفّظة تقبّل وجود الركّاب. تابعت السيدة ڤيرلوك مشاهد سبع سنوات حماية لستيڤي، دفعتْ ثمنها بإخلاص من

جانبها، حماية نمَتْ إلى ثقة، إلى شعور عائلي، ساكن وعميق مثل بركة صافية نادراً ما يرتجف سطحها الحذر بالمرور العرضي للرفيق أوسيبون، الفوضوي النشيط بعينين جذّابتين جريئتين، بريقهما يشي بفساد واضح كافٍ لتوعية أيّ امرأة ليست معتوهة تماماً.

انقضتْ ثوانٍ قليلة فقط على آخر كلمة قالها بصوتٍ عالٍ في المطبخ، والسيدة ڤيرلوك تُحدّق في مشهد حدث منذ حوالي أسبوعين. بعينين بؤبؤاهما يتّسعان كثيراً، حدّقت في مشهد زوجها وستيڤي المسكين، وهما يمشيان في بريت ستريت جنباً إلى جنب بعيداً عن المتجر. كان هذا آخر مشهد لوجود، خَلقتْهُ روح السيدة ڤيرلوك، وجود بلا أيّ رونق وسِحْر، بلا جمال، وبلا لياقة تقريباً، لكنه جدير بالإعجاب لميرته العاطفية، والعزم على تحقيق الغاية. وهذا المشهد الأخير كان واضحاً جداً، نابضاً بالحياة، مثل دقّة التفاصيل المثيرة للعواطف، انتزع من السيدة ڤيرلوك همهمة حزينة وخافتة، أظهرت مرّة أخرى الوَهْم الأشدّ خطورة في حياتها، همهمة مروّعة، تلاشت على شفتيها الشاحبتين.

"قد يكونان أباً وابناً".

توقّف السيد ڤيرلوك، ونظر لها بحزن. "ايه؟ ماذا قلتِ؟" سألها. لم يتلقّ الرّدّ، واستأنف خطاه المشؤومة. وبعد ذلك، لوّح متوعّداً بقبضة غليظة، سمينة، وصاح السيد ڤيرلوك غاضباً:

"نعم. رجال السفارة. الكثيرون جداً، أليسوا هم؟! قبل أن ينقضي الأسبوع، سوف أجعل بعضهم يتمنّون عشرين قَدَماً تحت الأرض. ايه؟! ماذا؟!".

نظر نظرة جانبية سريعة وهو ناكس رأسه. كانت السيدة ڤيرلوك تحدّق

في الجدار الأبيض، جدار فارغ أبيض تماماً، مثاليّ لتضرب رأسك به. ظلّت السيدة ڤيرلوك جالسة بلا حراك. بقيت ساكنة مثل ما يرغب نصف سكّان الكرة الأرضية في البقاء بلا حراك في دهشة ويأس عندما تغرب شمس الصيف فجأة، بسبب خيانة العناية الإلهية المؤتمنة.

"السفارة" بدأ السيد ڤيرلوك من جديد، بعد أن لوى قسمات وجهه في خطوة تمهيدية كشفتْ أسنانه بوحشية. "أتمنّى لو أنطلق بحُرّيّة هناك مع هراوة لنصف ساعة. سأظلّ أضرب حتّى لا يبقى هناك عظم صحيح من بين المجموعة كلها. لكنْ لا يهمّ، سوف أعلّمهم يوماً ما ماذا تعني محاولة طَرْد رجل مثلي ليتعفّن في الشوارع. لديّ لسان في فمي. يجب أن يعرف كل العالم ما فعلتُ من أجلهم. لا يهمّني. كل شيء سينكشف. كل شيء لعين. فليحذروا!".

بهذه العبارات، صرّح السيد ڤيرلوك بتعطّشه للانتقام. كان انتقاماً مناسباً جداً بالنسبة له، ومنسجماً مع تحريضات فَهْم السيد ڤيرلوك، ويتميّز بكونه ضمن مجال إمكانيّاته، ويتكيّف بسهولة مع طريقة حياته. حياته التي قامت بشكل دقيق على فضح أسرار وتحرّكات مواطنيه غير المشروعة. الفوضويون والدبلوماسيون كانوا بالنسبة له شيئاً واحداً. السيد ڤيرلوك بطبيعته لا يحترم الناس. ضجره كان موزّعاً بالتساوي على كل مجالات أعماله. لكنْ بوصفه عضواً في البروليتاريا الثورية - التي كان فيها بلا شكّ - كان يغذّي شعوراً عدائياً ضدّ التمييز الاجتماعي.

"لا شيء على وجه الأرض يمكنه أن يُوقفني الآن" أضاف، وتوقّف، نظر بثبات إلى زوجته، التي كانت تنظر بثبات إلى جدار أبيض.

دام الصمت في المطبخ لفترة طويلة والسيد ڤيرلوك شعر بخيبة أمل.

توقّع أن تقول زوجته شيئاً. لكن شفتي السيدة ڤيرلوك ساكنتان في شكلهما المعتاد، وتحافظان على جمود تمثالاني مثل باقي وجهها. والسيد ڤيرلوك كان محبطاً. رغم اعترافه أن ليس هناك سبب لتقول شيئاً الآن. كانت امرأة قليلة الكلام. لأسباب ترتبط بأساس نفسيّته، كان السيد ڤيرلوك يميل إلى وضع ثقته في أيّ امرأة، تُعطي نفسها له. لهذا يثق بزوجته. كان انسجامهما مثالياً، لكنه سطحيّ. كان اتّفاقاً مضمراً ملائماً للامبالاة السيدة ڤيرلوك وطباع السيد ڤيرلوك، ومنها كسله وغموضه. كانا يمتنعان عن الغوص في أعماق الحقائق والدوافع.

هذا التحفّظ يُعبّر بطريقة ما عن ثقتهما العميقة ببعضهما، وأظهر في الوقت نفسه شيئاً معيّناً عن الغموض في علاقتهما. ليس هناك نظام مثاليّ للعلاقات الزوجية. افترض السيد ڤيرلوك أن زوجته كانت تفهمه، لكنه سيكون سعيداً لو سمعها تقول ما تفكّر به في تلك اللحظة. سيكون ذلك عزاءً له.

حُرم من كلمات التعزية لأسباب عديدة. هناك عقبات جسدية: السيدة ڤيرلوك ليس لديها سيطرة كافية على صوتها. لا ترى أيّ اختلاف بين الصراخ والصمت، وبشكل غريزيّ، اختارت الصمت. ويني ڤيرلوك كانت بمزاجية شخص صموت. وأيضاً هناك فكرة وحشية عميقة سيطرت عليها. كانت وجنتاها شاحبتين، وشفتاها رماديتين، وجمودها مذهلاً. وفكّرتْ دون أن تنظر إلى السيد ڤيرلوك: "هذا الرجل أخذ الصبي بعيداً ليقتله. أخذ الصبي بعيداً عن بيته ليقتله. أخذ الصبي بعيداً عني ليقتله!".

كيان السيدة ڤيرلوك كله كان يتعذّب بسبب تلك الأفكار المُغضبة غير المقنعة. كانت في عروقها، في عظامها، في جذور شعرها. اتّخذت ذهنياً سلوكاً إنجيلياً في الحِداد، الوجه المغطّى، الملابس الممزّقة، صوت

البكاء والنحيب ملأ رأسها. لكن أسنانها كانت مطبقة بإحكام، وعينيها بلا دموع متّقدتان من الغضب لأنها لم تكن كائناً مطيعاً. الحماية التي أحاطت بها أخاها كانت في أصلها ذات طبيعة عنيفة وساخطة. كانت تحبّه حبّ مقاتل. قاتلتْ من أجله حتّى ضدّ نفسها. خسارته كانت لها مرارة الهزيمة ومعاناة حبّ مرتبك. لم يكن موتاً عادياً. علاوة على ذلك، ليس الموت مَن أخذ ستيفي منها. السيد ڤيرلوك هو مَن أخذه بعيداً. لقد رأته. راقبتْه دون أن تفعل شيئاً، أخذ الصبي بعيداً. وسمحتْ له أن يذهب مثل - مثل مغفّلة - مغفّلة عمياء. وبعد أن قتل الصبي، عاد لها إلى المنزل. عاد إلى المنزل مثل أيّ رجل آخر، يأتي إلى زوجته.

همهمت السيدة ڤيرلوك للجدار بصوت خافت دون أن تُحرّك شفتيها:

"وأنا ظننتُ أنه قد أُصيب بالبرد".

سمع السيد ڤيرلوك تلك الكلمات، ورصدها.

"لم أكن مريضاً" قال باستياء. "كنتُ منزعجاً. منزعجاً من أجلكِ".

أدارت السيدة ڤيرلوك رأسها ببطء، نقلت نظرتها من الجدار إلى زوجها. السيد ڤيرلوك وأطراف أصابعه بين شفتيه كان ينظر إلى الأرض.

"لا مفرّ" تمتم، وترك يده تسقط. "تمالكي نفسكِ، سوف تحتاجين إلى ذكائكِ. أنت مَن جلب الشرطة إلى هنا. لا يهمّ، لا أريد قول المزيد عن ذلك" تابع السيد ڤيرلوك برحابة صدر. "لا يمكنكِ معرفة ذلك".

"لا يمكنني ذلك" زفرت السيدة ڤيرلوك. كما لو كانت جثّة تتحدّث. واصل السيد ڤيرلوك حديثه من حيث انتهى:

"أنا لا ألومكِ. سوف أفاجئهم. ما إن أكون خلف القضبان سوف أكون

آمناً للحديث، أتفهمين؟! يجب أن تضعي في حسابك أني سأكون بعيداً عنك لعامين" تابع بنبرة قلق واضح. "سيكون الأمر سهلاً بالنسبة لك أكثر مني. لديك شيء تفعلينه، بينما أنا - انظري، ويني، عليك مواصلة العمل في هذا المتجر لعامين. أنت تعرفين ما يكفي لذلك. تملكين عقلاً راجحاً. سوف أُرسل لك رسالة عندما يحين الوقت لمحاولة البيع. عليك أن تكوني حذرة جداً. الرفاق سيراقبونك طوال الوقت. يجب أن تكوني بارعة قدر المستطاع، وكتومة مثل قبر. لا أحد يجب أن يعرف ما تنوين فعله. ليس لديّ رغبة بضربة على الرأس، أو طعنة في الظهر بعد خروجي من السجن مباشرة".

وهكذا تحدّث السيد ڤيرلوك، استخدم عقله ببراعة وتروٍّ لحلّ مشاكل المستقبل. صوته كان حزيناً لأن لديه شعوراً حقيقياً بالحالة. كل شيء لم يرغب في حدوثه قد حدث. أصبح المستقبل غير مستقرّ. قراره، ربّما، كان غامضاً للحظة بسبب خوفه من حماقة السيد ڤلاديمير العدوانية. رجل فوق الأربعين ربّما بقليل قد أُلقي به في فوضى عارمة مع توقّعات فقدان وظيفته، وخاصّة إذا كان الرجل عميلاً سرّياً للشرطة السياسية، مكان آمن في ضوء قِيَمه العليا، وتقدير الشخصيات الرفيعة. كان معذوراً.

الآن انتهى الأمر بحادث الانفجار. السيد ڤيرلوك كان هادئاً، لكنْ ليس مسروراً. العميل السّرّيّ الذي ألقى بسرّيّته إلى الرياح رغبة في الانتقام، وتفاخر بإنجازاته في العَلَن أصبح هدفاً لاستياء وحشي ويائس. دون أن يبالغ في حجم الخطر، حاول السيد ڤيرلوك جعله واضحاً لعقل زوجته. كرّر أنه لم تكن لديه نيّة السماح للثوريين بالقضاء عليه. نظر مباشرة في عينيّ زوجته. بؤبؤا العينين المتّسعتين للمرأة تلقّيا نظرته في أعماقهما المبهمة.

"أنا مغرم بكِ لأجل هذا" قال مع ابتسامة متوتّرة.

تورُّد باهت لوّن الوجه الشاحب والساكن للسيدة ڤيرلوك. انتهتْ من مشاهد الماضي، هي لم تسمع فحسب، بل وفهمتْ أيضاً الكلمات التي قالها زوجها. بسبب تناقضها الشديد مع حالتها الذهنية، سبّبتْ لها هذه الكلمات تأثيراً خانقاً إلى حدّ ما. تميّزت الحالة الذهنية للسيدة ڤيرلوك ببساطتها، لكنها لم تكن بحالة سليمة. كانت تسيطر عليها إلى حدّ كبير جداً فكرة ثابتة. كل زاوية وركن من دماغها كانا مليئين بفكرة أن هذا الرجل الذي عاشت معه دون كراهية لسبع سنوات أخذ "الصبي المسكين" بعيداً عنها ليقتله - الرجل الذي اعتادتْ عليه جسداً وروحاً، الرجل الذي وثقتْ به، أخذ الصبي بعيداً ليقتله! في صياغتها، جوهرها، تأثيرها، كانت فكرة كُلّيّة، غيّرت حتّى مظهر الأشياء غير الحيّة، كانت فكرة كافية لتبقى ساكنة ومتعجّبة إلى الأبد. السيدة ڤيرلوك ظلّت ساكنة. وعبر هذه الفكرة (وليس عبر المطبخ) جسد السيد ڤيرلوك كان يتحرّك جيئة وذهاباً بشكل معتاد في قبّعة ومعطف، يضرب بجزمته على دماغها. ربّما كان يتحدّث أيضاً، لكن تفكير السيدة ڤيرلوك كان يحجب الصوت في أغلب الأحيان.

بين الحين والآخر، كان الصوت يُسمَع على أيّ حال. كانت تظهر عدّة كلمات مترابطة أحياناً. مغزاها كان مفعماً بالأمل عموماً. وكلّما حدث ذلك، الحدقتان المتّسعتان للسيدة ڤيرلوك تفقدان ثباتهما، تتبعان حركات زوجها بحذر شديد، واهتمام لا يمكن سبر غوره لأنه عالم بكل الأمور المتعلّقة بمهنته السّرّيّة، تكهّن السيد ڤيرلوك بنجاح خططه وإعداداته. كان واثقاً حقاً من أن الأمور ستكون سهلة بالنسبة له للهروب من سكّين الثوريين الغاضبين. بالغ بقوّة غضبهم وطول ذراعهم أيضاً (لأغراض مهنية)، وصنع حولهم الكثير من الأوهام، بطريقة أو بأخرى. لأن في سبيل المغالاة في معرفة الأمور على المرء أن يقوم بحساباته بدقّة قبل كل شيء. كان يعرف أيضاً كم من الفضيلة وكم من العار سوف ينسى في عامين - عامين

طويلين جداً. حديثه السّرّيّ الأوّل لزوجته كان تفاؤلياً ومُقنعاً. كان يظنّ أيضاً أنها سياسة جيدة لعرض كل الضمانات التي أمكنه جمعها. وبذل كل ما في وسعه من أجل المرأة المسكينة. فيما يتعلّق بهروبه الذي يتوافق مع توجّه حياته كلها، سوف يكون سرّيّاً بالطبع، سوف يختفيان معاً دون ضياع للوقت. وبالنسبة للتستّر على آثارهما، توسّل زوجته أن تثقَ به في هذا الشأن. كان يعرف كيفية القيام بالمهمّة، كما يعرف الشيطان نفسه ....

لوّح بيده. بدا كما لو أنه يتباهى. كان يتمنّى بذل كل ما يستطيع من أجلها. كانت النّيّة حسنة، لكنْ من سوء حظّ السيد ڤيرلوك أنه لم يجد أذناً صاغية.

علت النبرة الواثقة على أذن السيدة ڤيرلوك التي لم تفهم معظم الكلمات، من أجل ماذا وجّه هذه الكلمات لها الآن؟ ماذا يمكن أن تفعل لها الكلمات، في سبيل الخير أو الشر أمام فكرتها الثابتة؟ نظرتها المتشائمة تبعتْ ذلك الرجل الذي أكّد حصانته من العقاب ... الرجل الذي أخذ المسكين ستيڤي من المنزل لقتله في مكان ما. السيدة ڤيرلوك لا تستطيع أن تتذكّر في أيّ مكان بالضبط، لكن قلبها بدأ يدقّ بشكل ملحوظ.

السيد ڤيرلوك - بنبرة زوجية ناعمة - كان يعبّر عن اعتقاده الراسخ من أن أمامهما سنوات طيّبة لحياة هادئة. لم يخضْ في مسألة التفاصيل. الحياة الهادئة يجب أن تكون و، كما كانت، تختبئ في الظل، تندسّ بين رجال حياتهم عابرة(*)، متواضعين، مثل حياة أزهار البنفسج. الكلمات التي

---

*) الجملة هي: men whose flesh is grass أخذ المعنى من عبارة All flesh is grass: وهي عبارة تمّ تداولها كثيراً في العهود القديمة، من إشعياء ٤٠:٦. وفي العهد الجديد، أُعيد استخدامها في الرسالة الإنجيلية الأولى لبيتر، كُتبتْ على الكثير من شواهد القبور والآثار والكنائس. والعبارة تعني أن الحياة البشرية حياة عابرة. وقد تعني - أيضاً - مَن يأكلون النباتات بدل اللحوم، ويعيشون حياة الكفاف. والمَعنيان أُخذا من تصوّر ديني.

استخدمها السيد ڤيرلوك كانت: "أحتجب عن الأنظار قليلاً" وبعيداً عن إنكلترا بالتأكيد. لم يكن من الواضح فيما إذا كان في رأس السيد ڤيرلوك إسبانيا، أو أمريكا الجنوبية، لكنْ على أيّ حال، كان يقصد مكاناً ما في الخارج.

هذه الكلمة الأخيرة، عندما سمعتْها السيدة ڤيرلوك، تأثّرت بها بشكل عميق. هذا الرجل كان يتحدّث عن السفر إلى الخارج. هذا التأثّر انفصل تماماً عن كل شيء، وسلطة العادة كانت قوية جداً إلى الحدّ الذي جعلت السيدة ڤيرلوك - فجأة، وبشكل تلقائي - تسأل نفسها: "وماذا عن ستيڤي؟".

كان نوعاً من النسيان، لكنْ على الفور، أدركتْ أنْ ليس هناك سبب للقلق بهذا الشأن بعد الآن. سوف لن يكون هناك أيّ سبب لذلك بعد الآن. الصبي المسكين أُخذ بعيداً، وقُتل. الصبي المسكين كان ميتاً. هذا الجزء المزلزل من النسيان حفّز تفكير السيدة ڤيرلوك. بدأتْ تفهم بعض النتائج التي من شأنها مفاجأة السيد ڤيرلوك. ليس هناك حاجة لبقائها هنا، في هذا المطبخ، هذا المنزل، مع هذا الرجل - منذ أن رحل الصبي إلى الأبد. لا حاجة لبقائها إطلاقاً. ولهذا نهضت السيدة ڤيرلوك كما لو أنها قفزتْ. لكنْ لا يمكنها أن ترى أبداً الآن ما الذي يربطها بهذا العالم. وهذا العجز قد سيطر عليها. السيد ڤيرلوك راقبها باهتمام الزوج.

"تبدين كعادتكِ الآن" قال بصعوبة. شيء ما في سواد عينيّ زوجته أربك تفاؤله. في تلك اللحظة بالذات، بدأت السيدة ڤيرلوك تنظر إلى نفسها على أنها متحرّرة من كل العلاقات الدنيوية. لديها حُرّيّتها. بقاؤها المتمثّل بالرجل الواقف هناك، أشرف على نهايته. كانت امرأة حُرّة. لو أصبحت هذه الفكرة ملموسة بالنسبة للسيد ڤيرلوك، لكان صُعق للغاية.

في شأن العواطف، كان السيد ڤيرلوك سخياً دائماً، وبلامبالاة، لكنْ دون أيّ فكرة أخرى سوى تلك المُحبَّبة إلى نفسه. وعلى هذا الأساس مفاهيمه الأخلاقية كانت تتّفق مع غروره. كان عنيداً جداً. وهكذا يجب أن يكون الحال بالنسبة لعلاقاته القانونية والأخلاقية التي كان متأكداً منها تماماً. لقد كبر في السّنّ، زادتْ بدانته، أصبح أكثر بطئاً، معتقداً أنه لا يحتاج إلى الجاذبية ليكون محبوباً لنفسه. عندما رأى السيدة ڤيرلوك قد بدأت بالمشي خارج المطبخ دون أن تنطق بكلمة واحدة، شعر بالخيبة.

"إلى أين تذهبين؟" قال لها بحدّة.

"إلى الطابق العلوي؟".

استدارت السيدة ڤيرلوك نحوه، وهي في المدخل عندما سمعتْ صوته. غريزة الحذر وُلدتْ من الخوف، الخوف المفرِط من أن تقترب ويلمسها هذا الرجل، حثّها على أن تُحرِّك رأسها قليلاً بإيماءة موافقة (من عُلُوّ درجتين)، مع حركة شفتيها التي ظهرت للتفاؤل الزوجي للسيد ڤيرلوك ابتسامة شاحبة ومضطربة.

"هذا أفضل" شجّعها على نحو خشن. "ما تحتاجينه هو الراحة والهدوء. اذهبي. سألحق بك بعد قليل".

السيدة ڤيرلوك، المرأة الحُرّة التي في الواقع لم تكن تعرف إلى أين ستذهب، أطاعت الاقتراح بثبات وحزم.

كان السيد ڤيرلوك يراقبها. اختفتْ، وهي تصعد الدرج. كان مُحبَطاً. في أعماق نفسه سيكون أكثر ارتياحاً، لو أنها تقدّمت نحوه، ورمتْ نفسها بين أحضانه. لكنه كان كريماً ومتسامحاً. ويني كانت متحفّظة وصامتة دائماً. والسيد ڤيرلوك نفسه لم يكن مسرفاً في تحبّبه وكلامه. لكنْ هذا المساء لم

يكن عادياً. في مثل هكذا حالة يحتاج الرجل إلى التشجيع والعدم بدلائل صريحة على التعاطف والمودّة. تنهّد السيد ڤيرلوك، وأطفأ مصباح الغاز في المطبخ. تَعَاطُفُ السيد ڤيرلوك مع زوجته كان حقيقياً، وقوياً. بالكاد، حبس دموعه عندما وقف في غرفة الجلوس متأمّلاً الوحدة التي تهدّدها. بهذا المزاج، افتقد السيد ڤيرلوك ستيڤي كثيراً. فكّر بحزن في نهايته. لو أن هذا الفتى لم يُهلِك نفسه بغباء!

سيطر عليه مرّة أخرى الإحساس بجوع لا يمكن إشباعه ، ليس غريباً بالنسبة لمغامرين أكثر صرامة من السيد ڤيرلوك بعد توتّر مغامرة خطيرة. قطعة من لحم البقر المشويّ وضعت فيما يشبه لحوم مشوية(*) أُعدّت وفقاً للطقوس الجنائزية من أجل مأتم ستيڤي، جذبتْه بشكل لا يقاوم. وأكل السيد ڤيرلوك مرّة أخرى. تناول الطعام بشراهة دون ضبط نفس ولياقة. قطع شرائح سميكة بسكّين القطع الحادّة، وابتلعها دون خبز. في أثناء تلك الوجبة الخفيفة تبادر إلى ذهن السيد ڤيرلوك أن زوجته لم تتحرّك في غرفة النوم كما من المفترض أن يحدث. فكرة إيجادها جالسة ربّما على السرير في الظلام، لم تسدّ شهية السيد ڤيرلوك فقط، ولكنْ انتزعت منه الرغبة في اللحاق بها إلى الطابق العلوي الآن. وضع السكّين جانباً، وأنصتَ السيد ڤيرلوك باهتمام وقلق.

شعر بالراحة عند سماعه خطوتها أخيراً. مشتْ - فجأة - في جميع أنحاء الغرفة، وفتحت النافذة. وبعد فترة من السكون هناك - تخيّل خلالها أنها أخرجتْ رأسها من النافذة - سمع كيف ينزل إطار النافذة(**) ببطء. وخطتْ بعد ذلك بضع خطوات، وجلستْ. كل صوت في منزله كان مألوفاً

---

*) في إشارة لتعليق هاملت الساخر على السرعة التي تزوّجت بها والدته. بأن بقايا الطعام من جنازة والده، استُخدمتْ في حفل زفاف والدته.

**) sash: نافذة بإطارين منزلقين.

للسيد ڤيرلوك الذي كان مستأنساً - تماماً - بذلك. عندما سمع بعد ذلك خطوات زوجته فوق، عرف - كما لو كان ينظر لها بالفعل - أنها قد ارتدت حذاءها. السيد ڤيرلوك لوى كتفيه قليلاً عند هذه العلامة التي تُنذر بالشؤم، وابتعد عن المائدة، وقفَ وظهره إلى الموقد، رأسه مائل، ويقضم أطراف أصابعه، من خلال الأصوات تمكّن من تتبّع حركاتها. كانت تمشي هنا وهناك بعنف، مع توقّفات مفاجئة، الآن أمام خزانة من الجرّارات، وبعد ذلك، أمام خزانة الملابس. تعب هائل لا يُطاق، كان حصيلة يوم من الصدمات والمفاجآت، سلب من السيد ڤيرلوك كل قوّته.

لم يرفع عينيه حتّى سمع زوجته وهي تنزل الدرج. كما لو أنه قد خمّن ذلك. كانت ترتدي ملابسها للخروج.

السيدة ڤيرلوك كانت امرأة حُرّة. فتحت نافذة غرفة النوم، لا بِنِيّة أن تصرخ قاتل! ساعدوني! أو لرَمْي نفسها. لأنها لا تعرف بالضبط كيف تستخدم حُرّيّتها. بدا أن شخصيّتها قد تمزّقت إلى جزءين، والعمليات العقلية لم تعد متكيّفة مع بعضها بشكل جيد. الشارع هادئ ومهجور من أقصاه إلى أقصاه، دفعها للانحياز إلى ذلك الرجل الذي كان متأكداً جداً من إفلاته من العقوبة. كانت خائفة من أن تصرخ خشية ألا يأتي أحد. بالتأكيد سوف لن يأتي أحد. غريزتها في الحفاظ على نفسها نكصت عن السقوط في ذلك النوع اللزج، العميق من الحفر. أغلقت السيدة ڤيرلوك النافذة، وارتدتْ ملابسها للخروج إلى الشارع من طريق آخر. كانت امرأة حُرّة. ارتدتْ ملابسها كاملة، وانتهتْ بربط وشاح أسود على وجهها. عندما ظهرتْ أمامه في ضوء غرفة الجلوس، لاحظ السيد ڤيرلوك أن حقيبتها الصغيرة معلّقة على معصمها الأيسر .... كانت تنوي الذهاب سريعاً إلى أمّها، بالتأكيد.

كانت فكرة أن النساء في النهاية مخلوقات مُتعِبة، حاضرة في رأسه المرهق. لكنه كان كريماً جداً في كَتْم تلك الفكرة طويلاً. هذا الرجل جُرح بقسوة في كبريائه، بقي شهماً في سلوكه، لم يسمح لنفسه بأيّ ترضية من ابتسامة مريرة أو إيماءة احتقار. مع عظمة روحية حقيقية، حدّق فقط في الساعة الخشبية على الحائط، وقال بطريقة هادئة، لكنْ مُقنعة:

"الثامنة وخمس وعشرون دقيقة، ويني. لا معنى للذهاب إلى هناك في هذه الساعة المتأخّرة. سوف لن تدبّري العودة ليلاً".

أمام يدّه الممتدّة، وقفت السيدة ڤيرلوك قليلاً. وأضاف بشدّة: "أمّكِ سوف تذهب إلى الفراش قبل أن تكوني هناك. هذا النوع من الأخبار يمكنه أن ينتظر".

لم يكن في عقل السيدة ڤيرلوك فكرة الذهاب إلى والدتها. طردت الفكرة من رأسها بالفعل، وشعرتْ بالكرسي خلفها، انصاعتْ على أثر لمسة، وجلستْ. كانت نيّتها ببساطة أن تكون خارج المنزل إلى الأبد. وإذا كان هذا الشعور صحيحاً، فإن معناه الذهني اتّخذ شكلاً بدائيّاً كنتيجة لمنشئها ومكانتها. "أفضّل المشي في الشوارع طوال أيّام حياتي" فكّرتْ مع نفسها. لكن هذه المرأة التي تعرّضت طبيعتها الأخلاقية إلى صدمة، وكما في التعبير الفيزيائي، حتّى الزلزال الأكثر عنفاً في التاريخ يمكن أن يكون مجرّد ردّ فعل باهت وضعيف أمامه، كانت تحت رحمة تفاهات وأفكار طارئة. جلست. مع قبّعتها ووشاحها كانت مثل ضيفة جاءت للحديث مع السيد ڤيرلوك لبعض الوقت. استجابتها السريعة شجّعتْه، بينما مظهرها من الإذعان الصامت والمؤقّت استفزّه قليلاً.

"دعيني أقل لك، ويني" قال بتسلّط، "مكانك هنا هذا المساء. اللعنة!

أنتِ من أحضر الشرطة اللعينة من كل حدب وصوب إلى هنا. لا ألومكِ - لكنها فعلتُكِ رغم ذلك. من الأفضل أن تخلعي هذه القبّعة المُربكة. لن أدعك تخرجي، زوجتي" أضاف بصوت مُلطّف.

أمسك عقل السيدة ڤيرلوك هذا التصريح بعناد مرضي. الرجل الذي أخذ ستيڤي أمام عينيها لقتله في مكان، اسمه ليس حاضراً الآن في ذاكرتها، لن يسمح لها بالخروج. لن يسمح لها بالتأكيد. الآن، قتلَ ستيڤي، ولن يدعها تذهب. يريد أن يُبقيها من أجل لا شيء. وعلى أساس هذا المنطق الغريب الذي يمتلك كلّ قوّة المنطق المجنون، أطلقت السيدة ڤيرلوك لأفكارها العنان. يمكنها أن تفلت منه، تفتح الباب، وتركض. لكنه سوف يسابقها، يستولي على جسدها، يحملها، ويعود بها إلى المتجر. يمكنها أن تخربشه، تضربه، تعضّه - وتطعنه أيضاً، لكنْ للطعن هي بحاجة إلى السكّين. ظلّت السيدة ڤيرلوك تجلس ساكنة ووجهها تحت وشاحها الأسود، في بيتها، مثل زائر ملثّم وغامض جاء من أجل نوايا مبهمة.

لم تكن شهامة السيد ڤيرلوك أكثر من شهامة إنسان. أغضبتْه أخيراً.

"ألا يمكنكِ قول شيء؟ لديكِ حيلُكِ الخاصّة لإزعاج رجل. آه، نعم! أنا أعرف مكيدتك الصمّاء البكماء. رأيتكِ تفعلين ذلك قبل اليوم. لكنها لن تساعدك الآن. وقبل كل شيء، اخلعي هذا الشيء اللعين. لا يمكنني معرفة إن كنتُ أتحدّث إلى دمية أم امرأة".

تقدّم نحوها، مَدّ يده، سحب الوشاح، كشف القناع عن وجه ساكن، مبهم، عندها تحطّم غضبه العصبي مثل كرة زجاجية قُذفت بحجر. "هذا أفضل" قال، ليُخفي ارتباكه في تلك اللحظة، وتراجع - مرّة أخرى - إلى مكانه السابق عند رفّ الموقد. لم يدخل في عقله أن زوجته ممكن أن تتخلّى عنه. شعر بالخجل قليلاً من نفسه لأنه كان محبّاً وكريماً. ماذا يستطيع أن

يفعل؟ قد قيل كل شيء بالفعل. احتجّ بشدّة: "بحقّ السماء! أنت تعرفين أني مطارد في كل مكان. خاطرتُ بإبعاد نفسي لأجد شخصاً لهذه المهمّة الملعونة. وأقول لك مرّة أخرى لم أجد أيّ أحد مجنوناً، أو جائعاً، بشكل كافٍ. ماذا تظنّينني مجرماً؟ أم ماذا؟ الصبي مات. أتظنّين أني أردتُ أن يُفجّر نفسه؟ لقد مات. انتهت متاعبه. أنا وأنتِ ستبدأ متاعبنا، قلتُ لك لأنه قد فجّر نفسه. لا ألومكِ. لكني أحاول أن أُفهمكِ بأنها مجرّد حادثة، تماماً كما لو دهسه باص، بينما يعبر الشارع".

كانت رحابة صدره بلا حدّ لأنه إنسان، وليس وحشاً - كما تظنّ السيدة ڤيرلوك. صمت قليلاً، ثمّ زمجر، ارتفع شارباه فوق بريق أسنانه البيضاء، أظهره ذلك بملامح وحش مستغرق في تفكيره، ليس خطيراً جداً - وحش بطيء مع رأس أملس، أكثر قتامة من كلب البحر، ومع صوت أجشّ.

"وعندما نتحدّث في هذا الأمر، فإنها فعلتكِ مثلما هي فعلتي تماماً. هكذا. يمكنك النظر بسخط كما تشائين. أعرف ما يمكنكِ فعله في هذا الشأن. أقسم أني لم أفكّر بالفتى لهذا الغرض على الإطلاق. أنتِ مَن حرص على دفعه في طريقي عندما كنتُ يائساً تقريباً من قلق الحرص على إبقائنا جميعاً بعيدين عن المتاعب. بماذا أغواك الشيطان؟ قد يظنّ المرء أنك فعلتِ ذلك عمداً. واللعنة، أنا لا أعرف إن كنتِ قد تعمّدتِ ذلك فعلاً. لا أعرف ما الذي تخفينه في نفسكِ مع لعنة لا مبالاتك الشيطانية بأن تنظري إلى لا مكان على وجه الخصوص، ولا تقولي أيّ شيء على الإطلاق ... ".

توقّف صوته المألوف الأجشّ لفترة. السيدة ڤيرلوك لم تردّ. قبل هذا الصمت، شعر بالخجل ممّا قاله. لكنْ كما يحدث - دائماً - للرجال المسالمين، يبدأ في المشاجرة الزوجية حول موضوع معيّن لأنه يشعر بالخجل من موضوع آخر مختلف تماماً.

"لديكِ أسلوب شيطاني في إمساكِ لسانكِ أحياناً" بدأ من جديد، دون أن يرفع صوته. "كافٍ لجعل بعض الرجال يُصابون بالجنون. من حسن حظّكِ أني لا أنزعج بسهولة مثلهم من استيائكِ الأصمّ الأبكم. أنا أحبّكِ. لكنْ لا تتمادي. ليس هذا هو الوقت المناسب لذلك. يجب علينا التفكير بما علينا القيام به. ولن أدعكِ تخرجين الليلة، تركضين إلى أمّك مع بعض حكايات مجنونة، أو أشياء أخرى عني. لن يحدث هذا. لا ترتكبي أيّ أخطاء بهذا الشأن: لو قلتِ إني قد قتلتُ الصبي، فأنتِ قتلتيه - تماماً - مثلي".

تخطّت هذه الكلمات في صدقها وصراحتها كل شيء قد قيل في هذا البيت من قبل، البيت الذي يمُوَّل من أجور نشاطات سرّيّة، بالإضافة إلى بيع بعض الأغراض السّرّيّة: الوسائل البائسة التي وضعها البشر العاديون للحفاظ على مجتمع ناقص من مخاطر الفساد الأخلاقي والماديّ، مخاطر سرّيّة بكل تأكيد. هذا الكلام قد قيل لأن السيد ڤيرلوك شعر بغضب حقيقي، لكن الأخلاقيات المتحفّظة للحياة في هذا المنزل الذي يختبئ في شارع غامض خلف متجر حيث الشمس لا تُشرق أبداً، لم تتأثّر بوضوح. السيدة ڤيرلوك سمعتْه بلياقة تامّة، ونهضتْ بعد ذلك من كرسيّها مع قبّعتها وسترتها مثل ضيف في نهاية زيارته. تقدّمتْ نحو زوجها، مدّتْ يداً واحدة، كما لو كان وداعاً صامتاً. وشاحها المشبّك يتدلّى على الجانب اليسر من وجهها، أعطى مظهراً شكلانياً مضطرباً لحركاتها المقيّدة. لكنْ عندما وصلتْ إلى البساط قرب الموقد، لم يكن السيد ڤيرلوك واقفاً هناك. كان قد تحرّك نحو الأريكة، دون أن يرفع عينيه ليرى تأثير خطبته المسهبة. كان متعباً، مستسلماً في روح زوج حقيقي. لكنه شعر بإساءة فيما يخصّ عطاءه: نقطة ضعفه السّرّيّة. إذا أرادتْ أن تستمرّ في استيائها بهذا الصمت الرهيب القاتل - إذنْ فلتفعل. إنها أستاذة في الفنون الزوجية. السيد ڤيرلوك ألقى بنفسه على الأريكة بتثاقل، متجاهلاً كالعادة مصير قبّعته، التي اعتادتْ على رعاية نفسها، وصنعتْ لها ملجأ آمناً تحت المائدة.

كان متعباً. لقد أنفق آخر جزء من قوّته العصبية في عجائب وويلات هذا اليوم المليء بالخيبات المفاجئة، جاءت في نهاية شهر مزعج من التآمر والأرق. كان مُتعَباً. لم يُخلَق الرجل من حجر. اللعنة! استراح السيد ڤيرلوك على نحو تامّ، مرتدياً ملابس الخروج. جزء من معطفه المفتوح كان يتدلّى على الأرض. تمرّغ السيد ڤيرلوك على ظهره. لكنه كان يتوق لراحة أكثر للنوم، لبضع ساعات من النسيان اللذيذ. هذا سوف يأتي لاحقاً. استراح بشكل مؤقّت. وفكّر: "أتمنّى أن تتخلّى عن هذا الهراء اللعين. إنه مُستفزّ".

يجب أن يكون هناك شيء ناقص في مشاعر السيدة ڤيرلوك عن الحُرّيّة المستعادة. بدل أن تأخذ طريق الباب، مالتْ إلى الخلف، وكتفاها على لوح رفّ الموقد، مثل عابر سبيل استراح على سياج. مسحة من الوحشية في وجهها، تسبّب بها الوشاح الأسود المعلّق مثل خرقة على خدّها، وثبات نظرتها المتشائمة التي بدت كما لو أنها امتصّت ضوء الغرفة، حتّى لم يبق فيها أيّ بريق. هذه المرأة التي كانت قادرة على اتّخاذ قرار مجرّد التفكير به كان سيكون صدمة عنيفة لتصوّر السيد ڤيرلوك عن الحب، ظلّتْ متردّدة، كما لو أنها كانت واعية جداً من أنها يجب أن تُنهي الاتفاق بشكل رسمي من جانبها.

على الأريكة، يلوي السيد ڤيرلوك كتفيه لراحة كاملة، وانبعثتْ من قلبه رغبة غير حقيقية بالتأكيد مثل ربّما أي شيء يأتي من مصدر ما.

"أتمنّى فعلاً" زمجر بصوت مبحوح، "أني لم أرَ - أبداً - غرينتش بارك، أو أيّ شيء حدث هناك".

الصوت المكتوم ملأ الغرفة الصغيرة بجهارته المعتدلة، تكيّف جيداً مع الطبيعة المتواضعة للأمنية. انتشرتْ موجات الصوت بتردّد مناسب وفقاً

لمعادلات رياضية صحيحة(*)، تموج حول كل الأشياء غير الماديّة في الغرفة، ارتطمتْ برأس السيدة ڤيرلوك كما لو كان رأساً من حجر. وأمر لا يُصدّق كما قد يبدو: بدت عينا السيدة ڤيرلوك تكبران أكثر. الأمنية المسموعة من قلب السيد ڤيرلوك الطافح تدفّقتْ إلى مكان فارغ في ذاكرة زوجته. غرينتش بارك. حديقة عامّة! هناك حيث قُتِل الصبي. حديقة عامّة - أغصان مكسورة، أوراق ممزّقة، حصى، قطع من لحم وعظام أخيها. انفجرتْ مع بعضها على طريقة الألعاب النارية. تذكّرت الآن ما سمعت، تذكّرتْه كأنها تراه أمام عينيها. جمعوه بالمجرفة. ارتعش جسدها كله بقشعريرة، لا يمكن السيطرة عليها، رأتْ أمامها المجرفة بحمولتها المروّعة التي كشطتْها من الأرض. أغلقت السيدة ڤيرلوك عينيها بقوّة لكي تتخلّص من هذا المشهد بظلام جفنيها حيث بعد ما انهمرت أطرافه المشوّهة كالمطر، بقي رأس ستيڤي المقطوع معلّقاً وحده في الفراغ، وتلاشى ببطء مثل آخر نجمة في عرض الألعاب النارية. فتحت السيدة ڤيرلوك عينيها.

وجهها لم يعد قاسياً. أيّ شخص يمكنه ملاحظة التغيير الدقيق في ملامحها، في نظرة عينيها، اتّخذت ملامحها تعبيراً جديداً ومذهلاً، تعبيراً نادراً ما يُلاحَظ من قِبَل أشخاص مختصّين تحت ظروف من الراحة والأمن مطالبين بتحليل دقيق، لكن معناه لا يمكن أن يخطئ في نظرة خاطفة. شكوك السيدة ڤيرلوك في نهاية الاتّفاق لم تعد موجودة. ذكاؤها لم يعد غير مترابط بعد الآن، كان يعمل تحت سيطرة إرادتها. لكن السيد ڤيرلوك لم يلاحظ شيئاً. كان مسترخياً في حالة مُحزنة من تفاؤل ناتج عن تعب شديد. لا يريد المزيد من المتاعب مع زوجته، ومع الناس كلهم في العالم أيضاً. دفاعه لم يُدحَض. كان يحبّ نفسه. المرحلة الحالية من صمتها

*) ينتقل الصوت في موجات طويلة من الاهتزازات، بيّن كونراد هنا إحساس ويني غير الواقعي، بوصف بارد جداً، سريريّ ونظريّ.

فسّره بشكل إيجابي. كان هذا هو الوقت المناسب لمصالحتها. استمرّ الصمت لفترة طويلة. قطعه بمناداتها بصوت خافت:

"ويني".

"نعم" ردّت السيدة ڤيرلوك، المرأة الحُرّة بطاعة. سيطرتْ على عقلها الآن وقدرتها على الكلام، شعرتْ بنفسها تقريباً أنها ذات قوّة مثالية خارقة، سيطرت على كل عِرْق في جسدها. هذا كله كان ملكها لأن الاتّفاق قد انتهى. كانت شديدة الذكاء. أصبحت ماكرة. اختارت أن تُجيبه بهذه السرعة لغاية ما. لم ترغب في أن يغيّر الرجل مكانه على الأريكة التي كانت مناسبة جداً للوضع الحالي. لقد نجحتْ. الرجل لم يتحرّك. لكنْ بعد أن أجابتْه، بقيت متّكئة على رفّ الموقد غير مبالية، في هيئة عابر سبيل يستريح. لم تكن مستعجلة. جبينها كان أملساً. رأس وكتفا السيد ڤيرلوك كانوا مخفيين عنها بالجانب العالي من الأريكة. أبقتْ عينيها ثابتتين على قَدَمَيه.

ظلّت ساكنة هكذا بغموض ورباطة جأش مفاجئة حتّى سمعت السيد ڤيرلوك بنبرة الزوج المتسلّط، وهو يتحرّك قليلاً لإفساح المجال لها لتجلس على حافة الأريكة.

"تعالي هنا" قال بنبرة غريبة، ربمّا يجدها البعض نبرة وحشية، لكنها كانت مألوفة جداً للسيدة ڤيرلوك على أنها نبرة تودّد.

تحرّكت نحوه مباشرة، كما لو أنها ما تزال امرأة مخلصة مرتبطة بهذا الرجل بعلاقة لن تنقطع. مرّرتْ يدها اليمنى برفق على حافة المائدة. وعندما وقفتْ أمام الأريكة، اختفتْ سكّينة قطع اللحم من جانب الطبق دون أدنى صوت. السيد ڤيرلوك سمع صرير خشب الأرضية، وكان مرتاحاً.

كان ينتظر. جاءت السيدة ڤيرلوك. كما لو أن الروح المشرّدة لستيڤي وجدتْ لها فوراً ملاذاً آمناً في صدر أخته، الوصيّة والحامية، التشابه بين وجهها ووجه أخيها يزداد مع كل خطوة، حتّى تدلي شفته السفلى، حتّى الانحراف الطفيف في العينين. لكن السيد ڤيرلوك لم يلاحظ هذا. كان مستلقياً على ظهره، ينظر إلى أعلى. رأى ظلاً يتحرّك لذراع مع يد مقبوضة تُمسك سكّيناً، جزء منه على السقف، والآخر على الجدار. يهتزّ إلى الأعلى وإلى الأسفل. يتحرّك ببطء، ببطء كافٍ، جعل السيد ڤيرلوك يلاحظ الذراع والسلاح. كان بطيئاً إلى الحدّ الذي جعله يفهم المعنى الكامل للنذير، ويتذوّق طعم الموت في حلقه. زوجته قد جُنّ جنونها - جنون إجرامي. حركتها كانت بطيئة بما يكفي لانطباع العجز الأوّل لهذا الاكتشاف ليموت قبل قرار حاسم للخروج منتصراً من صراع مروّع مع تلك المعتوهة المسلّحة. كانت بطيئة إلى الدرجة التي جعلت السيد ڤيرلوك يضع خطّة دفاع، بأن يندفع بسرعة خلف المائدة، ويوقع المرأة على الأرض بكرسيّ خشبي ثقيل. لكنها لم تكن بطيئة بما يكفي لمنح السيد ڤيرلوك الوقت لتحريك يده أو قَدَمه. السكّين كانت قد غُرزت بالفعل في صدره. لم تواجه أيّ مقاومة. الخطر له مثل هذه الدقّة. في تلك الطعنة، المسدّدة على جانب من الأريكة، وضعت السيدة ڤيرلوك كل ميراث أصلها السحيق والغامض، وحشية عادية من زمن الكهوف، وغضباً انفعالياً غير متوازن من زمن الحانات. السيد ڤيرلوك، العميل السّرّيّ، مال قليلاً على جانبه من قوّة الضربة، انتهى دون أن يُحرّك أطرافه، في صوت همهمة بكلمات: "لا تفعلي" من قبيل الاعتراض.

تركت السيدة ڤيرلوك السكّين، وتشابهها غير العادي مع شقيقها المتوفىّ قد تلاشى، أصبحت عادية جداً الآن. سحبت نَفَساً عميقاً. التنفّس السهل الأوّل منذ أن عرض لها كبير المفتّشين هيت الخرقة

المخيّطة على معطف ستيڤي. انحنتْ إلى الأمام متّكئة على ذراعيها المَطويتين على جانب من الأريكة. اتّخذت هذا الوضع السهل ليس من أجل مشاهدة جثّة السيد ڤيرلوك أو الشماتة به، لكنْ بسبب الحركات المتموّجة والمتمايلة في غرفة الجلوس، التي - ولبعض الوقت - كانت تبدو كما لو كانت في عاصفة في عرض البحر. كانت دائخة، ولكنْ هادئة. لقد أصبحت امرأة حُرّة حُرّيّة كاملة، جعلتها لا ترغب، وبالتأكيد لا تفعل أيّ شيء منذ أن أصبحت مطالبة ستيڤي الملحّة لحبّها غير موجودة. السيدة ڤيرلوك التي تفكّر في صور، لم تُقلقها الرؤى الآن لأنها لا تفكّر على الإطلاق. ولم تتحرّك. كانت امرأة تتمتّع بعدم مسؤوليّتها الكاملة، وراحة لا نهاية لها، على غرار الجثّة تقريباً. لم تتحرّك، لم تفكّر. أياً كان الظرف البشري للسيد ڤيرلوك المتوفى الراقد على الأريكة. باستثناء حقيقة أن السيدة ڤيرلوك تتنفّس الآن، كان يمكن لهذين الزوجين أن ينسجما: انسجاماً متحفّظاً حذراً، بلا كلمات غير ضرورية، ومتجنّباً للدلالات، الانسجام الذي كان أساس حياتهما المنزلية المحترمة. لأنها كانت محترمة، غُلّفت بتكتّم شديد، مع تحفّظ على المشاكل التي ربمّا تظهر في ممارسة مهنة سرّيّة وتجارة سلع مشبوهة. وحتى نهايتها لم يتعكّر صفو تحفّظ حياتهما الزوجية بصرخات غير لائقة، وغيرها من سلوك صادق في غير محلّه. وبعد حدوث الطعنة، استمرّ هذا الاحترام في ثبات وصمت.

لا شيء كان يتحرّك في غرفة الجلوس حتّى رفعت السيدة ڤيرلوك رأسها ببطء، ونظرتْ إلى الساعة بارتياب وحيرة. سمعتْ صوت تكتكة في الغرفة. أصبح واضحاً أكثر فأكثر على أذنها، وتذكّرتْ جيداً أن الساعة على الجدار صامتة، تكّاتها غير مسموعة. ما معنى أن تبدأ بالدقّ بصوتٍ عالٍ فجأة؟ كانت تشير إلى الثامنة وخمسين دقيقة. السيدة ڤيرلوك لا تهتمّ كثيراً بالوقت، واستمرّ صوت التّكّات. انتهتْ إلى أن هذه التّكّات لا يمكن

أن تكون دقّات الساعة، وتحرّكت نظرتها الغاضبة على الجدران، اضطربتْ، وأصبحتْ غير واضحة، بينما تصغي أذنها لتحديد مصدر الصوت. تك، تك، تك.

بعد فترة من الإنصات، خفضت السيدة ڤيرلوك نظرتها بتأنٍّ إلى جسد زوجها. وَضْعُ جسمه المضطجع كان طبيعياً ومألوفاً بحيث يمكنها أن تنظر له دون شعور بالحرج من أيّ تغيير ملحوظ في ظواهر حياتها العائلية. بدا السيد ڤيرلوك بطبيعته المعتادة. كان يبدو مرتاحاً.

بسبب وضع الجثّة كان وجه السيد ڤيرلوك غير ظاهر للسيدة ڤيرلوك، أرملته. عيناها الناعستان، الجميلتان، تجوّلتا نزولاً على مسار الصوت، أصبحت نظرتها متأمّلة في مواجهة شيء مُسطّح عظمي، يبرز قليلاً من حافة الأريكة. كان ذلك مقبض السكّين المنزلية لقطع اللحوم، ولا شيء غريب فيها سوى مكانها بزاوية قائمة على صدرية السيد ڤيرلوك، وحقيقة أن شيئاً ما يقطر منها. قطرات داكنة تسقط الواحدة تلو الأخرى على البساط مع صوت تكّات يتزايد بسرعة وغضب مثل دقّات ساعة مجنونة. في أعلى سرعة لها، تغيّرت هذه التكّات إلى صوت مستمرّ من التقطّر. راقبت السيدة ڤيرلوك هذا التغيّر مع ملامح من القلق تظهر وتختفي على وجهها. كان دماً ... داكناً، سريعاً، رقيقاً ... يقطر!

في هذا الظرف غير المتوقّع، تخلّت السيدة ڤيرلوك عن حالة الكسل وعدم المسؤولية.

أمسكتْ تنّورتها بقوّة، وصرخت صرخة خافتة، وهي تركض نحو الباب، كما لو أن قطرات الدم كانت العلامة الأولى على فيضان مُدمّر. المائدة كانت تقف في طريقها، دفعتْها بكلتَا يديها، كما لو أنها شيء حيّ، بقوّة

حركتها مسافة معيّنة على قوائمها الأربعة، أحدث ذلك صوتاً عالياً، ضوضاء كشط، في حين ارتطم الطبق الكبير مع قطع اللحم بقوّة بالأرض.

وبعد ذلك، ساد الصمت. توقّفت السيدة ڤيرلوك عند الباب. اهتزّت القبّعة المستديرة المكشوفة في وسط الأرضية قليلاً على قمّتها بسبب ريح هروبها.

١٢

ويني ڤيرلوك، أرملة السيد ڤيرلوك، وشقيقة البار الراحل ستيڤي (الذي تفجّر إلى أشلاء في براءة وقناعة من أنه شارك في عمل إنساني) لم تركض إلى أبعد من باب غرفة الجلوس. هربتْ بعيداً بالتأكيد من مجرّد قطرات من الدم، لكنها ردّة فعل نفور غريزية. وهناك توقّفتْ عند الباب، مع عينين كبيرتين، ورأس منخفض. كما لو أن بهروبها عبر غرفة الجلوس الصغيرة تركتْ وراءها سنوات طويلة، السيدة ڤيرلوك عند الباب كانت شخصاً مختلفاً تماماً عن المرأة التي كانت مُتّكئة على الأريكة، دوار بسيط في رأسها، لكنْ ما عدا ذلك كانت حُرّة في الاستمتاع بهدوء عميق بلا عمل ولا مسؤولية. السيدة ڤيرلوك لم تعد دائخة بعد الآن. كان رأسها مستقرّاً. من جانب آخر، لم تعد هادئة بعد الآن. كانت خائفة.

إن تجنّبت النظر إلى زوجها الراقد، فهذا ليس لأنها خائفة منه. لم تكن مشاهدة السيد ڤيرلوك مخيفة. كان يبدو مرتاحاً. علاوة على ذلك، كان ميتاً. لم تشغل السيدة ڤيرلوك نفسها بأوهام تافهة حول موضوع الموت. لا شيء يُعيد الأموات إلى الحياة، لا الحبّ ولا الكُره. لا يمكنهم فعل أيّ شيء لك. هم في الحقيقة لا شيء. حالتها الذهنية يشوبها نوع من الاحتقار الشديد لذلك الرجل الذي سمح لنفسه أن يُقتَل بهذه السهولة. كان سيد المنزل، زوج المرأة، وقاتل أخيها ستيڤي. والآن ليس له أيّ قدر من الاحترام. كان أقلّ قيمة من الملابس على جسده، من معطفه، من حذائه - من تلك

القبّعة الملقاة على الأرض. كان لا شيء. لا يستحقّ النظر إليه. حتّى إنه لم يعد قاتل المسكين ستيڤي. القاتل الوحيد الموجود في الغرفة عندما يأتي الناس للبحث عن السيد ڤيرلوك سيكون - هي!

يداها ترتعشان بحيث إنها أخفقت مرّتين في مهمّة إعادة تثبيت وشاحها. السيدة ڤيرلوك لم تعد هادئة ومسؤولة بعد الآن. كانت خائفة. طَعْنُ السيد ڤيرلوك بالسكّين كان مجرّد ضربة. خفّفت عذاباً مكبوتاً لصرخات مخنوقة في حنجرتها، لدموع جفّت في عينيها اللامعتين، لغضب مجنون وناقم على السلوك البشع الذي لعبه هذا الرجل، الذي أصبح الآن أقلّ من لا شيء، في حرمانها من الصبي. كان دافع الضربة غير واضح. الدم الذي يقطر على الأرض من مقبض السكّين، حوّلها إلى حادثة قَتْل عادية. السيدة ڤيرلوك التي تجنّبت دائماً التمعّن في عمق الأشياء اضطرّت الآن الخوض في أعماق الأشياء. لم ترَ هناك وجهاً مخيفاً، أو مسحة تأنيب، أو طيفاً من الندم، ولا أيّ تصوّر مثاليّ. رأتْ شيئاً واحداً. ذلك الشيء كان المشنقة. السيدة ڤيرلوك كانت خائفة من المشنقة.

كانت خائفة منها تماماً. لأنها لم ترَ أبداً ذلك الدليل الأخير للعدالة ضدّ إنسان ما عدا في الرسوم التوضيحية المنقوشة على الخشب لنوع معيّن من الحكايات(*)، رأتْها الآن للمرّة الأولى قائمة على خلفية مظلمة، وما يشبه العاصفة، مُزيّنة بسلاسل وعظام بشرية، محاطة بطيور تنقر عيون رجال ميتين. كان هذا مخيفاً بشكل كافٍ، لكنْ رغم أن السيدة ڤيرلوك ليست امرأة ذات معرفة واسعة، كان لديها معرفة كافية عن مؤسّسات بلدها لتعرف أن المشنقة لا تُنصَب برومانسية بعد الآن على ضفاف الأنهار

*) في إشارة إلى مجلات القصص المثيرة الرخيصة التي تُقدّم نوعاً صارخاً من الخيال للإثارة، تُطبَع في شكل تسلسلي ومُوجّهة للطبقة العاملة الشابّة. الرسوم التوضيحية المنقوشة على الخشب تُصنَع من خلال نقش صورة مجسّمة في كتلة من الخشب، ثمّ طباعتها منها.

الكئيبة، أو على الرؤوس البَحْرِيّة المكشوفة، لكنْ تُنصَب في ساحات السجون. هناك أربعة جدران عالية، كما لو أنها حفرة، في الفجر، يُحمَل القاتل خارجاً لتنفيذ حكم الإعدام في هدوء رهيب، وكما تقول التقارير دائماً في الصحف: "بحضور السلطات" عيناها تحدّقان في الأرض، منخراها يرتعشان من الألم والعار، تخيّلتْ نفسها وحيدة وسط الكثير من سادة غرباء، يرتدون قبّعات عالية، يؤدّون مهمتهم في تنفيذ حكم الاعدام بهدوء. هذا لن يحدث أبداً! أبداً! وكيف يتمّ ذلك؟ استحالة تخيّل تفاصيل هذا الإعدام الهادئ أضاف شيئاً جنونياً لخوفها المجرّد. الصحف لا تذكر أيّ تفاصيل، باستثناء تفصيل واحد مع بعض التأثير يوجد دائماً في نهاية التقرير الهزيل. تذكّرتْه السيدة ڤيرلوك بوضوح. تذكّرتْه مع ألم مُتّقد قاس في رأسها، كما لو أن الكلمات: "الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً"(*) نُقشت في دماغها بإبرة ساخنة. "الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً".

هذه الكلمات أثّرت عليها جسدياً أيضاً. أصبحتْ حنجرتها متشنّجة كتعبير عن مقاومة الاختناق، وشعرتْ بهزّة عنيفة بشكل واضح جداً، لدرجة أنها أمسكتْ رأسها بكلتَا يديها، كما لو أنها كانت تحميه من أن يُنتزع من جسدها. " الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً" لا! لن يحدث هذا. لا يمكنها تحمّل "هذا". حتّى مجرّد التفكير فيه لا يُطاق. لا يمكنها التوقّف عن التفكير به. لهذا اتّخذت السيدة ڤيرلوك قراراً في المغادرة فوراً، ورَمْي نفسها في النهر من فوق أحد الجسور.

تمكّنت هذه المرّة من إعادة تثبيت وشاحها. بدا ووجهها مثل قناع،

---

*) قياس السقوط عند تنفيذ حكم الإعدام بدأت في بريطانيا عام ١٨٧٤. كلّ سجين يُحدّد له ارتفاع خاصّ عند فتح باب منصّة الإعدام. السقوط يُحسَب لكسر الرقبة، وفقاً للطول والوزن وبُنية الجسم.

سواد من رأسها حتّى قَدَمَيها ما عدا بعض الزهور في قبّعتها. نظرتْ إلى الساعة دون تفكير. ظنّت أنها قد توقّفت. لم تستطعْ تصديق أن دقيقتين قد مرّتا منذ أن نظرت لها آخر مرّة. بالتأكيد لا. إنها متوقّفة طوال الوقت. في الواقع، انقضتْ ثلاث دقائق فقط من اللحظة التي سحبتْ فيها أول نَفَس عميق سهل بعد الطعنة بالسكّين إلى هذه اللحظة حيث قرّرت السيدة ڤيرلوك أن تُلقي بنفسها في نهر التايمز. لكن السيدة ڤيرلوك لا يمكنها أن تصدّق ذلك. يبدو أنها قد سمعتْ أو قرأتْ أن ساعات الحائط والساعات اليدوية، دائماً تتوقّف في لحظة ارتكاب الجريمة، من أجل تعطيل القاتل. لم تهتمّ. "إلى الجسر - أقفز من فوق الجسر".

... لكن حركتها كانت بطيئة.

جرّت نفسها بصعوبة نحو المتجر، وكادتْ أن تُمسك مقبض الباب قبل أن تجد الثبات الضروري لفَتْحه. أخافها الشارع لأنه إمّا يؤدّي إلى المشنقة أو النهر. تعثّرتْ على درجة الباب، وسقطتْ، أطلقتْ ذراعيها مثل شخص سقط من على شرفة جسر. هذا الظهور الأوّل في الهواء الطلق كان ذا دلالة منذرة للغرق، لفّتْها رطوبة لزجة، دخلتْ منخريها، والتصقتْ بشعرها. لم تُمطر في الواقع، لكنْ لكلّ مصباح غازي هالة باهتة صغيرة من الضباب. اختفت العربة والخيول، وفي الشارع المظلم نافذة حانة سائقي العربات، التي كانت ستارتها مغلقة، بدتْ مثل رقعة مُربّعة من الضوء الأحمر القاتم القذر، وهجها ضعيف جداً قرب مستوى الرصيف. السيدة ڤيرلوك تجرّ نفسها ببطء باتّجاهه، وتفكّر في أنها سيدة وحيدة جداً. وهذا صحيح. صحيح جداً أنها في شوق مفاجئ لرؤية بعض الوجوه اللطيفة، لم تستطع التفكير بأيّ شخص عدا السيدة نيل، الخادمة. هي نفسها ليس لديها أقارب، لا أحد سوف يفتقدها على المستوى الاجتماعي. لا يجب تصوّر أن أرملة ڤيرلوك قد نسيت أمّها. لم يكن الأمر كذلك. كانت

ويني بنتاً صالحة لأنها أخت مخلصة. أمّها كانت دائماً ما تعتمد عليها. لا مواساة أو نصيحة يمكن أن تتوقّعها هناك. والآن بعد أن مات ستيڤي، بدا أن العلاقة قد انكسرتْ. لا يمكنها مواجهة المرأة العجوز بالخبر الفظيع. بالإضافة إلى ذلك، كانت بعيدة جداً. النهر كان وجهتها الحالية. حاولت السيدة ڤيرلوك نسيان والدتها.

كلّ خطوة كانت تكلّفها جهداً من الإرادة التي بدت أنها آخر الممكن. جرّت السيدة ڤيرلوك نفسها إلى أبعد من الوهج الأحمر لنافذة الحانة. "إلى الجسر - أقفز من فوق الجسر " كرّرتْ مع نفسها بعناد شديد. مدّتْ يدها في الوقت المناسب لتستعيد توازنها على عمود الإنارة. "لن أصل إلى هناك قبل الصباح" فكّرتْ. الخوف من الموت شلّ جهودها للهروب من حبل المشنقة. بدا لها أنها كانت تمشي مترنّحة في هذا الشارع لساعات. "لن أصل إلى هناك" فكّرتْ. "سوف يجدونني وأنا أتخبّط في الشوارع. إنه بعيد جداً" توقّفتْ، وهي تلهث تحت وشاحها الأسود.

" الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً".

دفعتْ عمود الإنارة عنها بعنف، ولاحظتْ أنها تمشي. لكنْ اجتاحتْها موجة أخرى من التعب مثل بحر عال، جرف قلبها بعيداً عن صدرها. "لن أصل إلى هناك أبداً" همهمتْ، توقّفتْ فجأة، تتمايل قليلاً حيث وقفتْ. "أبداً".

وأدركتْ استحالة المشي حتّى الاقتراب من الجسر، فكّرت السيدة ڤيرلوك بالهروب إلى خارج البلاد.

خطرتْ لها الفكرة فجأة. القَتَلَة قد هربوا. هربوا إلى خارج البلاد. إسبانيا أو كاليفورنيا. مجرّد أسماء. العالم الواسع الذي خُلق من أجل مجد الإنسان

لم يكن سوى فراغ واسع بالنسبة للسيدة ڤيرلوك. لم تكن تعرف أيّ طريق تسلك. القَتَلَة لديهم أصدقاء، علاقات، مساعدون - لديهم معرفة. هي لا تملك أيّ شيء من هذا. كانت القاتلة الأكثر وحدة التي ضربت ضربة قاضية. كانت وحيدة في لندن، والمدينة كلها مليئة بالأعاجيب والوحل، تائهة في شوارعها وكثرة أضوائها، غارقة في ليلة يائسة، بقيتْ في قاع هاوية سوداء حيث لا يمكن لامرأة أن تزحف خارجها دون مساعدة.

تأرجحت إلى الأمام، وقامتْ بمحاولة متهوّرة جديدة، مع خوف هائل من السقوط، ولكنْ بعد عدّة خطوات، وبشكل غير متوقّع، شعرتْ بإحساس المساندة، الأمان. رفعتْ رأسها، ورأت وجه رجل يحدّق النظر عن كثب إلى وشاحها. الرفيق أوسيبون لا يخشى النساء الغريبات، ولا يمكن لشعور الضعف الزائف أن يمنعه من الإقدام والتعرّف على امرأة من الواضح أنها ثملة جداً. الرفيق أوسيبون كان يحبّ النساء. كان يمُسك هذه المرأة بين كفّيه الكبيرين، يحدّق في وجهها بطريقة شبه عملية حتّى سمعها تقول بصوت خافت: "السيد أوسيبون!" وبعد ذلك، كاد أن يدعها تسقط على الأرض.

"السيدة ڤيرلوك!" صاح، "أنتِ هنا!".

بدا من المستحيل بالنسبة له أنها قد تكون ثملة. لكنْ لا أحد يعرف. لم يسأل نفسه هذا السؤال، لكنه منتبه إلى ألا يعيق القدر الجميل الذي قاد أرملة الرفيق ڤيرلوك له، حاول ضمّها إلى صدره. واندهش من أنها اقتربتْ بسهولة تامّة، واتّكأتْ على ذراعه للحظة قبل أن تحاول فكّ نفسها من عناقه. الرفيق أوسيبون لا يريد أن يكون فظّاً مع قَدَر لطيف. سحب ذراعه بطريقة طبيعية.

"عَرفتَني؟" قالتْ متلعثمة، وهي تقف أمامه تماماً ثابتة على ساقيها.

″بالطبع، عرفتُكِ″ قال أوسيبون بسرعة. ″خفتُ أن تسقطي. لقد فكّرتُ كثيراً بكِ في الآونة الأخيرة، ليس من أجل أن أتذكّركِ في أيّ مكان، في أيّ وقت. أنا - دائماً - أفكّر بكِ - منذ أن وقعتْ عينايَ عليك لأوّل مرّة″.

بدا أن السيدة ڤيرلوك لم تسمعه. ″هل أنتَ في طريقك إلى المتجر؟″ قالتْ بانفعال.

″نعم، أريد الذهاب حالاً إلى هناك″ أجاب أوسيبون. ″بعد أن قرأتُ الصحيفة مباشرة″.

في الواقع، الرفيق أوسيبون كان يتوارى لساعتين في حيّ بريت ستريت، غير قادر على اتّخاذ قرار خطوة جريئة. الفوضوي النشيط لم يكن مهاجماً جريئاً تماماً. تذكّر أن السيدة ڤيرلوك لم تستجب لنظراته، ولو بإيماءة بسيطة للتشجيع. بالإضافة إلى ذلك، فكّر أن المتجر قد يكون مُراقَباً من قِبَل الشرطة، والرفيق أوسيبون لم يكن يرغب في أن تُكوِّن الشرطة رأياً مبالغاً فيه عن تعاطفه الثوري. حتّى الآن هو لا يعرف ماذا يجب أن يفعل. بالمقارنة مع تصوّراته الغرامية المعتادة كانت هذه مهمّة كبيرة، وخطيرة. تجاهل كم من الأمور في هذه المهمّة، وإلى أيّ مدى يمكنه أن يمضي فيها من أجل السيطرة على ما يُقلقه - على فرض أن هناك فرصة لذلك. هذه التعقيدات كبحتْ نشوته، منحتْ نبرته جدّيّة، تتماشى مع الظروف.

″هل لي أن أسألكِ إلى أين أنتِ ذاهبة؟″ سألها بصوت خافت.

″لا تسألني!″ صرخت السيدة ڤيرلوك مع رعشة، وانفعال مكبوت. بكل إرادة العيش القوية لديها ارتدّت عن فكرة الموت.

″لا يهمّ إلى أين كنتِ ذاهبة...″.

خلُص أوسيبون إلى أنها كانت منفعلة جداً، لكنها متّزنة تماماً. بقيتْ صامتة إلى جانبه للحظة، وبعد ذلك، فعلت شيئاً غير متوقّع بشكل مفاجئ. دسّتْ يدها تحت ذراعه. كان منذهلاً بالتأكيد من هذا التصرّف، وأكثر ذهولاً من الطريقة الحازمة بشكل ملموس لهذا التصرّف. لكنْ لكونه موقفاً حسّاساً، تصرّف الرفيق أوسيبون بلطف. أقنع نفسه بضغط اليد قليلاً على أضلاعه القوية. شعر في الوقت نفسه أنه يُدفَع إلى الأمام، وخضع لذلك. في نهاية بريت ستريت، أصبح مُدركاً من أنه موجّه نحو اليسار. لقد استسلم.

بائع الخضار في الزاوية أخمد الوهج المتقّد لبرتقاله وليمونه، وبريت بليس كان مظلماً تماماً، يتخلّل هذا الظلام هالات ضبابية لعدد قليل من المصابيح، تحدّد شكلها المثلّث مع مجموعة من ثلاثة أضواء على دعامة واحدة في الوسط. الشكلان الداكنان للرجل والمرأة انسابا ذراعاً في ذراع على طول الجدران مع مظهر عاشقين ومشرّدين في ليلة بائسة.

"ماذا ستقول، لو أخبرتُكَ أني كنتُ ذاهبة إليكَ؟" سألتْه السيدة ڤيرلوك، وهي تمُسك ذراعه بقوّة.

"أقول إنكِ لن تجدي أيّ أحد أكثر مني استعداداً لمساعدتكِ في مشكلتكِ" أجاب أوسيبون، مع فكرة أنه قد حقّق تقدّماً هائلاً. في الواقع، التقدّم في هذه القضية الحسّاسة حبس أنفاسه.

"مشكلتي؟!" كرّرت السيدة ڤيرلوك ببطء.

"نعم".

"وهل تعرف ما هي مشكلتي؟" همستْ بحدّة غريبة.

"بعد عشر دقائق من قراءة صحيفة المساء" وضح أوسيبون بحماس، "قابلتُ رجلاً - ربمّا - رأيتِه مرّة أو مرّتين في المتجر، تحدّثتُ معه، ولم يترك أيّ شك في عقلي. وعندما كنتُ في طريقي إلى هنا، كنتُ أتساءل فيما إذا كنتُ - أنا مولعاً بكِ بشكل لا يمكن أن تصفه الكلمات منذ أن وقعتْ عيناي على وجهكِ" صاح، كما لو أنه غير قادر على التحكّم بمشاعره.

افترض الرفيق أوسيبون بشكل صحيح أنْ ليس هناك امرأة قادرة على رفض مثل هذا الاعتراف تماماً. لكنه لم يكن يعلم أن السيدة ڤيرلوك قبلتْ بهذا الاعتراف بكل ضراوة غريزة حماية الذات في قبضة شخص غارق. بالنسبة لأرملة السيد ڤيرلوك، كان الفوضوي القوي مثل ملاك مضيء.

كانا يمشيان بتأنٍّ، بجانب بعضهما البعض. "أظنّ ذلك" همهمت السيدة ڤيرلوك بصوت خافت.

"لقد قرأتِ ذلك في عينيّ" لمّح أوسيبون بثقة كبيرة.

"نعم" همستْ في أذنه.

"حبّ مثل حبّي لا يمكن أن يظلّ مَخفياً عن امرأة مثلكِ" تابع في محاولة فصل عقله عن الاعتبارات الماديّة من مثل القيمة التجارية للدكّان وكمّيّة المال الذي ربمّا تركه السيد ڤيرلوك في البنك. ركّز على الجانب العاطفي من القضية. في أعماق قلبه، كان مصدوماً بعض الشيء من نجاحه. كان ڤيرلوك رجلاً طيّباً وزوجاً محترماً جداً، كما كان مُلاحَظاً. ومع ذلك، الرفيق أوسيبون لم يكن يرغب في إفساد نجاحه من أجل رجل ميت. بحزم، قمع تعاطفه مع شبح الرفيق ڤيرلوك. واستمرّ.

"لا يمكنني إخفاء ذلك. أنا مليء جداً بحبّكِ. أظنّ أنكِ رأيتِ ذلك في عينيّ. لكنْ لا يمكنني أن أخمّن هذا. كنتِ دائماً بعيدة جداً..."

"وماذا كنتَ تتوقّع؟" قاطعتْه السيدة ڤيرلوك. "أنا امرأة محترمة -" توقّفتْ قليلاً، ثمّ أضافتْ، كما لو كانت تتحدّث إلى نفسها بغضب وحزن: "حتّى جعلني ما أنا عليه الآن".

لم يتوقّف أوسيبون عند هذه الكلمات، وأخذ زمام المبادرة. "لم يبدُ لي أنه كان جديراً بكِ أبداً" بدأ من جديد، وتخلّى عن ولائه بسهولة. "أنتِ تستحقّين مصيراً أفضل".

قاطعتْه السيدة ڤيرلوك بمرارة:

"مصيراً أفضل! لقد خدعني لسبع سنوات".

"كنتِ تبدين سعيدة جداً بالعيش معه" حاول أوسيبون تبرئة فتور تصرّفه السابق. "هل هذا ما جعلني غيوراً؟! كان يبدو أنك تحبّينه. كنتُ متفاجئاً - وغيوراً" أضاف.

"أحبّه!" قالت السيدة ڤيرلوك بصوت خافت، بسخرية وغضب. "أحبّه! كنتُ زوجة صالحة له. أنا امرأة محترمة. كنتَ تظنّ أني أحبّه! حقاً! انظر هنا! توم ...".

ارتعش الرفيق أوسيبون عند سماعه هذا الاسم. اسمه كان ألكسندر، ويُنادى حسب الاتّفاق بتوم من قِبَل رفاقه المقرّبين فقط. كان اسماً رمزياً لأصدقائه - في لحظات التوتّر. لم يكن لديه أدنى فكرة بأنها قد سمعت الاسم يُستخدَم من قِبَل أيّ شخص. من الواضح أنها لم تلتقط الاسم فحسب، ولكنْ حفظتْه في ذاكرتها أيضاً - وربّما في قلبها.

"انظرْ هنا، توم! كنتُ شابّة. كنتُ مرهقة. متعبة. لديّ شخصان يعتمدان على ما يمكن أن أفعله، ويبدو أني لن أتمكّن من فعل أيّ شيء

بعد الآن. شخصان - الأمّ والصبي. كان ابناً لي أكثر ممّا كان لأمّي. سهرتُ ليال وليال معه، وهو في حضني، أنا وهو وحدنا تماماً في الطابق العلوي، عندما لم يكن عمري أكثر من ثماني سنوات. وعند ذلك - كان لي، قلتُ لك .... لا يمكنك فَهْم ذلك. ليس هناك رجل يمكنه فَهْم ذلك. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ كان هناك رجل شابّ ...“

الذكريات الرومانسية السابقة مع جزّار شاب حيّة، عنيدة، مثل أمل عابر في قلب يرتجف أمام الخوف من المشنقة، ومليء بالتمرّد على الموت.

”هذا هو الرجل الذي كنتُ أحبّه“ تابعتْ أرملة السيد ڤيرلوك. ”كنتُ أظنّ - أيضاً - أنه يستطيع أن يرى ذلك في عينيّ. كان يحصل على خمسة وعشرين شلناً في الأسبوع، ووالده هدّد بطرده من العمل، إذا قام بمثل هذه الحماقة، وتزوّج من بنت مع أمّ معاقة وولد أحمق مجنون بين يديها. لكنه ظلّ يلاحقني، وفي إحدى الأمسيات وجدتُ الشجاعة لأغلق الباب في وجهه. كان عليّ أن أفعل ذلك. كنتُ أحبّه كثيراً. خمسة وعشرون شلناً في الأسبوع! وكان هناك ذلك الرجل الآخر - مستأجراً طيّباً. ماذا تفعل الفتاة؟ هل أتيهُ في الشوارع؟ كان يبدو لطيفاً. كان يريدني بأيّ طريقة. ماذا كان عليّ أن أفعل مع أمّي وذلك الولد المسكين؟ ها؟ قلتُ نعم. كان يبدو لطيفاً، كريماً، لديه المال، ولم يقلْ أيّ شيء أبداً. لسبع سنوات - سبع سنوات كنتُ زوجة صالحة له، لطيفة، طيّبة، كريمة، و ... وأحبّني. آه، نعم. أحبّني حتّى إني أحياناً كنتُ أريد أن - لسبع سنوات. سبع سنوات زوجة له. وهل تعرف ماذا كان هو، صديقك العزيز هذا؟ هل تعرف ماذا كان؟ كان شيطاناً!“.

العنف الهائل في هذا التصريح المهموس فاجأت الرفيق أوسيبون تماماً. استدارتْ ويني ڤيرلوك نحوه، وأمسكتْ ذراعيه، واجهتْه تحت

رذاذ المطر في ظلام وعزلة بريت بليس حيث بدا أن كل أصوات الحياة قد اختفت فيما يشبه بئراً ثلاثياً من الإسفلت والطابوق، من منازل عمياء وأحجار صمّاء.

"لا، لم أكن أعرف" قال مع شيء من البلاهة، لم يُلاحظ جانبها الهزلي أمام امرأة مسكونة بالخوف من حبل المشنقة، "لكني أعرف الآن ... أنا أفهم" قال وهو يتخبّط، عقله تأمّل نوع الفظاعات التي يمكن لڤيرلوك أن يكون قد ارتكبها تحت المظاهر البليدة، الهادئة لزواجه. كان مروّعاً بالتأكيد. "أنا أفهم" كرّر، ثمّ من خلال فكرة مفاجئة، قال - "امرأة تعيسة!" مع مواساة واضحة، عوضاً عن القول الأكثر حميمية "حبيبتي المسكينة!" كما اعتاد أن يقول. لم تكن هذه حالة عادية. أدرك حدوث أمر غير طبيعي، في حين لم يغبْ عن ذهنه عظمة الرهان. "امرأة تعيسة، شجاعة!".

كان سعيداً لاكتشافه هذا الاختلاف، لكنه لم يستطع اكتشاف أيّ شيء آخر. "آه، لكنه ميت الآن"، كان أفضل ما أمكنه قوله. ووضع كمّيّة ملحوظة من العداء في صراخه المتّسم بالحذر. قبضت السيدة ڤيرلوك على ذراعه بطريقة فيها شيء من الجنون. "أنت تخمّن إذنْ أنه قد مات" همهمتْ كما لو أنها خارج نفسها. "أنت! أنت خمّنتَ ما كان عليّ القيام به. ما كان عليّ القيام به!".

كان هناك تلميحات انتصار، إغاثة، امتنان في النبرة التي لا يمكن وصفها لهذه الكلمات. استحوذتْ هذه النبرة على كل انتباه أوسيبون على حساب المعنى الحرفي المجرّد. تساءل ما الذي حدث معها؟ لماذا أقحمتْ نفسها في هذه الحالة الانفعالية الجنونية؟ حتّى إنه بدأ يتساءل فيما إذا كانت الأسباب الخفية لقضية غرينتش بارك لا تكمن في الظروف البائسة لحياة ڤيرلوك الزوجية. ذهب إلى أبعد من ذلك في ظنّه بالسيد

ڤيرلوك في أنه اختار هذه الطريقة غير العادية للانتحار. يا إلهي! وهذا سوف يفسّر التفاهة التامّة والخطأ الواضح في الموضوع. الظروف لم تتطلّب هذا المظهر الفوضوي. بل على العكس تماماً، وڤيرلوك كان مثل أيّ ثوري آخر مدركاً لمكانته. يا لها من سخرية عظيمة لو أن ڤيرلوك جعل من كل أوروبا، العالم الثوري، الشرطة، الصحافة، وكذلك البروفيسور المغرور أضحوكة! بالتأكيد، ظنّ أوسيبون في ذهول. بدا من شبه المؤكد أنه قد فعل! الرجل البائس! بدا له فجأة احتمالاً وارداً جداً: أن من بين هذين الزوجين العاديين لم يكن على وجه التحديد - الرجل هو الشيطان.

ألكسندر أوسيبون، واسمه الرمزي "الدكتور"، كان - بالطبع - يميل إلى التفكير بتسامح مع أصدقائه الرجال. نظر للسيدة ڤيرلوك وهي متشبّثة بذراعه. مع صديقاته كان يفكّر بطريقة عملية خاصّة. لماذا صرخت السيدة ڤيرلوك من علمه بموت السيد ڤيرلوك؟! لم يخمّن سبب ذلك على الإطلاق، ولم يزعج نفسه كثيراً. النساء يتحدّثنَ غالباً مثل الحمقى. لكنه كان فضولياً، ويريد أن يعرف كيف علمتْ بذلك. لا يمكن للصحف أن تُخبرها بأيّ شيء أكثر من الحقيقة المجرّدة: الرجل تفجّر إلى أشلاء في غرينتش بارك، ولم يتمّ تحديد هويّته. لا يمكن تصديق أيّ نظرية، مفادها أن السيد ڤيرلوك قد لمّح لها عن نيّته - أياً كانت. هذه المشكلة جذبتْ انتباه الرفيق أوسيبون كثيراً. توقّف قليلاً. كانا قد سارا حينها على طول الجهات الثلاثة لبريت بليس، ووقفا بالقرب من نهاية بريت ستريت مرّة أخرى.

"كيف سمعتِ بذلك لأوّل مرّة؟" تساءل بنبرة، حاول أن يجعلها ملائمة لطبيعة البوح الذي أفشتْه له المرأة التي بجانبه.

ارتعشتْ بقوّة لبعض الوقت قبل أن تجيب بصوت خافت.

"من الشرطة. جاء كبير المفتّشين، قال إنه كبير المفتّشين هيت. أراني "

اختنقت السيدة ڤيرلوك. "أوه، توم، لقد جمعوه بالمجرفة" تنهّدت بأنفاس جافّة. مرّ بعض الوقت قبل أن يتمكّن أوسيبون من الكلام مرّة أخرى.

"الشرطة! هل تقصدين القول إن الشرطة قد جاءت، بالفعل؟ إن كبير المفتّشين هيت بنفسه جاء فعلاً ليُخبركِ عن الحادث؟".

"نعم" أكَّدتْ بالنبرة نفسها. "نعم، جاء ببساطة. لقد جاء. لم أكن أعرف أيّ شيء. أظهر لي قطعة من معطف، و- على نحو غير متوقّع. هل تعرفين هذا؟ سألني".

"هيت! هيت! وماذا فعل؟"

نكست السيدة ڤيرلوك رأسها. "لا شيء. لم يفعل أيّ شيء. ذهب بعيداً. كانت الشرطة إلى جانب هذا الرجل" همهمتْ بشكل مأساوي.

"جاء رجل آخر، أيضاً".

"آخر، تقصدين مفتّشاً آخر؟" سأل أوسيبون بانفعال شديد وبنبرة، تشبه كثيراً نبرة طفل خائف.

"لا أعرف. جاء رجل. كان يبدو أجنبياً. قد يكون واحداً من رجال السفارة".

الرفيق أوسيبون، كاد أن ينهار من هذه الصدمة الجديدة.

"السفارة! هل أنتِ مُدرِكة لما تقولين؟ ما السفارة؟ يا ترى ماذا تعنين بالسفارة؟".

"ذلك المكان في تشيشم سكوير. الناس الذين يلعنهم دائماً. لا أعرف. ما الأمر!"

"وذلك الرجل، ماذا فعل أو قال لك؟"

"لا أتذكّر.... لا شيء.... لستُ مهتمّة. لا تسألني عن شيء" توسّلتْ بصوت مرهق.

"حسناً. لن أسأل" وافق أوسيبون بلطف. وهو يعني هذا أيضاً، ليس بسبب الانفعال المفرط لصوتها المتضرّع، لكنْ لأنه شعر بفقدان توازنه في أعماق هذه القضية الغامضة. الشرطة! السفارة! أُف! خوفاً من المغامرة في طرق يخبو فيها نور ذكائه الطبيعي لتوجيهه بأمان، نبذ كل الفرضيات، الظنون، والنظريات بحزم من عقله. لديه المرأة هنا، رمتْ نفسها بين ذراعيه بكل ما في الكلمة من معنى، وهذا أهمّ شيء. لكنْ بعد ما سمعه لا يمكن لأيّ شيء أن يُذهله بعد الآن. وعندما بدأت السيدة ڤيرلوك، كما لو أنها رُوِّعَتْ فجأة من حلم آمن، الإلحاح عليه بشدّة على ضرورة رحلة عاجلة إلى أوروبا، لم يصرخ مندهشاً على أقلّ تقدير. قال ببساطة، مع أسف بسيط - إنه لن يكون هناك قطار حتّى الصباح، ووقف يُحدّق بعناية في وجهها المتوشّح بشبكة سوداء في ضوء مصباح غازي متوشّح بالضباب.

وهي تجلس بالقرب منه، اندمج مظهرها الأسود مع الظلام مثل نصف تمثال منحوت في كتلة من الحجر الأسود. كان من المستحيل التكهّن بما عرفتْه، ومدى تورّطها مع رجال الشرطة والسفارة. لكنْ إذا أرادتْ أن تهرب لن يعارض ذلك. هو نفسه يريد الهروب خارج البلاد. شعر أن التجارة، المتجر المألوف بشكل غريب لكبار المفتّشين وأعضاء السفارات الأجنبية لم يكن المكان المناسب له. لابدّ أن يُسقط هذا من حسابه. لكنْ هناك بقية. المدّخرات. المال!

"يجب أن تُخبّئني حتّى الصباح في مكان ما" سألتْ بصوت مذعور.

"في الحقيقة، عزيزتي، لا يمكنني أخذكِ إلى حيث أعيش. أتشارك الغرفة مع صديق".

كان خائفاً أيضاً. في الصباح، سوف يظهر المحقّقون المباركون في كل المحطّات، بلا شك. وإذا أُلقي القبض عليها لسبب أو لآخر، سوف يفقدها أيضاً، بالتأكيد.

"لكنْ عليكَ أن تساعدني. ألا يهمّكَ أمري أبداً - أبداً؟ بماذا تفكّر؟".

قالتْ ذلك بعدوانية، لكنها تركتْ يديها اللتين تُمسكان به ترتخيان بإحباط. ساد الصمت، بينما رذاذ المطر والظلام سيطرا بهدوء على بريت بليس. لا روح حية، ولا حتّى روح متشرّدة، فاجرة، عاشقة لقطة اقتربت من رجل وامرأة يواجهان بعضهما.

"ربّما من الممكن أن نجد مأوى مناسباً لكِ في مكان ما" قال أوسيبون أخيراً. "لكنْ في الحقيقة، عزيزتي، إني لا أملك مالاً للذهاب والمحاولة - بضع بنسات فقط. نحن الثوريين لسنا أغنياء".

لديه خمسة عشر شلناً في جيبه. أضاف:

"وهناك رحلة أمامنا، أيضاً ... في الصباح الباكر".

لم تتحرّك، ولم تُصدر صوتاً، وبدأ الرفيق أوسيبون يفقد شجاعته قليلاً. من الواضح أنها لا تملك اقتراحاً لتقدّمه. فجأة أمسكتْ بصدرها، كما لو أنها شعرتْ بألم حادّ هناك.

"لكنْ لديّ" قالتْ، وهي تلهث، "لديّ المال. لديّ مالٌ كافٍ. توم! دعنا نذهب من هنا".

"كم لديكِ من المال؟" سألها دون أن يتأثّر بشدّها له لأنه كان رجلاً حذراً".

"لديّ المال، قلتُ لك. المال كله".

"ماذا تعنين بذلك؟ المال كله الذي كان في البنك؟ أم ماذا؟" سألها بشكّ، لكنه غير مستعدّ للمفاجئة عن طريق الحظّ.

"نعم، نعم!" قالتْ بعصبية. " المال كله الذي كان في البنك. لديّ المال كله".

"وكيف نجحتِ في الحصول عليه؟" سألها مندهشاً.

"لقد أعطاه لي" همستْ فجأة بصوت خافت مرتجف.

كبح الرفيق أوسيبون دهشته المتزايدة بقوّة وثبات.

"حسناً، إذنْ ... لقد نجونا" قال ببطء.

مالت نحوه، وارتمتْ على صدره. رحّب بها. لديها المال كله. كانت قبّعتها تقف في طريق مشاعر متدفّقة واضحة جداً، وشاحها أيضاً. أوسيبون كان مقبولاً في التعبير عن عواطفه، وليس أكثر من ذلك. تلقّتْ هذه المشاعر دون مقاومة، ودون حماس، بشكل سلبي، كما لو كانت نصف عاقلة. حرّرتْ نفسها من عناقه الرخو دون صعوبة.

"سوف تحميني، توم" صاحتْ، بينما كانت تتراجع، لكنها ظلّت تمسك بيديها طيّتي صدر معطفه الرطب. "احمني. خبِّئْني. لا تدعهم يُلقون القبض عليّ. عليك أن تقتلني أوّلاً. لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي، لا أستطيع، لا أستطيع، ولا حتّى من أجل ما أخاف منه".

كانت غريبة بشكل مُربك، فكّر أوسيبون. بدأتْ بالتأثير عليه بقلقها اللامحدود. قال بفظاظة لأنه كان مشغولاً بأفكار مهمّة:

"أيّ شيطان تخافين منه؟"

"ألم تُخمّن ما الذي دفعني لفعل ذلك!" صاحت المرأة. الحيرة بسبب واقعية مخاوفها الرهيبة، ورأسها المليء بكلمات مدوّية، أبقت الرعب من وضعها حاضراً في عقلها، فكّرتْ أن عدم ترابط كلامها كان واضحاً جداً. لكنها لم تدرك كم كان قليلاً ما قالتْه بصوت مسموع واضح في عبارات مفكّكة، اكتملتْ في ذهنها فقط. شعرتْ بارتياح اعتراف كامل، وأعطتْ معنى خاصّاً لكل كلمة نطق بها الرفيق أوسيبون، الذي معرفته لا تشابه معرفتها على الأقلّ. "ألم تُخمّن ما الذي دفعني لفعل ذلك؟!" انخفض صوتها. "لستَ بحاجة إلى التفكير طويلاً لكي تُخمّن ممّا أخاف" تابعت في همهمة مريرة وحزينة. "لا أريد أن يحدث هذا معي. لا أريد! لا أريد! يجب أن تَعِدَ بقتلي أوّلاً!" هزّت طيّتي صدر معطفه. "يجب ألا يحدث هذا أبداً!".

أكّد لها باقتضاب أنْ لا ضرورة لوعود من جانبه، لكنْ أن يهتمّ بها، لم يقل هذا بشكل واضح لأنه كثيراً ما يتعامل مع نساء مجروحات، وكان يميل عموماً لتجربته في توجيه سلوكه، بدلاً من استخدام ذكائه مع كل حالة خاصّة. ذكاؤه في هذه الحالة كان يعمل في اتّجاهات أخرى. كلمات النساء تسقط في الماء، لكن أوجه القصور في جداول العمل باقية. تطفّلت الطبيعة الجَزَرِيّة لبريطانيا العظمى على ملاحظته بشكل بغيض. "قد تكون أشبه بمَن يُسجن كل ليلة خلف القضبان" فكّر بانفعال، كان حائراً كما لو أن عليه تسلّق جدار وامرأة على ظهره. صفع جبهته فجأة. تذكّر فجأة بعد أن أجهد عقله في التفكير إلى أقصى حدّ ساوثامبتون - خدمة سانت مالو.

غادر القارب حوالي منتصف الليل. كان هناك قطار حوالي ١٠:٣٠. أصبح مبتهجاً ومستعدّاً للعمل.

"من محطّة واترلو. لدينا وقت كافٍ. سوف نتمكّن أخيراً من ذلك .... ما الأمر الآن؟ هذه ليست الوجهة المناسبة" اعترض.

السيدة ڤيرلوك، وضعتْ ذراعها حول ذراعه، حاولتْ جرّه إلى بريت ستريت مرّة أخرى.

"لقد نسيتُ إغلاق باب المتجر عندما خرجتُ" همستْ، وهي منفعلة جداً.

المتجر وكل شيء فيه لم يعد مهماً للرفيق أوسيبون بعد الآن. كان يعرف كيف يكبح رغباته. كان على وشك أن يقول: "وماذا في ذلك؟ فليكن" لكنه امتنع. كان يكره الجدال حول التفاهات. حتّى إنه عدّل سرعته كثيراً على فكرة أنها ربّما تركت المال في الدُّرج. لكن همّته كانت أقلّ بكثير من نفاد صبرها المحموم.

بدا المتجر مظلماً جداً في البداية. الباب كان موارباً. اتّكأت السيدة ڤيرلوك على الواجهة وهي تلهث:

"لا أحد في الداخل. انظر! الضوء - الضوء في غرفة الجلوس".

مَدّ أوسيبون رأسه إلى الأمام، رأى ضوءاً خافتاً في ظلام المتجر.

"هناك" قال.

"لقد نسيتُه" جاء صوت السيدة ڤيرلوك من خلف وشاحها ضعيفاً. بينما كان يقف منتظراً دخولها أوّلاً، قالتْ بصوت أعلى: "ادخلْ، وأطفئه -

وإلا سأُجنّ". لم يعترض مباشرة على هذا الاقتراح، هذا التحريض الغريب. "أين تلك الأموال كلها؟" سألها.

"معي! اذهبْ، توم. بسرعة! أطفئه... وإلا سأُجنّ!" صرختْ، وضعتْ كلتَا يديها على كتفيه من الخلف.

لم يكن مستعدّاً لاستعراض قوّته البدنية، تعثّر الرفيق أوسيبون بعيداً في المتجر بعد أن دفعتْه. كان مندهشاً من قوّة المرأة، وصُدم من تصرّفاتها. لكنه لم يعد لها ليحتجّ بصرامة في الشارع. تولّد لديه انطباع غير مقبول عن سلوكها الأحمق. علاوة على ذلك، الآن أو أبداً كان الوقت المناسب لملاطفة المرأة. تجنّب الرفيق أوسيبون بسهولة حافة المنضدة، ووصل بهدوء إلى الباب الزجاجي لغرفة الجلوس. الستارة على الألواح الزجاجية للباب مسحوبة قليلاً، نظر في داخل الغرفة بدافع طبيعي للغاية في اللحظة التي كان فيها مستعداً لتدوير المقبض. نظر في الداخل دون تفكير، دون قصد، دون أيّ نوع من الفضول. نظر إلى الداخل لأنه يجب أن ينظر إلى الداخل. نظر إلى الداخل، واكتشف أن السيد ڤيرلوك كان مضطجعاً بطمأنينة على الأريكة.

صرخة قادمة من أعماق موغلة في صدره تلاشتْ قبل أن يسمعها أحد، وتحوّلتْ إلى طعم شحمي، غثّ على شفتيه. في الوقت نفسه، نفّذ الرفيق أوسيبون ذهنياً قفزة جنونية إلى الوراء. لكن جسده – ظلّ دون توجيه عقلي ممسكاً بمقبض الباب بقوّة غريزية، ودون تفكير. الفوضوي النشيط لم يترنّح. وكان يحدّق النظر، وجهه اقترب من الزجاج، وبرزتْ عيناه من محجريهما. كان على استعداد أن يعطي أيّ شيء ليهرب بعيداً، لكن عقله الذي عاد له الآن خَبّرهُ ألا يترك مقبض الباب. ماذا كان هذا جنوناً، كابوساً، أو فخاً، وقع فيه بدهاء شيطاني؟! لماذا؟! - ومن أجل ماذا؟!

لم يكن يعرف. دون أيّ شعور بالذنب في صدره، في سلام تامّ لضميره بقدر قلق هؤلاء الناس، فكرة أنه سيُقتَل لأسباب غامضة من قِبَل الزوجين ڤيرلوك لم تُؤثّر كثيراً في عقله، كما أثّرتْ في تجويف معدته، واختفتْ مرّة أخرى، تاركة شيئاً من شعور بالغثيان، وبأنه ليس على ما يرام. لم يشعر الرفيق أوسيبون بطريقة خاصّة جداً بأنه على ما يرام للحظة - لحظة طويلة. وكان يحدّق أمامه. ظلّ السيد ڤيرلوك ساكناً جداً في غضون ذلك، تظاهر بالنوم لأسباب تخصّه، بينما هذه المرأة المتوحّشة كانت تحرس الباب له ... غير مَرئية وصامتة في الشارع المظلم والمهجور. هل كان هذا كله نوعاً من الترتيب المرعب، اخترعتْه الشرطة للإيقاع به؟ صَغُر تواضعه من هذا التفسير.

لكن التصوّر الحقيقي للمشهد الذي رآه جاء لأوسيبون من خلال تأمّل القبّعة. بدت أمراً غير عاديّ، نذير شؤم، علامة. سوداء، وحاشيتها إلى أعلى، على الأرض أمام الأريكة، كما لو أُعدّت لاستقبال البنسات كتبرّعات من أناس سيأتون عمّا قريب لرؤية السيد ڤيرلوك يضطجع على الأريكة في بيته بهدوء تامّ. تجوّلت عينا الفوضوي النشيط من القبّعة إلى المائدة المُزاحة من مكانها، حدّق في الصحن المكسور لبعض الوقت، تلقّى نوعاً من الصدمة البصرية من ملاحظة وميض أبيض تحت الجفون المغلقة بشكل غير كامل للرجل على الأريكة. لا يبدو أن السيد ڤيرلوك نائم الآن، يبدو أنه مستلق مع رأس مائل، وينظر بإصرار إلى الجهة اليسرى من صدره. وعندما لاحظ الرفيق أوسيبون مقبض السكّين، ابتعد عن الباب الزجاجي، وشعر برغبة شديدة في التقيّؤ.

كادتْ روحه تقفز من الرعب عند ارتطام باب الشارع. لا يزال هذا المنزل مع ساكنيه الأبرياء فخّاً، فخّاً رهيباً. لم يكن لدى الرفيق أوسيبون تصوّر

ثابت حول ما حدث له الآن. اصطدم فخذه بحافة المنضدة، دار حول نفسه، ترنّح مع صرخة ألم، شعر في ذهول صلصلة جرس الباب كيف أن ذراعيه التصقتا على جانبه بقبضة متشنّجة، بينما الشفتان الباردتان لامرأة تتحرّكان بشكل مريب على أذنه لتُشكّل الكلمات:

"الشرطي! رآني!".

توقّف عن مقاومتها، لن تسمح له بالذهاب. يداها تُمسكان ببعضهما مع التواء الأصابع المترابطة على ظهره القوي. عندما اقتربت الخطوات، كانا يتنفّسان بسرعة، صدر إلى صدر، مع أنفاس متعبة ومرهقة. كما لو كانا في موقف صراع من أجل الحياة أو الموت، بينما في الواقع كانا في موقف خوف قاتل. استمرّ هذا لوقت طويل.

رأى الشرطي في أثناء تجواله في الحقيقة شيئاً من السيدة ڤيرلوك لأنه جاء من الطريق المضيء على الجانب الآخر لبريت ستريت، لم تكن بالنسبة له سوى حركة في الظلام. وحتّى إنه لم يكن متأكداً تماماً من ذلك. لم يكن لديه أيّ سبب للعجلة. كان على علم من أن المتجر الذي كان يراقبه قد أُغلق في وقت مبكّر. ليس هناك شيء غير عادي في ذلك. الرجال في الخدمة لديهم تعليمات خاصّة حول المتجر: يجب عدم التدخّل بما يجري هناك ما لم يخلّ بالنظام بشكل قاطع، لكنْ يجب الإبلاغ عن كل ما يرونه هناك. لم يكن هناك ملاحظات للإبلاغ عنها، لكنْ من شعور الواجب، ومن أجل راحة ضميره، وأيضاً بسبب تلك الحركة المريبة في الظلام، عبر الشرطي الشارع، وجرّب فَتْح الباب. المزلاج النابض للباب، الذي مفتاحه لن يُستخدَم إلى الأبد ظلّ في جيب صدرية السيد ڤيرلوك المتوفّى، مُغلق بإحكام كالعادة. بينما الشرطي يقظ الضمير كان يحرّك المقبض، شعر أوسيبون مرّة أخرى ببرود شفتي امرأة تدغدغ بصورة مرعبة أذنه:

"لو دخل، اقتلْني، اقتلْني، توم".

سار الشرطي بعيداً، في أثناء سيره سلط ضوء فانوسه الخافت - مجرّد إجراء روتيني - على واجهة المتجر. بقي الرجل والمرأة في الداخل يقفان ساكنين للحظة، ويلهثان، صدر إلى صدر، ثمّ فكّتْ أصابعها، وأنزلتْ ذراعيها ببطء. اتّكأ أوسيبون على المنضدة. الفوضوي القويّ كان بحاجة إلى مساعدة عاجلة. كان هذا مروّعاً. شعر بالغثيان إلى درجة أنه لم يستطع الكلام. حتّى تمكّن من صياغة فكرة حزينة في كلمات، ليبيّن على الأقلّ أنه كان واعياً لحالته.

"بضع دقائق لاحقة فقط، وسوف أواجه بسببكِ رجلاً يتطفّل حول المكان مع فانوسه الخافت اللعين".

أرملة السيد ڤيرلوك، بلا حراك في وسط المتجر، قالتْ بإصرار:

"اذهبْ، وأطفئ المصباح، توم. سوف يقودني إلى الجنون".

رأتْ بشكل غير واضح إيماءة رفض عنيفة. لا شيء في العالم سوف يُغري أوسيبون للذهاب إلى غرفة الجلوس. لا يؤمن بالخرافات، لكنْ كان هناك الكثير من الدماء على الأرضية، بركة بغيضة من الدماء حول القبّعة. شعر أنه كان قريباً جداً بالفعل من تلك الجثّة من أجل سلامة عقله ... من أجل سلامة عنقه، ربّما!

"نحو عدّاد الغاز هناك، إذنْ! انظرْ. في تلك الزاوية".

جسد الرفيق أوسيبون القوي، يخطو بفظاظة ومظلّلاً عبر المتجر، جثم في الزاوية بطاعة، لكن هذه الطاعة لا علاقة لها بالمجاملة. تلمّس طريقه باضطراب - وفي صوت تمتمة بشتيمة، انطفأ المصباح خلف الباب

الزجاجي فجأة، رافقه تنهّد لاهث بشكل هستيري لامرأة. الليل، المكافأة المحتومة لرجال كادحين مخلصين على هذه الأرض. هبط الليل على السيد ڤيرلوك، الثوري المتعب - "أحد القدامى" - الحارس المتواضع للمجتمع، العميل السّرّيّ الذي لا يُقدّر بثمن Δ [دلتا] لإرساليات البارون ستوت - ورتنهايم، خادم القانون والنظام، المخلص، محلّ الثقة، الدقيق، المثير للإعجاب مع نقطة ضعف وحيدة ربّما: الاعتقاد المثالي بأنه محبوب لذاته.

تلمّس أوسيبون طريق عودته، في جوّ خانق، أسود مثل الحبر، إلى المنضدة. صوت السيدة ڤيرلوك التي تقف في وسط المتجر، ارتعش خلفه في ذلك الظلام باعتراض يائس.

"لن يعدموني، توم. سوف لن ...".

لم تُكمل الجملة. حذّر أوسيبون من خلف المنضدة: "لا تصرخي هكذا" عندها بدا أنه قد فكّر بعُمق. "هل فعلتِ هذا الشيء تماماً وحدكِ؟!" سأل بصوت أجوف. لكنْ مع مظهر هدوء وتسلّط، ملأ قلب السيدة ڤيرلوك بالامتنان والثقة بقوّة حمايته.

"نعم" همستْ، وهي غير مَرئية بالنسبة له.

"لا أستطيع تصديق أن هذا ممكن" همس. "لا أحد، سيصدّق ذلك" سمعتْهُ وهو يتحرّك من مكانه، ثمّ قلقلة المفتاح في قفل الباب الزجاجي لغرفة الجلوس. أقفل الرفيق أوسيبون الباب على السيد ڤيرلوك الراقد، لم يفعل ذلك احتراماً لطبيعته الأبدية، أو لأيّ اعتبار عاطفي غامض آخر، لكنْ لسبب محدّد، وهو أنه لم يكن متأكداً تماماً من عدم وجود شخص آخر مختبئ في مكان ما من المنزل. لم يصدّق المرأة، أو بالأحرى لم يكن

قادراً حتّى الآن على الحكم ما الذي يمكن أن يكون حقيقياً، ممكناً، أو حتّى محتملاً في هذا الكون المذهل. كان مذعوراً من أيّ قدرة على التصديق، أو عدم التصديق بخصوص هذه القضية غير العادية التي بدأتْ بمفتّشي الشرطة ورجال السفارة، والله يعلم أين ستنتهي ... على منصّة الإعدام لشخص ما. كان مرعوباً من فكرة أنه لا يستطيع أبداً إثبات كيف قضى وقته منذ الساعة السابعة، لأنه كان يتسكع في جوار بريت ستريت. كان مرعوباً من هذه المرأة المتوحّشة التي جاءتْ به إلى هنا، وأرادتْ ربّما توريطه في هذه الجريمة، على الأقلّ، لو لم يكن حذراً. كان مرعوباً من السرعة التي تورّط فيها بمثل هذا الخطر - والوقوع في شركه. مضتْ حوالي عشرين دقيقة منذ أن التقاها - ليس أكثر.

بدا صوت السيدة ڤيرلوك خافتاً، وتوسّل بشكل مثير للشفقة: "لا تدعهم يشنقوني، توم! خذني خارج البلاد. سوف أعمل لكَ. سوف أكون عبدة لكَ. سوف أحبّكَ. ليس لديّ أحد في هذا العالم.... مَن سينظر لي، إذا لم تفعل أنت؟!" صمتتْ للحظة، وعندها ظهرت لها فكرة مروّعة من أعماق الوحدة التي تحيط بها بسبب قطرات تافهة من الدم تقطر من مقبض السكّينة - الفتاة المحترمة من نُزل بيلغريڤيا، زوجة السيد ڤيرلوك المخلصة، المحترمة. "لن أطلب منكَ أن تتزوّجني" همستْ بنبرة خجولة.

تحرّكت خطوة إلى الأمام في الظلام. كان مرعوباً منها. سوف لن يتفاجأ إذا أخرجت سكّيناً أخرى، وطعنتْه في صدره. لن يقاوم بكل تأكيد. في الواقع لن تكون لديه الشجاعة الكافية لمنعها حينذاك. لكنه تساءل بنبرة غريبة، عميقة: "هل كان نائماً؟".

"لا" بكتْ، وأضافتْ بسرعة: "لم يكن نائماً. ليس هو. لقد أخبرني أنْ لا شيء يمكن أن يمسّه. بعد أن أخذ الصبي بعيداً عني ليقتله - الفتى

المحبّ، البريء، المسالم. طفلي، قلتُ لكَ. كان مستلقياً على الأريكة ببساطة - بعد أن قتل الصبي - ابني. كنتُ سأخرج إلى الشارع حتّى لا أراه بعد الآن. وقال لي ببساطة: "تعالي" بعد أن انتزع قلبي من صدري، وأخذ الصبي ليرميه في الوحل".

صمتتْ، وكرّرتْ مرّتين على نحو غامض: "دم ووحل. دم ووحل" صدمة عظيمة للرفيق أوسيبون. كان ذلك الصبي الأبله - إذنْ - هو مَن لقي حتفه في الحديقة العامّة. وظهر كل المتورّطين مخدوعين بطريقة مذهلة - هائل، صرخ بنبرة معرفية، في أقصى درجة من ذهوله:

"المختلّ عقلياً، أيّتها السماوات!".

"تعال هنا" ارتفع صوت السيدة ڤيرلوك مرّة أخرى. "مِن ماذا يظنّني قد خُلقتُ؟ قلْ لي، توم. تعالي! يقول لي! هكذا! كنتُ أنظر إلى السكّين، وكنتُ أفكّر أني سآتي إليه إذا كان يريدني جداً. أوه، نعم! أتيتُ للمرّة الأخيرة.... مع السكّين".

كان مرعوباً جداً منها - شقيقة المنحلّ عقلياً - هي نفسها منحلّة من نوع إجرامي .... وإلا من نوع كذوب. يمكن القول إن الرفيق أوسيبون كان مرعوباً على نحو علمي، بالإضافة إلى أنواع الخوف الأخرى كلها. كان خوفاً مُركّباً، ولا محدوداً، خوفاً مفرطاً جداً، أظهره بملامح زائفة من الهدوء والتأنيّ في الظلام. لأنه تحرّك وتحدّث بصعوبة، كما لو أنه شبه متجمّد في إرادته وتفكيره، ولا أحد يمكنه أن يرى وجهه المروّع. شعر بأنه نصف ميت.

قفز بارتفاع قَدَم. انتهكت السيدة ڤيرلوك بشكل غير متوقّع قدسية السلوك السليم المتحفّظ في منزلها بصرخة حادّة ورهيبة.

"ساعدني، توم! احمني. لا أريد الإعدام!".

ركض نحوها إلى الأمام، تلمّس طريقه إلى فمها بيد مشلولة، وماتت الصرخة. لكنه دهسها في عجلته، شعر بها الآن متشبّثة بساقيه، وبلغ خوفه ذروته، تحوّل إلى نوع من السُّكْر، أوهام مطلقة، اكتسب خوفه خصائص الهذيان الارتعاشي. رأى المرأة تلتفّ حوله مثل الأفعى، لا يمكن نفضها للتخلّص منها. لم تكن مميتة. كانت هي الموت نفسه ... رفيق الحياة.

السيدة ڤيرلوك، كما لو أنها هدأتْ من الانفعال، لن تتصرّف بصخب بعد الآن. كانت في حالة يُرثى لها.

"توم، لا يمكنكَ أن تتركني بعد الآن" همهمتْ من الأرض. "ليس قبل أن تسحقَ رأسي بكعب حذائكَ. لن أترككَ".

"انهضي" قال أوسيبون.

كان وجهه شاحباً، كما لو كان مَرئياً تماماً في الظلام الأسود القاتم للمتجر، بينما السيدة ڤيرلوك مُقنّعة بالوشاح، ليس لها وجه، ولا شكل واضح تقريباً. ارتعاش شيء صغير وأبيض، زهرة في قبّعتها، حدّد مكانها وتحرّكاتها.

نهضتْ في الظلام. نهضتْ من على الأرض، وأوسيبون ندم على عدم الخروج إلى الشارع في الحال. لكنه أدرك بسهولة أن هذا سوف لن يحدث. لن يحدث. ستركض خلفه. ستُلاحقه بالصراخ حتّى تدفع كل شرطي يسمع صراخها إلى مطاردته. وعند ذلك الرّبّ وحده يعلم ما سوف تقوله لهم. كان خائفاً جداً، حتّى إنه في لحظة ما مرّت في عقله فكرة مجنونة لخنقها في الظلام. وأصبح أكثر خوفاً من ذي قبل! لقد تمكّنتْ منه! رأى نفسه يعيش في رعب مدقع في قرية مجهولة في إسبانيا أو إيطاليا، حتّى وجدوه في صباح جميل ميتاً أيضاً، وسكّين في صدره - مثل السيد ڤيرلوك. تنهّد

بعمق. لم يجرؤ على الحركة. انتظرت السيدة ڤيرلوك في صمت على أمل أن يقول مخلّصها شيئاً، كلمات عزاء مستمدّة من صمته التأمّلي.

تحدّث فجأة بصوت عادي تقريباً. تأمُّله وصل إلى نهايته.

"دعينا نخرج، وإلا سوف يفوتنا القطار".

"إلى أين سنذهب؟" سألتْ بخجل. لم تعد السيدة ڤيرلوك امرأة حُرّة بعد الآن.

"لنذهب إلى باريس أوّلاً، هذه هي أفضل طريقة ممكنة .... لنخرج أوّلاً، ونرى ما إذا كان الطريق خالياً".

أطاعتْه. صوتها جاء ضعيفاً من خلال الباب المفتوح بحذر.

"كل شيء على ما يرام".

خرج أوسيبون. على الرغم من محاولته التحرّك بهدوء، صلصل الجرس المتصدّع وراء الباب المغلق للمتجر الفارغ، كما لو أنه يحاول عبثاً تنبيه السيد ڤيرلوك الراقد لرحيل زوجته النهائي ... برفقة صديقه.

في العربة التي أقلّتهما توّاً، قدّم الفوضوي القوي إيضاحاته. كان لا يزال شاحباً بشكل مرعب، وبدت عيناه غارقتين في نصف بوصة كاملة من وجهه المتوتّر. لكنه كان يبدو أنه قد فكّر في كل شيء بطريقة غير عادية.

"عندما نصل" تحدّث بنبرة غريبة، رتيبة، "عليك الذهاب إلى المحطّة قبلي، كما لو أننا لا نعرف بعضنا. سوف أشتري التذاكر، وأدسّ تذكرتكَ في يدكَ عندما أمرّ بجانبكِ. وبعد ذلك، سوف تذهبين إلى غرفة الانتظار لسيدات الدرجة الأولى، وتجلسين هناك حتّى عشرة دقائق قبل أن

يتحرّك القطار. ثمّ تخرجين. سأكون أنا في الخارج. تذهبين في البداية إلى الرصيف، كما لو أنك لا تعرفيني. قد يكون هناك عيون تراقب وتعرف كل شيء. وحدكِ أنتِ مجرّد سيدة تسافر في القطار. أنا معروف. معي، ربّما سيخمّنون أن السيدة ڤيرلوك قد هربتْ بعيداً. هل فهمتِ، عزيزتي؟" أضاف بصعوبة.

"نعم" قالت السيدة ڤيرلوك وهي تجلس أمامه في العربة، جامدة تماماً، فزعة من حبل المشنقة، وخائفة من الموت. "نعم، توم" ثمّ أضافت لنفسها، مثل لازمة مروّعة: "الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً".

أوسيبون لم ينظر لها، ومع وجه كما لو أنه قد لفّ ضمادة حوله بعد مرض عضال، قال: "من قبل، يجب أن يكون لديّ المال الآن لشراء التذاكر".

فتحت السيدة ڤيرلوك بعض سنانير صدرية ثوبها، بينما ظلّت تحدّق إلى الأمام خلف حاجبة العربة، سلّمتْه محفظة نقود جديدة من جلد الخنزير. أخذها دون أن يقول كلمة، وأدخلها عميقاً في مكان ما في صدره. وبعد ذلك ضرب بكفّه على سترته من الخارج.

هذا كله حدث دون أن يتبادلا نظرة واحدة، كانا مثل شخصين يبحثان عن اللمحة الأولى من الهدف المنشود. لم يفعلا حتّى تأرجحت العربة عند زاوية، في طريقها إلى الجسر، فتح أوسيبون فمه مرّة أخرى.

"هل تعرفين كم من المال في هذا الشيء؟" سألها كما لو أنه يخاطب ببطء جنياً يجلس بين أذني الحصان.

"لا" قالت السيدة ڤيرلوك. "لقد أعطاه لي. لم أعدّ المبلغ. كنتُ أظنّ أنْ لا شيء فيها في ذلك الوقت، وبعد ذلك...".

حرّكت يدها اليمنى قليلاً. كانت معبّرة جداً تلك الحركة الصغيرة من اليد اليمنى التي ضربتْ قلب رجل ضربة قاتلة في أقلّ من ساعة قبل الآن، لم يتمكّن أوسيبون من قمع القشعريرة. بالغ فيها عمداً، وهمهم:

"أشعر بالبرد. أشعر ببرد شديد".

كانت السيدة ڤيرلوك تنظر مباشرة إلى مشهد هروبها. بين الحين والآخر، العناوين العريضة للصحف، العبارة "الارتفاع المسموح به للسقوط أربعة عشر قَدَماً" تظهر أمام نظرتها المتوتّرة. من خلال وشاحها الأسود كان يلمع بياض عينيها الكبيرتين مثل عيني امرأة مقنّعة.

صلابة أوسيبون فيها شيء من التنظيم العملي، مظهر رسمي غريب. تحدث مرّة أخرى، وبصورة غير متوقّعة، كما لو أنه قد تحرّر من قيد من أجل أن يتحدّث.

"انظري هنا! هل تعرفين فيما إذا كان - فيما إذا كان حسابه في البنك باسمه أو باسم شخص آخر؟"

أدارت السيدة ڤيرلوك وجهها المقنع، والوميض الأبيض اللامع في عينيها نحوه.

"اسم آخر؟" قالتْ باهتمام.

"كوني دقيقة فيما تقولين" وعظها أوسيبون في السير السريع للعربة. "هذا مهمّ للغاية. سوف أشرح لك. البنك لديه أرقام هذه الأوراق المالية. إذا دفعوا باسمه، إذنْ عندما، عندما يعرف الجميع بموته، ربّما تساعدهم الأوراق المالية في اقتفاء أثرنا، بما أننا لا نملك مالاً آخر. ليس لديكِ أموال أخرى؟".

هزّت رأسها سلباً.

"ولا أيّ شيء في أيّ مكان؟" أصرّ.

"القليل من البنسات".

"سيكون الأمر خطيراً في هذه الحالة. سيتمّ تداول العملة النقدية إذنْ بشكل محدود. محدود جداً. ربمّا سنخسر نصف المبلغ من أجل تغيير تلك العملة النقدية في مكان آمن، أعرفه في باريس. وفي حالة أخرى، وأقصد إذا كان حسابه، ودُفع له باسم آخر - لنقل سميث على سبيل المثال - عندها سيكون المال آمناً تماماً للاستخدام. هل فهمتِ؟ البنك ليس لديه الوسائل لمعرفة أن السيد ڤيرلوك، أو لنقل سميث هما شخص واحد. هل رأيتِ كم مهمّ أن لا تخطئي في إجابتكِ عن سؤالي؟ هل يمكن الإجابة عن هذا السؤال على أيّ حال؟ ربمّا لا، ايه؟".

قالت برباطة جأش:

"تذكّرتُ الآن! لا يملكُ حساباً باسمه. قال لي ذات مرّة إنه أودع المال باسم بروزور".

"هل أنتِ متأكدة؟".

"متأكدة".

"هل تظنّين أن البنك لديه أيّ معرفة عن اسمه الحقيقي؟ أو أيّ أحد في البنك أو - "

هزّت كتفيها.

"كيف لي أن أعرف؟ هل هذا محتمل، توم؟".

"لا. أظنّ أن هذا غير محتمل. من المريح أن نعرف ... ها قد وصلنا. اخرجي أوّلاً، وامشِ مباشرة. تحرّكي بذكاء".

ظلّ وراءها، دفع لسائق العربة من فكّة نقوده. الخطّة التي وضعها ببصيرته الدقيقة تمّ تنفيذها. عندما دخلت السيدة ڤيرلوك وفي يدها تذكّرتها إلى سانت مالو غرفة انتظار السيدات، مشى الرفيق أوسيبون إلى البار، وفي سبع دقائق شرب ثلاثة كؤوس من البراندي اللاذع والماء.

"أحاول التخلّص من البرد" وضّح للساقية بإيماءة ودّيّة وابتسامة مضطربة. وبعدها خرج من هذه الفاصلة الاحتفالية بوجه رجل شرب من ينبوع الأحزان. رفع عينيه إلى الساعة. حان الوقت. كان ينتظر.

جاءت السيدة ڤيرلوك في الوقت المحدّد، ترتدي وشاحها، يغطّيها السواد - سواد كالموت نفسه، متوّجة بعدد من الأزهار الرخيصة والباهتة. مرّتْ بالقرب من مجموعة صغيرة من رجال كانوا يضحكون، لكنْ مَن يضحك كان من الممكن أن يسكت بكلمة واحدة. مشيتها كانت متراخية، لكن ظهرها كان مستقيماً، والرفيق أوسيبون كان ينظر لها برعب قبل أن يتحرّك.

وصل القطار، لم يكن هناك أيّ شخص تقريباً بالقرب من صفّ أبوابه مفتوحة. نظراً لظروف هذا الوقت من السنة والطقس السيئ تواجد عدد قليل من الركاب. مشت السيدة ڤيرلوك ببطء بمحاذاة صفّ من المقصورات الفارغة حتّى لمس الرفيق أوسيبون كوعها من الخلف.

"هنا".

دخلتْ، وبقي هو على رصيف المحطّة ينظر حوله. انحنت إلى الأمام، وقالت في همس:

"ما هذا، توم؟ هل هناك أيّ خطر؟"

"انتظري لحظة. هناك الحارس".

رأتْه يدنو من رجل يرتدي الزّيّ العسكري. تحدّثا لبعض الوقت. سمعت الحارس يقول "حسناً جداً، سيدي" ورأتْه يلمس قبّعته. وبعد ذلك، عاد أوسيبون، وهو يقول: "أخبرتُه ألا يدع أيّ شخص يدخل مقصورتنا".

مالتْ إلى الأمام في مقعدها. "أنت تفكّر بكل شيء .... سوف تُخلّصني، توم؟" سألتْ في نوبة من الحزن، رفعتْ وشاحها بفظاظة لتنظر إلى مُخلّصها.

كشفتْ عن وجه متصلّب كالصخر. ومن هذا الوجه تنظر العينان، الكبيرتان، الجافّتان، المتّسعتان، القاتمتان، المرهقتان مثل ثقبين أسودين في كرتين بيضاوين برّاقتين.

"ليس هناك خطر" قال، كان يحدّق في عينيها بجدّيّة، وهو سارح في تفكيره تقريباً، ظهرتْ هذه العبارة للسيدة ڤيرلوك الهاربة من حبل المشنقة مليئة بالقوّة والحنان. هذا التفاني حرّك مشاعرها بعمق - والوجه القاسي فقد صلابته الشديدة بسبب الخوف. حدّق الرفيق أوسيبون في وجهها كما لو لم يحدّق عاشق في وجه عشيقته من قبل. ألكسندر أوسيبون، الفوضوي، مَن يلقّب باسم الدكتور، كاتب كتاب طبّيّ (غير لائق)، المحاضر السابق في الجوانب الاجتماعية للنظافة في نوادي العاملين(*)، كان متحرّراً من قيود الأخلاق التقليدية - لكنه خضع لسيادة العلم. كان علمياً، وكان ينظر - بصورة علمية - إلى هذه المرأة، شقيقة

(*) Working men's clubs: هو نوع من نادٍ اجتماعيّ خاصّ ظهر لأوّل مرّة في القرن التاسع عشر في المناطق الصناعية في المملكة المتّحدة، وخاصّة في شمال إنكلترا، ليقدم الترفيه والتعليم لرجال الطبقة العاملة وأسرهم.

المنحلّ عقلياً، هي نفسها منحلّة عقلياً ... من النوع الإجرامي. حدّق في وجهها، ودعا لومبروزو، مثل قروي إيطالي يُحبذ قدّيسه المفضّل. كان يحدّق على نحو علمي. حدّق بخدّيها، أنفها، عينيها، أذنيها ..... سيّئ! .... مميت! شفتا السيدة ڤيرلوك الشاحبتين افترقتا قليلاً، مسترخيتين تحت تأثير نظرته العاطفية المجاملة، حدّق أيضاً في أسنانها .... ليس هناك مجال للشك ... نوع إجرامي.... إن لم تُحبّذ روح الرفيق أوسيبون الخائفة لومبروزو، فهذا لأنه ببساطة لا يستطيع أن يصدّق وفقاً للأسس العلمية بأنه كروح كان يحمل في داخله مثل هذه الأشياء. لكنه يملك الروح العلمية في داخله، والتي تحرّكه ليدلي بشهادته على رصيف محطّة السكّة الحديدية بعبارات عصبية متشنّجة.

"كان فتى استثنائياً، أخوكِ. مشوّق للدراسة. نوع مثالي بطريقة ما. مثالي!".

تحدّث علمياً في خوف. وعندما سمعت السيدة ڤيرلوك كلمات الثناء لحبيبها الميت، مالتْ إلى الأمام مع وميض في عينيها المطفأتين، مثل شعاع من أشعّة الشمس ينذر بعاصفة من الأمطار.

"كان كذلك بالتأكيد" همستْ بهدوء وشفتاها ترتجفان. "لقد لاحظتَه باهتمام، توم. أحبّكَ لذلك".

"الأمر الذي لا يصدّق كما أظنّ هو التشابه بينكما" تابع أوسيبون، عبّر عن خوفه الدائم، وحاول إخفاء قلقه ونفاد صبره المُقرف لانطلاق القطار.

"نعم، هو يشبهكِ".

تلك الكلمات لم تكن مؤثّرة أو متعاطفة جداً. لكن حقيقة تأكيده ذلك

التشابه كان كافياً بحد ذاته ليؤثّر على مشاعرها بقوّة. مع بكاء خافت، أطلقتْ ذراعيها، وانفجرت السيدة ڤيرلوك بالبكاء أخيراً.

دخل أوسيبون المقصورة، أغلق الباب بسرعة، ونظر إلى ساعة المحطّة ليعرف الوقت. ثماني دقائق أخرى. في أوّل ثلاث دقائق منها، بكت السيدة ڤيرلوك بشدّة ويأس دون توقّف أو انقطاع. وتحسّنتْ بعد ذلك إلى حدّ ما، وتنهّدتْ بهدوء، بينما تنهمر من عينيها دموع غزيرة. حاولتْ أن تقول شيئاً إلى مُنقذها، إلى الرجل الذي كان مثل ملاك مضيء.

"أوه، توم! كيف أخاف من الموت بعد أن أُخذ بعيداً عني بهذه الطريقة القاسية؟! كيف؟! كيف يمكن أن أكون جبانة إلى هذا الحدّ؟!".

رثتْ بصوت عالٍ تعلّقها بتلك الحياة، حياة دون رحمة، أو جمال، وتقريباً دون أخلاق، إلا من ثقة كبيرة لغايتها، وقادرة حتّى على القتل من أجل تحقيقها. وكما يحدث غالباً في مرثاة الفقراء: الثرية بالمعاناة، لكنها فقيرة بالكلمات، تكمن الحقيقة - صرخة الحقيقة - المبتذلة والمتكلّفة في مكان ما بين عبارات عاطفة زائفة.

"كيف لي أن أخاف من الموت؟! توم، لقد حاولتُ. لكني خائفة. حاولتُ التخلّص من نفسي. ولم أستطع. هل أنا قاسية؟ أظنّ أن كأس الأهوال لم يكن مملوءاً بما يكفي لشخص مثلي. وعندما جئتَ أنتَ ....".

صمتتْ قليلاً. وبعدها بكتْ في لحظة من الثقة والامتنان "سأعيش أيّامي كلها من أجلكَ، توم!" بكتْ بحرقة.

"اجلسي في الزاوية الأخرى من المقصورة، بعيداً عن الرصيف" قال أوسيبون باهتمام. سمحتْ لمُنقذها بأن يُجلسها في مكانها بارتياح، وراقب نوبة مقبلة أخرى من البكاء، أكثر عنفاً من الأولى. راقب الأعراض بنظرة

طبّيّة تقريباً، كما لو كان يعدّ الثواني. سمع صفّارة الحارس أخيراً. انقباض لا إرادي لشفته العليا كشفتْ أسنانه مع مظهر إصرار شرس، عندما شعر أن القطار قد بدأ بالتحرّك. السيدة ڤيرلوك لم تسمع وتشعر بأيّ شيء، وأوسيبون، مُنقذها، وقف ساكناً. شعر بتحرّك القطار بشكل أسرع، دويّ تحرّكه كان قوياً بالنسبة لصوت امرأة تبكي بصوتٍ عالٍ. وعندها اجتاز المقصورة بخطوتين كبيرتين، فتح الباب بتروّ، وقفز من القطار.

قفز من القطار إلى نهاية الرصيف بالضبط، وكان مصمّماً على تنفيذ خطّته اليائسة، نفّذها بما يشبه المعجزة - إتمامها كان غير مؤكّد تقريباً - بضرب باب المقصورة بقوّة. عندها فقط وجد نفسه يتدحرج رأساً على عقب مثل أرنب أُطلق عليه النار. كان مكدوماً، مضطرباً، شاحباً مثل ميت، ويلهث عندما وقف. لكنه كان هادئاً، وقادراً تماماً على مواجهة حشد من العاملين في محطّة السكة الحديد تجمّعوا حوله في لحظة. وضّح لهم بلهجة لطيفة ومقنعة، أن زوجته غادرتْ للتوّ إلى بريتاني لأن أمّها قد تُوفّيت، وبالطبع كانت حزينة جداً، كان قلقاً جداً بشأنها، وحاول تهدئتها، وفشل بالتأكيد في ذلك حتّى إنه لم يلاحظ أن القطار قد تحرّك بالفعل. صاح رجال المحطّة: "لماذا إذنْ، لم تظلّ معها حتّى ساوثامبتون، سيدي؟" عارض بأن أخت زوجته الشابّة قليلة الخبرة تُركت وحدها في البيت مع ثلاثة أطفال صغار، وستُصاب بالذعر من غيابه، ومكاتب التلغراف كلها مغلقة الآن. تصرّف ببديهة: "لكنْ أظنّ أني لن أحاول القفز مرّة أخرى" قال وهو يبتسم للجميع، وزّع بعض القطع النقدية الصغيرة وسار دون أن يعرج خارجاً من المحطّة.

في الخارج، رفض الرفيق أوسيبون، مع وفرة الأوراق النقدية الآمنة، كما لم يحدث في حياته من قبل، عرض سائق عربة أجرة.

"أستطيع المشي" قال مع ضحكة ودّيّة صغيرة لسائق العربة المهذّب.

يستطيع المشي. مشى. عَبَرَ الجسر. وفيما بعد رأت أبراج الدير الثابتة، الهائلة الخصل الصفراء من شعره تمرّ من تحت المصابيح. رأتْه أضواء فكتوريا أيضاً، سلون سكوير وأسوار الحديقة العامّة. ووجد الرفيق أوسيبون نفسه مرّة أخرى على الجسر. النهر، معجزة مشؤومة من ظلال ساكنة وومضات متدفّقة تذوب في العمق في صمت شديد، أسر انتباهه. وقف يتأمّل لفترة طويلة على حاجز الجسر. دقّتْ ساعة البرج مع دويّ صوت معدني فوق رأسه المنخفض. نظر إلى عقرب الساعة .... الثانية عشرة والنصف في ليلة موحشة عند القناة.

واصل الرفيق أوسيبون المشي. بنيته القوية شُوهدت تلك الليلة في أحياء بعيدة من المدينة الهائلة التي تغفو مثل وحش على بساط من طين تحت ستار من ضباب بارد. شُوهدت وهي تجتاز شوارع بلا حياة وصوت، أو تختفي في منظور رؤية مباشرة لا نهاية لها لبيوت مُظلّلة على طول الطرق الفارغة، تحدّها سلاسل من مصابيح الغاز. مشى في الساحات، الضواحي، الساحات على شكل بيضوي، الحدائق العامّة، في الشوارع الرتيبة بأسماء غير معروفة حيث غبار الإنسانية يحطّ خاملاً ويائساً خارج مجرى الحياة. مشى. وفجأة دخل إلى حديقة أمامية مع عشب مهترئ، سمح لنفسه الدخول إلى بيت صغير، قذر بعد أن فتح الباب بمفتاح المزلاج الذي أخرجه من جيبه.

رمى بنفسه على سريره، وهو يرتدي ملابسه بالكامل، وظلّ مستلقياً لربع ساعة كاملة. وبعدها نهض فجأة، جذب ركبتيه، وحضن ساقيه. الخيط الأبيض من الفجر شهد عليه مفتوح العينين، وفي الوضعية نفسها. هذا الرجل الذي يمكنه المشي لفترة طويلة جداً، ولمسافة بعيدة جداً، دون

أن يظهر عليه علامات التعب، يمكنه أيضاً الجلوس ساكناً لساعات دون أن يطرف له جفن. لكنْ عندما اقتحمت أشعّة الشمس أخيراً غرفته، فكّ يديه، وسقط مرّة أخرى على الوسادة. كانت عيناه تحدّقان في السقف. وفجأة أغلقهما. الرفيق أوسيبون نام في ضوء النهار.

١٣

كان القفل الحديديّ الهائل على أبواب خزانة الحائط، الشيء الوحيد في هذه الغرفة الذي تستقرّ عليه العين دون أن تتأثّر بالأشكال الكريهة البائسة وفقر الحاجيات الضرورية. أشياء غير قابلة للبيع في السياق المعتاد للتجارة بسبب حجمها المذهل، تمّ التنازل عنها للبروفيسور مقابل قليل من البنسات من تاجر معدّات السفن في شرق لندن. الغرفة كانت نظيفة، كبيرة، مرتّبة، وبائسة مع ذلك الفقر الذي يوحي بالجوع للاحتياجات الضرورية لكل إنسان ما عدا الخبز. لم يكن هناك أيّ شيء على الجدران سوى ورق الجدران، بقع زرنيخية خضراء، متّسخ ببقع، يتعذّر إزالتها هنا وهناك، وبقع تشبه خرائط باهتة لقارّات غير مأهولة.

جلس الرفيق أوسيبون عند طاولة خشبية قرب النافذة، وهو يمُسك رأسه بين قبضتيه. كان البروفيسور يرتدي بدلته التويدية الرخيصة الوحيدة، يجرّ قَدَمَيه على الأرضية الخشبية العارية جيئة وذهاباً بنعلين متهالكين، بشكل لا يمكن تصوّره، غرز يديه عميقاً في الجيوب المهترئة لسترته. حكى لضيفه القوي عن زيارته مؤخّراً للمصلح ميكيلس. الفوضوي المثالي كان مسترخياً إلى حدّ ما.

"الرجل لا يعرف أيّ شيء عن موت ڤيرلوك. بالطبع! هو لا ينظر أبداً إلى الصحف. الصحف تجعله حزيناً جداً، قال لي. لكنْ لا يهمّ. دخلتُ إلى بيته الصغير. لا روح في أيّ مكان. صرختُ ستّ مرّات قبل أن يُجيبني.

كنتُ أظنّ أنه كان مستغرقاً حينها في نومه، في سريره. لكنْ لا شيء من هذا. كان يكتب كتابه لأربع ساعات بالفعل. يجلس في تلك الحجرة الصغيرة وسط كومة من المخطوطات. كان هناك جزرة نيّة نصف مأكولة على طاولة، بالقرب منه. هذا هو فطوره. هو يعيش الآن على نظام غذائي مُكوّن من الجزر الني والقليل من الحليب".

"كيف كان ينظر إلى الأمر؟" سأل الرفيق أوسيبون بسأم.

"مثل ملاك... التقطتُ حفنة من أوراقه من على الأرض. فقره للمنطق مذهل. ليس لديه منطق. لا يستطيع التفكير بصورة متتالية. لكن هذا غير مهمّ. قسّم سيرته الذاتية إلى ثلاثة أجزاء، تحت عنوان - "الإيمان، الرجاء، المحبّة" هو يعمل الآن على فكرة عالم مُصمّم على هيئة مستشفى كبيرة وجميلة مع حدائق وأزهار حيث الأقوياء يكرّسون أنفسهم لتمريض الضعفاء".

صمت البروفيسور قليلاً.

"هل فهمتَ هذه الحماقة، أوسيبون؟ الضعفاء! مصدر كل شرّ على هذه الأرض!" تابع بثقته الشديدة. "أخبرتُه أني أحلم بعالم من الفوضى حيث الضعفاء في قبضة الإبادة التامّة".

"هل فهمتَ، أوسيبون؟ مصدر كل شرّ! إنهم سادتنا الأشرار - الضعفاء، اللّيّنون، السخفاء، الجبناء، الواهنون، والخانعون. لديهم سلطة. هم الأكثرية. لهم ملكوت الأرض. الإبادة! الإبادة! هي الطريقة الوحيدة للتقدّم. هذه هي الحقيقة! هل فهمتَ، أوسيبون؟ يجب أن يتمّ التخلّص من الأكثرية الساحقة من الضعفاء أوّلاً، وبعد ذلك القوي نسبياً فقط. هل ترى؟ العميان أوّلاً، وبعد ذلك الصّمّ والبُكم، وبعد ذلك العُرجان والمُقعدون - وهكذا. كلّ عار، كلّ رذيلة، كلّ تحيّز، كلّ عُرْف يجب أن يُلاقي هلاكه".

"وماذا يبقى؟!" سأل أوسيبون بصوت مخنوق.

"أنا أبقى، إذا كنتُ قوياً بما يكفي" أكّد البروفيسور الصغير الشاحب، ذو الأذنين الكبيرتين، الرقيقتين مثل الأغشية، والبارزتين على جانبي جمجمته الهشّة، اتّخذتا فجأة لوناً أحمراً غامقاً.

"ألم أعانِ أنا بما يكفي من ظلم الضعفاء؟" أضاف مكرهاً. نقر بعد ذلك على جيب صدر سترته: "وإلى الآن، أنا قوي" تابع. "لكن الوقت! الوقت! أعطني وقتاً! آه! تلك الأكثرية غبية جداً للشعور إما بالشفقة أو الخوف. أحياناً أظنّ أن كل شيء إلى جانبهم. كل شيء - حتّى الموت - سلاحي الخاصّ".

"تعال واشرب بعض البيرة معي في سيلينوس" قال أوسيبون القوي بعد صمت، تخلّله خفق سريع، خفق النعل الذي يرتديه الفوضوي المثالي. قَبِلَ أوسيبون العرض. كان مرحاً ذلك اليوم بطريقته الخاصّة. ربت على كتف أوسيبون.

"بيرة! فليكن! دعنا نشرب ونمرح لأننا أقوياء، وغداً نموت".

انشغل بارتداء حذائه، بينما كان يتحدّث بنبرته الجافة الحازمة.

"ماذا بكَ، أوسيبون؟ تبدو كئيباً، وطلبتَ زيارتي. سمعتُ أنكَ قد شوهدتَ مراراً في أماكن حيث الرجال يتفوّهون بأشياء حمقاء مع الكثير من كؤوس الخمر. لماذا؟ هل تخلّيتَ عن مجموعتكَ من النساء؟ هنّ الضعيفات اللواتي يغذّينَ الأقوياء - ايه؟".

ضرب بقَدَم واحدة على الأرض، والتقط حذاءه الآخر، الثقيل، سميك النعل، غير المصبوغ، المرتّق عدّة مرّات. وابتسم لنفسه بتجهّم.

"قل لي، أوسيبون، أيها الرجل الكريه، هل قتل أحدُ ضحاياكَ نفسَه من أجلكَ؟! - أم أن انتصاراتك لم تكتمل؟! - لأن الدم وحده يدل على العظمة!! الدم. الموت. انظر إلى التاريخ".

"اذهب إلى الجحيم" قال أوسيبون دون أن يدير رأسه.

"لماذا؟ دع هذا الأمل للضعفاء، دينهم اخترع الجحيم للأقوياء. أوسيبون، أشعر نحوك باحتقار سِلْمِيّ. أنت لا تستطيع أن تقتل ذبابة".

لكن في طريقه إلى مطعم سيلينوس على قمّة الحافلة فقد البروفيسور روحه المعنوية العالية. تأمُّل الجموع الذين غصّت بهم الأرصفة، حطّم قناعته تحت عبء الشك والقلق اللذين يمكنه التخلّص منهما فقط بعد فترة من العزلة في الغرفة مع الخزانة الكبيرة المغلقة بقفل هائل.

"إذنْ" قال الرفيق أوسيبون، الذي كان يجلس خلفه، من فوق كتفيه. "إذنْ هي أحلام ميكيلس لعالم يشبه مستشفى جميلة ومرحة".

"بالضبط. مؤسّسة خيرية هائلة لعلاج الضعفاء" وافق البروفيسور ساخراً.

"هذه سخافة" اعترف أوسيبون. "لا يمكنك علاج الضعفاء. لكنْ مع ذلك قد يكون ميكيلس ليس مخطئاً تماماً. في مئتي عام حكم الأطباء العالم. ساد العلم بالفعل. ربّما ساد في الظلّ - لكنه ساد. والعلوم كلها يجب أن تُتوَّج أخيراً بعلاج - ليس الضعفاء - لكنْ الأقوياء. الناس يرغبون في العيش، العيش".

"الناس" وافق البروفيسور مع لمعة ثقة بالنفس من إطار نظّارته المعدني، "لا يعرفون ماذا يريدون".

"لكنكَ تعرف ماذا تريد" تذمّر أوسيبون. "للتوّ، بكيتَ من أجل الوقت - الوقت. حسناً. الأطباء سوف يقدّمون لك المزيد من الوقت، أكثر ممّا ترغب - إذا كنتَ سليماً. افتخرتَ بأنكَ أحد الأقوياء - لأنكَ تحمل في جيبكَ موادّ كافية، لترسل نفسكَ، وقل عشرين آخرين، إلى الأبدية. لكن الأبدية ثقب ملعون. إنه الوقت الذي تحتاجه. أنتَ ... إذا قابلتَ رجلاً يمكنه أن يؤمّن لك عشر سنوات على وجه اليقين من الوقت، سوف تناديه سيدي".

"شعاري هو: لا ربّ! لا سيد!" قال البروفيسور بتكلّف وهو ينهض لينزل من الحافلة.

تابع أوسيبون. "انتظر حتّى ينتهي وقتكَ وتستلقي على ظهركَ" ردّ بحسم، وهو يقفز من موطئ العربة خلف البروفيسور. "قليلكَ الحقير، الرديء، الرثّ من الوقت" تابع، وهو يعبر الشارع، ويقفز بسرعة على حجر الرصيف.

"أوسيبون، أظنّ أنك مخادع" قال البروفيسور، وهو يفتح ببراعة أبواب سيلينوس الشهير. وعندما جلسا إلى طاولة صغيرة، توسّع أكثر في هذه الفكرة اللطيفة. "أنت لستَ طبيباً. لكنك مرح. فكرتكَ عن الإنسانية عموماً تتلخّص في إخراج اللسان، وتناوُل حبّة الدواء من قطب إلى قطب، بأمر من بعض المهرّجين الجادّين، هذه هي فضيلة النبوة. النبوة! ما الخير في التفكير بما سوف يوجد في يوم ما؟!" رفع كأسه. "لتدمير ما هو موجود" قال بهدوء.

شرب، وعاد إلى طريقته الغريبة في الصمت. فكرة وجود الجنس البشري بهذا العدد الهائل، بقدر رمال شاطئ البحر، عدد غير قابل للتدمير،

وصعب التعامل معه، سيطرت عليه. صوت تفجير القنابل سوف يضيع بلا صدى في هذا العدد الهائل لحبّات الرمل غير الفعّالة. على سبيل المثال، قضية ڤيرلوك. مَن يفكّر بها الآن؟

أوسيبون، كما لو أنه فجأة أُجبر من قِبَل قوّة غامضة، سحب العديد من الصحف المطويّة من جيبه. رفع البروفيسور رأسه عند سماعه حفيف الورق.

"ما هذه الصحف؟ هل فيها شيء؟" سأله.

أوسيبون كان مندهشاً مثل خائف سائر في نومه.

"لا شيء. لا شيء. هذه صحف قديمة منذ عشرة أيّام. نسيتُها في جيبي، كما أظنّ".

لكنه لم يرم الصحف القديمة بعيداً. قبل أن يُعيدها إلى جيبه، نظر إلى السطر الأخير للخبر. كان على النحو التالي: "لغز غامض، يبدو مُقدَّراً له أن يظلّ معلّقاً إلى الأبد على هذا الضرب من الجنون أو اليأس".

كانت هذه الكلمات في نهاية خبر عنوانه: "انتحار مسافرة من إحدى السفن في القناة" الرفيق أوسيبون كان على دراية بجماليات أسلوبهم الصحفي. "لغز غامض يبدو مُقدَّراً له أن يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد ...." حفظ كل كلمة عن ظهر قلب. "لغز غامض ...." والفوضوي القوي، يتدلّى رأسه على صدره، استغرق في فكرة خيالية طويلة.

هذا الخبر هدّد أسباب وجوده. لا يستطيع الاندفاع في غزواته المتنوّعة، اللواتي كان يتودّد لهنّ على المقاعد في حدائق كنسينغتون، واللواتي يلتقيهنّ بالقرب من قضبان السكك الحديدية، دون الخوف من بدء الحديث معهنّ عن "اللغز الغامض المقدَّر له أن ..." أصبح يخشى بشكل

علمي من جنون يتربّص له من بين هذه الأسطر. "يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد". كان هاجساً، عذاباً. لقد أخفق مؤخّراً في الحفاظ على العديد من تلك اللقاءات التي كانت تتميّز دائماً بثقة لا حدود لها بلغة المشاعر والحنان الذكورية. الميل إلى حسن الظنّ لدى النساء من طبقات اجتماعية مختلفة ترضي حاجة حبّه لذاته، وتضع بعض الوسائل المادّية في يده، يحتاجها للعيش. كانت هذه الوسائل موجودة. لكنْ إذا لم يتمكّن من الاستفادة منها، فإنه معرّض لخطر تجويع آماله وجسمه على حدّ سواء. ... "هذا الضرب من الجنون، أو اليأس...."

"لغز غامض" مؤكد أنه سوف "يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد" طالما كان الناس كلهم قلقين بشأنه. لكنْ ماذا لو كان هو الوحيد الذي لا يستطيع التخلّص من هذه المعرفة اللعينة للحقيقة من بين الناس كلهم؟ ومعرفة الرفيق أوسيبون كانت دقيقة مثل عمل رجال الصحافة - حتّى وصل إلى أعتاب "سرّ غامض، قُدِّر له أن يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد ..."

كان الرفيق أوسيبون حسن الاطّلاع. عرف ماذا رأى المُضيف في ممشى السفينة البخارية: "سيدة ترتدي ثوباً أسود، ووشاحاً أسود، تتجوّل في منتصف الليل بجانب رصيف الميناء. "هل عليك الذهاب بالسفينة، سيدتي" سألها بحماس. "من هنا" كان يبدو أنها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل. ساعدها في الصعود على متن السفينة. كانت تبدو ضعيفة.

وكان يعرف ما رأتْه المضيفة أيضاً: "سيدة وجهها أبيض، ترتدي ملابس سوداء، كانت تقف وسط صالون السيدات المغادرات" أقنعتْها المضيفة أن تستلقي هناك. بدت السيدة غير راغبة في الكلام تماماً، وكما لو أن لديها مشاكل فظيعة. بعد ذلك، عرفت المضيفة أنها قد خرجتْ من صالون السيدات. عندها ذهبت المضيفة إلى سطح السفينة للبحث

عنها، والرفيق أوسيبون يعلم أن المرأة الطيّبة عثرت على السيدة التعيسة جالسة على أحد المقاعد المزوّدة بغطاء. عيناها مفتوحتان، لكنها لا تريد الردّ على أيّ شيء يُقال لها. كانت تبدو مريضة جداً. استدعت المضيفة كبير المضيفين، والاثنان وقفا إلى جانب المقعد، يتبادلان الرأي حول المسافرة غير العادية والحزينة. تحدّثا بهمس مسموع (يبدو أنها قد سمعتْه) عن سانت مالو والقنصل هناك، عن التواصل مع معارفها في إنكلترا. ذهبا بعيداً بعد ذلك استعداداً لأخذها إلى أسفل، لأنهما عندما نظرا إلى وجهها بدا لهما أنها تحتضر. لكن الرفيق أوسيبون كان يعرف أن خلف ذلك القناع الأبيض من اليأس صراعاً مع الخوف والقلق، حبّ الحياة الذي يمكن أن يقاوم معاناة شديدة تدفع إلى القتل والخوف الأعمى، الخوف المجنون من حبل المشنقة. هو يعرف هذا كله. لكن المضيفة وكبير المضيفين لا يعرفان أيّ شيء عدا أنهما عندما عادا لها في أقلّ من خمس دقائق لم تعد السيدة التي ترتدي السواد موجودة على المقعد، ولا في أيّ مكان. اختفتْ. كان الوقت عندها الخامسة صباحاً، ولم يكن هناك حادثة. بعد ساعة واحدة عثر عمّال السفينة على حلقة الأرملة ملقاة على المقعد. أُلصقت في الخشب، بشيء من الرطوبة، وبريقها جذب عيون الرجال. كان هناك تاريخ ٢٤ يونيو ١٨٧٩ محفوراً في الداخل. "لغز غامض مُقدَّر له أن يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد...."

ورفع الرفيق أوسيبون رأسه المنحني، عاشق العديد من النساء المتواضعات من تلك الجزر، مثل أبولو - إله الشمس في إشراقة خصل شعره.

"ابقَ" قال أوسيبون على عجل. "قل لي، ماذا تعرف عن الجنون واليأس؟"

مرّر البروفيسور طرف لسانه على شفتيه الجافتين، الرفيعتين، قال بنبرة واعظة:

"لا وجود لمثل هذه الأشياء. العواطف كلها ضاعت الآن. العالم عادي، واهن، ضعيف. والجنون واليأس قوّة. والقوّة هي الجريمة في أعين الحمقى، الضعف والسخافة يهيمنان على كل شيء. أنت عادي. ڤيرلوك، الذي نجحت الشرطة في كتم قضيّته بدقّة متناهية، كان عادياً. والشرطة قتلتْه. كان عادياً. الجميع عاديون. الجنون واليأس! امنحني الجنون واليأس مع رافعة، وسوف أحرّك العالم. أوسيبون، مع كل الاحترام، أنا أحتقرك. أنت غير قادر حتّى على تصوّر أيّ اسم يطلقه المواطن المتخم على الجريمة. ليس لديك أيّ قوّة" صمت، وهو يتسم بطريقة ساخرة تحت البريق الشديد لنظّارته السميكة.

"ودعني أقلْ لك إن هذا الإرث الصغير الذي قالوا إنك حصلتَ عليه، لن يُحسّن ذكاءكَ. أنت تجلس إلى بيرتكَ مثل دمية. إلى اللقاء".

"هل تملكه؟" قال أوسيبون، وهو ينظر له مع ابتسامة حمقاء.

"أملك ماذا؟".

"الإرث. كله".

ابتسم البروفيسور الذي لا يقبل الرشوة. ملابسه على وشك أن تسقط منه، حذاؤه بشع مع تلك الترقيعات كلها، ثقيل كالرصاص، يسمح بدخول الماء فيه مع كل خطوة. قال:

"سوف أرسل لك بعد قليل ورقة حساب صغيرة لبعض الموادّ الكيميائية التي سأطلبها غداً. أنا بمساس الحاجة إليها. فهمت. ايه؟".

خفض أوسيبون رأسه ببطء. كان وحيداً. "لغز غامض...." بدا له مُعلَّقاً في الهواء أمامه، رأى دماغه يهتزّ على إيقاع لغز غامض. كان عقلاً مريضاً بوضوح ..... "هذا الضرب من الجنون واليأس....".

البيانو الأوتوماتيكي قرب الباب عزف فالس بفظاظة. ثمّ سكت فجأة، كما لو كان منزعجاً.

الرفيق أوسيبون، الملقّب بالدكتور، خرج من مطعم سيلينوس. تردّد عند الباب، طرفتْ عيناه عن أشعّة الشمس التي لم تُشرق تماماً بعد - والصحف مع أخبارها عن انتحار سيدة، كانت في جيبه. تحتها كان ينبض قلبه. انتحار سيدة - "هذا الضرب من الجنون واليأس...."

مشى على طول الشارع دون أن ينظر أين وضع قَدَمَيه، وسار باتّجاه طريق لا يوصله إلى مكان موعده مع سيدة أخرى (مربّية في حضانة، متوسّطة السّنّ، وضعتْ ثقتها في شبيه أبولو ذي الرأس المقدّس) كان يمشي بعيداً عنه. لا يستطيع مواجهة أيّ امرأة. كان هذا فظيعاً. لا يستطيع التفكير، ولا العمل، ولا النوم، ولا حتّى تناول الطعام. لكنه كان قد بدأ في الشرب بمتعة، بترقّب، بأمل. كان هذا فظيعاً. مسيرته الثورية التي دعمتْها مشاعر ووفاء الكثير من النساء كانت مهدَّدة بلغز غامض - لغز دماغ بشري يهتزّ على إيقاع العبارات الصحفية "... سوف يظلّ مُعلّقاً إلى الأبد على هذا الضرب... " انحرف إلى الشارع ... "من الجنون واليأس ..."

"أنا مريض جداً" همس لنفسه ببصيرة علمية. كان يسير مع مظهره القوي وأموال الخدمة السّرّيّة للسفارة (الموروثة من ڤيرلوك) في جيوبه. سار في الشارع كما لو كان في تدريب من أجل مهمّة لمستقبل لا مفرّ منه. قوّس كتفيه العريضين، رأسه من خصل شعر مقدّسة، كما لو كان مستعدّاً لارتداء نيل جلدي للوحة إعلانات مزدوجة. في مثل هذه الليلة

تماماً منذ أكثر من أسبوع، مشى الرفيق أوسيبون دون أن ينظر أين وضع قَدَمَيه، دون أن يشعر بالتعب، دون أن يشعر بشيء، دون أن يرى شيئاً، دون أن يسمع أيّ صوت. "لغز غامض ..." مشى دون أن يلاحظه أحد .... "هذا الضرب من الجنون واليأس....."

والبروفيسور الذي لا يقبل الرشوة، كان يمشي أيضاً، تتجنّب عيناه الأكثرية البغيضة من الناس. ليس لديه مستقبل. كان يحتقر المستقبل. كان هو القوّة. داعبت أفكاره صور الخراب والدمار. مشى ضعيفاً، متواضعاً، رثّاً، بائساً - ومرعباً في بساطة فكرته عن استحضار الجنون واليأس لتجديد العالم. لا ينظر له أحد. واصل سيره. دون أن يثير الشكوك حوله، قاتل مثل وباء في شارع مليء بالناس.

... انتهت ...

جوزيف كونراد

وُلد الكاتب البولندي جوزيف كونراد (Joseph Conrad)، أو جوزيف تيودور كونراد كورزينيوسكي في ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٨٥٧ في بيرديتشيف في بودوليا، في جزء من أوكرانيا الحديثة التي كانت تنتمي إلى المملكة البولندية قبل التقسيم الثاني لبولندا عام ١٧٩٣. بعد استقراره في إنكلترا، بدأ يكتب باللغة الإنكليزية، وحصل على الجنسية البريطانية في ١٨٨٦، لكنه كان يَعُدّ نفسه - دائماً - بولندياً. مع أنه لم يتمكّن من تحدُّث الإنكليزية - بطلاقة - حتّى أصبح عمره عشرين عاماً (مع لكنة واضحة). يُعَدّ كونراد سيد النثر الذي أدخل إحساساً غير إنكليزي إلى الأدب الإنكليزي. كتب عديداً من القصص والروايات. تناولت أغلب أعماله مواضيع متعلّقة بالبَحْرِيّة. كتب أول رواية له بعنوان: Almayer's Folly في عام ١٨٩٥ بعد أن تخلّى في سنّ السادسة والثلاثين عن عمله في البَحْرِيّة، وتفرّغ - تماماً - للكتابة.

يُعَدّ كونراد من المجدّدين الأوائل، رغم أن أعماله احتوت على عناصر الواقعية في القرن التاسع عشر. أسلوبه السردي وشخصيّاته غير البطولية أثّرت في عديد من الكُتّاب، منهم: إليوت، فوكنر، غرين، وأخيراً سلمان رشدي. استوحت عديد من الأفلام أفكارها من أعمال كونراد.

كتب في أوج الإمبراطورية البريطانية، جمع تجاربه الوطنية البولندية وتجاربه الشخصية في التجارة البَحْرِيّة الفرنسية والبريطانية ليؤلّف قصصاً

وروايات، عكست جوانب من عالم الهيمنة الأوروبية، بينما تستكشف العمق النفسي للإنسان. يعتمد كثيراً في سرده على ذاكرته الشخصية. نالت أعماله استحساناً من النقّاد في بداياته. يُنظَر إلى رواياته وقصصه على أنها تنبّؤية، في ضوء الكوارث الوطنية والدولية اللاحقة في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

توفيّ كونراد في ٣ آب ١٩٢٤، بمنزله في أوزولدز في بيشبسبورن، كينت، إنكلترا، ربمّا بسبب نوبة قلبية.